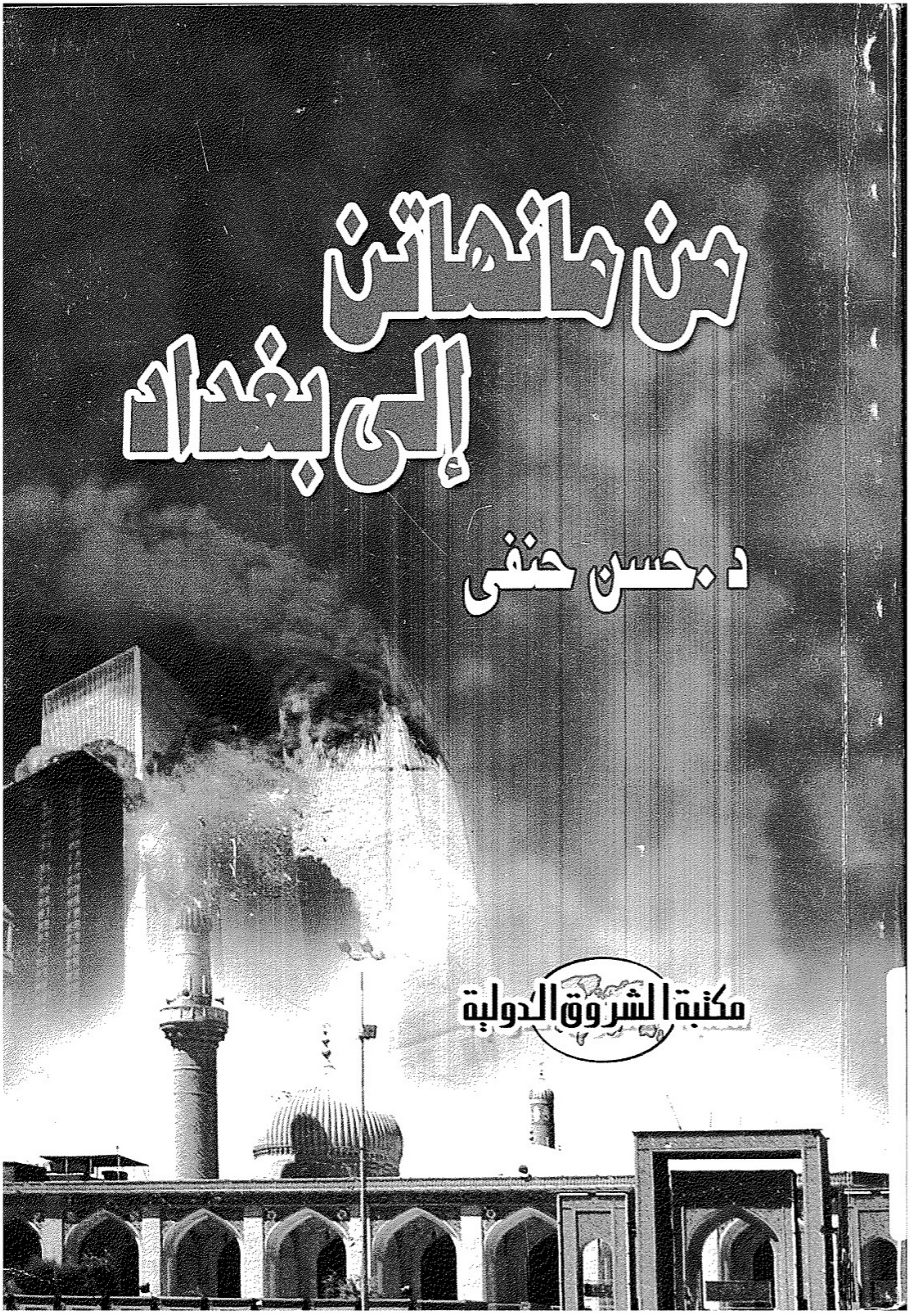
من مانهاتن إلى بغداد

د. حسن حنفي



مكتبة الشروق الدولية

من مانهاتن إلى بغداد

الطبعـــة الأولى

١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٤م

مكتبة الشروق الدولية

٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٩ - ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

من مانهاتن إلى بغداد

الدكتور: حسن حنفى

مكتبة الشروق الدولية

الإهـــــداء

إلى مدينة الفلوجة والشيخ أحمد ياسين..

رمزى المقاومة الوطنية فى العراق وفلسطين

حســن حنفــى

مدينة نصر يوليو ٢٠٠٤ م

مقدمة

الثقافة والسياسة والصحافة

تبدو السياسة أحيانًا فى مقالات عالمة من مراكز أبحاث متخصصة للنخبة وليست للجماهير، وللخاصة دون العامة، وكأننا فى جامعة أو فى بحث علمى موثق. وهى كتابة ترضى صاحبها، ويثبت من خلالها قدراته العلمية، وسعة اطلاعه، وقدرته على تعمق الأمور، وإقدامه على المسائل النظرية الخاصة. فهو عالم وليس صحفيًا، باحث وليس مجرد مثقف. كما أنه قد يتخفى وراء العلم لتجنب السياسة. ويحتمى خلف التحليل النظرى ليتفادى الممارسة العلمية. فالعالم شىء، والمناضل شىء آخر. فيقع الاستقطاب بين علم العلماء وعمل السياسيين. الأول علم بلا عمل، والثانى عمل بلا علم. العلم وسيلة، والعمل غاية. لذلك فرق القدماء بين علوم الوسائل وعلوم الغايات. وإذا كانت الثقافة فى المغرب تتغلب عليها علوم الوسائل قبل علوم الغايات، فإن الثقافة فى المشرق تعطى الأولوية لعلوم الغايات على علوم الوسائل.

إن علم السياسة هو الرصيد الأول لفلسفة السياسة، وفلسفة السياسة هى الأساس الأول للممارسة السياسية. والثقافة السياسية هى التى تربط بين فلسفة السياسة والممارسة السياسية عند الجماهير. وكما يتحول علم السياسة إلى فلسفة السياسة عند المفكر، تتحول الفلسفة السياسية إلى الممارسة السياسية عند المواطن، لا فرق بين هموم الفكر وهموم الوطن.

ففى وعينا القومى، السياسة ثقافة، والثقافة سياسة. والأحزاب السياسية فى

الوطن العربى اتجاهات ثقافية سياسية مثل الأحزاب الليبرالية أو القومية أو الاشتراكية أو الإسلامية. ونظرًا لأحداث العصر وأزماته، ونظرًا لارتباطنا بالموروث القديم الذى ما زال يصب فى الحاضر فإننا نرى الأحداث بمنظور الثقافة، العرب بين ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. قد تتحرك الناس بالسياسة وبدافع الأحداث الجسام مثل العدوان الأمريكى على العراق أو العدوان الصهيونى على الشعب الفلسطينى، ولكنهم يتحركون أيضًا دفاعًا عن الموروث الثقافى. ومن ثم يصبح المقال السياسى الجديد أداة لتوعية الجماهير والخروج بها من حالة الإحباط والعجز والتوقف واللامبالاة إلى حالة التفكر والفعل.

قد يحمى هذا النوع الجديد من التحليل السياسى الثقافة الوطنية من الوقوع فى الفراغ السياسى الذى تم ملؤه بالعواطف والانفعالات وثقافة المقاهى والأندية والعبادات الجديدة وأسواق المال ورجال الأعمال والتبعية لرأس المال، ثقافة الاستهلاك وأنماط الحياة الجديدة والمسلسلات التليفزيونية، والإعلانات التجارية، وصحافة الفضائح والمجلات الدينية.

كان المقال الثقافى السياسى هو حامل لواء النهضة العربية الحديثة، وكانت الصحافة صحافة رأى وليست صحافة خبر، ودارت معظم المعارك الثقافية والسياسية على واجهات الصحف. ولم يتخلف عن ذلك كبار المفكرين والأدباء والعلماء والساسة، قبل أن تصبح الصحافة ملك الدولة ولسان حالها. ويمكن أن يعود من جديد ليبدأ نهضة عربية ثانية تتجاوز أزمة العرب الحالية بين عجز النظم وسلبية الجماهير. يملأ الفراغ السياسى ويرشّد السلوك العملى، وحتى لا يبقى الغرب وحده المجتمع العقلانى الرشيد.

كما يستطيع المقال الثقافى الجديد أن يثير حواراً وطنيّا عامّا بين الاتجاهات الثقافية السياسية فى الوطن العربى بدلاً من الخطابات المتجاورة التى لا تفاعل بينها أو الخطابات المتصارعة التى يستبعد كلّ منها الآخر. ويصعب الحوار مع الخارج إن لم يتم الحوار فى الداخل أولاً. وقد تعثر الحوار العربى الأوروبى، والحوار العربى الأمريكى، بل والمفاوضات العربية الإسرائيلية؛ لأنه لم يتم طرح موضوعات

الحوار أولاً على الصعيد الداخلى من أجل خلق إجماع وطنى يقوى المفاوض العربى مع الطرف الخارجى.

قد ينجح المقال الثقافى السياسى فى تحقيق الأمن الوطنى الذى ما زال مطروحًا على الساحة العربية ومتروكًا لأجهزة الأمن وحدها. الأمن الثقافى هو الوسيلة لتحقيق الأمن السياسى. ولو عبرت التيارات الثقافية السياسية عن نفسها فى إطار من الشرعية وعلى نحو علنى فإنها لن تتحول إلى تنظيمات سرية تفرض وجودها على الحياة السياسية بالعنف، وتهدد الأمن الوطنى. كان الحوار الوطنى سنة القدماء، فقد حاور علىّ بن أبى طالب من خرجوا عليه. وأحضر عبد الله بن عباس رسول علىّ ثلاثة آلاف منهم إلى علىّ من جديد. ولفظ «الحوار» لفظ قرآنى أى تبادل الرأى والمشورة. وقد حاور الله إبليس واستمع إلى اعتراضه وسبب رفضه السجود لآدم، وقبل اعتراضه وطلبه الزمان من أجل غواية هذا الذى فضله الله عليه.

وإذا كنا قد عانينا فى نصف القرن الأخير من غياب الحوار الثقافى فى حياتنا العامة، بعد أن حكم كل فريق بمفرده مع استبعاد الرأى الآخر، وجنينا من ذلك الصراعات فى الداخل والهزائم فى الخارج، هزيمة يونيو - حزيران ١٩٦٧م، والحرب الأهلية فى لبنان منذ ١٩٧٥م، وحرب الخليج الأولى فى ١٩٧٩م، والثانية فى ١٩٩١م، وما زال الاقتتال مستمراً فى الجزائر منذ ما يقارب عشر سنوات فقد آن الأوان أن يتقدم القلم السيف، وأن يسبق العقل القوة، وأن تتغلب الحكمة على الإرادة. ومن ثم ندرأ عن أنفسنا تهمة المجتمع أحادى الطرف الذى يمتلك كل فريق فيه الحقيقة المطلقة. ويظل الغرب وحده هو الذى يزهو علينا بأنه هو المجتمع العقلانى الرشيد الذى يقوم على التعددية الفكرية والسياسية، والتى تنجلى فى الديموقراطية كأسلوب للحكم.

إن ما ضاع منا فى نصف القرن الأخير يمكن أن يعود عن طريق إعادة ترتيب البيت من الداخل قبل مواجهة الخارج. هكذا فعل صلاح الدين فى مقاومته الغزو

الصليبى القديم. وهو ما لم يفعله محمد على فانهارت دولته، ولا عبد الناصر فانقلبت اختياراته القومية والاشتراكية إلى نقائضها، القطرية والرأسمالية، وهو ما حاوله العرب منذ فجر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر، ولكنه كان حوار النخبة، وليس حوار الجماهير.

لذلك نستطيع هذه المرة فى النهضة العربية الثانية استئناف حوار النخبة وتحويله إلى الحوار الوطنى حتى نستطيع إقالة عثرتنا فى نصف القرن الأخير، وأن نبدأ هذه المرة بوضع الحصان أمام العربة، بدلاً من أن نضع العربة أمام الحصان، وإذا كنا قد بدأنا فى النهضة العربية الأولى بالمفكرين الأحرار فى النصف الأول من القرن العشرين، ثم بالضباط الأحرار فى النصف الثانى منه، فالأولى أن نبدأ فى النهضة العربية الثانية بالمثقفين الوطنيين الذين يجمعون بين الثقافة والسياسة، ويخاطبون المواطنين من خلال الثقافة السياسية التى تجمع بين هموم الفكر وهموم الوطن.

أولاً: سبتمبر وتدوين التاريخ

١ ـ الإرهاب المزدوج.

٢ ـ سبتمبر وتدوين التاريخ.

٣ ـ العرب وأزمة البحث عن المسار التاريخى الخالص.

٤ ـ صراع قوى أم صراع رؤى؟ الحادى عشر من سبتمبر فى الذكرى الأولى.

١ ـ الإرهـــاب المـــزدوج

١ ـ الإرهاب علاقة بين طرفين، طرف يمارس الإرهاب، وطرف آخر يقع عليه الإرهاب. وهى علاقة متبادلة وليست أحادية الاتجاه، طرف يمارس الإرهاب، وطرف يُمارس عليه الإرهاب على طول الخط. فالإرهاب متبادل بين الفاعل والمفعول، وفى علاقة جدلية بينهما، ومن ثم كان السؤال من يرهب من ؟ من الفاعل ومن المفعول ؟ من البادئ بالإرهاب، وما نتيجته؟ من الذى يرهب ومن الذى يقاوم؟ من الجانى ومن الضحية ؟ من المعتدى ومن المعتدَى عليه؟ .

٢ ـ والاتجاه الواحد فى العلاقات فى الثقافة الغربية لا يميز الإرهاب وحده بل ينطبق على باقى المفاهيم التى أفرزها الغرب فى السنوات العشر الأخيرة مثل العولمة والتى تعنى فقط توحيد المركز دون تفتيت الأطراف، وحقوق الإنسان التى تعنى فقط الفرد وليس الجماعة، الإنسان وليس الشعوب، وصدام الحضارات الذى يصف لحظة واحدة فى تفاعل الحضارات لحظة الصراع، وهى اللحظة الغربية، ويستبعد لحظات أخرى من حوار الحضارات مثل الحضارة الإسلامية فى الأندلس غربًا وفى بغداد والبصرة شرقًا ، والعالم قرية واحدة دون أن تذكر العوالم الثانية فى الغابات والصحارى، وجزر المحيطات، ونهاية التاريخ الخاص بالحضارة الغربية وسيادة الرأسمالية بعد سقوط الأنظمة الاشتراكية واستبعاد بداية التاريخ الذى تشعر به الشعوب فى أفريقيا وآسيا، فى الوطن العربى والعالم الإسلامى. فالغرب يستعمل المفاهيم التى ينتجها بمعنى واحد وفى اتجاه واحد. يعبر بها عن وجهة نظره

(*) مجلة الديموقراطية : العدد الخامس، يناير ٢٠٠٢م.

الأحادية، من المركز إلى الأطراف، ومن الأنا إلى الآخر، كنوع من النرجسية، وهى الحضارة التى تزهو بالتعددية، وتفخر بالرأى والرأى الآخر، وتعتز بالنسبية فى الأحكام فى الداخل، أما فى الخارج فهى تطلق الأحكام، وتتعصب لها. وتصبح من ملاك الحقيقة المطلقة أسوة بالأصوليين الذين تحاربهم وتتهمهم بالتعصب والإرهاب.

٣ - ومن مظاهر هذه الازدواجية فى مفهوم الإرهاب، عدم التمييز بين الإرهاب والمقاومة، الإرهاب عمل غير مشروع، محاولة قضاء طرف على الطرف الآخر، كما يفعل الكيان الصهيونى فى فلسطين، وروسيا فى الشيشان، والهند فى كشمير، وكما كان يفعل النظام الأبيض فى جنوب أفريقيا، وكل القوى الاستعمارية فى الشعوب المستعمرة. أما المقاومة فعمل مشروع من الطرف الثانى ضد الإرهاب الأول مثل المقاومة الفلسطينية فى الأراضى المحتلة، والمقاومة الوطنية للاحتلال الإسرائيلى فى جنوب لبنان، والمقاومة الشيشانية والأفغانية ضد الغزو السوڤييتى، والمقاومة فى البوسنة والهرسك وكوسوڤا ضد العنصرية الصربية، والمقاومة الكشميرية دفاعًا عن حق تقرير المصير لشعب كشمير، وكل حركات التحرر الوطنى إبان الحقبة الاستعمارية الغربية منذ القرن التاسع عشر، والتى بلغت الذروة فى الخمسينيات والستينيات فى القرن العشرين فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وكانت المقاومة حقًا مشروعًا فى الغرب ذاته فى فرنسا أثناء الاحتلال النازى، وفى أمريكا ذاتها ضد الاستبداد البريطانى. ونظرًا لأن المقاومة فى العصر الحديث عادة ما تكون للقوى المهيمنة، وهى القوى الغربية، اتهمت بالإرهاب والعنف وخرق حقوق الإنسان لتشويه المقاومة، والإبقاء على الهيمنة، مما يضطر المقاومة للدفاع عن شرعيتها أولاً قبل أن تقاوم الهيمنة الفعلية.

٤ - لذلك ميزت أدبيات العنف فى أمريكا اللاتينية بين «العنف القاهر Op-pressive Violence» و«العنف المحرر - Liberating Violence». الأول السبب، والثانى النتيجة. الأول الفعل، والثانى رد الفعل. الأول تمارسه الدولة والجيش وأجهزة الأمن والإقطاع، والثانى يحدث عند الفلاحين والعمال والمثقفين. ولما

كان العنف يكثر فى النظم التسلطية التى لا تسمح بحرية التعبير أو التنظيم كانت أية محاولة لمقاومتها توصف بالعنف. ولما كانت أجهزة القمع تمارس العنف بالسلاح قامت حركات المقاومة بالسلاح، عنفًا بعنف. ونشأت جيوش التحرير الشعبية والوطنية فى الجبال وخارج المدن أو الخلايا السرية المسلحة داخل المدن، كما حدث فى معظم دول أمريكا اللاتينية وأفريقيا، وفى الصين. والمقاومة السلمية والعصيان المدنى أحد أشكال المقاومة، تقوم على قوة الإرادة فى مواجهة السلاح، قوة الحق فى مقابل حق القوة. ويشهد التاريخ أن النصر باستمرار كان لصالح المقاومة والعنف المحرر ضد الهيمنة والعنف القاهر. وقام لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية بإعطاء الشرعية للعنف المحرر ضد العنف القاهر. القهر باسم الشيطان والتحرر باسم الله، وهو ما ظهر أيضًا عند سيد قطب فى «معالم فى الطريق» فى ثنائياته الشهيرة بين الله والطاغوت، الإيمان والكفر، الإسلام والجاهلية.

٥ ـ وعادة ما تُلصق تهمة العنف بالأفراد أو الجماعات أو التنظيمات السرية التى تلقى المفرقعات أو التى تقوم بالاغتيالات أو تدمير المبانى والمؤسسات العامة، ولا تلصق بالدول والنظم السياسية. الإرهاب الأول غير مشروع، بينما الإرهاب الثانى مشروع. الأول يعاقب عليه القانون، والثانى يسمح به القانون. الأول ضد الدستور، والثانى سياسة عليا Raison d'Etat. وهو حكم يأخذ صف الحاكم دون المحكوم، والقوى ضد الضعيف، والسجان وليس السجين. الأول مثل ما يفعله أفراد المقاومة الفلسطينية فى الأراضى المحتلة وفى جنوب لبنان، والثانى ما يقوم به الكيان الإسرائيلى. ومهما بلغت قوة إرهاب الأفراد فإنه أضعف بكثير من إرهاب الدول. إرهاب الفرد حيلة العاجز الذى لا سبيل أمامه للتعبير عن نفسه إلا الرفض العنيف. فى حين أن إرهاب الدولة إرهاب القادر عن التعبير عن نفسه فى نظم سياسية وأجهزة أمنية. وكما يمارس الأفراد الإرهاب فى الداخل والخارج، ضد النظام فى الداخل وضد النظام الدولى فى الخارج مثل حوادث سبتمبر الأخيرة، كذلك تمارس الدولة الإرهاب فى الداخل ضد مواطنيها وتمارسه فى الخارج ضد العاصين لها والخارجين عليها كما تفعل الولايات المتحدة فى أفغانستان، وما قد تفعله فى العراق واليمن والسودان وسوريا وجنوب لبنان والصومال، إرهاب

الأفراد حوادث متقطعة، وأفعال يائسة، وصرخات غضب، وحيلة العاجز. فى حين أن إرهاب الدول إرهاب منظم، ومستمر، ومن موضع قوة. وذلك مثل التمييز بين الجريمة العرضية كرد فعل انفعالى وقتى، والجريمة المنظمة مع سبق الإصرار والترصد.

٦ـ وهناك الإرهاب المرئى سواء إرهاب الأفراد أو إرهاب الدول، والإرهاب اللامرئى من الواقع السياسى والاجتماعى. الإرهاب المرئى، اغتيال، ومفرقعات، وانقلابات، من فاعلين لهم أفعال وأدوات على جسد الجريمة، ويمكن ضبطه ومحاكمته وإدانته عدلاً أو ظلمًا. أما الإرهاب اللامرئى فهو الوضع السياسى الذى يجد فيه المواطن نفسه منذ ولادته فى نظام سياسى لم يختره، ونظام تعليمى لم يُستشر فيه، وتراتب مهنى وجد نفسه فيه، وسياسات اقتصادية هو ضحيتها، ونظام إعلامى يؤدى إلى غياب الوعى، ونظام أجور لا يتناسب مع قيمة العمل ونوعه، وأحياء سكنية ولد فيها وتربى فى أزقتها دون أحياء راقية أخرى ولد فيها آخرون، ووطن ولون وبشرة وثقافة وتاريخ وجد نفسه فيه، وعليه أن يقبله ويتكيف معه. هذه كلها أشكال من الإرهاب اللامرئى تتراكم فى الوعى الفردى والجماعى وتضغط عليه. وفى غياب أشكال حرة للتعبير كالمنتديات والمنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية والصحافة الحرة، تنفجر فى النفس قبل أن تنفجر فى الآخر بالانتحار وهلاك النفس أو العنف وتدمير الآخر. الوضع الاجتماعى والسياسى هو الجذر الأول للإرهاب. فالإرهاب نتيجة وليس مقدمة، فرع وليس أصلاً، رد فعل وليس فعلاً، الثمار وليس البذور، الأوراق وليس الجذوع، القوة بلا عدل مصدر للإرهاب. والتفاوت بين الأغنياء والفقراء، واحتلال الأراضى والتآمر على وحدة الدول من أجل تفتيتها والعدوان عليها وفرض تبعيتها واستغلالها كل ذلك من مصادر الإرهاب، وللقضاء على الإرهاب يتحتم تغيير الواقع الاجتماعى والسياسى الذى يفرزه، والقضاء عليه من المنبت والمنبع والمنشأ والأساس.

٧ـ ومن أشكال الإرهاب المزدوج إرهاب الزمن الحاضر أو إرهاب الماضى. فالعدوان الأمريكى على شعب أفغانستان نموذج لإرهاب الحاضر باسم الدفاع عن

أسلوب الحياة الأمريكى والعالم الحر، والحداثة، والعلم، والتقدم، والمدنية، ويجد له مبرراته التى يقبلها الجميع. وهناك إرهاب الماضى الذى يلغى الزمن والتقدم بإرهاب الذاكرة، وإرهاب التاريخ كما هو الحال عند «أهل الكهف». فالقلة المؤمنة تغلب الكثرة الكافرة، والفئة القليلة تغلب الفئة الكبيرة، والحق يدحض الباطل، والإرادة تتحدى العقل، والماضى يتحدى الحاضر. يقاس الفرع الحاضر على الأصل الماضى للحصول على نفس النتيجة دون فرق فى الزمن بين مثال الماضى وواقع الحاضر. ولما كانت الكثرة مع الحداثة والعصر فتنحاز إليه فى مقابل انحياز القلة إلى الماضى. والأصل تعليم المرأة ضد وقرها فى البيوت، وعملها ضد سجنها داخل المنزل، والتقدم الاجتماعى ضد الأشكال الخارجية. لم ينته الماضى بل ما زال حيًا فى الذاكرة بديلاً عن الحاضر. وتقوى حجة المدافعين عن العصر، ويصبح المستقبل أيضًا بديلاً عن الحاضر، ويتم الصراع بين الماضى والمستقبل، والحاضر هو الضحية فى الحالتين.

٨ـ ومن أشكال العنف المزدوج العنف السلبى والعنف الإيجابى، العنف السلبى هو الإحساس بالعجز وقلة الحيلة، وضيق السبل. وهو الإحساس العام عند العرب إزاء العدوان الصهيونى، بالعجز والإحباط واللاحيلة، واغتيال قادة الانتفاضة، وقتل الأطفال والنساء والشيوخ، وهدم المنازل، وتجريف الأراضى، وطرد السكان. فيتحول هذا العجز وهو العنف السلبى إلى الانفجار عند بعض الأفراد أو الجماعات، إلى عنف إيجابى كما هو الحال فى حوادث سبتمبر الأخيرة فى نيويورك وواشنطن. وفى هذه الحالة يكون العنف الإيجابى تكفيراً عن خطايا العنف السلبى وخلاصًا منه، الأقلية التى تتحمل وزر الأغلبية.

٩ ـ وعندما يذكر الإرهاب فإنه يعنى الإرهاب الدينى عامة دون ذكر أنواع الإرهاب الأخرى من الأحزاب اليسارية وجماعات الرفض للوضع القائم التى تقوم على الفوضوية والاعتزاز بالحرية، مثل ثورة الشباب فى الغرب فى مايو ١٩٦٨م، وجماعات الثقافة المضادة والمعارضة لنظام العالم الجديد، العولمة، فى نهاية عصر الاستقطاب مثل مظاهرات سياتل وبراج وپاريس ولندن وجنوة ودافوس. فظروف

الإرهاب واحدة، فى الإرهاب الدينى، أو الإرهاب السياسى، رفض الوضع القائم، منع جماعات المعارضة من شرعية التعبير. لذلك لجأت الجماعات الدينية والأحزاب الشيوعية إلى العمل السرى. وتكونت الخلايا السرية بنفس الطريقة العنقودية. ويسقط الضحايا نتيجة للإرهاب الدينى والسياسى على حد سواء. فى الولايات المتحدة هناك الجماعات اليمينية المتطرفة التى وراء تدمير مبنى الحكومة الفيدرالية فى أوكلاهوما، ووراء اغتيال جون كنيدى ومارتن لوثر كينج، وغيره من نشطاء حقوق الإنسان. الإرهاب صناعة أمريكا، كما يبدو فى أفلام هوليود، إرهاب السرقة والقتل والتفرقة العنصرية والخبل والبحث عن البطولة، وجنون الإعلام. فبالرغم من وجود القانون إلا أن الشرطة قد تخرقه، وبالرغم من الدستور وإعلان الاستقلال والمساواة فى الحقوق والواجبات إلا أن سلوك «رعاة البقر» هو السائد فى كثير من مظاهر الحياة اليومية.

١٠ - ويعنى الإرهاب الدينى الإسلام وحده. فكل الإرهابيين مسلمون فى داخل العالم الإسلامى، فى الجزائر التى وصل ضحاياه فيها إلى مائة ألف قتيل، وفى مصر، حادثة الأقصر، وفى أفغانستان، تنظيم القاعدة، وفى كشمير. وهم الذين وراء حوادث نيويورك وواشنطن الأخيرة. ويتم اختزال الإسلام كله، حضارته وثقافته وعلومه وقيمه فى الإرهاب، مع أن العلوم الإسلامية كانت وراء نهضة الغرب الحديث. وأعطت العالم كله النموذج الأندلسى، العصر الذهبى اليهودى، والرشدية اللاتينية، العصر الذهبى للفكر الحر المسيحى فى العصر الوسيط المتأخر. أما الإرهاب الدينى المسيحى والإرهاب اليهودى فى حرق منبر المسجد الأقصى والرغبة فى هدمه، وإعادة بناء الهيكل، واحتلال القدس، ومنع المصلين من دخول الحرم الشريف فلا يكاد يسمى كذلك. لقد كان المسلمون ضحايا الإرهاب فى كشمير، وبورما وتايلاند والفيليبين وماليزيا قبل الاستقلال، وفى فلسطين مع إخوانهم المسيحيين. وما زالوا ضحيته فى ألمانيا وعند اليمين الفرنسى، وفى أمريكا بعد الحوادث الأخيرة، فكيف يكون ضحايا الإرهاب هم الإرهابيين؟ كيف يصبح الضحية هو الجلاد؟

١١ - إن الإرهاب لفظ قرآني له أيضًا معنى مزدوج، الخوف من الله والخوف من الإنسان، الأول معنى إيجابي؛ لأن الخوف من الله يؤدي إلى التقوى والالتزام بتعاليمه التي أرسلها في الكتب السماوية مثل التوراة، ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]. والإرهاب من الله يدفع إلى الوفاء بالعهد والالتزام بالوعد والحفاظ على المواثيق، ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]. ولا يخاف الإنسان إلا الإله الواحد دون غيره من البشر ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١]. ورهبة الله مثل الرغبة في نيل الرضوان، وهو سلوك الأنبياء الذي يرهبون الله وتدفعهم إلى التواضع أمامه وكما أمر الله موسى ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ [القصص: ٣٢]. تدفع الإنسان إلى المسارعة في الخيرات والمنافسة في فعل الخير ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ومن هذا المعنى اشتق لفظ رهبنة وراهب ورهبانية، فالراهب لا يستكبر ويتواضع أمام الله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢]، دون أن تتحول الرهبنة إلى مهنة وحرفة ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧]، ودون أن يصبح الرهبان طبقة متمايزة عن الناس، لها القوة والسيطرة، تخيف الناس فيعبدونهم من دون الله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، تستغل الناس وتفرض عليهم سلطانًا غير سلطان الله ﴿ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [التوبة: ٣٤].

والمعنى الثاني إرهاب الإنسان للإنسان، لما كانت العلاقات بين البشر صراعًا قويًا، يُرهب القويُّ الضعيفَ، والظالمُ المظلوم، ورجالُ فرعون الناس، ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]. وتكون حيلة الضعيف حينئذ الاستعداد وتقوية النفس لإرهاب العدو وردعه عن الظلم ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. الإرهاب الأول عدوان فعلي، والإرهاب الثاني قوة ردع تمنع من تحقيق الإرهاب الفعلي. ليس الإرهاب إذن هو الذي يقتل ويدمر ويهدم بل هو الذي يردع عن القتل والتدمير. فما من قوة إلا ويوجد أقوى منها.

١٢ ـ لا يمكن إذن القضاء على الإرهاب عن طريق الوعظ والإرشاد وبيان التسامح في كل دين والاحترام المتبادل الواجب في كل ثقافة بل عن طريق القضاء على جذور الإرهاب ومنعه من الأساس، وهي أوضاع الظلم والاضطهاد والمنع والحرمان لشعوب بأكملها مثل الشعب الفلسطيني أو لطوائف فيها مثل الحركات الإسلامية غير المصرح لها بالعمل العلني وتكوين أحزاب سياسية شرعية تعبر من خلالها عن مواقفها وآرائها أسوة بالأحزاب الليبرالية والقومية والماركسية. يمكن القضاء على الإرهاب إذن بإعادة تشكيل العلاقات الدولية على العدل وليس على القوة، وإعادة بناء العلاقات السياسية في الدول بين الحاكم والمحكوم على أسس ديموقراطية وليس على علاقات من طرف واحد، أوامر الحاكم وطاعة المحكوم.

* * *

٢- سبتمبر وتدوين التاريخ

إن طريقة تدوين التاريخ فى كل حضارة إنما تكشف عن الوعى التاريخى للمؤرخ الذى يكشف بدوره عن وعى الحضارة بذاتها. فالتاريخ هو وعى بالتاريخ، والوعى بالتاريخ هو التاريخ. فالتاريخ ليس الحوليات والسجلات والجداول والإحصائيات، تاريخ الحوادث، فالحوادث لها دلالات، ومسارها يخضع للقانون، والمؤرخ هو الذى يدرك هذه الدلالات ويكتشف هذا القانون.

ولكل تاريخ مساره. والمؤرخ هو الذى يعى هذا المسار، وتتحدد المراحل باللحظات الحاسمة فى التاريخ، الحوادث الكبرى، المعارك الفاصلة، الانقلابات العسكرية والسياسية، ميلاد القادة العظام أو موتهم. ويتم ذلك عن طريق تحويل التاريخ إلى تجارب حية يعيشها المؤرخ وكأن التاريخ حياته، وكأن حياته هى التاريخ. فلا فرق بين تاريخ العالم والسيرة الذاتية، تاريخ العالم الكبير وتاريخ العالم الصغير بتعبير إخوان الصفا ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

ويصدق التاريخ عندما يدونه المؤرخ بوعى المؤرخ لمساره. يكون فيه، ولا يضع نفسه فى مسار تاريخى آخر؛ ليدون تاريخه الخاص إذ يحدث ذلك أحيانًا بسبب الاغتراب الثقافى الذى يؤدى أيضًا إلى الاغتراب التاريخى. فالمؤرخ ابن عصره وزمنه وتاريخه. ولا يعى التاريخ إلا إذا التزم به باعتباره استمرارًا لحياته الماضية والمستقبلة. منتميًا إلى شعب، وفردًا فى أمة واحدة، ووعيًا فرديًا يتبلور فيه الوعى الجماعى. فالمؤرخ ليس فقط مدركًا للتاريخ، بل هو أيضًا فاعل فيه، وليس فقط منظرًا له بل هو أيضًا عامل وسطه.

(*) جريدة الاتحاد: ١ يونيو ٢٠٠٢م، جريدة الزمان: ٨ فبراير ٢٠٠٢م.

ولا يصدق التاريخ عندما يدونه المؤرخ بوعى تاريخى آخر، هو الوعى التاريخى الشائع طبقًا للحضارة السائدة فى العصر مثل الحضارة الغربية اليوم التى أصبح تاريخها ومراحلها هما تاريخ كل الحضارات الأخرى ومراحلها، باسم التاريخ الشامل أو التاريخ الكلى، أو التاريخ الإنسانى أو التاريخ الكونى. فترد كل المسارات التاريخية إلى مسار واحد، وتختزل كل الحضارات الإنسانية فى حضارة واحدة، حضارة الغالب، فالغلبة تصنع التاريخ. والسلطة هى التى تدونه ضد خصومها ولصالحها. فالتاريخ سلطة الزمان الممتد من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل. والمؤرخ هو الذى يقوم بصياغته وتنميطه حتى يتم توجيه الوعى التاريخى للشعوب طبقًا لتوجهات السلطة السياسية. فالسلطة تصنع التاريخ، والمؤرخ إرادتها النظرية.

ومن ثم فإن اعتبار ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر الماضى فى نيويورك وواشنطن بداية تاريخ جديد للولايات المتحدة الأمريكية أو للعالم أجمع هو نوع من وضع المؤرخ العربى نفسه فى مسار غيره. ربما كان ذلك صحيحًا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التى ضربت لأول مرة من داخلها، وعلى غير ما تتوقع وبأيسر السبل وأسهلها، ودون أقل تكلفة، وبخيال علمى واسع، بعد أن انتظرت العدو من الخارج ومن وراء السحب، تعد نفسها لحرب النجوم وتحمى نفسها بدرع الصواريخ. فالحادى عشر من سبتمبر تاريخ فارق بين من يقف ضد الإرهاب ومع الولايات المتحدة، ومن يقف مع الإرهاب ضد الولايات المتحدة. قبل هذا التاريخ كانت تريد السيطرة على العالم على استحياء، وتحت غطاء منظمة التجارة العالمية، واقتصاد السوق، والعولمة. وبعد هذا التاريخ تسيطر على العالم بالفعل عن طريق الغزو على بعد آلاف الأميال. وتضع قدميها فى وسط آسيا. وتؤسس قاعدة عسكرية لها فى قازقستان، وتحاصر الصين وروسيا فى الجنوب، واليابان وكوريا وهونج كونج من الغرب، وماليزيا وإندونيسيا من الشمال، والعراق من الشرق، وتستقر على منابع بحر قزوين. وتصنف الدول كلها طبقًا للإرهاب. من معها فهو جزء من التحالف الأمريكى الغربى، ومن لا يدخل فى التحالف، فهو مع الإرهاب، وتخطب الدول المهددة ودها خوفًا منها باستثناء العراق وإيران.

أما بالنسبة لنا فالحادى عشر من سبتمبر هو صرخة ضد الصمت العربى والإسلامى تجاه الانتفاضة الفلسطينية الثانية منذ التاسع والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٠م. هو نتيجة وليس مقدمة، رد فعل وليس فعلاً، معلول وليس علة. فالمؤرخ العربى عندما يدون التاريخ بوعيه التاريخى فإنه يؤرخ للعالم بالانتفاضة الثانية، انتفاضة الاستقلال بعد أن أتت الانتفاضة الأولى، انتفاضة الحرم الأقصى، بأوسلو. هو بداية العدوان الأمريكى العلنى والمفضوح على العالم الإسلامى باسم الإرهاب، وإطلاق يد الكيان الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى، والتحالف مع الهند من الشرق وإسرائيل من الغرب للإطباق على باكستان، والاستعداد لغزو العراق أو جنوب لبنان أو سوريا أو السودان أو الصومال، وإعلان أن المقاومة الفلسطينية إرهاب، وأن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية إرهابى. أما عدوان الكيان الصهيونى على الشعب الفلسطينى فهو دفاع عن النفس. الحادى والعشرون من سبتمبر هو صرخة الألم بعد طول تحمل، وإثبات وجود العرب والمسلمين بعد طول غياب، وانفجار فوهة بركان يغلى من الداخل. هو بالنسبة لنا قسمة العالم إلى فسطاطين، ظالم ومظلوم، معتد ومعتدى عليه، غنى وفقير، قوى وضعيف، مركز ومحيط، غرور وذل، سيد وعبد، متبوع وتابع.

لقد تعود العرب من قبل على وضع أنفسهم فى مسار غيرهم حتى اغتربوا عن تاريخهم، وخرجوا على مسارهم، وعاشوا فى المسار التاريخى للعدو الذى يحاربونه وهو الغرب الاستعمارى. يأخذون منظوره، ويتبنون رؤيته للتاريخ. والأمثلة على ذلك كثيرة.

فنحن ننتسب إلى حضارة عربية إسلامية منذ خمسة عشر قرنًا، بدأت بتاريخ الهجرة. وقبلها كان التاريخ بعام الفيل أو بغيره من الأحداث الكبرى فى شبه الجزيرة العربية مثل حلف الفضول. ثم جاءت الهجرة، واقترح عمر تدوين التاريخ الإسلامى بها؛ نظراً لأنها بداية النصر من مكة إلى المدينة، بالرغم من اجتهاد بعض القادة المعاصرين بجعلها مولد الرسول، تحولاً من الرسالة إلى الشخص، وأسوة بالتاريخ الميلادى المسيحى بمولد السيد المسيح بالرغم من الاختلاف النظرى بين

الاثنين، إنسانية محمد الذى كان رجلاً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾[الفرقان: ٧]، ومعجزة السيد المسيح (كلمة الله وروح منه) ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

ثم قبلنا وضع تاريخنا فى مسار التاريخ الغربى، من القديم اليونانى الرومانى إلى الوسيط اليهودى المسيحى إلى الحديث العقلانى العلمى. وأصبحنا طبقًا لهذا التحقيب الغربى فى العصر الوسيط اليهودى المسيحى. وتم تعميم كل الأحكام التى صدرت على العصر الوسيط على حضارتنا الإسلامية مع أنها ليست فى العصر الوسيط تنطبق عليها أحكامه بأنها المرحلة المظلمة الدينية الكهنوتية التسلطية التابعة للفلسفة القديمة اليونانية والرومانية. فى حين أن الحضارة الإسلامية لها مسارها الخاص، العصر الذهبى الأول الذى نشأت وتطورت وبلغت الذروة فى أواخر القرنين الثالث والرابع الهجرى قبل أن تخبو منذ القرن الخامس بعد قضاء الغزالى على العلوم العقلية وتجريم المعارضة وتأييد السلطان والقول بالشوكة دون البيعة، ثم تبدأ فى الأفول فى القرنين السادس والسابع الهجريين وهى المرحلة التى أرّخ لها ابن خلدون. وهى تقابل العصر الوسيط الأوروبى. وشتان ما بين المسارين، المسار الإسلامى حيث قامت الحضارة على العقل والعلم وحقوق الإنسان كما تمثلتها مقاصد الشريعة، والتعددية الفكرية والسياسية كما ظهرت فى مختلف الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية والتيارات الفلسفية والطرق الصوفية ومدارس التفسير بالأثر أو بالرأى. أما العصر الحديث فى الغرب فهو الذى يقابل لدينا عصر الشروح والملخصات، العصر المملوكى العثمانى، عصر التدوين الثانى اعتماداً على الذاكرة دون العقل، وعلى النقل من الداخل دون الإبداع، وعلى اجترار الماضى دون التفاعل مع الحاضر أو الإعداد للمستقبل. وقد أوشكت هذه المرحلة على الانتهاء ببداية حركات الإصلاح الدينى منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان بالرغم من تعثرها، وظهور الاستقطاب الحالى بين السلفية والعلمانية، وهو ما أراد الإصلاح تجاوزه فى حركات التجديد الإسلامى. كما أوشكت العصور الحديثة فى الغرب على الانتهاء بظهور التيارات العدمية وما بعد الحداثة والتفكيكية ومقالات أفول الغرب وأزمة العلوم الأوروبية، وبرودة الدافع الحيوى، وقلب القيم.

ويحدث نفس الشيء عندما يقال اكتشاف العالم الجديد أى أمريكا فى ١٤٩٢م وكأن نصف الكرة الغربى لم يوجد قبل وصول الرجل الأبيض، مع أنها من منظور هندى القضاء على السكان الأصليين واستئصالهم، وخطف الأفريقيين من غرب أفريقيا عبر الأطلنطى واستعبادهم لتعمير الأرض فى الزراعة وشق الطرق. وهو بالنسبة لنا سقوط غرناطة ونهاية الحكم الإسلامى فى الأندلس فى ٨٩٨هـ ١٤٩٢م، بعد وفاة الشاطبى صاحب الموافقات بما يزيد على القرن عام ٧٩٠هـ.

ويقال الحرب العالمية الأولى١٩١٤-١٩١٨ م وهى بالنسبة لنا هزيمة الدولة العثمانية وتقطيع العالم الإسلامى إلى أجزاء توزع على الدول الغربية المنتصرة. وما يسمى بالحرب العالمية الثانية ١٩٤٠-١٩٤٥م هى بدايات حركات التحرر الوطنى فى البلاد المستعمرة، والقضاء على الاستعمار الأوروبى. وما يسمى عصر العولمة هو بالنسبة لنا عصر ضعف الدولة الوطنية وريثة حركات التحرر الوطنى، الدولة التابعة أو الدولة الرخوة التى سهل ابتلاعها من جديد فى نهاية عصر الاستقطاب وبداية العالم ذى القطب الواحد.

الوعى بالتاريخ إذن هو شرط كتابة التاريخ، والوعى بمراحل التاريخ هو وعى بمسار التاريخ الخاص بكل حضارة. فإذا كان سبتمبر الماضى بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية هو بداية عصر ما قبل الإرهاب وما بعد الإرهاب، فإنه بالنسبة لنا نهاية عصر الخوف والتبعية واستمرار المقاومة الفلسطينية كخيار وحيد مستمر بعد الانفجار.

* * *

٣ـ العرب وأزمة البحث عن المسار التاريخى الخالص

إن خطورة مثل هذا الاقتران «الإسلام والعولمة» أننا نضع أنفسنا فى مسار تاريخى لسنا فيه. وأيضًا عندما يقال التحول من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين أو من الألفية الثانية إلى الألفية الثالثة نضع أنفسنا فى المسار التاريخى لغيرنا، ونترك مسارنا التاريخى الخاص لنقص فى الوعى التاريخى ومعرفة فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟

وتتعدد مسارات التاريخ بتعدد الشعوب. فالشعوب كلها لا تعيش مساراً تاريخيًا واحداً إلا مسار الحضارة الأقوى مثل الحضارة الغربية التى حقبت مسار تاريخها الخاص إلى قديم ووسيط وحديث ووضعتنا فى الوسيط مع أنها فترة الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى الأول عندما كان النقل يتم منها إلى غيرها، عندما كان علماء الإسلام وحكماؤهم معلمين للغرب فى العصر الوسيط. لكل حضارة تحقيبها الخاص للتاريخ، تؤرخ اليابان لمسارها التاريخى ابتداء من اعتلاء الإمبراطور العرش. وتؤرخ فارس القديمة بعصر قورش والعصر البطولى. وتؤرخ روما أيضًا بفترة حكم قيصر. وأرخ العرب قبل الإسلام بعام الفيل، وبعد الإسلام بالهجرة.

ويرتبط التحقيب بمدى عمق التاريخ. فمثلاً يمكن تحقيب تاريخ مصر إلى مصر القديمة ومصر اليونانية الرومانية، ومصر القبطية ومصر الإسلامية. وفى كل حقبة يمكن التمييز بين مراحل جزئية. مصر الإسلامية يمكن تحقيبها فى ثلاث مراحل. الأولى القرون السبعة الأولى، حيث كانت الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى

(*) جريدة الاتحاد: ٢٧ يوليو ٢٠٠٢م، جريدة الزمان: ٩,٨ يوليو ٢٠٠٢م.

الأول، وذروتها القرن الرابع عصر البيروني والمتنبي والحسن بن الهيثم. وانتهت بظهور ابن خلدون فى القرن الثامن والذى أرَّخ لها مبينًا كيف نشأت، ولماذا انهارت. ثم نشأت فترة ثانية من القرن الثامن حتى القرن الرابع عشر سبعة قرون أخرى، عصر الشروح والملخصات والموسوعات الكبرى. حفظنا بالذاكرة ما عجزنا عن إبداعه بالعقل، واجتررنا القديم كما يفعل جمل الصحراء إذا ما أعوزه الخصب. وهو العصر المملوكى التركى العثمانى، والذى انتهى بحركات الإصلاح الدينى وسقوط الخلافة. ومنذ قرنين من الزمان ونحن على أعتاب فترة ثالثة، ربما لسبعة قرون أخرى من الرابع عشر إلى الواحد والعشرين، ونحن نحاول النهوض من جديد منذ فجر النهضة العربية الأول. ومررنا بتجربتين. الأولى الليبرالية فى النصف الأول من القرن العشرين، والتى انتهت بالثورات العربية الأخيرة. وكانت صدمة الحداثة نقطة تحول من الفترة الثانية إلى الثالثة، والتى صاغها شكيب أرسلان فى سؤال: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

وفى تحقيب تاريخى حديث يمكن رصد المسار التاريخى فى تحقيب ثلاثى كذلك. كنت مستعمراً ثم تحررت من الاستعمار ثم عاد الاستعمار من جديد فى شكل العولمة. وفى تحقيب حديث آخر مررنا بفجر النهضة العربية الأولى، والتى بلغت ذروتها فى ثورة ١٩١٩م وانتهت بثورة ١٩٥٢م، وهو ما يعادل عصر الاستعمار. ثم بدأت الفترة القومية الاشتراكية العربية حتى هزيمة يونيو - حزيران ١٩٦٧ م وهو ما يعادل عصر التحرر. ثم بدأت فترة ثالثة أوشكت على الانتهاء بمخاض جديد لم يتشكل بعد وهو معاصر للعولمة وهو ما يعادل عصر عودة الاستعمار.

وللغرب فى عصوره الحديثة مساره التاريخى أيضًا، من الليبرالية الرأسمالية فى السابع عشر إلى الثورة الفرنسية فى الثامن عشر إلى الاشتراكية فى التاسع عشر إلى أزمة القرن العشرين وبداية النهاية. بل إن لكل مذهب مراحله. فالاشتراكية مثلاً مرت بثلاث مراحل: من الاشتراكية الطوباوية إلى الاشتراكية العلمية إلى الاشتراكية الجديدة. وكل المذاهب الغربية فى العصور الحديثة لها هذا التحقيب

الثلاثى من العقلانية إلى الحسية إلى العقلانية الجديدة، من الصورية إلى المادية إلى الصورية المادية، من المثالية إلى الواقعية إلى الواقعية الجديدة، من الكلاسيكية إلى الرومانسية إلى الرومانسية الجديدة أو الكلاسيكية الجديدة، من الليبرالية إلى الاشتراكية إلى الليبرالية الجديدة أو الاشتراكية الجديدة، من الذاتى إلى الموضوعى إلى الذاتى الموضوعى. ومن ثم اكتملت العصور الحديثة من بدايتها فى القرن السابع عشر «أنا أفكر فأنا إذن موجود» إلى نهايتها فى القرن العشرين «أنا أفكر وأنا موضوع التفكير»، من «الكوجيتو ـ Cogito» عند ديكارت إلى «الكوجيتاتوم ـ Cogitatum» عند هوسرل.

إن الغرب نفسه يعيش فى صراع حاد الآن بين أنصار العولمة وخصومها بعد مظاهرات دافوس وسياتل وبراج ولندن. وربما هناك حركة اشتراكية وليدة قادمة يقودها العمال والمثقفون كما قاد العمال فى روسيا الثورة الاشتراكية الكبرى فى ١٩١٧م، والمثقفون مظاهرات الشباب فى الغرب كله فى١٩٦٨م، وربما تنشأ المنافسة القاتلة بين الدول الغربية والولايات المتحدة، أو بين اليابان والدول الغربية أو بين الدول الغربية نفسها. فالقومية لم تنته بعد من فرنسا أو ألمانيا بالرغم من السوق الأوروبية المشتركة والاتحاد الأوروبى والعملة الواحدة والبرلمان الموحد والحدود الموحدة. وعند المتشائمين ربما العولمة هى آخر وهج قبل أن تنطفئ الشمعة وتنتهى العصور الحديثة كما بدأت منذ خمسة قرون ثم تبدأ دورة جديدة لحضارات البشر. وكما بدأت «روح التاريخ من الشرق إلى الغرب» فقد تعود من الغرب إلى الشرق من جديد، ماراً بالمنطقة العربية الإسلامية مرتين، فى الذهاب والإياب. ربما نحن الآن فى عصر «أفول الغرب»، كما يقول اشبنجلر وهوسرل و«ريح الشرق» كما يقول (جوزيف نيدهام وأنور عبدالملك).

وفى نفس الوقت تتوحش العولمة مستندة إلى العالم ذى القطب الواحد وقدراته الاقتصادية والعسكرية والحصار والغزو والتهديد. ويتم التركيز على العالم العربى والإسلامى؛ لأن احتمال القطب الثانى قد يظهر منه. فأمريكا اللاتينية ما زالت ترزح تحت المخدرات والجريمة والنظم التسلطية، ولم يعد جيفارا يعيش فى

الوجدان أو يثير الخيال. وآسيا مشغولة بنهضتها الاقتصادية، اليابان والصين وكوريا وماليزيا وإندونيسيا مؤجلة إرادتها السياسية فيما بعد. لذلك يتم التركيز على الوطن العربى فمازال تراثه حيًّا يأبى الاستعمار والتبعية. وما زال يناضل فى فلسطين ضد آخر مظهر من مظاهر الاستعمار بعد أن تحررت جنوب أفريقيا. وهو قادر بإمكانياته المادية والبشرية، وعوائد النفط، والسكان، والأسواق، والقدرات التكنولوچية، والعقول المهاجرة أن يكون قطبًا ثانيًا أمام القطب الأول كما كوَّن منذ باندونج كتلة عدم الانحياز فى عصر الاستقطاب.

إذا كان اقتران «الإسلام والعولمة» يكشف عن مسارين تاريخيين متمايزين للأنا والآخر، نحن والغرب فما طبيعة اللحظة الراهنة التى يلتقى فيها هذان المساران؟ ما الموقف الحضارى الذى تعيش فيه الأنا فى علاقتها مع الآخر حتى تصبح «واو» العطف بينهما صيرورة تاريخية، وليست مجرد ربط بين جوهرين ثابتين.

إن الأنا الآن تعيش فى مثلث متساوى الأضلاع أقرب إلى السجن المثلث الزوايا أو إلى القيد فى المعصمين والقدمين. تعيش حالة من الحصار فى الزمن، بين الماضى والحاضر والمستقبل. تتحرك فى المكان لشدة الحصار. وهى ثلاث معارك متزامنة حتى لا تفك قيدًا وتقع فى قيد آخر، وتستبدل سيدًا بسيد. وتختلف القيود الثلاثة فى العمق التاريخى والارتفاع الرأسى. فبينما القيد الأول، وهو التراث القديم أكثر عمقًا فى التاريخ، أربعة عشر قرنًا أو يزيد، فإن القيد الثانى التراث الغربى أقل منه، قرنان من الزمان منذ صدمة الحداثة مع الغرب. والقيد الثالث أقل من القيدين الأولين؛ لأنه الحاضر الذى لا يعيشه أحد. يتمرد عليه علنًا أو يتسلل إليه أو يأتيه من أسفل سرًا أو يهاجر منه قطيعة. الأول أكثر حضورًا لدى الجماهير، والثانى لدى النخبة. والثالث ليس حاضرًا فى ذهن أحد؛ لأنه يدفع إلى الفرار والنسيان. الأول نص قديم، والثانى نص حديث، والثالث واقع إليهم لم يتحول بعد إلى نص والمطلوب كتابته. هذا هو حصار الزمن بين الماضى والمستقبل والحاضر الذى لم تستطع الذات العربية حتى الآن الفكاك منه، وإن كانت الخلخلة قد بدأت منذ فجر النهضة العربية الحديثة حتى أدمت المعصمين والقدمين.

الحاجز الأول التراث القديم الذى تحول إلى مخزون نفسى عند الجماهير من خلال الثقافة الشعبية. نشأ فى عصر الانتصار ونحن الآن فى عصر الهزيمة، فى عصر الفتوحات ونحن الآن فى عصر الانكسارات. وربما أحد أسباب انتكاسات النهضة العربية وهزائم الأمة المتتالية هو أننا نحارب بالبدن دون الروح، باليد وليس بالعقل، بالسلاح وليس بالثقافة. ولا يقوى البدن إلا بسلامة الروح. والروح فى حاجة إلى إعادة بناء. هم رجال ونحن رجال، نتعلم منهم ولا نقتدى بهم. والاجتهاد أصل من أصول التشريع، والتقليد ليس مصدراً من مصادر العلم. إعادة بناء الموروث القديم طبقًا لظروف العصر، وإعادة الاختيار بين البدائل القديمة، وإبداع بدائل جديدة إذا صعب السؤال وعظمت المواجهة. ففى الكلام يتم التحول «من العقيدة إلى الثورة»، وفى علوم الحكمة «من النقل إلى الإبداع»، وفى علم أصول الفقه «من النص إلى الواقع»، وفى علوم التصوف «من الفناء إلى البقاء»، وفى العلوم النقلية «من النقل إلى العقل». فى علوم القرآن «من الوحى إلى التاريخ»، وفى علوم الحديث «من نقد السند إلى نقد المتن»، وفى علوم التفسير «من التفسير الطولى إلى التفسير الموضوعى»، وفى علوم السيرة «من الشخص إلى المبدأ»، وفى علوم الفقه «من فقه العبادات إلى فقه المعاملات». بهذه الطريقة يتم التحول من العصر الذهبى الأول للحضارة الإسلامية إلى العصر الذهبى الثانى، وبدلاً من أن تصبح الذات عبداً للقديم تصبح سيداً له.

والقيد الثانى الانبهار بالغرب والتبعية له واعتباره نمطًا أوحد للتحديث، نموذجًا للثقافة العالمية، تجربة يُحتذى بها، ولا داعى لتكرار ما جربه الغرب، وضرورة اختصار الزمن واللحاق بالقرن العشرين، والقطيعة مع الماضى والاقتران بالمستقبل. فيزداد تغريب النخبة ويحدث رد فعل طبيعى فى محافظة الجماهير دفاعًا عن الهوية. ومنذ فجر النهضة العربية منذ قرنين من الزمان والنموذج الليبرالى الغربى ما زال حالاً فى تياراته الفكرية الثلاثة: الإصلاحى الذى يبدأ من الدين، والعلمى العلمانى الذى يبدأ من الطبيعة والمجتمع، والليبرالى الذى يبدأ من الدولة. البداية مختلفة، والنتيجة واحدة. بل إن المدارس الفكرية التى حاولت الجمع بين الموروث والوافد أخذت المنهج أو المذهب من الوافد والموضوع من

والموروث، الروح من الوافد والبدن من الموروث مثل المثالية المعتدلة (الطويل)، والجوانية (عثمان أمين)، والشخصانية الإسلامية (الحبابى)، والماركسية العربية (العروى)، والإنسانية والوجودية (بدوى). وهى لعبة المرآة المزدوجة التى بدأت منذ الطهطاوى فى «تخليص الإبريز» رؤية الأنا فى مرآة الآخر، والآخر فى مرآة الأنا. وهى ما زالت مستمرة بالرغم من التباعد بين الوافد والموروث فى عصر الاستقطاب الثقافى. والسؤال هو: هل يمكن التحرر كلية من هذا القيد وتحويل الغرب فى وعينا الثقافى والعلمى من كونه مصدراً للعلم كى يصبح موضوعًا للعلم، وأن يقضى على أسطورة الثقافة العالمية، وأن تنتهى عقدة النقص لدينا منه وعقدة العظمة فيه علينا، وأن نصف تاريخيته، بدايته ونهايته، تكوينه وبنيته، ثقافته وعقليته فيما يمكن تسميته «علم الاستغراب» عندما يتحول الغرب إلى موضوع ونحن إلى ذات كما حولنا الغرب إلى موضوع وهو ذات فى علم الاستشراق، وأن يصبح الملاحظ ملاحظًا، وهو الأنا، والملاحظ ملاحظًا وهو الغرب، تبادلاً للأدوار وربما صراعًا للقوى من خلال علاقة الذات العارفة بموضوع المعرفة، إكمالاً لحركة التحرر العربى على المستوى الحضارى؟

والقيد الثالث هو الحاضر، الواقع الذى نعيش فيه، وكيفية تنظيره تنظيراً مباشراً، وإدراك الموروث القديم المخزون فيه من أعماق التاريخ، والوافد الغربى الحديث الذى تلقاه منذ فجر النهضة العربية، كيف يتفاعلان فيه من أجل فهمه وتغييره فالحاضر هو الممر من الماضى إلى المستقبل. يحط الماضى فيه، وينطلق المستقبل منه. وهو الأساس الذى يبنى عليه القديم والحديث على حد سواء لفك شفرته والإقلال من موانع تقدمه ودوافع تطوره. يتحول الواقع إلى نص جديد وإلى ميدان للفعل. كيف يمكن الدخول فى الواقع دون الهروب منه تحت الأرض أو الهروب منه خارج الأرض والتمرد عليه أو الانخراط فيه فوق الأرض. كيف تصاغ أولوياته وقضاياه، تحرير الأرض، تحرير المواطن، العدالة الاجتماعية، وحدة الأمة، التنمية المستقلة، الدفاع عن الهوية، وحشد الجماهير، وإبداع فلسفة الأرض وثقافة التحرر، وفقه العدالة الاجتماعية، وأصول وحدة الأمة، وحديث التنمية المستقلة، وتوحيد الهوية، وتصوف ثورة الجماهير ضد اللامبالاة والفتور.

لم التقليد دون الإبداع؟ ولا فرق بين تقليد السلفيين ونقل العلمانيين إنما الخلاف فى جهة النقل والتقليد، القدماء أم المحدثون. كلاهما أصولى يهرب من الحاضر وينزع إلى الماضى أو إلى المستقبل. كلاهما يحارب بعضه بعضًا ، كل فريق يعتبر نفسه الفرقة الناجية، المخلص والإمام والمهدى المنتظر. كلاهما يقول بالحاكمية، حاكمية الله أو حاكمية الأيديولوچية، ليبرالية أو قومية أو ماركسية. والمفاتيح السحرية لا وجود لها. وإن وجدت فليست بيد أحد.

إنما هو الاجتهاد، سبر الوعى التاريخى وتحقيب مساره، وتحديد أعماقه مع نقاء الضمير والطهارة الثورية، الإخلاص للنفس، والوعى بالعالم، ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

* * *

٤ ـ صراع قوى أم صراع رؤى؟

الحادى عشر من سبتمبر فى الذكرى الأولى

ما زال الكثيرون يجعلون ١١ سبتمبر ٢٠٠١م حدًا فارقًا فى التاريخ ما قبل الحدث وما بعده حتى أنه كاد أن يغطى على الحربين العالميتين، الأولى١٩١٤ ـ ١٩١٨م والثانية١٩٤٠ ـ ١٩٤٥م. صحيح أن هذه الأحداث أثرت فى العالم، ليس فقط فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى آسيا أو فى الوطن العربى، فالعراق هو الثالث بعد أفغانستان وفلسطين باسم الحرب ضد الإرهاب ولكنها تعبر عن صراع قوى، بين القطب الواحد، الولايات المتحدة الأمريكية، واحتمال صعود قطب ثان من آسيا أو من العالم الإسلامى، المنطقة العربية الآسيوية، باندونج القديمة بعد حوالى نصف قرن. وصراع القوى يعبر فى الحقيقة عن صراع رؤى. فالرؤية هى التى تحدد الممارسة. والإدراك هو الذى يمهد للسلوك.

وبقدر ما تتعدد القوى تتعدد الرؤى. فالحدث نفسه، ١١ سبتمبر مثلاً يعبر عن صراع قوتين، قوة معلومة هى الولايات المتحدة الأمريكية وقوة مجهولة تناوؤها، وتعاملها بنفس المنطق، منطق القوة، فلا يفل الحديد إلا الحديد. وكل قوة تستعمل عناصر مقوماتها، القوة العلنية تستعمل الآلة العسكرية والاقتصادية والإعلامية، والقوة السرية تستعمل المفاجأة وضرب رموز الهيمنة الاقتصادية (منظمة التجارة العالمية)، والعسكرية (البنتاجون)، والسياسية (البيت الأبيض) بطائرات مدنية مختطفة ومن حيث لا ينتظر العدو الذى تعود على مواجهة القوى الكبرى والاستعداد بالصواريخ العابرة للقارات والصواريخ المضادة للصواريخ وحرب النجوم.

(*) جريدة الزمان: ٩ سبتمبر ٢٠٠٢م.

والكل يتذكر ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى نيويورك وواشنطن، ولا أحد يتذكر ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م بداية الانتفاضة الفلسطينية الثانية، الانتفاضة المسلحة، انتفاضة الأقصى، انتفاضة الاستقلال. تركناها بمفردها على مدى عام، تهديم المنازل، وتجريف الأرض، وقتل الأطفال، والتصفية الجسدية للنشطاء أمام العجز العربى، العجز الكلى للنظم والتحركات النسبية للشعوب، فكان لا بد من أحد كى يصرخ ويعترض، أنين عال بصوت مدو يسمعه الجميع. فسبتمبر الثانية رد فعل على سبتمبر الأولى. سبتمبر نيويورك وواشنطن رد فعل على سبتمبر جنين ورام الله وطولكرم ونابلس والخليل.

فما دلالة ١١ سبتمبر فى ذكراه الأولى باعتبارها حدثًا يعبر عن صراع قوى، كما يعبر صراع القوى عن صراع رؤى؟ وهل يمكن أن يتكرر طالما أن صراع القوى ما زال مستمراً وأن الرؤى لم تتغير، رؤية كل طرف للآخر؟ وهل فى التاريخ القريب أو البعيد ما يشهد باستمرار هذا الصراع أو بتخفيف حدته وعودة الثقة إلى الأطراف المتصارعة؟

ففى التاريخ القريب وبعد حركات التحرر من الاستعمار بدأت موجات الحوار وأشكاله المختلفة بين المستعمر القديم والمتحرر الحديث، بداية بحوار الأديان حتى يتوارى الإسلام كعنصر من حَركات المقاومة وأحد روافد حركات التحرر الوطنى فى المغرب العربى كله وفى شبه الجزيرة العربية. وكانت المبادرات باستمرار من الغرب من أجل بيان الاتفاق بين الإسلام والمسيحية فى القيم مثل المحبة والسلام واحترام الآخر من أجل إخفاء حدة الصراع بين الغرب والإسلام تمهيداً لأشكال أخرى من الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية.

ثم استُؤنف حوار الأديان فى حوار الحضارات بعد حوادث سبتمبر الماضى بعد مقالة هنتنجتون الشهيرة التى كان الهدف منها أيضًا إخفاء صراع المصالح، والإعلان عما مارسه الغرب عمليًا منذ عصوره الحديثة والالتفات حول العالم القديم من البحار والمحيطات بعد أن فشل غزو القلب من داخل البحر الأبيض المتوسط إلى فلسطين أثناء الحروب الصليبية. فاحتل نصف الكرة الغربى، وتم

القضاء على السكان الأصليين واستئصالهم ومن بقى منهم فى محميات كموضوعات للسينما والمتاحف وتاريخ الفنون والأنثروپولوچيا. احتلها البريطانيون والفرنسيون والإسپان والبرتغاليون وكل الهاربين والخارجين على القانون والمضطهدون فى الغرب القديم. وتم الالتفاف حول أفريقيا بعد احتلال سواحلها واصطياد عشرات الملايين من سكانها عبيداً إلى نصف الكرة الغربى لتعميره. وأصبحت أفريقيا أنجلوفونية وفرانكفونية، وضاع احتمال وجود لغة واحدة للقارة السمراء، السواحيلى أو الزولو. وحدث نفس الشىء فى آسيا عندما قضت بريطانيا على إمبراطورية المغول فى الهند، وقضت على أول تجربة وحدوية فى جنوب آسيا(أى توحيد الهند قبل الاستعمار الجديد). وشعر المسلمون فى آسيا كالمسلمين فى أفريقيا بأنهم مهددون ثقافة ولغة وتراثا ومصالح وأمة. وما زال هذا الإحساس يتراكم يومًا بعد يوم حتى انفجر فى سبتمبر الماضى وما زال قادراً على الانفجار مرات أخرى وبأشكال متعددة.

واستمر الحوار بعد ذلك باسم حوار الشرق والغرب فى عصر الاستقطاب، وانتهى بانتهائه بعد أن أصبح الشرق جزءاً من الغرب. انتهى حلف وارسو وأصبح جزءاً من حلف الأطلنطى، وأصبحت أوروپا ممتدة من الأطلنطى حتى الأورال. ثم بدأ حوار الشمال والجنوب كحوار بين «الطرشان»، الشمال يريد استغلال الجنوب كأسواق وعمالة ومواد أولية، والجنوب يود استكمال حركات تحرره الوطنى فى فلسطين وكشمير وسبتة ومليلة بالإضافة إلى المشاركة فى ثروات العالم تعويضاً له عن قرون الاستعمار.

ثم بدأت مبادرات لأشكال أخرى من الحوار مثل الحوار المتوسطى لإدخال إسرائيل كطرف فيه، وإزاحة القومية العربية التى تشمل دولاً غير متوسطية مثل دول شبه الجزيرة العربية والعراق والسودان والصومال وموريتانيا، ولربط نصف الوطن العربى بالغرب باسم البحر الأبيض المتوسط، ثقافة وتاريخًا وجواراً فى حين يرتبط النصف الآخر بآسيا وأفريقيا وتقضى على وحدة الوطن العربى. ثم هناك الحوار الشرق أوسطى الذى يهدف أيضًا إلى إدخال إسرائيل طرفًا فيه باعتبارها دولة شرق

أوسطية مع إيران وتركيا وقبرص واليونان. ومن ثم يتم القضاء على القومية العربية كوحدة قومية وعلى الإسلام كأمة واتساع جغرافى وعمق تاريخى.

وقد وقعت حوادث سبتمبر الماضى بعد مؤتمر ديربان الأخير، حيث رفضت الولايات المتحدة الاعتذار أو التعويض لاصطياد الملايين من أفريقيا عبيداً لتعمير نصف الكرة الغربى. كما رفضت مع إسرائيل مساواة الصهيونية بالعنصرية، ومعاداة الولايات المتحدة وإسرائيل لشعوب العالم كلها ممثلة فى المنظمات غير الحكومية. كان الجو مشحوناً بين الولايات المتحدة والعالم كله.

واستعادت الذاكرة أجواء الستينيات والعدوان الأمريكى على شعب ڤيتنام وحركات التحرر الوطنى فى ذروتها. وأصبحت العولمة شبحًا جديداً يقلق الشعوب، وتعبر عن أحد أشكال الهيمنة للمركزية الأوروبية. ورموزها منظمة التجارة العالمية، البيت الأبيض، البنتاجون، البنك الدولى، صندوق النقد الدولى، الشركات العابرة للقارات، مجموعة الثمانى كمؤسسات مالية واقتصادية باسم ثورة الاتصالات، والعالم قرية واحدة، واقتصاد السوق، ونهاية التاريخ، والديموقراطية والمجتمع الحر والليبرالية، مع استخدام المنظمات الدولية كغطاء شرعى للعدوان على الشعوب.

نشأ لدى شعوب العالم الثالث، والشعوب الإسلامية فى قلبها إحساس بالظلم والامتهان والعجز أمام هذا «الشيطان الأكبر» بتعبير الثورة الإسلامية فى إيران. وبدأ استقطاب جديد ينشأ بين المستكبرين- وعلى قمتهم الولايات المتحدة الأمريكية- والمستضعفين وفى أدناهم المسلمون. وأصيب الغرب بالغرور، غرور القوة والاستعلاء فى الأرض، واختالوا مرحًا. وانقسم العالم فسطاطين: فسطاط العدوان والكبر والظلم، وفسطاط المعتدى عليه والعجز وضياع الحقوق. وفى نفس الوقت يتم تبرير العدوان بمعايير مزدوجة تقوم على النفاق والادعاء الكاذب. ففى نفس الوقت الذى يتم فيه العدوان على الشعوب لتخليصها من النظم التسلطية يتم تدعيم النظم التسلطية ضد الشعوب إذا ما كانت هذه النظم موالية للغرب. وتوصف المقاومة الفلسطينية بأنها إرهاب، والعدوان الإسرائيلى على شعب

فلسطين دفاع عن النفس. ويلصق الإرهاب بالدين، والدين هو الإسلام، ولا يوصف العنف الأيرلندى بأنه إرهاب دينى، أو العنف فى منطقة الباسك أو فى الهند ضد المسلمين خاصة فى كشمير بأنه إرهاب. أصبح الإرهاب، إرهاب الأمراء وليس إرهاب الدول. والمجتمع الأمريكى من البداية إلى النهاية قام على الإرهاب والاستئصال والجماعات الدينية والسياسية المتطرفة مثل جماعة «ويكو» التى حرقتها أمريكا والجماعات الرافضة للفيدرالية التى دمرت المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما.

وبعد سقوط المنظومة الاشتراكية واختفاء العدو الأحمر وراء «الستار الحديدى» ونهاية النظم «الشمولية» حاول الغرب إيجاد عدو جديد يبرر عدوانه عليه وتنشيط المجتمع الصناعى العسكرى. فوجده فى الإسلام فى أوروبا الشرقية بدعوى تهديد الهوية الأوروبية وعدم السماح لقيام دولة إسلامية فى أوروبا، يكفيه تركيا فى جناحها الأوروبى، استانبول وريثة القسطنطينية. ولا يريد مسلمين مهاجرين فى أوروبا يهددون الهوية العنصرية البيضاء فى ألمانيا وفرنسا فى تصاعد اليمين الأوروبى. والإسلام ما زال يقاوم فى إيران الثورة، وفى فلسطين المقاومة، وفى جنوب لبنان المحررة، وفى الجمهوريات الإسلامية المستقلة فى أواسط آسيا، وفى النهضة الصناعية لماليزيا وإندونيسيا حيث الإسلام هو الهوية الوطنية والباعث على التقدم والنهضة. فتحول الإسلام إلى عدو متوهم بديل عن الشيوعية والنظم الشمولية. فالإسلام هو الإرهاب والعنف والتخلف والقهر والسفه والخرافة إلى آخر ما تروجه أجهزة الإعلام الغربية وكتب المدارس والأعمال الأدبية المسموعة والمرئية من صور سلبية للعرب والمسلمين. ويصرح به أحيانًا قادة الغرب فى ما يسمى بزلات اللسان. أصبح كل المسلمين «طالبان»، وكل القادة «أسامة بن لادن»، وكل النظم الإسلامية «القاعدة»، وكل مظاهر الحداثة المرأة المحجبة وراء الأسوار. ونسى الغرب أن هذا الإسلام هو أيضًا وراء الحضارة الإسلامية الزاهرة وما أبدعته من علوم رياضية وطبيعية ترجمها الغرب من العربية إلى اللاتينية مباشرة والقليل منها عبر العبرية بحروف عربية وكانت وراء نهضته الحديثة. وهو ما زال باقيًا فى غرناطة وأشبيلية وقرطبة وطليطلة وبيزنطة وجنوب إيطاليا وصقلية.

والإسلام التقليدى هو الغالب على الحركة الإصلاحية المعاصرة، وما يتعلمه الطلاب فى الجامعات الدينية مثل الأزهر والقرويين والزيتونة والإمام وديوباند فى الهند. وهو إسلام حرفى نصى تعبدى شعائرى من حيث السلوك الفردى وجهادى نضالى مقاوم من حيث الجماعة. وهو الإسلام الذى حملته العمائم فى أفغانستان والذى رعته «القاعدة». والحقيقة أنه الإسلام الذى حافظ على الهوية فى لحظات الضعف. فالانغلاق على الذات أحد وسائل الدفاع عن النفس ضد مخاطر الاغتراب فى الغير. هو الإسلام الذى ما زال يعطى الأمة حياتها وبقاءها على مدى التاريخ. وربما يكون هو المرشح لأن يقوم بدور القطب الثانى فى مواجهة القطب الأول بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. فهو ما زال حيّا فى القلوب. لم يقطع المسلمون مع تراثهم القديم كما قطع الغرب. وما زال المسلمون يتساءلون عن ماضيهم الزاهر وكيفية استعادته، ومستقبلهم وكيفية الوصول إليه، وحاضرهم وكيفية الخروج من المأزق الراهن، الاحتلال والقهر والفقر والتجزئة والتبعية والتغريب واللامبالاة.

لذلك سيظل التوتر بين الإسلام والغرب قائمًا طالما هناك إحساس بالظلم والإحباط عند المسلمين، وبالتفوق والعظمة فى الغرب. يعيش كلاهما على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، الغرب فى الشمال، والإسلام فى الجنوب. إذا قوى الشاطئ الشمالى امتد إلى الجنوب، كما كان الحال فى العصر اليونانى الرومانى والغرب الاستعمارى الحديث، وإذا قوى الشاطئ الجنوبى امتد إلى الشمال، كما كان الحال فى أيام الفتوحات الأولى حين انتشر الإسلام فى الأندلس وجنوب إيطاليا وصقلية ومالطة. وإذا كان الغرب الآن فى أزمة قيم، وكان الإسلام هو الدين الثانى فى أوروبا فهل يستطيع الإسلام أن يعود إلى الانتشار من الجنوب إلى الشمال ليس فقط عن طريق الهجرات العربية، ولكن عن طريق القيم الإسلامية التى يحتاجها الغرب ويتحول إلى الإسلام من أجلها، التعاون، والروحانية، والمساواة بين البشر؟ هذا هو تحدى المستقبل بالنسبة للإسلام والغرب، أن يقدم الإسلام نفسه باعتباره منقذًا لإفلاس القيم فى الغرب، وأن يقدم الغرب نفسه

للإسلام باعتباره صديقًا متساويًا معه فى شراكة تتكافأ فيها الأطراف. كان الغرب معلمًا للإسلام مرتين، فى العصر اليونانى الرومانى، وفى العصر الحديث. وكان الإسلام معلمًا للغرب مرتين، فى بدايات عصر النهضة الأوروبى، وربما الآن بما يمكن أن يمده الإسلام للغرب من قيم جديدة. فهل يأتى عصر قادم يتعلم الإسلام والغرب، كل منهما من الآخر، معلمين ومتعلمين متكافئين، دون النموذج الأحادى، المعلم الأبدى والتلميذ الأبدى الذى يعبر عن المركزية الأوروبية الحديثة، وثنائية المركز والأطراف؟

* * *

ثانيًا: العدوان على أفغانستان

١ـ تحدى أفغانستان لتراثها.

٢ـ تحدى أوروپا لدورها.

٣ـ تحدى الولايات المتحدة لنفسها.

٤ـ تحدى مصر لمركزيتها.

٥ـ تحدى العرب لنضالهم.

٦ـ تحدى المسلمين لوحدتهم.

٧ـ تحدى آسيا لمستقبلها.

٨ـ تحدى فلسطين لاستقلالها.

٩ ـ هل يقع الانفجار؟

١٠ـ متى يقع الانفجار؟

١١ـ كيف يقع الانفجار؟

١ـ تحدى أفغانستان لتراثها

١ ـ وقد دلت الأحداث الأخيرة أيضًا على تحدى أفغانستان لتراثها الذى أصبح موضوع السخرية والتندر فى أجهزة الإعلام الغربية، وتشويه صورة الإسلام الذى طالما دافعت عنها الحركات الإصلاحية الحديثة منذ الأفغانى وحتى سيد قطب قبل «معالم فى الطريق»، وربما كان الأفغان ضحية هذا التراث المطمور فى بطون الكتب القديمة، شروحها ومتونها وتخريجاتها، بعد أن قضى الغزالى على العلوم العقلية فى منتصف القرن الخامس، ودعا إلى التصوف طريقًا إلى الله، وكتب للحاكم أيديولوچية السلطة فى «الاقتصاد فى الاعتقاد» وقدم للناس أيديولوچية الطاعة فى «إحياء علوم الدين». الحاكم مدى الحياة، قادر عالم حى سميع بصير متكلم مريد، يشارك الله فى الصفات، وعلى الناس الصبر والخوف والخشية والتوكل والورع والزهد والرضا والغيبة والخشية والفقر. كفر المعارضة العلنية بالرأى فى الداخل مثل المعتزلة، والمعارضة العلنية بالسلاح فى الخارج مثل الخوارج، والمعارضة السرية الباطنية عن الشيعة. وانتصر لحاكم بغداد القوى نظام الملك الذى أسس له «المدرسة النظامية» كفقيه للسلطان ولمزاولة إعلام الدولة. وجرح البيعة، كمؤشر على الضعف والتشتت. وشَرَّع أخذ الحكم بالشوكة أى بالقوة المسلحة والانقلاب. وهو أول من أضاف حديث الفرقة الناجية فى آخر كتب العقائد فى خاتمة فيما يجب تكفيره من الفرق. ففرق الأمة كلها هالكة، وهى فرق المعارضة، وفرقة واحدة هى الناجية، فرقة الدولة والحكم. الأشعرية فى العقيدة هى الصواب، وكل الفرق الكلامية على خطأ. والشافعية فى الفقه هى الصواب وكل المذاهب الفقهية الأخرى على خطأ. واستمرت هذه الأحادية عبر ألف عام حتى صبت فى حكم الطالبان.

(*) جريدة الزمان: ديسمبر ٢٠٠١م.

٢ ـ ثم حاولت الحركات الإصلاحية الحديثة فى العالم الإسلامى بريادة جمال الدين الأفغانى النهوض من جديد، الإسلام فى مواجهة الاستعمار فى الخارج، والقهر فى الداخل. ونجحت فى بعث الأمة وطرد المحتل، وإنهاء التسلط والطغيان. ثم أدى فشل البعض منها، مثل الثورة العرابية فى مصر التى أدت إلى احتلال مصر من الخارج، بريطانيا، والانقلابات الداخلية فى أفغانستان وإيران التى أدت إلى مزيد من الطغيان فى الداخل، إلى الخوف من الثورة المسلحة ومواجهة السلطان، وتحولت إلى حركة إصلاح سلمية طويلة الأمد على يد محمد عبده، إصلاح اللغة العربية، والمحاكم الشرعية، ونظم التعليم، وإعادة بناء الثقافة الموروثة. ولما استولى مصطفى كمال على الحكم فى تركيا، وانقض حزب الاتحاد والترقى، وتركيا الفتاة، على السلطة باسم العلمانية الغربية، خشى رشيد رضا تلميذ محمد عبده أن يتكرر ذلك فى باقى العالم الإسلامى فارتد سلفيًا، الفعل يولد رد الفعل، والتطرف العلمانى ينتهى إلى تطرف سلفى. ولما أراد حسن البنا إحياء مشروع الأفغانى وإكمال أيديولوچيته الثورية التى حاول صياغتها بتأسيس الحزب الثورى الذى لم يكن لديه الوقت ولا الاستقرار لبنائه، أسس حسن البنا جماعة «الإخوان المسلمين» للقيام بهذا الدور، وكانت جزءًا من الحركة الوطنية فى الأربعينيات، وناضلت من أجل تحرير فلسطين منذ ١٩٤٨م، وما زالت حتى الآن، وكانت أحد مكونات الثورات العربية الحديثة فى مصر واليمن وسوريا والعراق. ثم اصطدمت بها بعد ذلك، كما حدث فى مصر فى ١٩٥٤م بعد نقدهم لاتفاقية الجلاء بين عبد الناصر وبريطانيا والتى كانت تسمح لبريطانيا بالعودة إلى منطقة قناة السويس فى حالة الحرب، وصراعًا على السلطة الشرعية لرغبة كل طرف فى الاستئثار بالسلطة كلها. وخسر الإخوان، ودخلوا السجون وعذبوا. ومن آلام التعذيب كتب سيد قطب « معالم فى الطريق» الذى يقسم العالم طبقًا لنفسية السجين البرىء إلى فسطاطين: الإيمان والكفر، الله والطاغوت، الإسلام والجاهلية، الأقلية المؤمنة، الجيل القرآنى الفريد والأغلبية الكافرة، حزب الله وحزب الشيطان. ولا وجود لأحدهما إلا بنفى الآخر فى علاقة صراع أبدى، ومن هذا الوضع النفسى الاجتماعى خرجت معظم جماعات التكفير منذ حرب التحرير

الإسلامى وجماعة الجهاد، أيدهم السادات أولاً للقضاء على العدو المشترك، عبد الناصر والناصرية، وأخرجهم من المعتقلات. وبعد الصلح مع إسرائيل والارتماء فى أحضان الغرب والولايات المتحدة انقلبوا عليه وتخلصوا منه، وهربوا لمواصلة الجهاد فى البوسنة والهرسك وكوسوڤا والسودان واليمن والشيشان وأفغانستان.

٣ ـ ولما كانت صورة الإسلام منذ ظهوره فى الغرب ممثلاً فى الإمبراطورية الرومانية الوثنية ثم فى الغرب الصليبى الغربى الوسيط، ثم فى الغرب الاستعمارى الحديث صورة سلبية: العنف، والقتل والاغتيال، والتسلط والطغيان، واللذة الجنسية والمرأة والحريم وتعدد الزوجات وحجب المرأة وحريم السراى وختان النساء، والجهل والتعصب ورفض الآخر والتوكل والرضا والقضاء والقدر والكسل والخوف، والنميمة والغيبة والخداع ونقض العهود وعدم الوفاء، وظهور بعض هذه الصور فى الاستشراق التقليدى وفى أنثروبولوچيا الثقافة الحديثة، عادت الحركات الإسلامية المعاصرة الغرب دفاعًا عن الإسلام حتى ولو كان تقليدًا، تمسكًا بالهوية والتقاليد. ولما انتشر النموذج الغربى فى العالم الإسلامى باسم العلمانية حدث مزيد من رد الفعل عليها تجاه السلفية. فالعلمانية والسلفية نقيضان. الأولى اختيار النخبة الحاكمة فى معظم البلدان الإسلامية، والثانية اختيار الجماهير. ولما خرجت الحركات الإسلامية من قلب الجماهير أتت سلفية مدافعة عن تراث الأمة وهويتها واستمرارها عبر التاريخ. ورأت صورة الإسلام فى الغرب صورة مشوهة صنعها الغرب من أجل معاداة الإسلام، وخلق عدو وهمى له، ورث الإمبراطورية الرومانية، وقاوم الغزو الصليبى، وقام بأكبر حركة تحرر وطنى ضده، وقضى على الاستعمار الحديث، وما زال ينقد ثقافته وقيمه وأشكال هيمنته الجديدة ومنها العولمة.

٤ ـ ولما انتصرت حركة الجهاد الإسلامى منذ الإصلاح الدينى الذى خرجت منه معظم حركات التحرر الوطنى فى المغرب والجزائر وتونس ومصر واليمن والسودان، وما زالت تناضل فى فلسطين آخر ما تبقى من مناطق الاستعمار الاستيطانى، ومنذ اندلاع الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩م، قويت الحركة

الجهادية، واعتزت بنفسها، وأثبتت بالبرهان التجريبى صدق مواقفها. فاستمرت فى أفغانستان ضد الغزو السوفييتى، حتى انتصر الشعب الأفغانى، ثم تحولت إلى البوسنة والهرسك وكوسوڤا والشيشان دفاعًا عن الغزو الصربى والغزو السوفييتى الجديد، والجهاد جزء من التراث الإسلامى وأحد أركان الدين، وحياة الشهداء فى السماء أفضل من حياة العبيد فى الأرض. يقوم الجهاد على التمسك بالأصول، وتطبيق الشريعة حتى ولو كان بالحرف وبالنص كنوع من جهاد النفس قبل جهاد العدو. فاستثار الغرب الذى طالما اتهمه بالعدوان والقتل والقهر وفرض الإسلام على الآخرين بالقوة، مع أن الجهاد مجرد دفاع عن النفس لدرء العدوان الذى يتمثل فى الإخراج من الأرض عنوة وطرد السكان، كما يفعل الكيان الصهيونى فى فلسطين. وهو ما عرفه الغرب منذ توما الأكوينى باسم «الحرب العادلة».

٥ - ما يعاب على الأفغان إذن الإسلام التقليدى المحافظ لا حيلة لهم فيه، وليسوا مسئولين عنه، إنه نتاج التاريخ الماضى البعيد، والماضى القريب، وظروف العصر. ورموزه مثل اللحية الطويلة، نوع من إثبات الهوية، وقبول التحدى والمغايرة، تجذب الناس وتجند الشباب. هو نوع من الإعلام المرئى، وقناة اتصال تقليدية فى مجتمعات تراثية لم تنلها بعد ثورة الاتصالات الحديثة. كما أن تحريم مظاهر الحياة الحديثة كالموسيقى والرقص والغناء هو تحد للعدو الداخلى فى صيغة غزو ثقافى وافد من الخارج، بعد أن أصبحت الحداثة تعادل التغريب. تشق الصف الوطنى، وتنافس التراث الشعبى. ويصل الأمر إلى حد الاقتتال بالسلاح بين الإخوة الأعداء كما هو الحال فى الجزائر. وأصبح من مظاهر الممارسات التقليدية فى حياة الأفغان الطب الشعبى، استقرار المرأة فى البيت، تعليمها وعلمها داخل المنزل، والرقابة الصارمة على الحياة العامة، وإعطاء الأولوية للنص على الواقع، وللأصل على الفرع، وللفتوى على النازلة، وللقديم على الجديد، وللصورة على المضمون، وللشرع على المصلحة، وللوسيلة على الغاية، وللآخرة على الدنيا. وجاءت معركة التماثيل لتبرز هذا التراث المحافظ الذى كان مبرراً فى البداية للتخلص من اللات والعزى وهبل فى بداية الإسلام من أجل عبادة الله الواحد القهار. وكان تحريم الصور أيضًا للتمايز عن المسيحية، وما تبقى من تجسيم وتشبيه.

وقد تغير الظرف، وانتشرت الفنون التشكيلية منذ أكثر من قرنين من الزمان. ولم تنقطع عبر التاريخ الإسلامى خاصة فى إيران. وقد أبقى عليها الفاتحون الأوائل ما دامت لا تمثل خطرًا على التوحيد. كما أبقى عمرو بن العاص أهرام مصر وأبا الهول إعجابًا بتراث الأقدمين. وقد دعا أخناتون إلى عبادة الله الواحد القهار الذى يعطى الشمس نورها ودفأها. وآمن الفراعنة بخلود النفس والحساب والعقاب، والعدل والميزان فى الدنيا والآخرة على حد سواء. ما زال الطالبان يعيشون فى صدر الإسلام، فى زمنه وموضوعاته. ولم يأخذوا تطور الزمن فى الاعتبار. فكانوا مثل أهل الكهف بلحاهم ونقودهم التى لم تعد صالحة للعصر. وهم قوم مؤمنون، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

٦ ـ ولما كان التراث القديم الذى فقد تعدديته منذ القرن الخامس الهجرى تراثًا أحادى المذهب، الأشعرية فى العقيدة، والشافعية فى الفقه فى قلب العالم الإسلامى، والماتريدية فى العقيدة، والمنفعة فى الفقه على الأطراف فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وتركيا، ظهر الطالبان ضحايا حديث الفرقة الناجية أن الحق لدى فرقة واحدة، وباقى الفرق الاثنتين والسبعين. الأولى فرقة السلطة والثانية فرق المعارضة. وعاشت أفغانستان بعد مقاومة المحتل الأجنبى والغزو الروسى عصر الإقصاء المتبادل. التحالف الشمالى يقصى الطالبان، والطالبان تقصى التحالف الشمالى. وبعد أن توحدت أفغانستان من أجل رد العدوان الخارجى، وجمعت الداخل والخارج تحت راية الجهاد، وقعت فى أتون الحرب الأهلية بين فرقاء الأمس ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ [الحشر: ١٤] وانقلبت الآية من ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إلى «أشداء بينهم رحماء على الكفار». وقبل التحالف موالاة الكفار ضد المسلمين. غاب الحوار بالحجة، وتنازل عن دوره إلى الاقتتال بالسلاح، مع أن القاتل والمقتول فى النار. وكما افترقت الأمة قديمًا إلى فريقين، على ومعاوية ثم يفترق أصحاب على إلى فريقين: شيعة وخوارج، ويفترق أنصار معاوية، إلى معتزلة وأشاعرة كذلك افترقت حاليًا إلى تحالف شمالى طالبان، والتحالف الشمالى إلى أزبك وطاجيك، والطالبان إلى أفغان وعرب. وتستعيد الأمة ذاكرتها الأولى، أن الخارج يوحد والداخل يفرق، لا فرق بين أفغانستان والجزائر.

٧- وما يفعل الأفغان مع أنفسهم فى حرب أهلية دامت أكثر من عشرين عامًا من قتل وتدمير متبادل بين زعماء الحرب يفعلونه مع غيرهم فى العدوان فى الخارج فى تفجير نيروبى ودار السلام والخبر والمدمرة كول فى اليمن. وتكون الصورة قتالاً فى الداخل وقتلاً فى الخارج دون ما حرمة لأبرياء حتى ولو كان العدو فى الخارج رموز التسلط الجديد التى يكرهها الناس فى عصر العولمة والعالم ذى القطب الواحد، مركز التجارة العالمى والبنتاجون. ويحمى طالبان تنظيم القاعدة ويؤوونه، وهو مستعد للغرب فى أى مكان والاستشهاد فى سبيل القضاء على الشيطان الأكبر. فالعالم فسطاطان: دار سلام ودار حرب، دار إيمان ودار كفر، المجاهدون الأفغان فى الدار الأولى والولايات المتحدة فى الدار الثانية. وهى صورة رومانسية للنضال تذكر أيام جيفارا وماوتسى تونج، وتبعث الأمل فى المقاومة حتى ولو كانت فى أشكالها البدائية التقليدية عن طريق الاستيلاء على قوافل التجارة وقطع الطريق عليها. وهى صورة تعبر عن حالة الاضطهاد التى يشعر بها المسلمون وحصارهم فى الداخل بنظم القهر والتسلط وفى الخارج من قوى العدوان.

٨- وتستدعى الذاكرة غزوة الأحزاب الأولى لمواجهة قوى التحالف الثانية، وكما انتصر المسلمون الأوائل فى غزوة الأحزاب ينتصر المجاهدون الأفغان على قوى التحالف الثانية. فالفرع يقاس على الأصل، والحاضر له نموذج فى الماضى، وكما انتصر الأفغان على الإمبراطوريات القاهرة البريطانية والروسية ينتصرون أيضًا على الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، التاريخ الحديث يصدق التاريخ القديم، والتاريخ المعاصر يصدق التاريخ القديم والتاريخ الحديث، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]. الحرب خدعة، كرّ وفرّ، غزوات وقطع طرق قوافل بالمعنى القديم، حرب العصابات بالمعنى الحديث. وحركات التفاف للعدو من الخلف من حيث لا ينتظر أساس الحرب إن استعصت المواجهة كما فعل خالد بن الوليد فى غزوة أحد. تنتظر أمريكا العدو من خارج الفضاء، من الصواريخ العابرة للقارات، وتعد له درع الصواريخ وحرب النجوم، والعدو باغتها من حيث لا تحتسب، بأبسط الوسائل والسبل، خطف طائرات عملاقة لهدم رموز

الثروة الاقتصادية والعسكرية، المجمع الصناعى العسكرى الذى أصبح عصب القوة الجديدة فى العالم ذى القطب الواحد برئاسة الولايات المتحدة، الخصم والحكم فى آن واحد، تحاصر العراق وليبيا، وتهدد السودان، ولبنان وسوريا واليمن، وتهمِّش مصر، وتتجاهل الأمم المتحدة أو القانون الدولى أو تستعملها كغطاء للعدوان، وترفض الاعتذار فى ديربان لأكبر عملية اصطياد بشرى من أفريقيا بالملايين عبيداً إلى العالم الجديد، وترفض مساواة الصهيونية بالعنصرية، وتدخل جميع النشاز إلى بيت الطاعة.

٩ - ويحزن الإنسان عندما يتم الحديث عن الشعب الأفغانى باعتباره مجموعة من القبائل، أكبرها الباشتون التى منها خرج الطالبان، ثم الأوزبك التى منها قائد التحالف الشمالى والطاجيك والهزارة وبقايا طوائف، وكأن الأمة الواحدة لا وجود لها، والمواطنة التى تجمع الشعب لا وجود لها. فالمسلمون طوائف، والعرب قبائل، والأمة شعوب وأجناس، والشعب الأفغانى ملل وأعراق، تتقاتل فيما بينها ولا تعرف الحوار، كل فريق يخاصم الآخر ويستبعده، ويستعدى الأجنبى عليه. كلهم مسلمون ينتسبون إلى أمة واحدة، ولكن جعلوا أنفسهم شيعًا وأحزابًا. وتبدو مساواة المواطنين فى الحقوق والواجبات بصرف النظر عن مللهم وطوائفهم مبدأ غريبًا وهو يتفق مع حقوق الإنسان، ومع العقل والحق الطبيعى، أعلى قيمة من ممارسات الشعوب الإسلامية العرقية المذهبية. ونسى الصحابة الجدد أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وأن السمع والطاعة واجبة ولو أمّر على المسلمين عبد حبشى، وأن الله خلق الناس شعوبًا وقبائل للتعارف وليس للقتال، وأن دستور المدينة ساوى بين الأمم فى الأمة، وأن العروبة ليست بأب أو أم، إنما العروبة هى اللسان.

١٠ - ظاهرة العرب الأفغان من أنبل الظواهر فى تاريخ الإسلام الحديث وحركات التحرر الوطنى والمقاومة الشعبية. تستعيد سيرتها الأولى فى وحدة الأمة التى لا تعترف بالحدود الجغرافية للدول القومية الحديثة الموروثة من العهد الاستعمارى بعد سقوط دولة الخلافة. فالجهاد فرض كفاية على كل مسلم ومسلمة

فى حالة العدوان على الأمة، كما هو الحال فى أفغانستان والشيشان وكشمير وفلسطين والبوسنة والهرسك وكوسوفا وجنوب لبنان والجولان. جاهد العرب والباكستانيون والشيشان مع الأفغان فى دحر العدوان السوڤييتى على أفغانستان. وربما كان الخطأ فى الدخول فى أتون الحرب الأهلية الأفغانية بين الفرقاء الأفغان، ونصرة فريق على فريق، حتى ولو كان الصواب مع أحدهما. فتلك دماء حرم الله سفكها، والقاتل والمقتول فى النار. وقد أخذ الحسن نفس الموقف باعتزاله الحرب بين علىّ ومعاوية، وكما فعل سعد بن أبى وقاص فى عدم دخوله طرفًا فى الفتنة. ونظرًا للموروث الثقافى المحافظ كان طلب السلطة مطمعًا عند الجميع طبقًا للقول المأثور «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، ومصير العرب الأفغان المجهول لا يعادل جهادهم، فإما الأسر بيد قوات التحالف الشمالى أو بقوات الغزو الأمريكى، أو القتل فى حرب كأجانب مرتزقة يشتركون فى حرب بين فرقاء الوطن الواحد، أو التسليم لبلادهم فيلاقون نفس المصير؛ لعدم تفرقتهم بين الجهاد ضد العدو الخارجى الغازى والعدو الداخلى الذى لا يحكم بالشرعية أو تسليمهم للأمم المتحدة التى تخضع للولايات المتحدة، ويكون المصير محكمة العدل الدولية، أو المحاكم العسكرية فى الولايات المتحدة الأمريكية وإدانتهم من الخصم والحكم كمسئولين عن قتل الأبرياء فى نيويورك وواشنطن، وكخطر ماثل على استقرار النظم السياسية فى الوطن العربى والعالم الإسلامى التى تضمن الولايات المتحدة ولاءها أو على الأقل حيادها وصمتها.

١١ - وتعود الملكية كنظام ملكى بديل يحكم الطالبان وقوات التحالف الشمالى المتعاون مع العدوان الغربى. فالملكية نظام إقطاعى لا شرعى لم يأت بالبيعة بل بالوراثة. وكان من الطبيعى أن يتغلب عليها الثوار. ولما كانت الماركسية، آنذاك نموذجًا للثورة، فقد انقلب الأفغان عليها «الماركسيون من قوات الجيش». ولما كانت الثورة فى البلاد المحافظة تتم فى بنية المحافظة دينية أم سياسية تم تغيير رأس النظام، وظلت بنيته التسلطية والسلفية العرقية قائمة مع اختلاف المصدر، الدين أم الماركسية. وتوالت انقلابات الضباط الماركسيين على بعضهم البعض حتى تبلورت ضدهم حركات معارضة شعبية إسلامية. فالإسلام هو التراث الشعبى الحامل لواء

المعارضة. وبعد الغزو السوفييتى لأفغانستان تأييداً لأحد الرفاق ضد الرفيق الآخر اشتدت المقاومة الإسلامية وتوحدت حتى هزمت الجيش السوفييتى. وكالعادة نجح المسلمون فى دَرْء العدوان الخارجى ثم فشلوا فى بناء الدولة فى الداخل. فقد تحولت الوحدة إلى فرقة، وظهر حديث الفرقة الناجية، الصواب فى فرقة والخطأ فى كل الفرق، مع أقوال مأثورة مثل «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». ونسى الفرقاء ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وينتصر الطالبان على التحالف الشمالى، وتحكم الحركة باسم المحافظة والتقاليد. وتعود الملكية الآن التى قام الثوار ضدها فى البداية وكأنها منقذة الشعب الأفغانى من ويلات الثورة والتقليد فى آن واحد، وكأن تاريخ الأفغان هو عود إلى نقطة البداية، نظراً لأن المحافظة ما زالت هى البنية الجذرية للثقافة الشعبية التى تتحطم عليها كل قوى الثورة والتغير الاجتماعى، عاد القديم ينقذ الشعب من ويلات الجديد والقديم معًا، وهو ما زال موقف الإصلاح القديم الذى أرساه السيد جمال الدين، الملكية المقيدة بالدستور، وليست السلطانية فى استانبول أو العلمانية الغربية التى كانت بشائرها قد بدت فى جمعية الاتحاد والترقى وحزب «تركيا الفتاة».

١٢ - ويظهر الغرب كمنقذ لمأساة الشعب الأفغانى فى مؤتمر بون. هو الذى يقدم إليه قيمة الحرية، والديموقراطية، والحوار، والانتخابات، والتآلف وليس الخصام والاقتتال وسفك الدماء، وكأن هذه القيم غربية خالصة، غريبة عن الإسلام، مع أن الإسلام وضع مبادئ الحرية فى ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقواعد الديموقراطية فى الشورى والبيعة، فالإمامة عقد وبيعة واختيار، وعدم جواز تكفير الخصوم، وشرعية الاختلاف. كل ذلك مبادئ إسلامية عرفها القدماء ونسيها المحدثون؛ لأنها لم تعش فى الموروث الثقافى الشعبى بعد أن طغى عليه حديث الفرقة الناجية. ويعود سؤال شكيب أرسلان: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ ويعود الغرب مرآة لنرى فيها النفس، والنفس مرآة نرى فيها الغرب. ويستمر الغرب نموذجًا للتحديث لنا منذ فجر النهضة العربية حتى الآن، وكما عبر عن ذلك الطهطاوى فى «تخليص الإبريز». وهو الذى يطعم الجائع، يد تحمل السلاح ويد تقذف بالخبز. وهو الذى يعلم الجاهل، ويساوى بين المرأة والرجل، ويرعى

الطفل، ويقدم المعونات الدولية، ويحقق السلام بين المتحاربين والوفاق الوطنى. المسلمون أهل حرب والغربيون أهل سلام. والتراث الإسلامى مسئول عن مآسى الشعوب التى لا خلاص لها إلا بالقيم الغربية. ما زال الطريق أمام الشعب الأفغانى هو طريق السيد جمال الدين، الاستقلال الوطنى ضد العدوان الخارجى، والإصلاح ضد الاستبداد والتخلف فى الداخل.. معركتان متزامنتان وإلا أصبح الشعب الأفغانى ضحية مرتين: ضحية العدوان الخارجى، والمحافظة الداخلية.

* * *

٢ـ تحدى أوروبا لدورها

١ ـ لا تمثل حوادث سبتمبر الأخيرة فى نيويورك وواشنطن تحدى أمريكا لنفسها فقط بل أيضًا تحدى أوروبا لدورها، فأوروبا هى منشأ أمريكا، أجناسًا وأعراقًا ومللاً ونحلاً وأممًا، أمريكا هى مجموعة من المهاجرين الأوروبيين نزحوا إليها بحثًا عن المال والذهب أو هربًا من الاضطهاد الدينى أو من تطبيق القانون. فأمريكا بنت أوروبا ليس فقط فى بدنها، بل أيضًا فى روحها وثقافاتها وحضارتها، فقد حمل المهاجرون الأوروبيون معهم إلى العالم الجديد دياناتهم وطوائفهم وثقافاتهم، كان الهدف هو «إناء الانصهار» ولكن بقت الأجناس والأعراق والطوائف تعيش بينها، فهناك «المدينة الإيطالية»، «والمدينة الألمانية» و«الحى العربى». وهناك أحياء بأكملها فى المدن الأمريكية للأعراق والأقوام، اليهود فى نيويورك، والعرب فى نيوجيرسى، والشيكانو فى سانت أنطونيو وميامى، والسود فى هارلم وديترويت، والآسيويون فى الساحل الغربى وهاواى. الواسب، وهم البروتستانت البيض الأنجلوسكسونيون أعلاها، والسود أدناها ومن جاورهم من العرب والمسلمين. أوروبا هى الأب وأمريكا الابن، ومن حق الأب على الابن التوجيه والإرشاد، ومن حق الابن على الأب الطاعة، تحدى أوروبا لنفسها أن تعود إلى دورها فى قيادة العالم طبقًا لمثل التنوير ومبادئ الثورة الفرنسية وإعلان حقوق الإنسان مضافًا إليه حقوق الشعوب.

٢ ـ وإن كل مواثيق الاستقلال ومواد الدستور والتعديلات عليه فى أمريكا من آثار أفكار الثورة الفرنسية، بل إن قادة حرب الاستقلال من أصول فرنسية مثل

(*) جريدة الزمان: ديسمبر ٢٠٠١م.

«لافاييت»، وأفكار الحرية والمساواة والقانون والعدل وحقوق الإنسان التى يزهو بها العالم الحر من الثورة الفرنسية، وما زالت الأحياء الفرنسية فى نيوأورليانز فى الجنوب، وفى كيبيك فى كندا فى الشمال. أمريكا بريطانية فى جسدها، فرنسية فى روحها، رومانية فى عضلاتها، يونانية فى عقلها، إسبارطية فى هيمنتها، أثينية فى مؤسساتها، يهودية فى ممارستها وسياساتها، ومسيحية فى كنائسها ووعظها. وما زال تمثال الحرية الذى أصبح يرمز ليس فقط لنيويورك فقط بل أيضًا لأمريكا كلها من صنع مثَّال فرنسى. ولما كانت الثقافة هى التى تحدد الرؤيا فإن الثقافة الأوروبية عبر الأطلنطى هى التى تحدد الرؤية الأمريكية للعالم، وليست رؤية المهاجرين الجدد ورعاة الأبقار هى التى تحدد رؤية أوروبا للعالم. وكما هاجر جيل من العلماء والمفكرين والأدباء إلى أمريكا إبان الحكم النازى لأوروبا فانتعشت الجامعات الأمريكية، يستطيع مفكرو أوروبا وعلماؤها إعادة إحكام الرؤية الأمريكية للعالم. إنها المسئولية التاريخية لأوروبا أن تعيد «الابن الضال»، وأن تهدئ من روع «الثور الجامح» وأن تروض «النمر» حتى تضبط حكمة الشيوخ نزق التهور.

٣- تستطيع أوروبا أن ترشّد أمريكا، وتذكرها بالمبادئ المشتركة بينهما، وبالعودة إلى أصولهما الفكرية المشتركة. لقد خانت أمريكا أفكار الآباء المؤسسين مثل توماس جيفرسن، الحرية لكل الشعوب، وآثرت الحرية لأمريكا والعبودية لغيرها. كما تخلت عن مبادئ إبراهام لنكولن، وحدة الأمم وتحرير العبيد، بتفتيت الأمم: أفغانستان، والعراق، والسودان، ويوغوسلافيا، واستعباد الشعوب، والعدوان عليها والقضاء على استقلالها وإدخالها فى الأحلاف قصرًا وتهديدًا، وإقامة القواعد فى أراضيها، وربطها فى تحالفات سياسية وعسكرية واقتصادية وثقافية لفرض هيمنتها عليها، فالعالم الجديد هو القيّم على العالم القديم، والجغرافيا هى التى تتحكم فى التاريخ. وتتحول عقدة النقص التاريخية، أمريكا بلا تاريخ، إلى عقدة عظمة عسكرية واقتصادية وسياسية وثقافية، ولا يشفع لها تسمية مدنها بأسماء قديمة مثل الإسكندرية وأثينا أو حتى أوروبية مثل أكسفورد وكمبردچ بحثًا عن العراقة أو حتى طليطلة التى اجتمع فيها الشرق والغرب، وتوحدت فيها الثقافات الإسلامية واليهودية والمسيحية، رمز التآلف لا العدوان، تستطيع أوروبا

أن تذكّر أمريكا بتاريخها وثقافاتها الحديثة منذ تأسيسها بعد أن قضت على ثقافات الهنود الحمر واستأصلت السكان الأصليين ووضعتهم فى «مستعمرات داخلية»، كما وضعت باقى الشعوب فى مستعمرات خارجية»، موضوعًا للمتاحف والدراسات الأنثروپولوچية عن الشعوب البدائية التى انقرضت، ولكن ما زالت الحفريات شاهداً عليها بما فى ذلك من تبقى من السكان الأصليين فى أفلام هوليود، وعلى أمريكا دين اكتشافها ووجودها ونهضتها لأوروپا .

٤ ـ تستطيع أوروپا أن تعطى أمريكا نتيجة تجربتها مع الاستعمار الطويل وكيف حاولت بريطانيا استعمار العالم كله وقضاءها على إمبراطورية المغول فى الهند، واستعمار أفغانستان وإيران وهونج كونج وعدن ومصر والعراق والسودان، وتقسيم أفريقيا إلى أنجلوفونية وفرانكفونية، واستعمار فرنسا المغرب العربى والساحل الغربى لأفريقيا ووسطها وسوريا ولبنان والهند الصينية، واستعمار إسپانيا والبرتغال لجنوب شرق آسيا. وكانت النهاية أن تحررت الشعوب المستعمرة بفضل حركات التحرر الوطنى فى نضال دام عقدين من الزمان من استعمار دام عدة قرون، فاستعمار الشعوب مضاد لمسار التاريخ؛ لأن التاريخ كما عبر عن ذلك كروتشة «قصة الحرية» لقد حلت أمريكا محل فرنسا فى ڤيتنام، ولم تفترق نتيجة «بين بين فو» للفرنسيين عن انهيار حكم فيتنام الجنوبية للأمريكيين. ولا تختلف تجربة أمريكا مع قناة پنما عن تجربة بريطانيا مع قناة السويس. وإذا كانت أمريكا تتميز بقصر النظر فإن أوروپا تستطيع أن تمدها بطول النظر. وما تفقده أمريكا فى حروب العدوان على العراق وأفغانستان لقادر على إطعام جوعى العالم، وزراعة الصحراء، وتعمير الأرض.

٥ ـ وتحدى أوروپا لدورها هو مقدار ما تكون مستقلة عن أمريكا غير تابعة لها متمايزة عنها، وليست متناهية فيها كما تفعل بريطانيا المستعمر القديم الذى يبحث عن دور مع المستعمر الجديد بعد أن فقد دوره التاريخى فى القرن التاسع عشر، الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس. فأوروپا مركز الثقل فى العالم منذ عصر الاستقطاب والحرب الباردة حتى عصر العولمة. أوروپا هى الجسر بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، تاريخها وثقلها وثقافاتها تمنع من أن تكون تابعة

لأمريكا وإلا مال ميزان العالم، واضطربت العلاقات الدولية. أرادت فرنسا أن تلعب هذا الدور الأوروبى وحدها فى مواجهة الهيمنة الثقافية الأمريكية. وأرادت ألمانيا قبل ذلك منذ القرن التاسع عشر لعب نفس الدور داخل القارة الأوروبية بين غرب أوروبا وشرقها. وتستطيع أوروبا أن تعيد التوازن فى العالم ذى القطب الواحد بين المركز والأطراف وتقوى الأطراف حتى يعود العالم ذو القطبين من أجل التنافس الحر والإثراء المتبادل.

٦ ـ إن مركز أوروبا المتوسط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب يجعل مصالحها مع دول الجوار فى الجنوب، الوطن العربى، وفى الشرق العالم الإسلامى. فالغرب والعرب يعيشان على ضفتى بحيرة واحدة، البحر الأبيض المتوسط، يتبادلان المصالح، العمالة العربية فى الشمال والأسواق الأوروبية فى الجنوب، والخبرات العلمية بينهما منذ أن ترجمت أوروبا فى عصرها الوسيط العلوم والثقافة العربية الإسلامية إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية فكانت وراء النهضة الأوروبية الحديثة. كان طريق الحرير يربط أوروبا بالصين، كما تربط الكونكورد بين ضفتى الأطلنطى. لقد توحدت أوروبا ، وهى قادرة على أن تقوم بدور أكبر فى السياسة الدولية دون استثناء حتى لا تنفرد أمريكا بالعالم. والحوار العربى الأوروبى، واتفاق الشراكة وإعلان برشلونة كلها خطوات على طريق الوحدة العربية الأوروبية على مستوى الندية والتكافؤ بين الأطراف. إن تحدى أوروبا لدورها هو أن تستثمر فيه ولا تتنازل عنه بدافع الكسل التاريخى وتحت ذريعة انطفاء الدافع الحيوى الذى بدأ فيها منذ بداية العصور الحديثة. تستطيع أوروبا أن تجد فى هذا الدور الجديد لنفسها «عودة الروح» فى دورة حضارية ثانية تخرج أوروبا من كونها مركز العالم كى تصبح محاوراً باسم الشمال مع العرب باسم الجنوب، فى حوار متكافئ بين شاطئ البحر الأبيض المتوسط، من أثينا إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية إلى بغداد، ومن دمشق إلى الأندلس وفى حوار متبادل عبر التاريخ، بين الأستاذ والتلميذ، بين المعلم والمتعلم على التبادل فى الماضى، وبين أستاذين متكافئين فى الحاضر فى تجربة حضارية جديدة تتجاوز الاستعلاء إلى الشراكة.

٣ـ تحدى الولايات المتحدة لنفسها

١ ـ ستظل الآثار النفسية لحوادث الحادى عشر من سبتمبر الماضى فى نيويورك وواشنطن باقية إلى أمد طويل. قد يختفى الحدث على الأرض، بإعادة بناء برجى مركز التجارة العالمى، وإعادة ترميم جناح البنتاجون، والتشديد فى الإجراءات الأمنية فى المطارات، وشركات الطيران. وقد تتم بتصفية تنظيم القاعدة واغتيال «بن لادن» وقلب نظام الطالبان بل وتدمير أفغانستان كلها، ومع ذلك تظل الآثار النفسية باقية إلى الأبد، تتحول تدريجيًا من الشعور إلى اللاشعور حتى تصبح جزءًا من الذاكرة، من الوعى التاريخى، تؤثر فى رؤى العالم للشعوب، وللممارسات النخبة وفى العلاقات الدولية، فقد انتهت هزيمة العرب فى يونيو ـ حزيران ١٩٦٧م، بالرغم من وجود آثارها على الأرض فى سيناء وفلسطين وسوريا ولبنان، لم تمحها حرب أكتوبر ـ تشرين ١٩٧٣م، وآثارها ما زالت باقية فى النفس العربية، جرحًا لم يندمل ومكونًا رئيسيًا للوعى العربى المعاصر الذى ما زال يتساءل عن الشخصية العربية وتعاملها مع العصر، والوجود العربى وامتداده فى التاريخ، والعلاقة بين الحلم والواقع، بين الخيال والعقل، بين القول والفعل، بين القومية والقطرية، بين التمنى والإمكان. وما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر الماضى فى الولايات المتحدة الأمريكية يعادل ما حدث للعرب فى يونيو ـ حزيران ١٩٦٧م. التحدى هو تحدى النفس أولاً قبل أن يكون تحدى الآخر، تحدى الداخل قبل تحدى الخارج، الجهاد الأكبر، جهاد النفس، قبل الجهاد الأصغر، جهاد العدو، لو صح الحديث القديم الذى يشكك فى صحته بعض المصلحين المحدثين كالمودودى وحسن البنا وسيد قطب. وهو تحدٍ متعدد الجوانب، تحدى أمريكا لنفسها، وتحدى

(*) جريدة الزمان: ديسمبر ٢٠٠١م.

أوروبا لدورها وتحدى العرب لأوضاعهم، وتحدى فلسطين لمستقبلها، وتحدى مصر لتاريخها، وتحدى المسلمين لوحدتهم، وتحدى أفغانستان لتراثها، وتحدى آسيا لإمكانياتها، تحدى حدث صغير فى الزمان والمكان للعالم كله عبر الزمان.

٢ - ويتمثل تحدى أمريكا لنفسها فى جبروتها وقوتها العسكرية والصناعية وترؤسها على مجموعة الدول الصناعية الثمانى، وتربعها على عرش العالم فى نهاية عصر الاستقطاب، وانهيار النظم الاشتراكية، الداروينية التسلطية، وإن بقت الاشتراكية أملاً فى وجدان ملايين البشر كما وضح فى مظاهرات المدن والعواصم الأوروبية والأمريكية ضد العولمة فى سياتيل ودافوس وبراج، ولندن وپاريس، واستتباب الأمن فى الدوحة. لقد تفردت بالعالم، ولم تعد تحتاجه فى شيء إلا أنها القيِّمة عليه، يدين لها بالولاء، وعلى الجميع دخول بيت الطاعة حتى يستتب النظام الدولى الجديد واقتصاد السوق، ويوقع الجميع اتفاقية الجات، وينضم إلى منظمة التجارة العالمية، وتفتح الدول أسواقها، وتتخلى عن استقلالها الوطنى، وتفتح حواجزها الجمركية، وتدخل فى حلبة المنافسة، فيبتلع الكبير الصغير، ويسيطر القوى على الضعيف، ويتحكم رأس المال العالمى فى أسواق العملة، وإلا يتم تهديد العصاة مثل ماليزيا وإندونيسيا، بضرب العملة الوطنية وانهيارها إذا ما رفضت الشروط. لا يوجد إلا نظام واحد، نظام العولمة، البديل عن الإله الواحد فى ثقافة تدعى أنها تقوم على التعددية، وكما وصف وليم جيمس فى «عالم متعدد»، تقوم على الرأى والرأى الآخر، وحق الاختلاف، وتعدد الأحزاب، وحرية التعبير، والانتخابات الحرة من أجل إقامة مجتمع ديموقراطى، للأغلبية فيه الكلمة على الأقلية، تعددية فى الداخل ووحدانية فى الخارج، ديموقراطية فى الداخل وتسلطية فى الخارج، معايير مزدوجة، تقبل للنفس ما ترفضه للآخر، وترفض للنفس ما تقبله للآخر. وتتحطم القيم الأمريكية على حدود الجغرافيا، وتتكشف أسطورة العالم الحر وقيم الحداثة، والمبادئ الإنسانية العامة الشاملة التى لا تحددها حدود الأوطان، مناطق الجغرافيا وعصور التاريخ. هنا تصبح أمريكا فى وجدان غيرها «الشيطان الأكبر»، «رأس الكفر»، «الطاغوت»، «الجاهلية». ولن

يقدر عليها إلا جيل قرآنى فريد فى جماعة المؤمنين ﴿فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، يمثلون دار الإسلام، سواء كانوا من الجماعات الدينية أو الجماعات اليسارية. فكلتاهما جماعات رفض جذرى بالفكر والسلاح، فوق الأرض وتحت الأرض، فى المواجهة، ومن الخلف، فكيف تواجه أمريكا هذا التحدى الخارجى بتحد داخلى تحدى أمريكا لذاتها وتغيير صورتها لنفسها؟

٣ـ وهو تحدى القوة بلا عدل، والإرادة بلا حكمة، رامبو دون سقراط، الشرطى الضخم الذى ضحك عليه شارلى شابلن وهرب منه. القوة دون العدل تدمر نفسها بنفسها، قوة عمياء، جعلها بعض الفقهاء القدماء أول صفة للحاكم بينما جعلها البعض الآخر ثانيها بعد العدل. وقد كان شعار الوفد القديم فى مصر «العدل فوق القوة، والأمة فوق الحكومة». قد تتستر القوة تحت العدل مثل التدخل الأمريكى لحماية المسلمين فى البوسنة والهرسك وكوسوفا. ربما كان القصد تدمير يوغسلافيا وتفتيتها كما يتم الآن مع العراق تحت ستار الدفاع عن الكويت وحماية العالم من أسلحة الدمار الشامل، ولا تفعل نفس الشيء فى أيرلندا حماية الكاثوليك من البروتستانت، أو فى فلسطين حماية للشعب الفلسطينى من العدوان الصهيونى. هو تحدى «راعى البقر» للشريف، وتحدى الشريف لراعى البقر. كلّ منهما يعتبر قوته عدله، وعدله قوته. وليست القوة وحدها هى القوة العسكرية، بل القوة الاقتصادية والقوة الإعلامية، إذ يستولى ٥٪ من البشر على ٧٥٪ من ثروات العالم ويستهلكونها، وهى الثروة المنهوبة من العهد الاستعمارى، ذهب الهنود الحمر، ومعادن أفريقيا، ونفط العرب والمسلمين، فكيف تقبل أمريكا هذا التحدى، تحدى الفقر للغنى، والعدل للقوة، والضعيف للقوى، والمحيط للمركز فى تاريخ يقوم على الدورات الحضارية «يوم لك ويوم عليك»، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

٤ ـ وتقوم أمريكا بدور الشرطى الدولى دون ما اعتبار للأمم المتحدة وكافة

المنظمات الدولية المنبثقة عنها، بل إنها تجمع الأصوات لصالحها فى حين اللجوء إليها، فإذا عجزت مارست حق الفيتو، واعترضت مع إسرائيل أو حتى بمفردها، فأصوات الدول التى تقارب المائتين لا تساوى كلها صوتها. الحق دون القوة لا يساوى شيئًا أمام القوة بلا حق. مصلحتها فوق مصالح الجميع دون ما رعاية للمصالح العامة. هى الخصم والحكم، بيد تقتل الأفغان وبيد ترسل المعونات. فتنشأ كراهية الناس لها. وتتربى عندهم رغبة دفينة فى التخلص من «الوصى»، و«قتل الأب»، ووضع نهاية لفرعون وغرقهم فى البحر بعصى موسى ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧].

٥ ـ وتدافع عن حقوق الأفراد، ولا تدافع عن حقوق الشعوب. تتمسك بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان مرتين، بعد الثورة الفرنسية وبعد الحرب الأوروبية الأولى، ولا تعرف الإعلان العالمى لحقوق الشعوب الذى صدر فى الجزائر بعد حركات التحرر الوطنى فى ١٩٧١م، ليعلن حق كل شعب فى تقرير مصيره، وبقيت فلسطين وكشمير والشيشان وأفغانستان. وتقايض مع السوفييت، لها أفغانستان كما كان للسوفييت الشيشان. وتهدد باكستان بالهند فى كشمير، وبإسرائيل فى السلاح النووى. وقفت بمفردها فى ديربان مع إسرائيل تعترض على حركات الشعوب وممثلى المنظمات غير الحكومية. لا تريد حتى الاعتراف بجريمة اصطياد ما يقرب من أربعين مليون أفريقى وأخذهم عبيدًا لإعمار «العالم الجديد». منهم من قتل وهو يقاوم على أرض أفريقيا، ومنهم من غرق فى مياه المحيط، ومنهم من هلك فى العالم الجديد من الجوع والحرمان والاضطهاد والاستعباد، ولا تريد أن تساوى الصهيونية بالعنصرية وجرائم الكيان الصهيونى على أرض فلسطين كل يوم. ولم تعتذر لليابان عن إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما ونجازاكى فى حين اعتذرت اليابان عن احتلال كوريا وشرق آسيا. فإذا ما عجزت الشعوب عن استردادها تحرك الأفراد. وفى مواجهة إرهاب الدول ينشأ إرهاب الأفراد.

٦ - وبسبب هذه السيطرة والتعالى والغرور كرهها العالم فى الداخل والخارج، فى الجماعات العرقية والتيارات اليمينية التى ترفض سلطة الحكومة الفيدرالية، وفى الديانات الجديدة التى ترفض مظاهر القوة والعظمة والغنى والثراء، ولدى الأقليات المصنفة طبقًا للون البشرة السوداء والسمر من الشيكانو من أصل مكسيكى والعرب، والمسلمين والصفر من الآسيويين، وفى الخارج عند جيرانها فى المكسيك وأمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية لاستعباد شعوبها واستغلال ثرواتها، وتبعية حكوماتها، واستغلال موادها الأولية، وتصريف المنتجات فى أسواقها، وفى أوروبا التى ترفض التبعية لها، العسكرية أو السياسية أو الاقتصادية. أو الثقافية فأوروبا تنازلت عن دورها الاستعمارى القديم الذى تقوم به الولايات المتحدة حاليًا. وتقلصت هيمنتها السياسية بتخليها عن مستعمراتها، والاقتصادية باتفاقيات الشراكة، والثقافية بمعارضتها الهيمنة الثقافية. والإعلامية للولايات المتحدة. كانت الحركات المناهضة لأمريكا منذ الستينيات ضد الحرب فى ڤيتنام وضد غزو سان دومينجو وضد غزو كوبا فى خليج الخنازير، وضد الوجود الأمريكى فى لبنان والصومال، وضد القواعد والقوات الأمريكية فى بعض أرجاء الوطن العربى، وضد غزو العراق وحصاره والعدوان على ليبيا وحصارها، وضد التأييد المطلق لإسرائيل، وضد خطف الطائرة المصرية فوق مالطة. أصبح الوطنى هو المعادى لأمريكا، والبطل هو المناهض لها، والشعبى هو الذى يرفض هيمنتها. فالتحرر طبيعى فى الشعوب، والاستقلال طبيعى فى الدول. فكيف تكسب أمريكا ود الشعوب كما كسبها الاتحاد السوڤييتى فى الخمسينيات والستينيات بمساعدة حركات التحرر الوطنى. لا يكفى المعونة، فيد تعاون، ويد تقتل. وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

٧ - قد تكون أمريكا فى حاجة إلى العالم أعظم من حاجة العالم لها، قد تدرك الآخر، وأن له وجودًا مستقلاً عنها، له حاجاته وكرامته، مطالبه واحترامه، ليس فقط عن طريق تحالف يخضع لها، وينفذ إرادتها، ويحقق مطالبها بل عن طريق شركاء أنداد، يرشدون قراراتها، ويعمقون رؤيتها، ويعيدون التوازن لوجودها فى العالم. فأمريكا بلا أسواق، وبلا مواد أولية، وبلا عمالة، وبلا عقول وأجهزة تتقلص داخل الحدود وتعكف على ذاتها، وتنطوى على نفسها. كيف تخرج

أمريكا من «النرجسية» والتمركز حول الذات؟ الحقيقة أمريكية والسيادة أمريكية والإرادة أمريكية، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

٨ ـ إن القوة الآن ليست فى استعراضها، والعدو ليس معسكراً مناهضًا، والخطر لا يأتى عبر القارات والوقوف أمامه بدرع الصواريخ. إن العدو فى الداخل وليس فى الخارج، غير مرئى، يأتى دون توقع من أحد، العدو يقضى على الأمن الداخلى والاطمئنان إلى مسار الأمور، ومجرى العادات. لا تستدعى جبهة فى مقابل جبهة، وجيشًا فى مواجهة جيش، الحرب حرب صور ذهنية، حرب رمزية ضد رموز القوة والسيطرة، مركز التجارة العالمى فى الاقتصاد، والپنتاجون فى الدفاع، والكونجرس فى السياسة. والسلاح مقدور عليه، خطف طائرة، عربة مفخخة، رسالة بريد مجهولة تحمل الجرثومة الخبيثة، تفجير الطائرات، إيقاف الحياة اليومية، وبالتالى تعطيل الإنتاج، وإفلاس الشركات، وخفض العملات، والأزمة الاقتصادية. فالاقتصاد عصب العالم الحديث. ليست القضية تكنولوچيا المعلومات ولا قوة الاتصالات، فالمجهول أقوى من المعلوم، والغائب أكثر حضوراً من الشاهد ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

٩ ـ إن التقدم الصناعى يحتوى على عناصر فنائه طبقًا للتصور الحيوى لدورات الحياة، تقدم فتأخر، نهضة فسقوط. لاحظ ذلك ابن خلدون وروسو وتوينبى وكل فلاسفة التاريخ، قدماء ومحدثين. وبلغة الوجوديين المعاصرين، يقوم الوجود على العدم ويتأسس على لا شىء. وقد أعلن نيتشه عن عصر الدمية القادم. الحداثة هشة، سرعان ما تتحول إلى ما بعد الحداثة، والعقل إلى الخبل، والعلم إلى الخرافة، والطبيعة إلى السحر. أعلن نيتشه أن «الله قد مات» وعاش الإنسان. وأعلن المحدثون «موت الإنسان»، ولا أحد يعيش، هناك خواء فى الروح، فقدان الإحساس بالحياة، قلب القيم، صنع آلهة جديدة، نهاية التاريخ، أفول الغرب مقولات فلاسفة الغرب هوسرل وبرجسون وشيلر وشبنجلر. لا يكفى تحويل العالم إلى سوق كبيرة أن يكون البشر سعداء. قال محمد إقبال متوجهًا إلى

الغرب: «لقد جعلتم أرض الله حانوتًا»، وإذ قيل ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فكيف تكون حوادث سبتمبر الأخيرة نذيراً حتى تستطيع أن تشعر أمريكا بالأمن الداخلي ويشعر العالم بالأمان الخارجي؟ وإن استمرت أمريكا في العدوان على الشعوب بدعوى محاربة الإرهاب فإن النذر ستتكرر. ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨].

* * *

٤ـ تحدى مصر لمركزيتها

١ ـ وتمثل أحداث سبتمبر الأخيرة تحديًا لمصر فى مركزيتها وقدرتها على القيام بدورها عبر التاريخ، قلب الوطن العربى، ومركز العالم الإسلامى الثقافى والسياسى. فمصر هى المسئولة عما يحدث لمن حولها من أفراح وأحزان. إذا وقع شيء فى مصر حدث صداه فى محيطها العربى والإسلامى. إذا قامت مصر قام العرب والمسلمون. وإذا كبت مصر كبا العرب والمسلمون. ولا تعنى مصر حدودها الجغرافية بل مركز الثقل فى القارتين الأفريقية والآسيوية. فمصر وطن لا حدود له. تمثل السودان فى الجنوب، وليبيا فى الغرب، وسوريا فى الشمال، والسعودية فى الشرق كتلة بشرية وإمكانيات مادية، وكما اتضح فى موقف مصر والسعودية الأخيرين من رفض الدخول فى التحالف العسكرى للعدوان على الشعب الأفغانى. مصر هى التى قامت بالحرب والسلام، بالاختيار الاشتراكى والرأسمالى. هى الأكبر والأقدر على زمام المبادرة التاريخية منذ صلاح الدين حتى محمد على وعبد الناصر.

٢ ـ إن مصر مسئولة عن تصدير الحركات الأصولية إلى الوطن العربى وفى السودان، وفى العالم الإسلامى فى أفغانستان. فجماعة الجهاد تكوَّنت فى مصر فى الجمهورية الثانية لمقاومة نظام القهر فى الداخل والتبعية فى الخارج، والصلح مع العدو الصهيونى، واستشراء الفساد الداخلى فى البلاد، وضياع القضية. ولما ضيق عليها الخناق، وحكم على قادتها بالإعدام مثل أيمن الظواهرى وأرادت استئناف الجهاد فى الخارج هرب بعض قادتها إلى السودان أو أفغانستان. إن عدم الاعتراف

(*) جريدة الزمان: ديسمبر ٢٠٠١م.

بشرعية الحركة الإسلامية فى مصر والسماح لها بمزاولة نشاطها العلنى هو الذى جعلها تتحول إلى العمل السرى. وانحرافها عن سياساتها فى الخمسينيات والستينيات هو الذى جعلها موضعًا للتصحيح بالعنف. ولما كان الانحراف من صنع فرد كان التصحيح أيضًا بالخلاص منه. إن تاريخ مصر الحديث منذ الثورات العربية هو المسئول عن ظاهرة العنف فى الحركة الإسلامية المعاصرة. كان نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة فى ١٩٥٢م من الإخوان. ولما نشأت أزمة مارس ١٩٥٤م، أزمة الحكم، عسكرى أم ديموقراطى، عارض الإخوان الضباط الأحرار، ورفضوا معاهدة الجلاء فى ١٩٥٤م التى كانت تسمح لبريطانيا بالعودة لاحتلال قناة السويس. ولما رفضت الثورة الوصايا عليها وقع الصدام، ودخل الإخوان المسلمون فى السجن، وأفرج عنهم فى الجمهورية الثانية عام ١٩٧٠م، فأخرجوا من السجون بعد أن تحولوا داخلها إلى جماعات رفض تحت أثر التعذيب. وكتب سيد قطب «معالم فى الطريق». وكون شكرى مصطفى «جماعة المؤمنين» والتى سمتها أجهزة الأمن « التكفير والهجرة ». ورد عليهم الهضيبى فى بداية الظاهرة فى «دعاة لا قضاة». واغتيل الشيخ الذهبى وزير الأوقاف فى ١٩٧٦م للرد عليهم. وبعد مظاهرات يناير ١٩٧٧م باسم الناصرية ضد غلاء الأسعار قرر النظام الاستعانة بهم لتصفية الناصريين. ولما ذهب رأس النظام إلى القدس فى نوڤمبر من نفس العام ليجد أحلافًا فى الخارج بعد أن فقد الحلف مع الشعب فى الداخل، وعقد معاهدة كامب ديڤيد فى ١٩٧٨م، واتفاقية السلام فى ١٩٧٩م، انقلبت عليه الجماعات، وتخلصت منه فى سبتمبر ١٩٨١م، ومنذ ذلك الوقت عرف الناس تشكيل جماعة الجهاد التى فر أعضاؤها إلى السودان للتمرين، أو أفغانستان للجهاد، أو إلى المدن الأوروبية للتنظيم والتنظير.

٣ - والجهاد فى سبيل الله ركن من أركان الإسلام، تطبيق للشهادة على الأرض، وتحقيق لشعار « لا إله إلا الله» بنفى آلهة العصر المزيفة، الكبر والخيلاء، والتسلط والثروة والشهرة والغرور والتعالى على رقاب الناس، أفرادًا وشعوبًا حتى يتساوى الجميع أمام الإله الواحد القهار، والشباب فى حاجة إلى قضية، والطهارة والبراءة والتضحية فى حاجة إلى ولاء ورؤية. ولما غامت الرؤية فى مصر، وصعب

التفرقة بين الصديق والعدو، فقد اختلف وزراء الخارجية العرب فى أحد اجتماعاتهم حول تحديد الصديق والعدو، هل العراق أم إيران أم إسرائيل أم الولايات المتحدة الأمريكية؟ فى حين لم يختلف وزراء الداخلية العرب عن تحديد من هو العدو، الحركات الأصولية والجماعات الإسلامية وكل من يهدد استقرار الأمن وثبات النظام، لم يجد الشباب إلا أفغانستان ليقوم بالجهاد. ومن لم يجاهد مرة واحدة فى حياته مات ميتة جاهلية. وكان زهرة العرب الأفغان شباب مصر، جنوداً وقادة، وساهموا فى النصر على جيش الاحتلال السوفييتى لأفغانستان. ولما انتهى العدوان ذهبوا إلى الجهاد فى كل أرض يجب فيها ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠]. وكان مثال العدوان فى البوسنة والهرسك وكوسوفا، العدوان الصربى، وفى الشيشان، العدوان السوفييتى، وفى الهند، العدوان الهندى على كشمير. المعركة واضحة، العدوان الخارجى على دار الإسلام. ثم غامت الرؤية واختلط الأمر عندما دخلوا طرفًا فى الصراعات الداخلية بين الفرقاء المسلمين، وناصروا فريقًا على فريق، خاصة فى أفغانستان. كان الأولى العودة إلى الأوطان لمن استطاع أو البقاء فى أى بلد لنشر الدعوة. وما أحوج البلدان إليهم فى إندونيسيا، حيث عشرات الآلاف من الجزر فى حاجة إلى الدعاة، عودة إلى الفتوحات الأولى، بخيال الشباب ورومانسيته. فالجهاد لا حدود له كما فعل المجاهدون من كل الأقطار فى فلسطين، وكما فعل كثير من الأوروپيين فى الحرب الأهلية فى إسپانيا مناصرة للجمهوريين فى الجنوب ضد الملكيين فى الشمال. وقد كان الجنوب يحمل لواء التحرر من آثار الأندلس ضد الشماليين من آثار قشتالة.

٤ ـ وكان التعليم الأزهرى يرسخ الإسلام المحافظ ويوطد دعائمه، الإسلام الشكلى الحرفى الذى يعتبر الدين غاية فى ذاتها دون أن يكون أداة لتحقيق مصالح العباد، وأن الشريعة هدف فى حد ذاته دون أن تكون وسيلة لتحقيق مصالح الناس. الأزهر فى مصر فى الغرب من أفغانستان، وديوباند فى الهند فى الشرق. وأصبحت آسيا محاصرة من الجهتين بالتعليم الدينى المحافظ، غاب خريجو الجامعات المصرية والعربية التى أنشئت لحمل لواء الحداثة، وكليات دار العلوم التى

أنشئت من أجل الجمع بين القديم والجديد، الأصالة والمعاصرة، الماضى والحاضر. فنشأت الحركات الإسلامية فى آسيا محافظة ترفض الحوار، تكفر الخصوم، وتنادى بتطبيق الشريعة وتعنى قانون العقوبات، الحدود والكفارات دون مراعاة للأسباب والشروط والموانع كما قال الأصوليون القدماء، وكلما زاد التغريب ارتد الناس إلى الإسلام المحافظ للتمترس به وحماية النفس وتأصيل الوجود. والإسلام فى ظروفه الآسيوية محافظ بطبعه لوجوده بين الملل الأخرى من الهندوكية والبوذية والمسيحية وبقايا الوثنية، ولتبادل الهوية بين الدين والعرق، والمذاهب والقبلية. أحيانًا يتم الحوار والتجاوز وأحيانًا يكون الصراع والقتال. ولما كانت النخبة الحاكمة فى الدولة علمانية الاتجاه، غربية التكوين، اتسعت الهوة بين الحاكم والمحكوم، بين النخبة والجماهير، خاصة فى نظم حكم تسلطية. ازدادت الجماهير سلفية حفاظًا على الهوية وبحثًا عن أعماقها فى الماضى هروبًا من الحاضر.

٥ ـ وللأفغان دين على مصر منشأه جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الإسلامية كما هو مكتوب أسفل نصبه التذكارى الرخامى الأسود فى حرم جامعة كابول. فهو الذى فجَّر الثورة العرابية فى مصر، وهو الذى وضع شعار «مصر للمصريين». وتلميذه محمد عبده هو الذى حرر برنامج الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل ومحمد فريد حتى فتحى رضوان. وسعد زغلول مفجر ثورة ١٩١٩م تلميذ محمد عبده. فالحركة الوطنية المصرية بنت الحركة الإصلاحية. لا يكفى أن ترفض مصر أن تكون عضواً فى التحالف الأمريكى البريطانى للعدوان على أفغانستان بل أن تدخل قلبها وثقافتها، كما فعلت عندما أرسلت مفتى مصر مع مفتى قطر والشيخ القرضاوى وغيرهم إلى علماء أفغانستان لبحث أوضاعهم بما فى ذلك النقاش العلمى الفقهى الجاد حول تدمير التماثيل. إن مسلمى آسيا هم الذين جمعوا الأحاديث أولاً ثم أبدعوا العلوم والرياضيات، وصاغوا الفلسفات ثانيًا. ولا فرق بين ولاية الفقيه فى إيران ودور العلماء فى أفغانستان. فالشرعية من الدين والحكم من الشريعة، والفتوى من الإجماع. كما حمل الأفغانى إلى مصر الثورة الوطنية فإن على مصر أن تحمل إلى أفغانستان التحديث والنهضة والإسلام المستنير الذى قدر لمصر أن تحمله قبل أن يكبو إبان الثورة المصرية ويتحول إلى إسلام

سلفى من جراء الاضطهاد والتعذيب والاستبعاد والتهميش. إن «الإسلام الاجتماعى» أو «الإسلام التقدمى» بتعبير التونسيين، أو «اليسار الإسلامى» بتعبير المصريين قادر على أن ينتشر من جنوبى شرق آسيا فى إندونيسيا وماليزيا إلى أواسط آسيا فى أفغانستان. كما أن «الإسلام الثورى» أو «الإسلام الشعبى» بتعبير على شريعتى قادر أيضًا على أن يمتص عاطفة الجهاد أولاً عند الشباب نحو العقل والتنظير قبل الممارسة والتحقيق حتى يعود إلى أفغانستان جمال الدين الأفغانى من مصر مجددًا ومطورًا فى مئويته الأولى (١٩٨٧ - ١٩٩٧م).

٦ - إن دور علماء مصر والسعودية والعالم الإسلامى هو عقد مؤتمر المصالحة الوطنية بين الفرقاء الأفغان عندما اندلعت الحرب الأهلية دون انتظار استفحال الأمر حتى العدوان الأمريكى، ومساعدة فريق ضد فريق، وكما فعلت السعودية فى مؤتمر الطائف لإنهاء الحرب الأهلية فى لبنان. إن علماء المسلمين أولى بتحقيق الوفاق الوطنى فى مكة أو المدينة أو القاهرة بدلاً من بون وبمساعدة وزراء الخارجية الأوروبيين وممثل الأمم المتحدة. وكأن المسلمين لا يعرفون إلا الاقتتال فيما بينهم، ولا يتحاورون إلا على موائد الغير. والصلح خير من المبادئ الإسلامية. وقد يطالب الأمريكيون بثمن المصالحة، القواعد العسكرية أو انتشار قوات الأمم المتحدة أو المنظمات الدولية، أو التوجه نحو الغرب فى السياسات الخارجية أو تسليم المجاهدين العرب الأفغان وأعضاء تنظيم القاعدة، الكبير قبل الصغير، والقائد قبل الجندى، امتهانًا للكرامة، وتجريمًا للجهاد، وإذلالاً للمسلمين ودرسًا لهم ألا يقاتلوا العدوان الخارجى باسم الإسلام ووحدة الأمة، وإلا كانوا مجرمى حرب ما دام الانتساب الآن للدولة القطرية.

٧ - ومصر جندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة. فتحها عمرو بن العاص حتى بعد أن جاءه خطاب عمر بالتوقف إن لم يكن قد دخلها. وأقباط مصر أصهار وأنساب للرسول بعد أن تزوج منها مارية القبطية. كانت مصر على علاقة سابقة بشبه الجزيرة العربية. بل إن الرسول فى «البخارى» ينطق ببعض الألفاظ القبطية والحبشية. والأفغان كذلك، أهل شجاعة وحرب، صحراويون

مثل عرب الصحراء، أصحاب نقاء وطهارة، ما زالوا يعيشون خيال الفتوحات، وعصر الصحابة، وأيام الخلفاء. الأزهر فى مصر ما زال دار العلم الأول للمسلمين فى آسيا. وما زالت الكتب الإسلامية والتراث الإسلامى أزهر ما تكون فى مصر. الشجاعة والعلم يميز الشعبين، وكما لاحظ جمال الدين. والشعب الأفغانى الآن فى محنته لا تنقصه الشجاعة بل يحتاج إلى العلم. وشعب مصر الآن لا ينقصه العلم بل فى حاجة إلى مزيد من الشجاعة. شجاعة الأفغان وعلم المصريين والطريق إلى توحيد طاقات الأمة وإمكانياتها للوقوف من جديد فى مواجهة العدوان الخارجى فى أفغانستان وكشمير والشيشان وفلسطين واحتمال وقوعه على إيران والعراق وسوريا ولبنان والسودان.

٨ـ ومصر تحب آل البيت، الحسن والحسين والسيدة زينب وفاطمة الزهراء. مذهبها سنى، وهواها شيعى. أزهرها كان مدرسة شيعية منذ المعز لدين الله الفاطمى حتى حوله صلاح الدين إلى معهد سنى. زيارة قبور الأولياء والصالحين جزء من التدين الشعبى. إن مدائح النبوة خرجت من مصر إلى أواسط آسيا. والفرق الصوفية بدأت فى مصر وتركيا وانتشرت فى ربوع آسيا، النقشبندية. جاء التنزيل وعلوم الظاهر من ديوبند أولاً، والرهبانية ثانيًا، والسلفية ثالثًا. والآن يجىء «التأويل» وعلوم الباطن من مصر من ذى النون وابن الفارض، جمعًا بين التنزيل والتأويل، الظاهر والباطن، العقل والقلب، النظر والذوق. وأفغانستان كذلك، نشر الإسلام فيها الصحابة الأوائل. وفى أواسط آسيا تم جمع السنة. وفيها قام القواد العظام مثل محمود الغزنوى. حنفية المذهب، ماتوريدية العقيدة، ومن سكانها شيعة، رمز التعددية المذهبية. وهى فى حاجة إلى الوحدة مع التنوع، وحدة الشعب الأفغانى مثل وحدة المصريين بصرف النظر عن تعددية الملل والأعراق والطوائف.

٩ـ وكما أن النووى الباكستانى والإيرانى أصبحا مصدر قلق وخوف من الهند ومن إسرائيل وأمريكا فى الغرب، فإن دخول مصر فى تحالف آسيوى كبير يكون رصيدًا للعروبة ودرعًا للوطن العربى الذى لا يمتلك أسلحة الدمار الشامل،

مصلحة إسلامية عامة. وقد عوقب العراق بالحصار لأكثر من عشر سنوات بتهمة امتلاك السلاح النووى أو الكيميائى وكافة أنواع أسلحة الدمار الشامل. وإسرائيل مدججة بالسلاح النووى والكيميائى، ولم توقع حتى الآن على معاهدة عدم انتشار أسلحة الدمار الشامل. وإن وقعت فلن تتوقف عن التسليح، وإن توقفت فأمريكا مخزونها الاستراتيجى الضخم فى الأوقات العصيبة ولحظات الخطر. فالحروب القادمة قد لا تكون حروبًا تقليدية، جيش فى مواجهة جيش فى جبهة ثابتة بل القضاء على إرادة القتال عند العدو عن طريق الردع أو التدمير الكامل كما فعلت أمريكا مع يوغسلافيا والآن مع أفغانستان.

١٠ - لو أن مصر تتعادل فى سياستها بين الغرب والشرق، بين أوروبا وآسيا لاستطاعت أن تكون مركز جذب لمسلمى أواسط آسيا، كما هى مركز جذب لمسلمى أفريقيا ولجنوب شرق آسيا خاصة الملايو وإندونيسيا. لو أن مصر قوّت جناحها الآسيوى فى قوة جناحها الغربى لما انحرفت فى سياساتها غربًا، ولا انعزلت عنها شرقًا. وكما أن مصر محط أنظار المغرب العربى ومركز العروبة فى أفريقيا، فإن أفغانستان قلب العالم الآسيوى الإسلامى وبلا حدود مع پاكستان وإيران فى الجنوب، وأوزبكستان وطاجكستان وتركمانستان والصين من الشمال تستطيع أن تكون مركز الثقل الآسيوى بدلاً من الولايات المتحدة الأمريكية التى وضعت قدمها فى قلب آسيا قبل أن تضع القدم الثانية فى جنوب شرقها، بعد أن تبنى قواعد جديدة فى تيمور الشرقية وربما أتشيه وهى تخطط لانفصالها وتفتيت إندونيسيا أكبر بلد إسلامى، كما فتتت يوغسلافيا وتريد تفتيت العراق، وبديلاً عن قاعدتها فى الفيليپين. إن مصر وإن كانت صغيرة حجمًا بالنسبة للولايات المتحدة إلا أنها عظيمة قدراً، فى قلوب العرب والمسلمين. هى الأخ الأكبر الذى استطاع الحفاظ على التراث الإسلامى ومصالح الأمة فى لحظات الخطر العظمى، أثناء الغزو الصليبى من الغرب والاجتياح المغولى من الشرق. وهى المنتصرة مع سوريا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م. وهى قادرة على رفع هامة المسلمين فى آسيا كما استطاعت رفع هامة العرب فى آسيا وأفريقيا.

٥ـ تحدى العرب لنضالهم

١ ـ إن الصورة التى أعطتها أفغانستان للإسلام، الإسلام المحافظ، تمثل تحديًا للعرب ونضالهم فى تاريخهم الحديث منذ فجر النهضة العربية. فقد رأى الطهطاوى الإسلام فى مرآة الغرب وتعرف على التنوير، مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، ووجد التماثل بين المدنية فى الغرب والعمران عند ابن خلدون، والعقلانية الغربية، والحسن والقبح العقليين عند المعتزلة، والعقد الاجتماعى عند روسو، والبيعة فى الشريعة والصناعة (أندوستريا) والمنافع العمومية. كما أخذت الحركة الإصلاحية التى أسسها الأفغانى وتلميذه محمد عبده الغرب الليبرالى نموذجًا للتحديث، الملكية المقيدة، والدستور، والتعددية الحزبية، والبرلمان، وحرية الصحافة، والفصل بين السلطات، وتربية البنات والبنين. كما تبناه أيضًا التيار العلمى العلمانى عند شبلى شميل باسم فصل الدين عن الدولة وتقليد الغرب دون تجديد التراث أو قراءة الأنا فى مرآة الآخر. وازدهرت النهضة فى مصر والشام. واستقبل العرب الأفغانى والندوى والمودودى وإقبال ومولانا أبا الكلام أزاد بكل ترحاب. ومع ذلك لم يشع فجر النهضة العربية خارج الحدود، وظلت آسيا الوسطى عازفة عن أن تأخذ النهضة العربية نموذجًا لها. فقد ارتبطت بالغرب أكثر من ارتباطها بالشرق، بالرغم من إعجاب الإمبراطور ميجى فى اليابان بنهضة محمد على، وإرساله رسلاً لمعرفة النموذج العربى. وهو درس للعرب أن يفتحوا الحدود. فالعروبة ليست القومية بل هى اللسان والثقافة، كما هو الحال فى أفغانستان الطالبان. يبدو أن عزلة الصحراء وحصار أفغانستان بين إيران وباكستان

(*) جريدة الزمان: ديسمبر ٢٠٠١م.

ولديها نوافذ على البحر، وتركمانستان، وطاجكستان وأوزبكستان والصين، وهى أيضًا مناطق صحراوية خالصة، جعلت الإسلام فى قلوب الأفغان أيضًا إسلامًا محاصراً فى المكان والزمان، جوهراً ثابتًا تكلس فى التاريخ. فالحداثة تنتقل إلى آسيا عبر البحار فى حين تنتقل المحافظة عبر سهول آسيا الوسطى.

٢ - وقد حمل الأفغانى معه للعرب الثورة وعلى العرب رد الجميل. فالإسلام فى أفغانستان إسلام ثائر ضد الطغيان من الداخل أو من الخارج، يعبر عن طبيعة الجبل والصحراء. وما زال يدور فى خيال فتوحات الصحابة والحفاظ على السنة بالرغم من انتماء أهل السنة إلى الفقه الحنفى الذى يقوم على العقل والنظر والرأى. ألهبت تعاليم الأفغانى الثورة العرابية فى مصر. وكانت وراء صيحة عرابى فى عابدين فى وجه الخديوى توفيق، « إن الله خلقنا أحراراً ولم يخلقنا عقاراً، والله لا نورث بعد اليوم». كما ساعدت على إشعال الثورة المهدية فى السودان. وقاوم العثمانيين الذين كانوا يودون إبقاء السلطنة العثمانية على ما هى عليه مثل أبى الهدى الصيادى من سوريا. ولم يصل ترشيد الثورة وتعقيلها عند محمد عبده الشعب الأفغانى بعد أن التحق به إلى باريس، وبعد أن نفى فى بيروت. لم ينشأ فى أفغانستان تنوير إسلامى من آثار محمد عبده تلميذ الأفغانى. وسار أمان الله خان فى النموذج الغربى مقتفيًا آثار كمال أتاتورك. فحدث رد الفعل عليه، تمسك الشعب الأفغانى بتراثه القديم الذى تغلب عليه المحافظة والتقليد. ولما قامت الانقلابات الماركسية على النظام القديم، اشتدت المقاومة الإسلامية، من ماركسية إلى سلفية. غاب الوسط وحضر الطرفان النقيضان. غاب الإصلاح وأصبح الشعب الأفغانى حائراً بين العلمانية والأصولية. وكما هو الحال فى تركيا حيث ترتد جموع الشعب التركى إلى جذوره الثقافية فى حين أن العلمانية ما زالت تسيطر على النخبة خاصة الجيش وريث الكمالية. وعزز هذا الاستقطاب الموجود فى الوطن العربى فى مصر والجزائر وتونس والسودان من الاستقطاب الموجود فى أفغانستان. ضاع التنوير فى بر مصر والشام ولم يصل إلى أفغانستان لا فى البداية ولا فى النهاية.

٣ـ لقد تعلم الطالبان العربية، يتحدثونها بطلاقة، فهى لغة القرآن والعلم، ولكن لم تتحول اللغة إلى ثقافة وأدب. ظلت اللغة العربية حاملة للثقافة التقليدية وبعيدة عن أن تكون أداة للتحديث. لم يعرف الأفغان النهضة العربية اللغوية والأدبية الحديثة. وغاب عنهم طه حسين ومحمد حسين هيكل والعقاد والرافعى والبستانى واليازجى وغيرهم من المفكرين والكتّاب الإسلاميين المحدثين الذين يأخذون الزمن والتطوير بعين الاعتبار، ويعيدون قراءة الإسلام التقليدى قراءة إصلاحية «ليبرالية» حديثة استئنافًا لروح محمد عبده، تلميذ الأفغانى. فاللغة العربية والعلوم الدينية لا تكفيان دون الثقافة. بل إن الإسلام نشأ كثقافة عربية جديدة وسط الثقافات العربية التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية، محاوراً ومطوراً لها. تحدى العرب هو نقل الثقافة العربية الإسلامية الحديثة إلى أفغانستان وأواسط آسيا عن طريق البعثات التعليمية إلى الجامعات العربية وليس فقط إلى معاهدها الدينية التقليدية المشابهة للمعاهد «الديوباندية» التى منها خرجت الثقافة التقليدية، تحتاج أفغانستان إلى مدرسة «عليكرة» ليخرج منها محمد إقبال، الأفغانى الذى يجمع بين القديم والجديد، بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث والتجديد، بين الماضى والحاضر حتى لا تتكرر مأساة أفغانستان فى وقوعها بين النقيضين الماركسية والسلفية، والبنية واحدة لم تتغير الحرفية والمحافظة والشمولية، فتستقطب الإصلاحيين بدلاً من السلفيين.

٤ـ وبالرغم من ضعف المساهمات العربية فى صياغة «الثقافة الوطنية»، والتى ما زال يغلب عليها الصراع بين مكونيها الرئيسيين، السلفية والعلمانية، إلا أن محاولات الطهطاوى فى «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» وخير الدين التونسى فى «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» تمثل نماذج يمكن الاسترشاد بها فى صياغته، ثقافة وطنية أفغانية تتجه لمحاولة الأفغانى فى الكتابة «تتمة البيان فى تاريخ الأفغان»، والانتقال من تاريخ الدول إلى تاريخ الثقافات، فالثقافة الوطنية هى التى تحمى الشعب من انقسامه إلى معسكرات متناحرة للصراع على السلطة باسم السياسة، والسياسة فى بلادنا ثقافة، والثقافة سياسة، والتناحر بين الثقافات لا يقل خطورة عن الصراع بين القوميات والعرقيات. ودونها يظل

ابن تيمية زعيم الإصلاحيين المحدثين، تمتد جذوره إلى أحمد بن حنبل وأوراقه إلى محمد بن عبد الوهاب ورشيد رضا، وثماره فى سيد قطب الأخير، صاحب «معالم فى الطريق». بل ويعاد قراءة التاريخ الإسلامى كله من منظور سلفى، تهميشًا للإصلاح وتكفيراً للعلمانية.

٥ - ويتحمل العرب جزءاً من مأساة الشعب الأفغانى بعد أن فقدوا حمية الاستقلال ونضالهم من أجله. نجح العرب فى النضال ضد الاستعمار أولاً، وكانوا أقل نجاحًا فى بناء الدولة فى مرحلة ما بعد الاستقلال. استأثرت فرقة واحدة بالحكم، واستبعدت الفرق الأخرى. تسلطت الدولة، وقهرت اليوم رفاق الأمس. وبعد أن حققت شعبيتها وتأييدها فى الداخل بحثت عن الأحلاف فى الخارج لدى أعداء الأمس، أمريكا وإسرائيل. فتحولت من الاستقلال إلى التبعية، ومن اشتراكية الدولة إلى رأسمالية الطبقة، ومن القطاع العام إلى القطاع الخاص، ومن الإنتاج إلى الاستهلاك. فقامت المعارضة وفى مقدمتها المعارضة الإسلامية لاستئناف النضال الوطنى ضد الدولة القاهرة فى الداخل، قريش والجيش، والدولة القاهرة فى الخارج، أمريكا وإسرائيل. ولما وقع الصدام بينهما فرت المعارضة الإسلامية إلى الخارج لاستكمال نضالها المشروع واستئناف حركات التحرر الوطنى فى أفغانستان والبوسنة والهرسك وكوسوڤا وكشمير والشيشان. تحدى العرب لنضالهم هو أولاً استئناف حركات التحرر الوطنى، والتحول من الاستعمار إلى التحرر فى الماضى إلى مرحلة جديدة من التحرر من الاستعمار الجديد إلى التحرر الجديد الاقتصادى والسياسى والثقافى. ثانيًا استرجاع حركات المعارضة الإسلامية من الخارج إلى الداخل، والاعتراف بها كحركات سياسية شرعية فى صورة أحزاب سياسية أو جماعات كما كانت جماعة الإخوان المسلمين من قبل حتى تتطور فى جو صحى، وتصبح قادرة على الحوار مع باقى القوى السياسية ومع الدولة الديموقراطية التى تقوم على التعددية الحزبية والانتخابات الحرة، النموذج الذى شاع فى فجر النهضة العربية، وقضت عليه الثورات العربية الأخيرة. وما زلنا نحنّ إليه كما يحن السلفيون إلى الخلافة الراشدة، والناصريون إلى الخمسينيات والستينيات، والماركسيون إلى الثورة البلشفية.

٦ - لقد قبلت بعض الأقطار العربية هذا التحدى السياسى لنضالها الحديث من قبل. واعترفت بشرعية الحركات الإسلامية فيها مثل الأردن والكويت واليمن ولبنان. اعترفت الأردن بالأحزاب الإسلامية، ومن ضمنها الإخوان المسلمون. وأصبحت جزءًا من الحياة النيابية. يأمل فيها الناخبون أولاً فتصوت لها بعد طول حرمان منها. ثم ينحسر المواطنون عنها ثانيًا بعد أن يدركوا أن الكلام سهل والفعل صعب، وأن الشعار غير الحقيقة. واعترفت الكويت واليمن بالحركات الإسلامية فيها، حزب الإصلاح، فنشطت الحياة النيابية فيهما معًا. وانحسر العنف منها طالما تعبر عن نفسها فى إطار شعبى ديموقراطى. وكانت فرصة لتحول نفسها إلى برامج اجتماعية سياسية إصلاحية، تتفق وتختلف مع برامج الأحزاب والقوى السياسية الأخرى. أما التجربة اللبنانية فهى تجربة فريدة فى الوطن العربى، إذ استطاع حزب الله أن يقوم بتحرير الجنوب المحتل كحركة وطنية لبنانية. وفى نفس الوقت تدخل المعركة الحزبية، ويكون لها نوابها فى البرلمان. بقى الدور على مصر وليبيا وتونس وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية فى وسطها وفى طرفيها الجنوبى الشرقى فى عمان والإمارات. فليس من المعقول أن تكون فى مصر أحزاب ليبرالية وناصرية وقومية وأحزاب خضر وأخرى وهمية، وليس فيها جماعات إسلامية شرعية تعبر عن الأغلبية الشعبية والتى تصوت لممثلى الحركة الإسلامية فى الاتحادات والنقابات المهنية والطلابية والنوادى والمؤسسات. وليس من المعقول أن تظل الحركة الإسلامية فى العراق بعيدة عن المعترك السياسى ومهاجرة خارج الوطن فى الشرق والغرب. ولا يكفى إخراج الإخوان المسلمين من السجون فى سوريا كى تصبح الحركة الإسلامية شرعية. تساهم فى النضال الديموقراطى، وتقوم بدوره فى تحرير الجولان كما فعل حزب الله فى جنوب لبنان. بل إن الحركة الإسلامية فى تونس قد وصلت إلى مستوى متقدم فى الاعتراف بالتعددية السياسية وبحقوق المرأة وبقبول الأسلوب الديموقراطى فى الحكم، ولكنها ما زالت غير شرعية فى الداخل وقياداتها مهاجرة فى الخارج. وإن حضور حركة إسلامية شرعية فى ليبيا فيه تقوية للنهج العروبى الوطنى المستقل للجماهيرية. والاعتراف بالحركات الإسلامية الإصلاحية حول حقوق الإنسان فى شبه الجزيرة العربية تطور طبيعى للنظم

السياسية التقليدية إلى النظم السياسية الحديثة، تطور سلمى دون تحول من النقيض إلى النقيض على النمط السودانى. وقد تشجعت البحرين فى تجربتها الأخيرة، وعادت المعارضة فى إطار رضا وطنى عام وإجماع على ضرورة المصالحة الوطنية. والمغرب ما زال يتأرجح بين جماعات إسلامية تقليدية تؤيد النظام وجماعات إسلامية جديدة تنقد وتوجه وتتجاوز وترفض من الجذور.

٧ـ وأن مأساة الجزائر لجزء من مأساة شعب أفغانستان، سيادة المحافظة الدينية، والقوى الإسلامية المحافظة على الحياة الوطنية فى البلاد. وكما انتصر الشعب الجزائرى بكل فصائله كجبهة تحرر وطنى على الاحتلال الفرنسى انتصر الشعب الأفغانى بكل فصائله كحركة جهاد وطنى على الغزو السوفييتى. وكما تعثرت الجزائر فى بناء الدولة الداخلية ومواجهة المشاكل الاجتماعية والسياسية وسيطرة الحزب الواحد، وإثراء الطبقة الحاكمة، وظهور الإسلام كحركة احتجاج شعبى تسد الفراغ السياسى، كذلك تعثرت أفغانستان فى إجراء التغيير الاجتماعى بين انقلابات عسكرية ماركسية يؤيدها الاتحاد السوفييتى لدرجة الغزو المباشر والمقاومة الإسلامية الجهادية التى نجحت فى طرد العدو الأجنبى ثم تعثرت فى البناء الداخلى للدولة بين فصائل متناحرة، لا هدف لكل منها إلا الاستئثار بالسلطة بمفردها، فهى الفرقة الناجية فى الجنة، وغيرها فرق هالكة فى النار. إن تحدى العرب لنضالهم ونهضتهم هو كيفية إعطاء نموذج فى الداخل لنهضة الأمة الإسلامية حولها، يوحد ولا يفرق، يجمع ولا يشتت، يحاور ولا يقاتل، يعترف بشرعية الاختلاف ويكتشف روح التعددية فى التراث القديم.

٨ـ إن تحدى العرب لنضالهم يتمثل فى دعمهم المطلق لنضال الشعب الفلسطينى، حكومات وشعوبًا، بالمال والسلاح. فالإسلام الآسيوى يتجاوز فى أطروحاته بالنسبة للقضية الفلسطينية أطروحات العرب، تحرير فلسطين كلها فى مقابل إزالة آثار العدوان فى ١٩٦٧م، وإقامة دولة فلسطينية مستقلة فى الأراضى المحتلة، وعاصمتها القدس الشرقية أى فيما لا يتجاوز ٢٢٪ من أرض فلسطين. إن تنظيم القاعدة يحتج علينا بالقضية الفلسطينية، ويسحب البساط من تحت أقدام

العرب. وقد غيّر وجهة نظر العالم للقضية بعد أحداث ١١ سبتمبر الماضى. صحيح أن القضية الفلسطينية ليست حكراً على العرب وحدهم، ولكن تحدى العرب لأنفسهم إنما يكمن فى كيفية الخروج من حالة العجز والإحباط واللامبالاة بالنسبة للانتفاضة التى يسقط منها الضحايا كل يوم، ثم تجد من يؤازرها فى تنظيم القاعدة أمام الأشهاد، ويقف أمام الولايات المتحدة متحدياً إياها بالنزال وهى أكبر نصير للكيان الصهيونى.

٩ ـ لقد تخلى العرب عن نضالهم ضد مظاهر الاستعمار الحديث وأشكاله الجديدة مثل العولمة. وقبلوا الدخول إلى بيت الطاعة. وأعلن بعض قادتهم أن أمريكا بيدها ٩٩٪ من أوراق اللعبة السياسية فى المنطقة العربية، وفى مقدمتها القضية الفلسطينية. وينقسم العرب على أنفسهم أثناء حرب الخليج الأولى أثناء غزو العراق لإيران، نصف مع، ونصف ضد. كما ينقسمون أثناء حرب الخليج الثانية، غزو العراق للكويت، «نصف مع ونصف ضد». وانضمت بعض القوات العربية فى عاصفة الصحراء مع القوات الأمريكية لضرب العراق. وما زال العراق محاصراً تقذفه قوات التحالف الأمريكى البريطانى كل يوم. كما اعتدت الولايات المتحدة على ليبيا وحاصرتها بلا تهمة ثابتة، وبمجرد شبهة. وتهدد الآن السودان واليمن وسوريا ولبنان. ثم يقف الشعب الأفغانى وحده يتحدى أمريكا بالرغم من الفارق الشديد فى العتاد والسلاح. تقوم أفغانستان بطريقتها بما كان العرب يودون القيام به. إن العداء للولايات المتحدة الأمريكية يقوى يومًا بعد يوم ليس فقط فى الوطن العربى والعالم الإسلامى، بل داخل أوروبا ذاتها وداخل أمريكا. التحدى العربى هو كيف يستطيع العرب أن يكونوا قطبًا ثانيًا بمفردهم أو مع العالم الإسلامى، والأفريقى الآسيوى، أمام القطب الأوحد الأول، وأن يقوموا بالتحدى بطريقة أكثر وعيًا وبأساليب أكثر رشدًا، وعلى نحو أكثر قبولاً من العالم بدلاً من حرب الرموز وأساليب الكر والفر وقطع طريق القوافل والغزوات التى ربما تنجح فى البداية لإيقاظ الخصم وانتباه الرأى العام. وقد لا تكفى فى النهاية لتحقيق الهدف. قد تثير الخيال ولكن قد يتساءل العقل عن الجدوى. قد تكون حيلة العاجز المؤقتة ولكن ليس سبيل القوى القادر على تحقيق النضال المشروع، التحرر من القهر، وعدم الكيل بمكيالين، ومواجهة القوة بالعدل.

١٠ ـ صحيح أن العرب كانوا أكثر وعيًا هذه المرة، ولم ينضموا إلى التحالف الأمريكى البريطانى بإرسال قوات لضرب أفغانستان. فلا يجوز للمسلم استعداء الأجنبى على أخيه المسلم. ولأول مرة فى تاريخ العرب المعاصر، يصبح الخطاب الرسمى قريبًا من الخطاب الشعبى فى رفض العدوان على أفغانستان دون تفويض دولى من الأمم المتحدة، ودون اتهام ومحاكمة وإدانة منها أو من محكمة العدل الدولية. أعطوا أمريكا كلامًا دون أفعال مباشرة كما تعطى أمريكا فلسطين والعرب كلامًا دون أفعال. أعطوا أمريكا معلومات استخبارية ولم يأخذوا شيئًا منها. ومع ذلك تظل أمريكا تمثل للعرب وربما للعالم الثالث كله وفى داخل الغرب ذاته «الشيطان الأكبر» بتعبير الثورة الإسلامية فى إيران الذى يجب الحذر منه أو العدو اللاشعورى الذى يجب الخوف منه، ورمز القوة والعظمة والغنى والتفرد والسيطرة والظلم الذى يود الضعيف والمقهور والمهمّش والمظلوم التخلص منه كما حدث فى سبتمبر ضد هذه الرموز للقوة الاقتصادية والعسكرية، مركز التجارة العالمى والپنتاجون. وتعرف النظم المحافظة فى الوطن العربى أن أمريكا لا صديق لها. كما تعرف النظم الأقل محافظة أن التناقض الثانوى يغيب فى حالة التناقض الرئيسى، وأنه بالنسبة لقضايا الأمة المصيرية مثل حق الشعب الفلسطينى، وحماية الأمة من العدوان، لا خلاف بين العرب، ولا فرقة بين المسلمين.

* * *

٦ـ تحدى المسلمين لوحدتهم

١ ـ وتمثل حوادث سبتمبر الأخيرة تحديًا للمسلمين فى وحدتهم، وحدة الأمة التى هى تعبير عن وحدة الله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[البقرة: ١٦٣]، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] إذ يخطط لآسيا، والمسلمون أكبر تجمع سكانى فيه مثل الصين والهند، ضرب الإسلام الآسيوى بالإسلام الآسيوى، ضرب أفغانستان بباكستان بدخول باكستان كعضو فى التحالف الأمريكى البريطانى وضرب إيران بأفغانستان وأفغانستان بإيران، الشيعة بالسنة والسنة بالشيعة دفاعًا عن الهازارا الشيعة فى أفغانستان، وكما حدث بالفعل بعد حادث مقتل الديپلوماسيين الإيرانيين الأحد عشر فى أفغانستان لجر إيران للحرب، وإشعال وقود الحرب الأهلية الأفغانية، وتحويلها إلى حرب بين الدول الإسلامية المتجاورة. وتتطور الحرب بين الفصائل داخل الدولة إلى الجيوش النظامية بين الدول باسم الطائفية، سنّة أفغانستان مع شيعة إيران.

٢ ـ ويتحول الفتيل الأفغانى إلى نار كبرى تعم آسيا الوسطى كلها. ويكبر الصراع بين التحالف الشمالى والطالبان على أنه صراع عرقى بين الطاجيك والأوزبك وبعض الأعراق الصغرى ضد الباشتون، الأغلبية العرقية والتى خرج منها الطالبان. ولما كان الفريق الأول أكثر حداثة من الثانى وأكثر انفتاحًا، وكان الفريق الثانى أشد محافظة وأكثر انغلاقًا، وقعت الحرب فى كل عموم آسيا بين المحافظين والإصلاحيين فى إيران، والإسلاميين والعلمانيين فى تركيا، ويقتتل جناحا الأمة واحدًا ضد الآخر، بدلاً من أن ينهض قلب الأمة بمساعدة الجناحين. فوجود التيارين والتوتر بينهما هو الذى يخلق فى الأمة الحياة والتعددية مثل أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب. **«أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم»**، **«عليكم بسنتى وبسنة الخلفاء الراشدين من بعدى أبى بكر وعمر»**.

٣ـ ثم يتم تفتيت كل بلد إسلامى إلى قبائل وأعراق، تفتيت أفغانستان إلى باشتون وطاجيك وأوزبك، فتثور الأقليات غير الممثلة ضد الأغلبية الحاكمة، وتفتيت پاكستان إلى باشتون وبيتان وغيرها من الأقليات، وتفتيت العراق وسوريا إلى عرب وأكراد، وتركيا إلى تركمان وأكراد، وتفتيت إندونيسيا إلى قبائل ولغات فى جاوه وسومطره. وكما انفصلت تيمور الشرقية تنفصل أتشيه ثم إيريان الغربية. وتعظم المذابح بين المسلمين والنصارى والهندوس حتى تتدخل الأمم المتحدة تحت سيطرة الولايات المتحدة لتفرض الأمن والنظام واحترام حقوق الإنسان. ويتم تفتيت ماليزيا بين صينيين وملاويين كما تم فصل سنغافوره عنها من قبل باسم الأغلبية الصينية، وبين نجد والحجاز فى السعودية، وبين أهل البدو والحضر فى الأردن. ونظراً لتمسك المسلمين فى آسيا بالمذاهب الفقهية يتم إيقاع النزاع بين الشافعية والأحناف فى أواسط آسيا، والسنة والشيعة فى العراق وفى الخليج، وبين السنة والعلويين فى سوريا، وبين السنة والموارنة فى لبنان، وبين المسلمين والأقباط فى مصر. وإن استحال ذلك فى ماليزيا نظراً للحكم الوطنى المستنير فيها، يمكن ضرب عملتها والمضاربة عليها فى أسواق المال العالمية تحت سيطرة القوى الكبرى فتنخفض العملة ويقضى على عائدها الاقتصادى ورأسمالها الوطنى. ويمكن ضرب الإسلام الآسيوى بالإسلام العربى فى الخليج دفاعًا عن الأرزاق، «وفى الأوطان رزق للجميع».

٤ـ ويمكن تفتيت الشعوب إذا ما انقسمت حول سياسات نظمها الحاكمة كما حدث فى پاكستان عندما أصبحت عضواً فى التحالف الأمريكى البريطانى على أفغانستان ودخول پاكستان فى التحالف الأمريكى البريطانى، وتقديم تسهيلات وقواعد وأجواء مما يهدد بحرب أهلية بين الحكومة وغالبية الشعب، وقد حدث نفس الشىء فى حربى الخليج الأولى. فقد انقسم العرب بين مناصر لإيران ومناصر للعراق ومناصر لكليهما اتقاء لشرهما معًا. وتكرر نفس الشىء فى حرب الخليج الثانية فانقسم العرب بين مؤيدى التدخل الأمريكى البريطانى ضد العراق وبين معارضيه. فعبقرية التفتيت فى وضع قضايا تقسم العرب والمسلمين كما فعل عمرو بن العاص برفع المصاحف علىّ الرماح فانقسم فريق علىّ إلى خوارج

وشيعة ، إلى رافض للتحكيم وإلى قابل له ، وكذلك مثل كامب ديفيد التى قسمت العرب إلى فريقين ، قابل ومعارض .

٥ ـ ويمكن اتخاذ كشمير ذريعة لإشعال الحرب بين الهند وباكستان ، وتدمير باكستان والهند معًا ، فكلتاهما بركان للسلاح النووى ، وبالتالى تكون الولايات المتحدة قد قضت على باكستان التى تزدهر فيها الحركة الإسلامية التقليدية المناهضة لها والمؤيدة للطالبان وتنظيم القاعدة ، وتخلصت من الهند التى طالما أزعجت الغرب منذ مؤتمر باندونج حتى بلجراد داعية للحياد الإيجابى أثناء الحرب الباردة بعد أن تم تفتيت يوغسلافيا وتهميش مصر . يمكن استعمال الهند تهديداً مستمراً لباكستان من الشرق وإسرائيل من الغرب لتدمير قوتها النووية لإجبارها على دخول بيت الطاعة ، وقهر الحركات الإسلامية فيها المعادية لأمريكا والمتحدية لإرادتها . ومع أن باكستان قد قامت كدولة إسلامية حلاً لمشكلة الصراع بين الهندوس والمسلمين إلا أنها فى توجهاتها ، رأت فى الغرب حليفًا ضد الخطر الهندى الذى قسمها إلى باكستان وبنجلادش فى حرب بين البلدين فى ١٩٧١م ، ولا ضير فى عصر النظام الباكستانى بين الخطر الهندى من الشرق والضغوط الشعبية والإغراء الأمريكى من الغرب حتى يستسلم لأقلهما خطرًا على الأمد القصير وهو التحالف الأمريكى ، فالقادة لا يهتمون بالأمد الطويل حتى ولو كان أحدهم رئيسًا مدى الحياة .

٦ ـ ويمكن انتهاز الفرصة للقضاء على ثورة المورو فى جنوب الفيليبين باعتبارها حركة إرهابية ضد الدولة ، وحركة انفصالية ضد وحدة التراب الوطنى . وقد سارعت رئيسة الفيليبين أرويو بعد أحداث سبتمبر بالذهاب إلى الولايات المتحدة للاستفادة من الاتجاه والحالة المزاجية لضرب الإرهاب فى كل مكان . فى أفغانستان إرهاب كما أن فى جنوب الفيليبين إرهابًا . ويمكن الإيحاء للصين بأن القضاء على الإرهاب فى أفغانستان المتاخمة لها يساعد فى القضاء على الحركات الانفصالية فى سنكيانج . فالإسلام عدوى عامة فى آسيا . ويمكن إقناع روسيا بأن القضاء على الحركة الإسلامية الجهادية فى أفغانستان ، قد يقضى على امتداد أثرها داخل

الجمهوريات الإسلامية المتاخمة لحدود روسيا مثل أوزبكستان، وطاجكستان، وتركمانستان. كما يمكن إشعال نار الشيشان التى لم تنطفئ حتى الآن.

٧- وتحتار النظم السياسية فى آسيا الوسطى، أوزبكستان وتركمانستان وأذربيجان وطاجكستان وقرقيزيا، الجمهوريات السابقة فى الاتحاد السوفيتى بين نارين، نار الولايات المتحدة التى قد تندلع لدى الشعوب الإسلامية إذا ما أيدت هذه النظم العدوان الأمريكى على الشعوب الإسلامية، وقد أفتى العلماء أنه لا يجوز للمسلم معاونة الأجنبى على ضرب أخيه المسلم، وأنه حرام شرعًا، ونار روسيا التى ما زالت لها بالمرصاد، فهم فى بطنها، وما يحدث فيها يؤثر عليها، ووجود الأمريكيين على أراضيها تهديد لروسيا وللصين على حد سواء. ومن ثم تحاصر النظم السياسية فى جمهوريات آسيا الوسطى بين نيران ثلاث، النار الأمريكية التى تجلب الغنى والثروة والمعونات وتحمى من نار أعظم، والنار الروسية الصينية التى تتوعد مناطق نفوذها السابقة، وما زال فى إمكانها الانقضاض عليها أسوة بالشيشان، ونار الحركات الإسلامية الشعبية، الحركات الجهادية التى تطالب بالمحافظة على الاستقلال الوطنى بعيدًا عن التبعية الأمريكية أو الروسية أو الصينية. لقد اختارت پاكستان أن تحترق بنار الحركات الإسلامية. واختارت أوزبكستان وتركمستان أيضًا الاحتراق بالنار الأمريكية أو بالحركات الإسلامية؛ لأنها لم تصل بعد إلى درجة الغليان. واختار جميع القادة الاحتراق بعذاب الضمير والرهان الخاسر، وعذاب النفس، وصعوبة الاختيار بين العدو البعيد من وراء البحار الذى تطول ذراعه الطويلة كل مكان فى العالم، والعدو القريب المتاخم الحريص على ألا تمتد نار الحركات الإسلامية إلى ما تبقى له من مناطق. ففى أقل من خمسين عامًا سيفوق عدد المسلمين فى روسيا عدد غير المسلمين. ويزدهر الصديق العدو، الحركات الإسلامية الشعبية الجهادية التى يدعى القادة تمثيلها والانتساب إليها.

٨- والخليج العربى وما يختزنه فى باطنه من مواد نفطية خام وفى خزانته من عوائد نفطية مهدد فى هويته بين الهوية العربية والهوية الآسيوية بسبب التركيبة السكانية فيه. فأهل البلاد لا يتجاوزون ١٠٪، والمهاجرون العرب لا يتجاوزون

٣٠٪، والآسيويون يتجاوزون ٦٠٪ من مجموع السكان. والبعض مسلمون والبعض الآخر غير مسلمين. ففى حالة اشتعال النار السلفية تكون نظم الحكم هى الضحية. وفى حالة اشتعال نار القومية العربية قد تستعمل النظم الحاكمة الآسيويين لضرب العرب. وإذا اشتعلت نار البؤس والحرمان خاصة عند «البدون» من أجل إحضار عائلتهم والمطالبة بالجنسية تطبيقًا لقوانين الأمم المتحدة، حينئذ يقع الصراع بين الهويتين إلى حد الاقتتال بالسلاح، وفى موجة ديموقراطية لا بد آتية طبقًا لقوانين التاريخ، تكون أغلبية الأصوات للآسيويين، ويصبح العرب هم الأقلية. فتدبر الانقلابات، وتبدأ الهجرة المضادة، من الخليج إلى آسيا من جديد طريقًا لسيناريوهات آخر الزمان.

٩ ـ وترتع إسرائيل الآن فى أواسط آسيا كما تشاء، تلوح بالتعاون الاقتصادى، والاستثمار المشترك، والتنمية المادية والبشرية، وبمد الصلات إلى الغرب عبر الجسر الإسرائيلى. فالطيران مباشر بينهما. والعرب ما زالوا يذهبون إلى أواسط آسيا عبر موسكو أو إيران وتركيا وپاكستان. وقد كتب يهود هاليفى «الخوزارى» ليهود القوقاز، يهود الخزر. فالصلات قديمة. والعرب الأفغان ضررهم أكثر من نفعهم كما حدث فى أفغانستان. وتحاصر إسرائيل الوطن العربى من دائرته الأوسع، الدائرة الإسلامية فى أواسط آسيا كى تتعادل مع الدائرة المعارضة لإسرائيل فى جنوب شرق آسيا، ماليزيا، وإندونيسيا وفى جنوب الوسط، پاكستان وإيران وأفغانستان.

١٠ ـ إن الصحوة الإسلامية الحالية التى بدأت منذ أكثر من عقدين من الزمان استطاعت استئناف حركة التحرر العربى التى خبت وانطفأت حتى عادت أشكال الهيمنة الجديدة باسم العولمة واقتصاد السوق، ونهاية التاريخ وصدام الحضارات. وزادتها حوادث سبتمبر الأخيرة صحوة بعد أن كشف الغرب عن عدائه الدفين للمسلمين والعرب. وأعلن عما صمت عنه، ونطق بما سكت عنه. واتضح أن «صدام الحضارات» ليس مجرد تأملات مفكر بل هو إعداد العالم لأول حروب القرن.

٧- تحدى آسيا لمستقبلها

١ - وتمثل حوادث سبتمبر الأخيرة تحديًا لآسيا فى مستقبلها باعتبارها قطبًا ثانيًا للولايات المتحدة الأمريكية التى تربعت على عرش العالم ذى القطب الواحد فى نهاية عصر الاستقطاب بدعوى نهاية التاريخ، وكأن عقارب الساعة قد توقفت، والزمان قد انتهى، والقيامة قد قامت، وبقت الرأسمالية نظامًا وحيدًا للعالم لن يأتى بعده نظام، ولا يخضع للتطور، مع أن الذى حدث هو انهيار النظم الشمولية الداروينية، طرق وأساليب الحكم، وليس الأهداف والمبادئ الاشتراكية. ومن ثم بدت الرأسمالية وحيدة، منتصرة سلبًا دون معركة قامت. ونشر الإعلام الأمريكى هذا الوهم، وأخفى حقائق أخرى داخل النظام الرأسمالى تبين تفسخه وضعفه الداخلى، التضخم والبطالة وأزمة السوق، وغلق المصانع، وتوفير العمال، والضائقة المالية. وقد استفحل الأمر بعد حوادث سبتمبر الأخيرة عندما أوشكت بعض شركات الطيران على الإفلاس. وزادت نسبة البطالة بتخفيض عدد العاملين فى الشركات بالآلاف. وقد قامت مظاهرات سياتل وباريس ولندن ودافوس وبراج وجنوة احتجاجًا على النظام الرأسمالى تحت اسمه الجديد، العولمة.

٢ - آسيا هى القطب الثانى الممكن فى العالم ذى القطب الواحد، ويمثل ثلثى سكانه، فإذا كان العالم ستة مليارات نسمة فإن الصين السدس، والهند السدس، والمسلمون السدس، وروسيا ومجموع الدول الآسيوية الأخرى بالإضافة إلى الجناح الآسيوى العربى السدس. وتضاف إلى الإمكانيات البشرية، الثروات الطبيعية، والأسواق الواسعة، والخبرات التاريخية الطويلة، واتصال مناطقها براً

(*) جريدة الزمان: يناير ٢٠٠١م.

وبحراً، وخلوها من مظاهر الخلل والانحلال والسقوط والضياع التى لاحظها المفكرون والفلاسفة فى الوعى الأوروبى وامتداداته فى الغرب الأمريكى. إن نفط بحر قزوين محط أنظار الولايات المتحدة حتى تضمن المخزون العالمى كله للنفط، فى السعودية والخليج العربى والعراق حتى لا يتكرر حظر النفط الذى حدث عام ١٩٧٣م، بعد حرب أكتوبر. ليس لآسيا إرث استعمارى فى أفريقيا بل كانت ضحية الاستعمار الأوروبى. تكنولوچيا اليابان، وأسواق الصين، والمواد الأولية فى سيبريا قادرة على أن تخلق سوقًا تنافس السوق الأوروبى الأمريكى معًا، وقد بدأ هذا القطب الجديد يتكون من مجموعة الخمسة عشر التى تضم بلدان آسيا وأفريقيا كنواة محتملة للقطب الثانى حتى ينضم إليه الثلاثى الأول الشمالى اليابان والصين وروسيا.

٣- وقفزت الولايات المتحدة إلى آسيا عبر أوروبا ومتجاوزة لها. ووضعت قدمها فى وسطها أى فى قلبها فى أفغانستان لتحاصر الصين وروسيا والجمهوريات الإسلامية من الجنوب، وماليزيا وإندونيسيا من الغرب، وإيران وپاكستان من الشمال، والعراق وتركيا من الشرق. زرعت الولايات المتحدة نفسها فى قلب آسيا لتتفرع فى كل الاتجاهات لتنشأ أمريكا أخرى شرق الأطلنطى فى مقابل أمريكا القديمة غرب الأطلنطى، وتحاصر أوروبا بين المطرقة والسندان. وبالتالى يصبح العالم بالفعل قطبًا واحداً دون أى احتمال آخر لقيام قطب ثان فيه. وفى نفس الوقت يتم حصار ما خلقته أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية وهزيمةً اليابان، حصار اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة وتايلاند، وحرمانهم من محيطهم القارى الآسيوى فى الأسواق حتى لا يبقى لهم إلا البحار فى المحيط الهادى الذى يمتد إليه أيضًا النفوذ الأمريكى من الغرب إلى هاواى. ومن ثم تختنق الدول المصنعة فى آسيا الشرقية. وفى نفس الوقت تحاصر إندونيسيا وماليزيا من الشمال وتمنع امتدادهما القارى، فلا يبقى لهما إلا البحار والاتجار. أما الهند والخليج، فهما تجمع سكانى واحد بعد الهجرات الحديثة مماثلاً للتجمع التجارى القديم الذى على أساسه تم نشر الإسلام من شبه الجزيرة العربية إلى جنوب شرقى آسيا عبر بحر العرب وبحرها والمحيط الهندى.

٤ ـ الخطر القادم من آسيا. ربما أسرعت أفغانستان بالتحدى وهى من أفقر دول العالم وأكثرها تقليدية فى مواجهة أمريكا أغنى دول العالم وأكثرها حداثة. كان يمكن لأفغانستان أن تنتظر قليلاً، وأن تكون بؤرة التحدى وحولها إيران وپاكستان من الجنوب، والجمهوريات الإسلامية من الشمال. وحول هذه الدائرة الأولى دائرة أوسع من ماليزيا وإندونيسيا والفيليپين فى جنوب شرق آسيا وكشمير فى الجنوب، والخليج والعراق وتركيا فى الغرب مع المحيط العربى الآسيوى كله. أرادت أمريكا إجهاض هذا المستقبل كله، بالقفز على البؤرة، على هذا الحتمى الجديد. وقتله فى المهد قبل أن يكبر، والقضاء على هذه الخلية الحية الأولى قبل أن تتكاثر فى نسيج عضوى من قوة تخطط للمستقبل حتى تضمن الحاضر أمام قوة تعيش على ذكريات الماضى وإمكانية عودة المثال.

٥ ـ لقد تعلمت أمريكا بعد حرب الخليج الأولى وإشعال الحرب بين العراق وإيران أنه يمكنها تدمير القوى الناهضة فى آسيا، الثورية فى إيران، والعلمية فى العراق، ثمان سنوات فى حرب طاحنة، دمرت الجبهة الشرقية، ووضع تعارض وهمى بين الإسلام والقومية، وفتح جرح لم يندمل بعد. وما زالت آثاره فى آلاف الشهداء ومشوهى الحرب لدى الجانبين. أوقعت أمريكا التناقض بين الثورة والثروة. فارتدت الثورة إلى المحافظة التقليدية، وضاع نفط الصحراء فى الرمال بدلاً من استعمال ثروته فى التنمية. ثم أوقعت أمريكا المنطقة فى حرب الخليج الثانية بنفس طريقة الإيحاء، الإيحاء أولاً بخطر الثورة الإسلامية على العراق وضرورة تحرير عربستان، والإيحاء ثانيًا بإمكانية الاستيلاء على الكويت وضمها إلى العراق تحت ذريعة شفط النفط العراقى من آبار الكويت. ودمر العراق نفسه للمرة الثانية، ومازال محاصراً على مدى عشر سنوات. وأصبحت دول الخليج مديونة بعد استنفاد عوائدها النفطية فى تكاليف الحرب ووضع الأسطول الأمريكى قواعده فى الخليج الذى لم يعد عربيًا، ولا فارسيًا بل أمريكيًا. فكان من السهل على أمريكا أن تكرر هذه المحاولة مرة ثالثة بالقفز على وسط آسيا تحت ذريعة القضاء على الإرهاب دون براهين دامغة. وربما تعاون اليمين الأمريكى على ذلك كما حدث فى أوكلاهوما والمخابرات الإسرائيلية، حتى يتساوى الإرهاب

الإسلامى فى أفغانستان وفلسطين، وتقف أمريكا وإسرائيل فى مواجهة الإرهاب. فليس من المعقول أن المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية لم تكونا على علم بما سيقع. ربما علمت ولم تمنعه بل أيدته وسهلت تنفيذه. ولا ضير من التضحية بثلاثة آلاف قتيل فى نيويورك وواشنطن فى سبيل الاستيلاء على مليار من البشر فى آسيا، والتنازل عن مدينة أو مدينتين للاستيلاء على قارة بأكملها. وقد تمت التضحية من قبل برئيسها كنيدى عندما قال عبارته الشهيرة: «ليس المهم ما تعطيه أمريكا لك. بل ما تعطيه أنت لأمريكا».

٦ـ وعلى هذا النحو استتب الأمر للولايات المتحدة، وأمنت الخطر القادم من آسيا اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا. فمن أين يأتى التحدى إلا من آسيا؟ أمريكا اللاتينية مطحونة بالفقر والبطالة والجريمة والمخدرات والنظم التسلطية. ولم يعد التحدى فيها حيًا كما كان لاهوت التحرير أو نظريات الاستقلال. جيفارا مات، ولم يبعث من جديد. وأفريقيا أيضًا مثقلة بالديون والأمراض، والفقر والبطالة، والتصحر والحروب الأهلية. ما زالت منقسمة بفعل الاستعمار الثقافى إلى فرانكفونية وأنجلوفونية إلى الشمال والجنوب، والشرق والغرب بالرغم من الاتحاد الأفريقى. وما زالت الهيمنة الغربية عليها بالرغم من استقلالها فى الستينيات. لم تبق إلا آسيا بإمكانياتها البشرية والمادية، وباتساعها الجغرافى، وعمقها التاريخى. لذلك يشتد الحصار على أطرافها فى العراق، والضرب فى وسطها فى أفغانستان، وتهديد ثورتها فى إيران، والتآمر على عملتها فى ماليزيا وإندونيسيا، والضغط على حكّامها ضد الحركات الشعبية فيها مثل پاكستان أو التلويح بالمعونات فى الجمهوريات الإسلامية، أى التلويح بسياسة العصا والجزرة حتى يتم تصفية آسيا قبل أن تصبح القطب الثانى فى عالم ذى قطب واحد.

٧ـ وبالقفز إلى آسيا يتم لأمريكا الاستيلاء على المحيطات الكبرى، الأطلنطى بين أوروپا وأمريكا، والهادى بين أمريكا وآسيا. وقواعدها فى أوروپا تشرف على البحر الأبيض المتوسط فى قلب العالم، وقواعد الخليج تشرف على المحيط الهندى. وبالاستيلاء على الماء تحاصر اليابس، ولا تحتاج إلى جنود وقواعد ثابتة

على الأرض. إذ تتحرك القوات عبر المحيطات، ويقذف الطيران من البحر الأرض مع أقل قدر من الخسائر البشرية. لذلك يلجأ المعادون إلى العنف وحركات الالتفاف من حيث لا تتوقع أمريكا وبأبسط الوسائل، ولكن مع أكبر قدر ممكن من الخيال والإتقان فى الأداء. أمريكا تتوسع، وعدوها يضيق. والحرب خدعة. وقد تنتصر النملة على الفيل، والفأر على الأسد كما هو الحال فى القصص الشعبى.

٨ - وعلى هذا النحو تكون أمريكا قد أجهضت إمكانية وجود نمط جديد للتحديث غير النمط الغربى، نمط التحديث من الداخل، وهو النمط الآسيوى غير الذى تحدث عنه ماركس وسماه «نمط الإنتاج الآسيوى». ويقوم هذا النمط على الإبداع وليس النقل، والمشاركة الشعبية وليس التنمية الفوقية، والتنمية الشاملة التى تجمع بين تنمية الموارد والتنمية البشرية، والاعتماد على الثقافة الشعبية والإرث التاريخى والتواصل مع الماضى عكس النموذج الغربى الذى يعتمد على القطيعة مع الماضى باسم الحداثة. فالعصيان هو تحدى النموذج. والمقاومة هى مقاومة الصورة. والعولمة لا تريد إلا نمطًا واحدًا ونموذجًا واحدًا، وحدانية السوق.

٩ - لقد كانت آسيا فى ضمير العالم الثالث منذ باندونج ١٩٥٥م حتى أفغانستان ٢٠٠١م. وقدمت نماذج لحركات التحرر الوطنى ألهبت خيال الشعوب، مثل حرب التحرير فى ڤيتنام، والثورة الإسلامية فى إيران. وقدمت نماذج للتقدم الصناعى والاقتصادى فى اليابان والصين وكوريا وتايوان وهونج كونج وتايلاند وإندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. وكما تحدث المؤرخون عن المعجزة اليونانية يتحدث المحدثون عن المعجزة الآسيوية، والنمور الآسيوية، والنموذج الآسيوى، والفضاء الآسيوى. وتكلم الأفغانى من قبل عن النموذج الآسيوى إعجابًا بالشعب والثقافة والنظام. واكتشفت إسرائيل ذلك وبدأت فى التعامل الاقتصادى والعسكرى مع الصين وأواسط آسيا والهند. وتتحالف مع تركيا. ومصر حاضرة فى إندونيسيا وماليزيا من خلال الحركات الإصلاحية والبعثات التعليمية. وما زال الشوط طويلاً لإعادة اكتشاف الثورة الإسلامية فى إيران، كما اكتشف عبد الناصر من قبل مصدق فى ١٩٥٤م، والخمينى وهو ما زال فى العراق ضد الشاه. وما زال العرب فى

حاجة إلى استرداد تركيا. فالكمالية ليست نهاية التاريخ، إنما هى رد فعل على السلطنة، حدث من الماضى. وتركيا تبحث الآن عن طريق ثالث بين الاثنتين، يعيد إليها وحدتها وتواصلها التاريخى بعيداً عن السلفية والعلمانية، الإسلام الوطنى الذى يجمع بين الماضى والحاضر، الأصالة والمعاصرة، القديم والجديد.

١٠ - ومهما قفزت أمريكا إلى قلب آسيا فوق رأس أوروبا، فإنها لا تستطيع إيقاف ريح الشرق الذى طالما تحدث عنه فلاسفة التاريخ الحضارة مثل «نيد هام». لقد وصف هيجل من قبل انتقال «روح العالم» من الشرق إلى الغرب فى الماضى، وانتقال الحضارة من الصين والهند وفارس وما بين النهرين ومصر القديمة إلى اليونان والرومان وأوروبا فى عصريها الوسيط والحديث. ويتحدث الفلاسفة المعاصرون عن نهاية المطاف، ونهاية التاريخ، ونهاية العصور الحديثة، وبرود الدافع الحيوى الأول الذى كان موجوداً فى إحياء الآداب القديمة فى القرن الرابع عشر، والإصلاح الدينى فى الخامس عشر، والنهضة فى السادس عشر. ثم انطلق فى السابع عشر، «أنا أفكر إذن أنا موجود» عند ديكارت، و«إعادة البناء العظيم» عند بيكون العقل والطبيعة. ثم بلغ الذروة فى الثامن عشر فى فلسفة التنوير والثورة الفرنسية، العقل والعقد الاجتماعى، والذروة الثانية فى القرن التاسع عشر، العلم. ثم بدأت الأزمة فى القرن العشرين، حربان عالميتان فى النصف الأول منه، وهدم العقل والعلم والنظام وكل ما أبدعه الوعى الأوروبى ابتداء من الوجودية حتى التفكيكية، وما بعد الحداثة، ويتكلم الفلاسفة عن «أفول الغرب» (اشبنجلر)، قلب القيم (ماكس شيلر)، الآلة التى تصنع الآلهة (برجسون)، فقدان الإحساس بالحياة، إفلاس الفلسفة، أزمة العلوم الأوروبية (هوسرل)، أزمة الوعى الأوروبى (بول آزار)، موت الإله (نيتشه)، موت المؤلف (بارت)، وداعًا أيها العقل، ضد المنهج (فايرآبند). وفى نفس الوقت يتم الحديث فى الشرق عن الصحوة الإسلامية، النهضة العربية الثانية، النمور الآسيوية، المعجزة الاقتصادية، النموذج الآسيوى مما يدل على أن روح التاريخ تنتقل من الغرب إلى الشرق من جديد، وفى كلا المسارين تعبر الروح المنطقة العربية الإسلامية فى الذهاب وفى الإياب.

٨ـ تحدى فلسطين لاستقلالها

١ ـ وتمثل أحداث سبتمبر الأخيرة تحدى فلسطين لقضيتها، استقلالها ووطنها ونضالها التاريخى على ما يقرب من قرن من الزمان منذ الهجرات الأولى فى أوائل القرن العشرين حتى الانتفاضة الثانية، انتفاضة الاستقلال فى أواخر القرن. ليس المهم هو اختطاف القضية؛ لأنها مطروحة على الساحة أمام أنظار العرب والمسلمين، والانتفاضة بمفردها إلا من دموع الأحزان والإحساس بالألم والأوجاع، والتأييد والمناصرة بالقرارات والإعلانات وبأقل القليل من المعونات. والدماء تُسفك كل يوم، والمنازل تُهدم، والأراضى تُجرف، والقادة يُغتالون، والسلطة الوطنية محاصرة بين التنظيمات الشعبية وفى مقدمتها حماس والجهاد وطلائع فتح وبين العدوان الإسرائيلى. لا تتحمل إغضاب الأولى وإلا شق الصف الوطنى الفلسطينى، ولا تقوى على مواجهة الثانية. فكيف تواجه الحجارة والطلقة، الدبابة والطائرة، إلا بإرادة المقاتلين وبالرغبة فى الشهادة؟

٢ ـ لقد عممت الولايات المتحدة مفهوم الإرهاب، وأطلقت معناه دون التمييز بين الإرهاب والمقاومة، بين العنف المجانى والمقاومة المشروعة للاحتلال. لذلك طالب العرب أولاً بتحديد مفهوم الإرهاب، من يرهب من، أين ومتى وكيف؟ الإرهاب هو الجريمة المنظمة وترويع الآمنين كما يحدث فى الولايات المتحدة، الإرهاب العفوى الذى يعبر عن ضيق بالمجتمع، ورغبة فى تدميره، والخلاص من النفس وهمومها. هو أقرب إلى الانتحار الفردى والجماعى والعدمية المطلقة. فى حين أن المقاومة المشروعة للاحتلال ليست إرهابًا بل هى دفاع عن النفس، المقاومة

(*) جريدة الزمان: ١٥ يناير ٢٠٠١م.

الفلسطينية ضد الاحتلال الصهيونى، والمقاومة الأفغانية ضد الغزو السوفييتى والعدوان الأمريكى، والمقاومة الشيشانية ضد الاحتلال السوفييتى ، والمقاومة الكشميرية ضد رفض الهند تطبيق قرارات الأمم المتحدة بالنسبة لحق تقرير المصير للشعب الكشميرى، ومقاومة البوسنة والهرسك وكوسوفا ضد العدوان الصربى. وهى مقاومة تكفلها المواثيق الدولية والشرائع السماوية وحقوق الشعوب فى الحرية والاستقلال.

٣ ـ وهناك فرق بين إرهاب الأفراد وإرهاب الدول. إرهاب الأفراد مقدور عليه يمكن حصاره ومحاصرته وتحديده والسيطرة عليه وإدانته فى القضاء. أما إرهاب الدول فلا يمكن إيقافه فهو يتم باسم شرعية الدولة، وضرورة المحافظة على النظام، والدفاع عن المصالح العليا، واستتباب الأمن. ولا يمكن إيقافه أو مواجهته إلا بإرهاب الأفراد والاغتيالات ووسائل العنف المختلفة مثل ما حدث فى سبتمبر الماضى. ومع أن إرهاب الدولة مرئى، مثل إرهاب إسرائيل للشعب الفلسطينى، وإرهاب أمريكا للشعب العراقى، وإرهاب روسيا للشعب الشيشانى، وإرهاب الهند لشعب كشمير، وإرهاب الصرب للمسلمين فى البوسنة والهرسك وكوسوفا إلا أن لا أحد يتحدث عنه أو يسميه إرهابًا، ويعتبره دفاعًا مشروعًا عن النفس ضد إرهاب الأفراد الذى هو حيلة العاجز، الفرد فى مواجهة الدولة. ويتم وصف مقاومة الشعب الفلسطينى، ودفاع الشعب العراقى، ونضال الشعب الشيشانى، ومطالبة الشعب الكشميرى للاستقلال ضد رفض الهند تطبيق قرارات الأمم المتحدة، ودفاع المسلمين عن النفس فى يوغسلافيا السابقة بالإرهاب. أصبح الإرهاب يستعمل فى الغرب لإرهاب المقاومة، وكسلاح للرد عليها، وإضفاء الشرعية على الغزو والاحتلال والعدوان.

٤ ـ وإذا كان الإرهاب الدولى وإرهاب الأفراد إرهابًا مرئيًا فهناك الإرهاب اللامرئى، الضغط الذى يولد الإرهاب، ضغط الكيان الصهيونى على الشعب الفلسطينى بالحصار والتجويع وفقدان الأمل فى الكرامة والاستقلال، مما يجعل المقاوم الفلسطينى يفضل الشهادة، الحياة الأبدية الكريمة على الحياة الدنيوية

الذليلة، وفى ثقافة تعلى من شأن الاستشهاد. الإرهاب اللامرئى هو الإرهاب القاهر الضاغط الخارجى، والإرهاب المرئى هو الإرهاب المحرر الذى يفجر القدر بما فيه. يتحدث الغرب عن الإسلام الجهادى الذى يقوم على الاستشهاد، والشهداء فى كل مجتمع يقع تحت الاحتلال مثل الاحتلال النازى لعموم أوروبا. بل إن من أروع عصور المسيحية عصرَ الشهداء ضد الاضطهاد الرومانى حتى ولو كانت مقاومة سلبية. إن التضحية بالنفس قد تكون أكبر دليل على صدق القضية التى يستشهد من أجلها المناضل، وخيراً من عشرات الحجج النظرية والأدلة العقلية. القضية الفلسطينية لم تعد فقط قضية علمية تاريخية، تقوم على الحجج والحجج المضادة، بل قضية عملية تجعل دماء الشهيد مثل مداد المفكر. وكلما تعددت مراكز المقاومة عرف العالم أن المقاومة حركة طبيعية فى المجتمع والتاريخ. فاستقلال الشعوب حق طبيعى مثل حقوق الإنسان. ومسار التاريخ هو نفسه مسار نحو الحرية.

٥ ـ وقد رأى الغرب ذاته ورأى العالم معه، وأدرك خطورة المعيار المزدوج الذى يمارسه فى حكمه على الأشياء، وأنه مازال وريث القسمة اليونانية القديمة للعالم إلى يونانى وبربرى، وقسمة الاستعمار الحديث إلى متحضر وبدائى، حضرى ووحشى، أبيض من ناحية وأسود وأسمر وأصفر من ناحية أخرى. فالإرهاب العربى الإسلامى فى فلسطين والشيشان وأفغانستان والصرب والبوسنة والهرسك وكوسوفا إرهاب ضد الإنسانية وحقوق الإنسان والتحضر. والإرهاب فى أيرلندا الشمالية بين البروتستانت والكاثوليك، وإرهاب الجماعات المنظمة، الجماعات الدينية أو جماعات الجريمة والتى تمتلئ بها أفلام العنف الأمريكية، وإرهاب الشرطة وأجهزة الأمن، وإرهاب الجماعات اليمينية المسلحة ضد المؤسسات الفيدرالية، وإرهاب منظمات الباسك الانفصالية فى إسبانيا، وإرهاب اليمين النازى الجديد فى ألمانيا للأتراك والأجانب فى ألمانيا، وإرهاب جماعة «أوم» الدينية وإلقاؤها الغاز السام فى القطار السريع فى طوكيو، والصراع بين التاميل الهندوسى والهند كل ذلك ليس إرهابًا. فالإرهاب حكر على العرب والمسلمين، وخاص بهم، وسمة أساسية فى شخصيتهم وثقافتهم ومجتمعاتهم وتاريخهم. ما يحدث

فى الدول الغربية المركزية أساسًا ليس إرهابًا بل حوادث، وما يحدث فى المستعمرات القديمة خارج أوروبا إرهاب. ومن ثم بدأ الغرب يراجع معاييره المزدوجة ويخرج عن نرجسيته، وإن لم يدرك بعد أن الإرهاب إرهاب فى كل مكان. لذلك يخشى، وهو الذى يزهو بقدرته على التنظير، أن يبدأ بتحديد مفهوم الإرهاب أولاً قبل أن يقاومه حتى لا يبدو خلطه بين المقاومة والإرهاب، ومعاييره المزدوجة فى قراءة حوادث العالم داخل الغرب وخارجه.

٦ - وبدأت الهوة الثقافية تتسع بين ما يسمى بالإسلام والغرب، دين أو حضارة فى مواجهة جغرافيا أو نمط مثالى للعالم أصبح لا شعوريًا النموذج الأوحد فى الماضى والحاضر والمستقبل لتاريخ البشرية. وبدأ الحديث عن اختلاف القيم بين العالمين، قيم الغرب الإنسانية العقلانية العلمية الاجتماعية الرشيدة، والقيم الإسلامية الدينية الانفعالية الخرافية العدمية المدمرة. وتم إطلاق الأحكام على ماهيات ثابتة للحضارة، الإسلام منذ الأزل، هكذا كان، والغرب منذ فجر التاريخ هكذا كان وسيكون. مع أن الحضارة الإسلامية لها مراحل. فى المرحلة الأولى كانت معلمة للغرب، ونموذج العقلانية والعلم والإنسانية فى الأندلس. ترجمها الغرب وأصبحت أحد روافد نهضته الحديثة. والغرب فى العصور الوسطى قبل أن يترجم العلوم الإسلامية وبعد أن سقطت غرناطة، وخرج المسلمون واليهود منها وبداية محاكم التفتيش، كان مغرقًا فى اللاهوت والتعصب والخرافة والعدوان الذى تمثل فى الحروب الصليبية، فهو تقابل لا تاريخى، ولا يمكن المقارنة بين الإسلام والغرب إلا فى لحظتين تاريخيتين متشابهتين، الإسلام الأندلسى مع الغرب الحديث أو الإسلام العثمانى مع الغرب فى العصور الوسطى.

٧ - وبالرغم من تبعية أوروبا النسبية للولايات المتحدة الأمريكية فكلتاهما غرب، وتبعية بريطانيا شبه الكاملة لها، تأييدًا من الإمبراطورية العجوز للإمبراطورية الشابة. إلا أنها بعد الحوادث الأخيرة بدأت تستقل عنها فى رؤيتها ومبادراتها، إدراكًا لمصلحتها التى لا تتماشى باستمرار مع المصالح الأمريكية. ونظرًا للجوار الجغرافى بين أوروبا والعرب على ضفاف البحر الأبيض المتوسط،

الشمال والجنوب والشرق والغرب، ونظراً للخبرات المشتركة بين الثقافتين على مدى التاريخ فى عمليات تعلم مشتركة من اليونان إلى العرب أولاً، ثم من العرب إلى أوروبا فى العصر الوسيط ثانيًا، ثم من الغرب الحديث إلى العرب ثالثًا، وربما، وتلك هى المرحلة المستقبلية، من العرب إلى الغرب رابعًا فإن العداء بينهما تنافس على العلم وتبادل للثقافات، وليس كالعداء بين العرب وأمريكا فى مناصرتها شبه المطلقة للكيان الصهيونى، وممارساتها الدائمة ضد القضايا العربية، وحصارها للعراق وليبيا، وتهديدها لإيران وسوريا ولبنان واليمن، وسعيها إلى تقسيم السودان. هناك عداء جذرى لأمريكا عند العرب فى حين أن الحضور العربى الإسلامى داخل الغرب قد تجاوز الهجرات إلى الثقافة مما جعل الإسلام الدين الثانى فى أوروبا بل وفى أمريكا أيضًا. لذلك بدأت المبادرات الأوروبية باسم الاتحاد الأوروبى لحل القضية الفلسطينية، وكانت أكثر تفهمًا وإدراكًا للحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطينى. ربما ما زالت أكثر وعيًا بتاريخها وثقافتها من الولايات المتحدة، وأشد إحساسًا بالحق الذى يقوم على العدل قبل القوة.

٨ـ وربما أصبحت أمريكا ذاتها أكثر إدراكًا لأهمية القضية الفلسطينية بالنسبة لمصالحها فى المنطقة العربية الإسلامية وفى العالم. فالقوى لا يكون إلا عادلاً وإلا دمر نفسه، والعادل لا يكون إلا قويًا وإلا عزل نفسه. وقد كانت القوة والعدل أهم صفتين للإمام، أى للحاكم فى الفقه القديم. أما العلم فقد يأتى ثالثًا؛ لأن الإمام يستطيع أن يستشير أهل العلم. لقد ألهب تنظيم القاعدة خيال العرب والمسلمين بتحديه الولايات المتحدة نفسها بالنسبة للقضية الفلسطينية والظلم الواقع على الفلسطينيين، ومساواة أمريكا بإسرائيل فى الإرهاب. لذلك بدأت أمريكا فى خطاباتها الرسمية للرئيس أو لوزير الخارجية تتحدث عن فلسطين، كقضية وشعب ودولة بعد أن كان الهدف ليس فقط ابتلاع الأرض وتهجير الشعب وتغيير الاسم بل محوها تمامًا من الذاكرة. قد تكون يقظة وقتية فى الضمير الأمريكى أو عملية «نصب» سياسى من أجل إدخال العرب فى التحالف الأمريكى البريطانى ضد شعب أفغانستان أولاً وباقى الشعوب العربية المرشحة للعدوان عليها ثانيًا، وكما

حدث فى حرب الخليج الثانية. ثم تعود أمريكا من جديد إلى ثقلها الطبيعى ونرجسيتها وبطلها القومى فى ثقافتها، «راعى البقر».

٩ ـ لم تحظ قضية على اهتمام الإعلام العالمى كله الآن كما حظيت القضية الفلسطينية، وبمناسبة أفغانستان تحركت آسيا خاصة إندونيسيا. بل تحركت المنطقة العربية الآسيوية فى الخليج، وخرجت المظاهرات الشعبية تأييداً للانتفاضة لأول مرة فى تاريخ الحركات الشعبية العربية فى نظم تأتى المبادرات السياسية عادة فيها من النخب الحاكمة. وهذا كله بفضل حوادث سبتمبر الأخيرة التى اجتمع فيها الخيال العلمى مع المردود السياسى. وقد يكون العام القادم ٢٠٠٢م عام فلسطين بعد نضال دام أكثر من قرن من الزمان، وحروب دامت أكثر من نصف قرن. فإذا كانت البداية فى نيويورك، وواشنطن، فإن النهاية قد تكون فى القدس عاصمة فلسطين المستقلة.

١٠ ـ وبصرف النظر عن هذا الاسم الشهير الذى انتشر مع صورته فى أجهزة الإعلام على مستوى العالم وعن الحكم عليه بالإرهاب، رأس تنظيم القاعدة، المليونير المجاهد السعودى التائه، الأمريكى الصنع، إلى آخر هذه الصور السلبية على مستوى الشعور فإنه قد يمثل على مستوى اللاشعور صوراً أكثر إيجابية، ماوتسى تونج المسلمين، جيفارا العرب، سيمون بوليفار آسيا، سبارتكوس روما، رظا(*) الفيليبين الذى قاوم الاحتلال الإسپانى، خمينى الأمة الجديد، ديجول فرنسا، وماتزينى أوغاريبالدى إيطاليا، أولافييت أو چورچ واشنطن أمريكا. كل فى ظروفه وبثقافته التى قد تختلف من حالة إلى حالة، ولكن تتفق فى الوظيفة والدلالة. إن الثورة الإسلامية فى إيران أعلنت عن جبهة المستضعفين فى مواجهة جبهة المستكبرين، وهى قسمة العالم إلى فسطاطين، فسطاط المسلمين وفسطاط الأمريكيين. ولا فرق بين القسمة السياسية الأولى التى ما زالت امتداداً لروح الخمسينيات والستينيات فى العالم الثالث أثناء حركات التحرر الوطنى، وبين القسمة الدينية الثانية التى تستعيد الذاكرة الفقهية، وقسمة العالم إلى دار إسلام ودار حرب. وفرق بين حديث الشعور وحديث اللاشعور، بين المنطوق به والمسكوت عنه، بين الصوت المسموع وصوت الضمير.

(*) أشهر بطل للمقاومة ضد الاحتلال الإسپانى فى الفيليبين.

٩ـ هل يقع الانفجار؟

ويتساءل الجميع هل وصل العرب إلى نهاية القاع؟ هل وصلوا إلى نهاية النفق المظلم؟ هل يقع انفجار قريب يقلب الموازين، ويحول العرب من السكون إلى الحركة، ومن الدفاع إلى الهجوم، ومن الدرع إلى السهم، ومن الإحباط إلى الفعل، ومن الجرح الدامى إلى الجرح المندمل، ومن صيحات البكاء ودموعه التى تذرف كل يوم على شعب فلسطين فى نكبة ثانية إلى صيحات الفرح وبهجته بالفرج القريب ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ففى حالة مصر كانت هناك حركة وطنية فى الأربعينيات جسدتها لجنة الطلاب والعمال. كان هناك الإخوان المسلمون منذ نشأتهم فى الإسماعيلية على ضفاف القناة فى ١٩٢٨م وأصبحت فى الأربعينيات من أقوى الحركات الشعبية الوطنية. جاهدت فى فلسطين فى ١٩٤٨م. وشاركت فى المقاومة الوطنية المسلحة فى القناة فى ١٩٥١م فى حرب الفدائيين ضد معسكرات الجيش الإنجليزى. واستولت على الاتحادات الطلابية والنقابات والحركات العمالية وعلى قطاعات عديدة من الدولة بصرف النظر عن التركيب الطبقى للمجتمع. كان برنامجها هو الاستقلال ومقاومة الإنجليز فى الخارج والقصر فى الداخل، الاستعمار فى الخارج والقهر فى الداخل. لم تدخل فى لجنة الطلبة والعمال مع الوفد والشيوعيين لخطأ فى التحليل السياسى ولمنافسة على السلطة. كان هناك الشيوعيون على كافة فصائلهم من المثقفين والعمال، من الطلاب والأفندية كما صورهم نجيب محفوظ. وكانت هناك «مصر الفتاة» وجماعة «القمصان الخضر» تربط بين الإسلام والوطن منذ مصطفى كامل

(*) جريدة الزمان: ٢٢ يناير ٢٠٠١م.

حتى فتحى رضوان، تمارس الجهاد الفعلى، وتقترب من الإخوان المسلمين. وكانت هناك أخيرًا الطليعة الوفدية، يسار الوفد، تجمع بين الوطنية والاشتراكية. يشترك الجميع فى هدف مشترك إخراج الإنجليز من البلاد، والقضاء على الحكم الحزبى الفاسد الذى يتلاعب به الملك والإنجليز خاصة بعد حادثة ٤ فبراير لفرض الوفد على القصر. كان الخلاف النظرى بينهما قائمًا ولكن برنامج العمل الوطنى كان يوحدها فى تآلف مرة إبان الأزمات الكبرى أو فى صراع مرة أخرى. وكان الشباب يجد أمامه اختيارات سياسية عدة، فينشأ إخوانيًا أو وفديًا أو شيوعيًا أو من أنصار مصر الفتاة.

وتكوّن الضباط الأحرار فى هذا الجو السياسى للأربعينيات. فقد كانوا أبناء الطبقة المتوسطة، طلابًا فى المدارس قبل أن يلتحقوا بالكليات العسكرية، ويتمتعوا بالنشاط السياسى العلنى. كان نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة الاثنى عشر فى مصر من الإخوان والنصف الآخر من الشيوعيين أو كان على صلة بالتيارات السياسية الأخرى. وكان عبد الناصر نفسه على صلة بالجميع، يجسد الوحدة الوطنية قبل أن تنفصم عروتها فى أول عامين للثورة، بحل الأحزاب السياسية خاصة حزب الوفد فى ١٩٥٣م ثم الإخوان فى ١٩٥٤م قبل أن يصبح بطلاً قوميًا فى مصر والوطن العربى والعالم الثالث كله بعد تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦م.

وتعددت حركات التحرر فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ضد الاستعمار الغربى. واستطاعت أن تقضى فى عقدين من الزمان، الخمسينيات والستينيات، على استعمار دام أكثر من قرنين من الزمان منذ قضاء بريطانيا على إمبراطورية المغول فى الهند حتى بلغ الذروة فى القرن التاسع عشر، وقبلها احتلال القوى الأوروبية الجديدة بعد سقوط الأندلس ونهاية الحكم العربى الإسلامى القارتين فى النصف الغربى من الكرة الأرضية، بفضل خرائط المسلمين التى وجدها كولومبس فى إسپانيا بهدف الالتفاف حول العالم القديم. وتم القضاء على السكان الأصليين من الهنود الحمر. وانتشرت اللغات الإنجليزية فى الشمال، والإسپانية والبرتغالية

فى الوسط والجنوب قبل انتشارها عبر المحيطات من جنوب أفريقيا إلى جزر الهند الشرقية حتى الفيليبين والصين.

وظهرت أسماء تعبر عن روح العالم الجديد، العالم الثالث، القارات الثلاث، منذ باندونج ١٩٥٥م حتى بلجراد ١٩٦٤م. ناصر، نهرو، شوين لاى، هوشى منه، تيتو، سكوتورى، نكروما، نيريرى، جومو كنيث كنياتا، كاوندا، موجابى، نلسون مانديلا، كاسترو وجيفارا، تبعث الروح والأمل فى شعوب آسيا وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية. كان العرب فى مقدمة حركات التحرر الوطنى فى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر والسودان واليمن وفلسطين ضد الاستعمار الخارجى، ولبنان وسوريا والعراق ضد القهر الداخلى من أعوان الاستعمار. ونشأت الدول الحديثة فى الخليج. وأصبحت أصوات الدول فى العالم الثالث تفوق أصوات الكتلتين الشرقية والغربية. وتأسست التجمعات الإقليمية، جامعة الدول العربية أولاً ثم منظمة الوحدة الأفريقية ثانيًا، ومجموعة جنوب شرق آسيا، ومجموعة دول أمريكا اللاتينية تجمعها جميعًا حركة عدم الانحياز. وأعلن فى الجزائر فى ١٩٧١م عن «الإعلان العالمى لحقوق الشعوب» فى مقابل الإعلان العالمى لحقوق الشعوب فى الإنسان، وتكملة له. حقوق الجماعة بالإضافة إلى حقوق الفرد.

ثم تغير نظام العالم بانتهاء رواد التحرر الوطنى فى السبعينيات والثمانينيات وانحساره بعد أن تعثرت فى التحول من الثورة إلى الدولة فى الداخل. وتحول الجيل الثانى من قادة التحرر إلى حكام يمارسون التسلط والقهر على قوى المعارضة السياسية التى تقوم بنقد الحكم الوطنى المتعثر الذى خلف الحكم الاستعمارى القديم. وانقلبت الاختيارات السياسية من النقيض إلى النقيض، من الاشتراكية إلى الرأسمالية، ومن القطاع العام إلى القطاع الخاص، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الجماعة إلى الفرد، ودون أن يصاحب ذلك تحول على مستوى الحريات العامة. فالقهر مستمر وإن تغير الشكل، من قهر الحزب الواحد إلى قهر الحزب الحاكم، ومن غياب الانتخابات إلى تزوير الانتخابات، ومن سجن الشيوعيين إلى سجن الإسلاميين.

وانتهى عصر الاستقطاب، وبدأ عصر العالم ذى القطب الواحد. وتربعت الولايات المتحدة الأمريكية عليه كقوة عظمى بمفردها، تحكم وتنفذ الحكم، تدين وتعاقب، القاضى والجلاد، بعيداً عن الأمم المتحدة والقانون الدولى، يوغسلافيا بالأمس، وأفغانستان اليوم، والقائمة طويلة فى الغد باسم الحرب ضد الإرهاب. وأصبحت اقتصاديات السوق هى العامل الموجه للدول الكبرى والصغرى. فمجموعة الثمانى التى تكوّن الدول الأكثر تصنيعًا وعصبها الشركات المتعددة الجنسيات فى مقابل دول صغرى أو تجمعات إقليمية ناشئة مثل مجموعة الأربع والعشرين من آسيا وأفريقيا بقيادة ماليزيا وإندونيسيا، ومصر ونيجيريا. وبرزت القيم الجديدة مثل الربح والمنافسة والاستهلاك، والثروة، والغنى، والبذخ. وعلى كل فرد أن يجد حلوله الخاصة بجهده الخاص بالاستثمار والقروض والاستيراد مع ما يقترن بذلك من تهرب ضريبى، وتهريب لرءوس الأموال، وفساد طبقة رجال الأعمال وأصحاب المصارف. وازداد الأغنياء غنى والفقراء فقراً. وزادت أعباء الدول من الديون الخارجية. يكفيها القيام بالحد الأدنى من الخدمات، الخبز والتعليم لمعدل من المواليد فى تزايد مستمر.

وعجزت القوى السياسية التى ناضلت إبان حركات التحرر الوطنى عن الوقوف فى مواجهة هذا التحول من النقيض إلى النقيض. ولما كانت قد تجاوزت فى أعمارها الستينيات بدأت الحنين إلى الماضى واسترجاع الذكريات. «الأيام الحلوة» فى مقابل «الزمن الردىء». فالقومى يحن إلى الخمسينيات والستينيات عندما كانت القومية العربية فى مقدمة حركات التحرر الوطنى، تحرر العرب وتوحدهم وتحقيق العدالة الاجتماعية لهم. وتحميهم من العدوان وتعمل لقضيتهم الكبرى فلسطين. والليبرالى يحن إلى العصر الليبرالى قبل الثورات العربية الأخيرة عندما كان يتمتع بالتعددية الحزبية والبرلمان والانتخابات والصحافة الحرة والجامعات الرائدة، والنشاط الفكرى والفنى والأدبى، عصر شوقى وحافظ، وهيكل والعقاد. والماركسى يحن إلى ثورة ١٩١٧م فى روسيا القيصرية وإلى المسيرة الكبرى فى الصين، وإلى نضال الشعب الڤيتنامى على مدى ثلاثة عقود من الزمان، وإلى دول أوروبا الشرقية، وإلى الثورة الكوبية، كاسترو وجيفارا. والإسلامى

يحن إلى الخلافة الراشدة، والعصر الذهبى للإسلام عصر الصحابة والتابعين. يحن إلى عدل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، عندما كان الإسلام غالبًا لا مغلوبًا، فاتحًا لا مفتوحًا، معلمًا لا تلميذًا، منتصراً لا مهزومًا.

أما الأجيال الجديدة فإنها كفرت بكل شىء بعد أن أصبح تاريخها الحديث موطنًا للتجريب، للمحاولة والخطأ. فقد جربت الليبرالية فى النصف الأول من القرن العشرين وتم الثناء عليها لتدعيمها الحرية ثم تجريمها بعد الثورات العربية الأخيرة، واتهامها بالإقطاع، والاتجاه نحو الغرب، والفساد الحزبى والسياسى. وجربت القومية والاشتراكية العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وباسم الوحدة العربية والعدالة الاجتماعية والتنمية البشرية والتخطيط الاقتصادى والتصنيع. ثم تم تجريمها بعد الانقلاب عليها منذ السبعينيات واتهامها بأنها شيوعية وإلحاد، وتبعية للاتحاد السوڤيتى، وقهر للحريات، وفساد للضباط ورجال الحزب الواحد. وجرب الحكم الإسلامى فى شبه الجزيرة العربية وفى السودان وپاكستان دفاعًا عن الهوية، وتطبيقًا للحاكم وللشريعة الإسلامية. فالإسلام هو الحل، والإسلام هو البديل. ثم تم تجريح هذا الحكم، وربطه بالعنف فى الداخل والخارج، وقهر الحريات، وفشل التنمية الاقتصادية، والاكتفاء بالشعارات. فكفر الشباب بكل شىء، وسئم كل الأيديولوچيات، وأدار ظهره للسياسة كى يحل مشكلته بطرقه الخاصة بعيداً عن السياسيين والمثقفين، فى الهجرة أو العمل اليدوى أو السير وفقًا للموجة الجديدة، الربح بلا شروط ولا قيود مع قيم الغنى والثروة وصولاً إلى الحكم.

اختلط الحابل بالنابل ولم يعرف العرب من العدو ومن الصديق. العراق عدو أم صديق؟ إسرائيل عدو أم صديق؟ أمريكا عدو أم صديق؟ وكيف يتقدم العرب وهم لا يعرفون ما القضية، وأين المعركة؟ كيف يتقدم العرب وهم يتأخرون كل يوم، وما زال الانهيار مستمراً، ونهاية النفق لم تبد بعد؟ فهل يقع الانفجار؟ متى؟ وكيف؟

* * *

١٠ـ متى يقع الانفجار؟

إن ما حدث فى سبتمبر الماضى فى نيويورك وواشنطن هو انفجار بكل المقاييس، انفجار فى الولايات المتحدة أشبه بهزيمة العرب فى يونيو ـ حزيران ١٩٦٧م، أو ببيرل هاربر فى ١٩٤٢م، إلا أنه هذه المرة على أرضها ودون توقع منها، ومن عدو غير مرئى تسميه الإرهاب، وبأبسط أنواع التقنية الحديثة، وبأكبر قدر ممكن من الخيال، وفى حادثة واحدة مع أكبر عدد ممكن من الخسائر. وهو انفجار فى أوروبا حتى وجدت نفسها فى تحالف عسكرى أو معنوى مع الولايات المتحدة الأمريكية ضد أفقر وأضعف دولة. وهى التى حرصت على الحفاظ على استقلالها ومصالحها بقربها الجغرافى من الوطن العربى فى جنوب البحر الأبيض المتوسط وشرقه ومن آسيا من خلال أوروبا الشرقية. وهو انفجار فى آسيا بعد أن وضعت أمريكا قدمها فى وسطها. وقد تقيم القواعد فيها إلى الأبد. وهو انفجار فى الوطن العربى. فالمتهمون من العرب، والأسرى من العرب، والقطر المرشح للعدوان القادم من الوطن العربى. وهو انفجار فى العالم الإسلامى. فقد تكون باكستان هى الضحية بعد أفغانستان بإشعال نيران الحرب بينها وبين الهند. وقد يكون المسلمون فى مندناو هم الضحية بعد أن حطت القوات الأمريكية فى جنوب الفيليبين بحجة القضاء على حركة أبى سياف ذات الصلة بتنظيم القاعدة. وهو انفجار فى الإسلام ذاته بعد أن تم ربطه بالإرهاب والعنف وتشويه صورة الجهاد، ومساواته بالطالبان، وضرب التماثيل بالمدافع، وبعزلة النساء عن المجتمع، وحجب أفغانستان كلها عن العالم.

(*) جريدة الزمان: يناير ٢٠٠٢م.

والأخطر من الانفجار فى الخارج هو الانفجار فى الداخل، أن تستمر أحوال العرب كما هى. وإن تغيرت فإلى الأسوأ والأسوأ. فما زال الشعب الفلسطينى يذبح يومًا وراء يوم، والانتفاضة محاصرة بين مسئولية السلطة الوطنية وإرهاب الكيان الصهيونى، والتنصل المهين من علاقة السلطة بشحنة الأسلحة مع أنه حق المقاومة المشروعة فى تحرير الأرض المحتلة إن لم يتم ذلك سلمًا عن طريق المفاوضة. ما زال العجز العربى أمام العدوان الصهيونى على الشعب الفلسطينى، حكومات وشعوبًا حتى تعود العربى على النيل من كرامته وهو يرى جثث الفلسطينيين أطفالاً ونساءً وشيوخًا، وتشويه المقاتلين وتعذيبهم قبل الشهادة والقبض عليهم وكأنهم مجرمو حرب أو قطاع طريق.

وما زالت العراق محاصرة بعد عشر سنوات من تحرير الكويت وما زالت مهددة كل يوم بالانقضاض عليها وملايين الأطفال هم الضحايا. وما زالت ليبيا محاصرة أيضًا بالرغم من نفى الشبهات حولها. فالعرب غير أحرار فى أجوائهم وسمائهم. وقد كان النشيد يومًا «دع سمائى فسمائى محرقة»، «من المحيط الهادى إلى الخليج الثائر، ومن المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى».

وما زال التهديد كل يوم لسوريا ولبنان وإيران بسبب المقاومة فى الجنوب وتحرير الأراضى المحتلة واحتمال دعم الثورة الفلسطينية، وما زال التهديد ضد الصومال والسودان، فلم ينس الأمريكيون منظر جثة الجندى الأمريكى مجرورًا على الأرض فى الصومال. وما زالوا يتوقون إلى فصل الجنوب عن الشمال بحجة مساعدة الشمال للإرهاب وبوجود معسكرات للتدريب فيه مرتبطة بتنظيم القاعدة. كما أوت السودان قبل ذلك كارلوس بالرغم من تسليمه للسلطات الفرنسية.

وما زالت الأنظمة والشعوب العربية عاجزة عن التصدى للولايات المتحدة التى تدعم الكيان الصهيونى على طول الخط، تصف المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، والإرهاب الصهيونى بالحق المشروع للدفاع عن النفس. ما زال العرب يعتقدون أن ٩٩٪ من أوراق القضية الفلسطينية فى يد الولايات المتحدة الأمريكية، وكأن المقاومة فى فلسطين وجنوب لبنان والشعوب العربية كلها وإمكانياتها لا تساوى

أكثر من ١٪ من القضية مع أن المقاومة فى جنوب لبنان حررت أرضها. والمقاومة الفلسطينية توجع العدو الصهيونى كل يوم وتنال منه.

إن الانفجار فى الداخل قادم إذا ما ظهرت الأوضاع الداخلية فى الوطن العربى إلى الحد الأقصى، وتم الوصول إلى القاع، وتحول التراكم الكمى إلى تغيير كيفى بلغة الجدليين.

الحرب الأهلية فى الجزائر ما زالت مستمرة بين الجماعات الإسلامية والجيش دون مصالحة وطنية عامة، فدماء الشهداء فى الجزائر أولى أن تراق على أراضى فلسطين. وقد وصل الشهداء حتى الآن مائة ألف شهيد، مائة مرة قدر شهداء الانتفاضة. ويضاف التوتر بين العرب والبربر فى الجزائر، كأن الاقتتال بين الإخوة الأعداء ليس كافيًا فى جسد الجزائر الجريح. والحرب فى جنوب السودان ما زالت قائمة دون أن يكون فى مصلحة أحد إيقاف هذا النزيف الدموى والاقتصادى للسودان، وهو ظهير مصر وأمنها القومى. والفتنة ما زالت نائمة فى الصومال.

والتراجع عن الهامش الديموقراطى يزيد يومًا وراء يوم فى باقى أرجاء الوطن العربى. فقد بدأت الحكومات تضيق ذرعًا بالنقد وهى محاصرة بين الضغوط الأمريكية فى الخارج والضغوط الشعبية فى الداخل. ويزداد ملف حقوق الإنسان تعقيداً وكأن المطالبة بالتعددية السياسية وبالعملية الديموقراطية وبالدفاع عن المعتقلين السياسيين أصبحت جريمة لا تغتفر. وكلما أتى نظام جديد تراجع عن الهامش الديموقراطى الذى كان فى النظام القديم بالرغم من كثرة الوعود والآمال المعقودة على الحكّام الشباب الذين يمثلون الأجيال الجديدة.

والأزمة الاقتصادية تضيق الخناق على الناس كل يوم بارتفاع الأسعار، وانخفاض العملات والتضخم، والركود الاقتصادى، وقلة التصدير، وزيادة الإنتاج، وهروب رءوس الأموال من الداخل، وغياب الضمانات على القروض، وفساد قطاع الأعمال كل ذلك أدى إلى ازدياد المسافة بين الأغنياء والفقراء. الأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقراً.

والشباب عاطل. لم يعمل شيئًا نافعًا يستطيع به أن يدخل الحياة العامة. فقد انهار مستوى التعليم بالأعداد الكبيرة وضيق الفصول الدراسية. والجامعات الخاصة لا يقدر عليها أحد لارتفاع أجورها. وتوقفت هجرة العمالة إلى الخليج والعراق وليبيا بل وإلى أوروبا واستراليا وكندا وأمريكا، فقد زاد العرب والمسلمون فى الخارج وبدءوا يشكلون قوة ضغط على المجتمعات الغربية التى لا تدرى كيفية التخلص منهم دفاعًا عن هويتها واتقاء لشر الإرهاب.

والحركة الإسلامية يضيق عليها الخناق فى الخارج وفى الداخل، هربت من الداخل واتجهت إلى الخارج للجهاد فى أفغانستان والبوسنة والهرسك وكوسوفا. وقد تتجه إلى الداخل من جديد انتقامًا من الداخل والخارج معًا، بعد مطاردتها فى الخارج من أفغانستان إلى الفيليبين تحت دعوى مقاومة الإرهاب. والواقع العربى والإسلامى يدعو إلى الحنق والغضب، والثأر والانتقام لهؤلاء المجاهدين الذين جُروا من أفغانستان مسلسلى اليدين إلى جوانتنامو بكوبا ليحاكموا وكأنهم متهمون أمام محاكم عسكرية، من الخصم والجلاد فى آن واحد، ولا صوت يعلو لجماعات حقوق الإنسان.

طالما لا تعطى للحركة الإسلامية الشرعية فى الداخل، وتستدعى من الخارج للعودة داخل الأوطان، والجهاد فى فلسطين، فإنها تظل مهاجرة تعلن الجهاد فى الخارج وفى الداخل على السواء، وطالما أنها غير شرعية فستظل تمارس العنف كنوع من الدعاية عن النفس والإعلان عن الذات وتغطية أخبارها فى الصفحات الأولى فى الصحف العربية والدولية ـ فلقد أصبح أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى ومحمد عطا من أشهر الشخصيات العالمية والإعلامية ـ فإذا ما أصبحت شرعية حاورت التيارات السياسية الأخرى، الناصرية، والليبرالية والماركسية والإسلامية المعتدلة. وصاغت برامجها السياسية والاجتماعية التى تخاطب بها الناس كى ينتخبوا ممثليها فى المجالس الشعبية والبرلمانية.

يقع الانفجار عندما تنسد جميع الطرق أمام الناس، وتتراكم المياه وراء السدود، وتتعاظم الطاقة فى باطن الأرض، فتحدث الفيضانات، وتتفجر البراكين، آخذة

الحابل بالنابل. لا يوقفها فعل ولا ينفع معها نداء. ولا يوقفها جهاز أمن فى الداخل أو مراقبة فى الخارج. يقع الانفجار عندما يبلغ السيل الزبى فى فلسطين والعراق وليبيا والسودان والصومال ولبنان بالعدوان والتهديد من الخارج، والضغط والقهر والفقر والضنك فى الداخل. يقع الانفجار عندما يتسع جرح الكرامة العربية ويصبح أكثر إيلامًا. فللصبر حدود، والكرامة العربية جزء من الشعر العربى. وإذا توقف العرب عن النضال فإنهم لم يتوقفوا عن الشعر، وإذا عجز العقل العربى عن التفكير فإن الخيال العربى ما زال قادراً على إثبات الذات والخروج بسلام من المأزق التاريخى.

ولقد تعرض العرب من قبل لمثل هذه الأزمات التاريخية منذ الحروب الصليبية من الغرب التى قاومها صلاح الدين، وغزوات التتار والمغول من الشرق التى قاومها أمراء المماليك مثل الظاهر بيبرس، والاستعمار الأوروبى الحديث من الغرب وقاومتها حركات التحرر الوطنى وقادتها مثل عبد الناصر وبن بللا وعمر المختار وعلال الفاسى وسوكارنو وسكوتورى ونكروما وجوموكنياتا وكاوندا ونيريرى ونلسون منديلا وموجابى وكاسترو وهوشى منه، بعد أن أصبح العرب بؤرة تحرر العالم الثالث، وليس بعيداً أن يعود العرب من جديد بتجاوز هذا المأزق التاريخى اعتمادًا على حركات الجهاد الإسلامية التى استبعدت إبان التحول عن الثورة إلى الدولة بعد أن خرجت الحركات الوطنية منها. وبعد التعثر فى بناء الدول قد تعود الحركات الإسلامية تعمل مع الحركات الوطنية وليس بمفردها فى إقالة الدول من عثرتها ليس فقط على المستوى العملى، درء العدوان والتهديد، ولكن أيضًا على مستوى المفاهيم النظرية، الأمة والدولة، والثقافة والسياسة، والرعية والمواطن، والهوية والعالمية.

* * *

١١ـ كيف يقع الانفجار؟

فإذا وقع الانفجار بعيداً عن اليأس والتشاؤم، فكيف يقع؟ وبأى قوى؟ وبأى دافع للتحرك؟ ولتحقيق أى هدف؟ إذا ما وقع الانفجار فلأن نهاية القاع قد قربت، ونهاية النفق قد بدت، وحالة الإحباط قد تغيرت. فالحركة شىء طبيعى، والسكون وضع غير طبيعى. والهدف هو رد الاعتبار واسترداد الكرامة، والعودة إلى مسار التاريخ.

ويظل السؤال: ما القوى الفاعلة الجديدة القادرة على التغيير الجديد؟ هناك عدة احتمالات، من الأبعد إلى الأقرب، ومن الأقل إلى الأكثر.

الاحتمال الأول: هو قيام جيل من الضباط الأحرار بما قام به الجيل الأول، تكوين خلايا وطنية داخل الجيش وعلى صلة بالحركات الوطنية خارجه، وهى حركات المعارضة الحالية الناصرية والإسلامية والليبرالية والماركسية، وانتظار الفرصة للقيام بانقلابات على النظم السياسية القائمة بعد أن عمها الفساد الداخلى والعجز الخارجى. وهو احتمال بعيد، فالتاريخ لا يكرر نفسه. وظروف الأربعينيات والحركة الوطنية التى تكونت فيها خلايا الضباط الأحرار لم تعد قائمة الآن، بعد أن تم القضاء على العمل السياسى الحر وتكوين الأحزاب فى نصف القرن الأخير. والجيوش الآن هى جزء من النظام الوطنى الذى ما زال يستمد شرعيته من حركات التحرر الوطنى ضد الاستعمار أو فى استعداده لرد العدوان وفى تحمله النضال الوطنى من أجل فلسطين. وقد خاض من أجلها من قبل أربع حروب على الأقل. وطاعة الجيوش الوطنية للدولة جزء من النظام العسكرى. وقد تحولت قطاعات عديدة من الجيوش إلى العمل المدنى فى بناء الجسور والكبارى،

وتمهيد الطرق، وحل المشاكل الاجتماعية التى لا تقوى أجهزة الدولة المدنية على حلها. وربما لا يرضى الناس عن تكرار النموذج الأول بعد أن فقدوا المكاسب التى نالوها منه، المكاسب الاشتراكية والتحررية، ولم يتذكروا منه إلا استمرار القهر، وأزمة الحريات العامة، وحكم العسكر، وضعف المجتمع المدنى، وهزيمة يونيو - حزيران ١٩٦٧م التى قضت عليه، واحتلال كل فلسطين، بالرغم من بقاء الاستعمار الجديد ممثلاً فى الولايات المتحدة الأمريكية، والقهر الجديد ممثلاً فى ملوك اليوم جمهوريين أو ملكيين.

والاحتمال الثانى: قيام تنظيمات سرية فى المجتمع خارج الجيش بمهمة الانقلاب على النظام. وهى عديدة إسلامية وماركسية. وهو طريق محفوف بالمخاطر؛ لأن عيون الدولة فى كل مكان، ولا يكاد يمر عام لا تكتشف فيه أجهزة الأمن خلية سرية، تتهم فيما بعد أمام القضاء العسكرى بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم، وتكوين تنظيم سرى غير مشروع. التهمة جاهزة، والقضاء موجود، والإدانة مسبقة والعقاب قابل للتنفيذ. وهو احتمال بعيد. فالناس مطحونة، تسعى للحصول على الخبز والرزق فى الداخل أو الخارج. وعصر الالتزام السياسى قد ولى. وماذا تستطيع بعض الخلايا أن تفعل أمام أجهزة أمن الدولة الأمنية المسيطرة على جميع أنواع نشاط المجتمع المدنى؟

وقد تتوالى الانقلابات على هذا النحو، ولا يكون أحدها أفضل من الآخر. الهدف هو الوصول إلى السلطة، فالله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن. ويصبح الدفاع عن السلطة هو الهم الأكبر للنظام وليس التغيير الاجتماعى والتنمية الاقتصادية. وتظل عقلية التنظيم السرى هى السائدة فى إدارة الدولة. قد تقع الانقلابات داخل التنظيم من الرجل الثانى فى النظام، وليس من تنظيم سرى آخر مناوئ. ومهما كانت شعبية التنظيم السرى بعد النجاح فى الاستيلاء على السلطة إلا أنه سرعان ما يتحول إلى تنظيم مغلق. وقد ينقلب إلى الضد فى اختياراته السياسية إذا ما تغيرت الظروف المحيطة به ما دام فى ذلك المحافظة على السلطة.

والاحتمال الثالث: الهبات الشعبية والانتفاضات الجماهيرية التى لا تقوى

أجهزة الأمن على حصارها أو منعها فى لحظات الضيق الشديد إذا ما توافرت الشرارة، مثل قرار سياسى خاطئ برفع أسعار المواد الغذائية، أو برفع الدعم عن الطبقات الفقيرة، أو زيادة إيجار المساكن. وقد قامت مثل هذه الهبات والثورات الشعبية تحطم كل شىء أمامها من رموز السلطة، الصحافة ومخافر الشرطة والحزب الحاكم، كما حدث فى يناير ١٩٧٧م فى مصر، ثم فى تونس والجزائر والمغرب والأردن فى الثمانينيات.

ونظراً لعدم وجود تنظيم سياسى يستطيع حماية هذه الانتفاضة الشعبية وتحويلها إلى قوة فإنها سرعان ما تنطفئ وتخبو وتهدأ كما تهدأ العاصفة. ويتم القبض على المشاغبين، وتسترد الدولة هيبتها. قد تتراجع عن قراراتها الاقتصادية التى كانت السبب فى اندلاع هذه الهبات الشعبية، ولكنها تزداد قهراً وتسلطًا على المستوى السياسى، ثم تفرض هذه القرارات تدريجيًا ودون إعلان حتى يقبلها الناس دون إحداث صدمات تؤدى إلى صدامات. وتظل الدولة بأجهزتها أقوى من الشعب وهباته. ونماذج الثورة الفرنسية والثورة البلشفية وثورة ١٩١٩م والثورة الإسلامية فى إيران قد لا تتكرر. فقد كانت هناك أحزاب وتنظيمات وراء هذه الثورات. وكانت تمثل منعطفات تاريخية فعلية، وليست مجرد شعبية لتغيير نظم سياسية لأسباب اقتصادية.

والاحتمال الرابع: هو إحداث تغير داخل القيادات السياسية ذاتها إذا ما أصبحت محاصرة بين المطرقة والسندان، بين الضغوط الداخلية والضغوط الخارجية كما حدث لعبد الناصر فى ١٩٥٦م عندما أمَّم قناة السويس ضد ضغوط البنك الدولى والأحلاف العسكرية من الخارج، وحركات المعارضة من الإخوان والشيوعيين فى السجون ولا شعبية الحكم وعسكريته فى الداخل. وحدث نفس الشىء لطلال ملك الأردن وحصاره بين جلوب باشا والإنجليز من ناحية، والحركة الوطنية الأردنية وتيار القومية العربية من جانب آخر. فالوطنية تفرض نفسها على التبعية، والشعب يفرض مطالبه على القاهر. وربما حدث نفس الشىء للسادات قبل اندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣م عندما تم حصاره بين مظاهرات ١٩٧٢م فى

الداخل والضغوط الخارجية من أمريكا وإسرائيل فى الخارج بالاستسلام وقبول الشروط الإسرائيلية بالصلح والاعتراف والاحتلال قائم. ومعروف فى تاريخ العرب هذا التحول من النقيض إلى النقيض « اليوم خمر، وغداً أمر ».

ما بين غمضة عين وانتباهتها

يغير الله من حال إلى حال

والاحتمال الخامس: هو استمرار الضغوط الشعبية على الحكّام حتى تتغير سياساتهم، وكسب الرأى العام عن طريق المعارضة الشرعية العلنية، وتنشيط المنظمات غير الحكومية، ولجان حقوق الإنسان، والجمعيات الأدبية والثقافية، والأساتذة الأحرار بالجامعات، حتى يرضخ الحكّام ليقظة الشعب الجديدة، ويروا أن مصلحتهم فى البقاء فى السلطة مشروطة بالنزول على رغبة الشعب وتبنى سياساته.

ويساهم فى ذلك خطباء المساجد والأئمة والعلماء الذين ما زالوا محط ثقة من الناس ومصدراً لفتاويهم. وهو ما حدث فى مصر عندما اجتمعت قوى المعارضة الرئيسية الإسلامية والناصرية والوفدية والماركسية على رفض سياسات كامب ديفيد والصلح مع إسرائيل، والتبعية للولايات المتحدة، والقطيعة مع العرب، وسياسة الانفتاح، وتبلور سياسات بديلة فرضت نفسها على النظام؛ مما أدى إلى تصفيته ونهايته والتحول إلى سياسات أكثر وطنية، وأقرب إلى مطالب الناس.

وهو الاحتمال الأكثر واقعية وإن استغرق زمنًا أطول، واحتاج إلى جهد أعظم، وصبر وطول بال. فالضباط الأحرار كخلايا سرية فى الجيش، والتنظيمات السرية كخلايا فى المجتمع، والهبّات الشعبية الفورية، وتغيير القادة من الداخل أو بانقلاب فى البلاط كلها من صنع الأقلية، أما الحركة الشعبية العامة والائتلاف الوطنى، وكسب الرأى العام والبرنامج الوطنى الموحد فإنه عمل الأغلبية.

وهذا الاحتمال لا يغير فقط النظام السياسى بل ينقل المجتمع كله من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى. إذ يتم تحصين الشعب ضد الانقلابات وأهواء الحكّام وحكم الأقليات بعد أن استرد الشعب حقوقه وحقق مطالبه. فالانقلابات

فى النهاية من سمات المجتمعات المتخلفة التى تكون للقمة فيها باستمرار الأولوية على القاعدة، وللفرد السلطة على الجماعة، وللملك الحق على الرعية، وللإمام طاعة المأموم.

ومع ذلك فإن تحليل كيف يحدث الانفجار على نحو عقلانى هادئ وبناء على تجارب ماضية، وترتيب الاحتمالات من أبعدها إلى أقربها، قد لا يقوى على نحو مطلق التنبؤ بمجرى الأحداث. فالتحليل العقلى شىء، والواقع التاريخى شىء آخر. محاولة الفهم محدودة، والمسار التاريخى لا يمكن التنبؤ بمصيره. قد يخضع التحليل العقلى لرغبة أو تمنّ. وقد يظل العنف فى التاريخ والمكر والدهاء من محركاته. قد يستعيد التاريخ دوراته دون إحداث تراكم تاريخى كاف، فيكون الاحتمال الأبعد هو الأقرب، والأقرب هو الأبعد. ويظل السؤال مطروحًا: كيف يحدث الانفجار؟

* * *

ثالثاً: العدوان على العراق

١- الحرب وحيلة العاجزين.

٢- الديموقراطية على أسنة الرماح.

٣- السويس ١٩٥٦م - العراق ٢٠٠٣م.

٤- الصفقة الخاسرة.

٥- النظام العراقى.

٦- النظم العربية.

٧- النضال الوطنى.

٨- الخطاب العربى.

٩- السلوك العربى.

١٠- المستقبل العربى.

١١- المواطن العربى.

١٢- تهميش مصر.

١- الحرب وحيلة العاجزين

بدأت أمريكا فى الاستعداد لإعمار العراق وأقامت مكتبًا فى واشنطن بل وداخل البيت الأبيض لهذا الغرض. فالحرب قد وقعت، والغاية قد تحققت، والنصر قد تم. وحتى يقبل الناس الحرب التى لم تقع بعد، وتخف حدة المعارضة لها يتم الحديث عن الرخاء القادم بدلاً من القحط الحالى، والنعيم الآتى بدلاً من العذاب الآنى. وعذاب الأولى له تعويض فى نعيم الآخرة. فتلتئم الجراح قبل إثخان جسد العراق بها حتى تخف معارضة الحرب ويقبل بها المعترضون عليها فآثارها الجانبية فى الحسبان!

وبدأت الصحف العربية أيضًا نفس الحديث. وتناشد الكتّاب والمفكرين والمنظرين والمجتهدين على الإدلاء بدلوهم فى مرحلة ما بعد الحرب بالاستعداد فى الكتابة فى موضوعات للإغاثة الإنسانية، وإقامة الخيام، وإعداد منازل الإيواء، وإقامة المستشفيات المتنقلة، وجلب البطاطين، وتجميع مواد الغذاء، وتوفير المواد الطبية، وإغاثة ملايين المشردين. فالعرب قلوبهم رحيمة بالمحتاجين، يقرون الضيف، ويعينون المحتاج، ويوالون الضعفاء. فيتحول العجز الحالى إلى قدرة، والضعف إلى قوة، والسكون إلى حركة، واللامبالاة إلى فعل، والتضحية بالأخ وهو حى والسعى فى جنازته وهو ميت. فالهروب إلى الأمام أحد وسائل حل الأزمات، والقفز على الحاضر أحد وسائل التعامل معه بل وفى ثقافة تجتر الماضى أكثر مما ترنو إلى المستقبل.

وهو استسلام للأمر الواقع، وإعلان عن العجز عن إيقاف الحرب. فمن له بقوة

(*) جريدة الاتحاد: ٢٢ مارس ٢٠٠٣م.

عسكرية تجابه كما فعلت ڤيتنام أو تحركات شعبية تقاوم، أو شجاعة أدبية تقف فى الأمم المتحدة ومجلس الأمن تعارض وتنقض، كما تفعل فرنسا وألمانيا وروسيا وبلچيكا والاتحاد الأوروبى والصين؟ فقد انزوى العرب وغابوا عن الساحة العالمية، ولم يعودوا أحد العوامل المؤثرة فيها.

ويؤيد ذلك كله ثقافة الاستسلام للمقادير «المكتوب مامنوش مهروب»، فالعدوان الأمريكى على العراق قادم، ولا مفر منه، ولا يمكن تجنبه إلا بمعجزة. «لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع»، فلا أمل فى حل آخر، دبلوماسى سياسى، أو نضالى شعبى. «المتعوس متعوس ولو علقوا على رأسه فانوس»، فالعراق متعوس بنظامه حتى ولو قاوم ونجح فى تدعيم الرأى العام له. «العين صابتنى ورب العرش نجانى»، فالهزيمة والنصر، والشر والخير ليسا من فعل الإنسان. والحقيقة أن «العاجز فى التدبير يحيل إلى المقادير»، ولا يستطيع الإنسان أن يدفع عنه أى شر أمام قوة أكبر، «ابن آدم فى التفكير والرب فى التدبير»، فلا مفر من الهلاك، «يا هارب من قضايا مالك رب سوايا». والمغلوب مغلوب «المغلوب مغلوب وفى الآخرة يضرب طوب». ولا يغنى حذر من قدر «المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين». وتنتهى المبادرة، وتعز المقاومة؛ لأن «كل عقدة لها حلال». فلا حل إلا عند القادر «ما لها إلا النبى». ولا يهم ما يحدث فالإنسان قادر على التكيف مع الهزيمة «مطرح ما ترسى دقّلها». وليس على العرب إلا الشكوى والإعلان والبيان والشجب والإدانة «سلاح الضعيف الشكية». وهو ما يحدث الآن حتى أصبح الكلام آخر صيحة قبل الموت، وآخر صحوة قبل الفناء.

وكيف يتم التضحية بالوطن منذ البداية ثم لملمة أشلائه فى النهاية؟ كيف يتحول الوطن إلى مهاجرين ونازحين وهاربين وفارين، وتكون المشكلة هى تدبير مخيمات الإيواء وكأننا فى ١٩٤٨م أخرى؟ كيف يفرغ الوطن من أبنائه بعد أن تضيع الكرامة وينتهك العرض؟ وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟ سنقتلكم ونحسن دفن موتاكم وإعالة من نجا منكم ﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ** ﴾ [الرعد: ٣٨]، ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقد حان أجل العرب.

وتُطالب القيادة العربية بالاستقالة سواء بناء على اقتراح أمريكى أو عربى تجنبًا لويلات الحرب وتجنيبًا لشعب العراق من الدمار والحرائق. قنابل جديدة تزن عشرات الأطنان تحرق الحابل والنابل، والأخضر واليابس. وحرب إلكترونية جديدة تبطل كل وسائل المقاومة. وأسلحة فتاكة لم تجرب من قبل وسيتم تجربتها على شعب العراق. والنووى جاهز للاستعمال ويكون لسان حال الوطن «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها». ويرفض العرب الاقتراح باللسان والكل يتمناه بالقلب وهو أضعف الإيمان.

وإذا كانت أمريكا قد رفضت استقبال الوفد العربى الذى يمثل مؤتمر القمة؛ لأنه لم يعد هناك كلام يقال. فقد انتهى وقت الكلام وحان وقت الفعل، فقد رفضت العراق أيضًا استقبال الوفد العربى؛ لأنه لم يعد هناك كلام يقال. سيطالب العراق بمزيد من التعاون الكامل والشامل مع المفتشين الدوليين، وكأن العراق لم يقم بما يطالب به، وكأنه عاص مما يعطى مبررًا للعدوان عليه. وماذا تستطيع حيلة العاجز فى درء العدوان؟ وماذا لو كان أحد ذرائعه؟

ولا أحد يسأل: لماذا تقع الحرب؟ ولماذا لا يتم إيقافها قبل أن تقع؟ هذا هو التحدى للفعل العربى والنظام العربى. وبأى لسان يقال «إن الحرب واقعة لا محالة؟» بلسان عربى أم بلسان أمريكى؟ وأين تراث الأمة ومصدر إلهامها الأول ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقد واجه الرسول نفس الشىء فى غزوة بدر عندما قيل «هذه قريش قد أتت لكم بخيلها ورجلها». ورد الرسول «إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم». والعصابة اليوم هو الصمود العربى، والتضامن العربى، والمقاومة العربية. لماذا أعلن العرب الاستسلام منذ البداية قبل أن تقع الحرب؟ لماذا التفكير فى أوضاع العراق السياسية، من يحكم العراق، والاقتصادية، من يعمّر العراق، والإنسانية، من يضمد جرح العراق والحرب لم تقع بعد، قد يكون درسًا للغير وعبرة لمن يعصى القطب الأوحد ولا يدخل بيت الطاعة بمحض إرادته. وقد يكون اختبار قدرات، وقع العرب فى أول امتحان فيه فى العراق.

ولماذا لا يكون السؤال: إذا وقعت الحرب فكيف يقاوم العرب، وكيف تصمد المقاومة، وكيف يطول أمدها، وكيف يتحول الوطن العربى إلى مقبرة للغزاة كما حدث ذلك من قبل فى حروب الصليبيين والاستعمار الغربى الحديث من الغرب وفى غزوات التتار والمغول من الشرق؟ لماذا لا يستدعى التاريخ العربى المجيد وبه نماذج عدة وأمثلة واضحة على كيفية مقاومة العرب وطريقة سعيهم للنصر؟ لماذا لا تمنع الحرب أولا، فإن وقعت فكيف الصمود؟ وإن وقع الاحتلال فكيف تستمر المقاومة كما حدث لفرنسا بعد احتلال هتلر لألمانيا، وكما يحدث الآن فى فلسطين المحتلة بعد اجتياح الكيان الإسرائيلى لمدنها وقراها؟ لماذا توقع البلاء قبل وقوعه وافتراض الهزيمة قبل النصر، والإعداد للاستسلام بدلاً من الاستعداد للمقاومة، ووضع السلاح قبل أن تبدأ المعركة وبمجرد تلويح العدو بها؟ إن العدوان الأمريكى على العراق هو استمرار للعدوان الصهيونى على شعب فلسطين، والعدوان القادم على إيران وسوريا ولبنان للتخلص من المقاومة الممكنة والواقعة. والعدوان على السودان، موقع الإرهاب، لفصل الشمال عن الجنوب، والعدوان على اليمن التى انطلق منها الاعتداء على المدمرة كول، ثم العدوان على مصر والحجاز الصديقتين التقليديتين للولايات المتحدة الأمريكية. فأمريكا لا تقبل إلا التحالف الكامل مع العدو ضد الأخ لاختبار مدى صداقته وبدعوى القضاء على نظام يفرّخ الإرهاب فى الحجاز أو ما زال يدافع عن القضية الفلسطينية فى مصر. لقد قيل عن العراق فى حرب الخليج الأولى إنه بوابة العرب الشرقية، فلماذا لا يقال عن العراق الآن فى التهديد بالعدوان عليه إنه بوابة العرب الشرقية أو الغربية إذا ما أتاه العدوان من الغرب، أو الشمالية إذا ما أتاه العدوان من الشمال، أو الجنوبية إذا ما أتاه العدوان من الجنوب؟ وهل كان إيران المدافع عن أرضه فى حرب الخليج الأولى أكثر خطورة من أمريكا المهاجمة لغيرها خارج أرضها وعلى بعد آلاف الأميال؟ إن المعايير المزدوجة ليست فقط عند أمريكا بل أيضًا عند العرب. أمريكا تعتدى على العراق بحجة نزع أسلحة الدمار الشامل وليس على إسرائيل. والعرب يقفون مع العراق فى حربها مع إيران وليس فى عدوان أمريكا عليها.

ليست المقاومة بالسلاح وحده ولا بيانات إعلان الجهاد من مشايخ الأزهر

ورجال الدين. فقد أعلن الجهاد لفلسطين والمقاومة الفلسطينية وحيدة فى الساحة، تبرئة للذمة وستراً للعورة بورقة توت. إنما المقاومة بدرء روح الهزيمة وإيقاف فعل الاستسلام، والاحتماء بثقافة المقاومة كما احتمى بها ديجول بعد الاحتلال النازى لفرنسا ورفضه الاستسلام، كما فعل بيتان بدعوى تجنيب شعب فرنسا الدمار الشامل والاحتلال الكلى من الشمال إلى الجنوب، من دنكرك حتى نيس وكان ومرسيليا وطولون. إنما المقاومة إن وقعت الحرب تكون برفض الاستسلام، وبمزيد من التضحيات، وبإرادة الصمود حتى تتبلور المقاومة العربية أولاً، والأوروبية ثانيا، والدولية ثالثا. تكون المقاومة برفض الأمر الواقع وليس بالاستسلام له، وبافتراض الممكن وليس الإيمان بالمستحيل. هكذا فعل فشته عندما احتل ناپوليون ألمانيا وبعد موقعة «يينا ـ Iena»، وأعاد صياغة فلسفته من أجل المقاومة، «تضع الأنا ذاتها حين تقاوم» وهكذا كان شعراء المقاومة فى الأرض المحتلة لمحمود درويش:

«آه يا جرحى المقاوم،

أنا لست مسافرًا،

ووطنى ليس حقيبة،

إننى العاشق، والأرض حبيبة».

أو لتوفيق زياد:

«ادفنوا أمواتكم وانهضوا،

فادفنوا أمواتكم وانتصبوا».

وما الضامن ألا يؤدى الاستسلام للعدوان الأمريكى على العراق وتوطين المهاجرين وإيواء اللاجئين وإغاثة المنكوبين، ألا يمتد ذلك إلى فلسطين بعد أن ينتهز شارون فرصة العدوان الأولى فيقوم بعدوان ثان على الضفة والقطاع، ويهجّر الفلسطينيين إلى الأردن المتعاون والعراق الخراب، فتعود ١٩٤٨م فى فلسطين بعد نصف قرن مرتين فى العراق وفى فلسطين، وتصبح الخيمة بحق رمز الوطن العربى. وترث إسرائيل الناى وأمريكا العقال.

٢- الديموقراطية على أسنة الرماح

أصبحت الديموقراطية أحد بنود جدول الأعمال الأمريكى لمستقبل الوطن العربى قبل غزو العراق وبعده. وأصبحت ذريعة للتدخل فى نظم الحكم لدرجة قلبها من الداخل أو غزوها من الخارج. وهى حجة تخدع الرأى العام، وتجعل الغرب عامة وأمريكا خاصة نموذج العالم الحر الديموقراطى الذى يرعى حقوق الإنسان والشعوب معًا. وتسمح للقوى الأجنبية بتمويل مؤسسات المجتمع المدنى التى تعمل لنفس الغاية بالرغم من اختلاف الأهداف، السيطرة من جانب القوى الخارجية والعمل الوطنى الديموقراطى من جانب القوى الداخلية لو خلصت النوايا، وبالرغم مما يشوب الدعم الأجنبى من تساؤل عند المثقفين الوطنيين وبسطاء الناس.

وتسمح نظمنا السياسية بذلك، وتعطى الذرائع للقوى الأجنبية للتدخل للحكم عليها إيجابًا أم سلبًا. فتصدر أمريكا بيانًا ضد مد مجلس الشعب فى مصر لقانون الطوارئ سنوات أخرى وتغفل عن عمد إلغاء مصر لمحاكم أمن الدولة لصالح القضاء العادى. وتقف لبعض مراكز الأبحاث والمشرفين عليها بالمرصاد إذا ما تجاوز الخط الأحمر وتعرض للمسكوت عنه، مثل تداول السلطة بطريقة الجمهوريات الملكية، والنظم العسكرية، والإشراف الدولى على الانتخابات المحلية، ونسيج الوحدة الوطنية، ونشر المعلومات عن الوطن فى الخارج، والخارج يعرف عن الوطن أكثر مما يعرف الوطن عن نفسه.

كما تعطى المعارضة السياسية نفس الذريعة لنظم الحكم فى الداخل أولاً ولقوى التدخل فى الخارج ثانيًا. فقد تناقلت وكالات الأنباء نبأ تأييد الناصريين لمد قانون

(*) جريدة الاتحاد: ٢٩ مارس ٢٠٠٣م، مجلة الديموقراطية: العدد الثالث عشر - يناير ٢٠٠٤م.

الطوارئ ضد جماعات الإرهاب والمقصود بها الحركات الإسلامية استمراراً لخصام قديم منذ أزمة مارس فى ١٩٥٤م فى الجمهورية الأولى واستمراراً لها، وقد كانوا ضحية لها منذ ١٩٧١م فى الجمهورية الثانية عندما أطلق الإسلاميون على الناصريين تمهيداً للانقلاب على الثورة. وما زالت الوحدة الوطنية بعيدة المنال وتسير على استحياء فى هذا الظرف العصيب الذى تمر به الأمة العربية، ويبيت فيه العدوان على العراق أولاً، وإيران وسوريا ولبنان ثانيًا، والسودان والسعودية ومصر ثالثًا. ومن يفرط فى أخيه اليوم يفرط أخوه فيه غداً. ويستمر شق الصف الوطنى، ويتباعد جناحا المعارضة الرئيسية ويقوى النظام.

الغاية الحقيقية من فرض الديموقراطية على أسنة الرماح ليست الديموقراطية بل السيطرة على مقدرات الشعوب، وفرض نظم حكم تابعة للقوى الكبرى لتحقيق هيمنتها، والقضاء على النظم السياسية المستقلة التى توصف بالدول المارقة أو تكوّن محور الشر مثل العراق وإيران وكوريا أو الدول الراعية للإرهاب مثل سوريا وليبيا والسودان. وكلها أقطار عربية إسلامية باستثناء كوريا.

ولا تعنى الديموقراطية المفروضة من الخارج حرية التعبير للأفراد أو التعددية السياسية والانتخابات الحرة والوزارة المسئولة والدستور بل تعنى النظام السياسى التابع للولايات المتحدة الأمريكية، والتخلى عن السيادة الوطنية، ورفع الحواجز الجمركية، وفتح الأسواق المحلية، والتوقيع على اتفاقية الجات، وقبول توصيات البنك الدولى وصندوق النقد، والتوقيع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية حتى تجد العولمة النظم السياسية المواتية لها حتى يعم اقتصاد السوق، وتصدر مجموعة الدول الثمانى منتجاتها من المركز إلى الأطراف. فالعولمة أحد أشكال الهيمنة الغربية من خلال السوق والثقافة، المنافسة والربح وقيم الاستهلاك. فالديموقراطية عنوان الليبرالية، والليبرالية حامل الرأسمالية. وتكون النتيجة أن المجتمعات التقليدية التى ما زالت تصارع من أجل التحول الديموقراطى تتحول فيها الرأسمالية دون شروطها الليبرالية فتصبح فساداً وإثراء وتهريبًا لرءوس الأموال إلى الخارج وتخلفًا وفقراً.

والغاية أيضًا هى القضاء على ما تبقى من نظم اشتراكية فى بلدان العالم الثالث. فقد ولى عهدها وسقطت أنظمتها منذ أكثر من عقد من الزمان. وانتصرت الرأسمالية، وانتهى التاريخ، وتوقفت عقارب الساعة. ولم يبق إلا صراع الحضارات لكى يخفى صراع المصالح والمعسكرات بين العالم الحر والنظم الشمولية. الغاية هو الدخول فى السوق العالمية وسيولة رأس المال العالمى، وتقسيم العمل، ونهاية القطاع العام وإعطاء الأولوية المطلقة للقطاع الخاص، وتعويم العملة المحلية، والتعامل مع الحاجات الأساسية بأسعار السوق، وانحسار دور الدولة فى التخطيط الاقتصادى ودعم الطبقات الأقل قدرة. وأصبح صدام الحضارات هو كلمة السر للحروب القادمة بما فى ذلك الحرب العالمية الثالثة.

والغاية أيضًا إنهاء روابط الوحدة بين البلدان المجاورة، فقد ارتبطت الاشتراكية بالقومية وليست بالأممية الاشتراكية أو الرأسمالية كما اتضح ذلك فى الاشتراكية العربية، والاشتراكية الأفريقية، والاشتراكية الأمريكية اللاتينية، والاشتراكية فى أوروبا الشرقية قبل انهيارها. فالعولمة حركة ذات اتجاهين، توحيد المركز وتفتيت الأطراف. والقومية بطبيعتها مناهضة للهيمنة ودعوة إلى الاستقلال كما حدث فى القومية العربية إبان المد القومى العربى. فلا مجال للتعاون الإقليمى أو للاعتماد المتبادل بين دول الجوار ولا للسوق العربية المشتركة أو لسوق أمريكا اللاتينية أو لمجموعة الثمانى والعشرين فى جنوب شرق آسيا ولا حتى للسوق الأوروپية المشتركة. فقد ابتلعت العولمة كل شىء باسم العالم قرية واحدة، وتكنولوچيا الاتصالات، واقتصاد السوق وقوانينه.

والحقيقة أن الديموقراطية ليست غاية فى ذاتها بل وسيلة لتحقيق غاية أخرى، وهى مجموع المقاصد والأهداف التى يضعها المجتمع من أجل العدالة والتنمية. ليست الديموقراطية مجرد شكل، تعددية حزبية، وانتخابات حرة، وبرلمان، ودستور، وحرية صحافة بل أيضًا مجموعة الأهداف والغايات التى تعمل لها الأحزاب الديموقراطية. ففى النظام الأمريكى الذى يضرب به المثل فى الديموقراطية لا فرق بين الجمهوريين والديموقراطيين فى العدوان على العراق،

وفى التأييد المطلق لإسرائيل والتسابق نحوه والسعى إليه كسبًا لأصوات اليهود فى الانتخابات الرئاسية وفى نقل السفارة الأمريكية إلى القدس. وفى بريطانيا صاحبة الديموقراطية العريقة، لا فرق بين العمال والمحافظين أيضًا فى العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦م، وفى العدوان الواقع على العراق، وفى مناصرة إسرائيل إلا فى الدرجة وليس فى النوع. وقد أيدت كل الأحزاب الليبرالية والديموقراطية فى الغرب المد الاستعمارى الأول فى القرن التاسع عشر وحتى هذا القرن وهى منتخبة انتخابًا ديموقراطيّا. والنازية والفاشية تم انتخابها أيضًا انتخابًا ديموقراطيّا فى ألمانيا وإيطاليا قبيل الحرب العالمية الثانية.

وليست الديموقراطية تصوراً كميّا للأصوات، الأغلبية تحكم ضد الأقلية وعلى الرغم منها، فهذا قهر للأقلية لحساب الأغلبية العددية. إنما الديموقراطية هى التى تنشأ عن توافق فى الرأى وإجماع وطنى عام بعد المداولات والمناقشات والمشاورات ضد التفرد بالرأى وإصدار القرار. الديموقراطية جوهر ومضمون ضد التسلط والقهر كنظام وبنية. الديموقراطية تعددية طبيعية فى الرأى تقوم على حق الاختلاف وشرعيته ضد الرأى الواحد والحزب الواحد والفرقة الناجية.

لقد أيدت الولايات المتحدة الأمريكية أعتى النظم التسلطية فى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا وفى الوطن العربى طالما كان يحقق مصالحها فى السيطرة، وإقامة الأحلاف، والعداء للمعسكر الاشتراكى فى عصر الاستقطاب. فإذا ما خرجت هذه الأنظمة عن بيت الطاعة، وأصبحت من الدول المارقة ومن محور الشر تتحول أمريكا ضدها؛ لأنها أصبحت لا تتعاون معها بما فيه الكفاية وإلى الحد الأقصى؛ أو لأنها حاولت التمسك باستقلالها الوطنى. وسرعان ما يفتح ملف الديموقراطية وحقوق الإنسان والفساد والإرهاب، أداة ضغط على النظم السياسية كى تعود إلى الحظيرة الأمريكية.

بل إن الولايات المتحدة طالما وقفت ضد المعارضة السياسية التى تناضل من أجل الديموقراطية؛ لأنها أيضًا مناهضة للنظم السياسية التابعة والحليفة لها. وطالما اتهمتها بالشيوعية وممارسة العنف والعمالة للاتحاد السوفييتى أثناء الحرب الباردة. بل إنها تحاول أن تقلب النظم الديموقراطية المناهضة لها كما فعلت فى الانقلاب

على الليندى فى شيلى وفى عدم الاعتراف بسلطة ياسر عرفات وهو منتخب ديموقراطيًا من الشعب الفلسطينى أمام العالم أجمع .

وقد حدث رد فعل فى حركة النضال الوطنى من أجل الديموقراطية برفضها أن تضع نفسها فى نفس الخندق الأمريكى وعلى نفس جدول الأعمال الأمريكى وبنفس اللغة والمصطلحات الأمريكية وإن تغيرت الأهداف . فقد ارتبطت الديموقراطية بالولايات المتحدة الأمريكية فى أذهان البسطاء وغير السياسيين ، وتوارى ارتباطها بالنضال الوطنى المجرّح من الأنظمة السياسية التسلطية فى الداخل . وبات من اللازم التفرقة بين الديموقراطية على أسنة الرماح المفروضة من الخارج لصالح القوى الخارجية ، والديموقراطية كمطلب وطنى من الداخل . الديموقراطية الأمريكية «كلمة حق يراد بها باطل» ، والديموقراطية الوطنية كلمة حق يراد بها حق ، الأولى الديموقراطية بالقوة الخارجية وهى نقيض الديموقراطية ، والثانية الديموقراطية بالنضال الوطنى الداخلى ، «بيدى لا بيد عمرو» .

إن الغزو الأمريكى ضد العراق باسم الديموقراطية قد يوحد الشعوب ضد العدوان ، ويلغى التناقضات الثانوية بين الأنظمة العربية من أجل الإبقاء على التناقض الرئيسى بين قوى العدوان الخارجى والقوى الوطنية الداخلية . وقد يتفتت العراق بين دولة شيعية فى الجنوب ، وسنية فى الوسط ، وكردية فى الشمال . وقد تتصارع قوى المعارضة العراقية البديلة بين القوى الوطنية والقوى المتحالفة مع العدوان الأمريكى التى تدخل بغداد على فوهات المدافع وطلقات الرصاص وأزيز الطائرات والصواريخ . حينئذ ، قد تحن الدول إلى الرجل القوى القادر على توحيد الأمة . وقد تحن الشعوب إلى الدولة الوطنية المركزية القادرة على حماية وحدة التراب الوطنى . حينئذ تضحى بالديموقراطية فى سبيل الوطن . فوطن موحد قوى يضحى بالديموقراطية خير من وطن مجزأ باسم الديموقراطية . وتفتيت الوطن العربى أحد أهداف الاستعمار الجديد ، وقسمته إلى عرب وأكراد وبربر ، وسنة وشيعة ، وأقباط ومسلمين ، حتى تصبح إسرائيل هى أقوى دولة طائفية عرقية فى المنطقة . وتأخذ شرعية جديدة من داخل المنطقة وليس من خارجها ، أرض المعاد لشعب الله المختار والتى يعدها الكثير من أساطير الأولين .

٣- السويس ١٩٥٦م - العراق ٢٠٠٣م

ما أشبه اليوم بالبارحة. فبعد ما يقرب من نصف قرن يقع عدوان ثلاثى آخر على العراق فى مارس ٢٠٠٣م كما وقع العدوان الثلاثى الأول على مصر فى أكتوبر ١٩٥٦م. كان أطراف العدوان الأول بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، ورفضت أمريكا - إيزنهاور. وكان أطراف العدوان الثلاثى الثانى بريطانيا وإسرائيل وأمريكا - بوش ورفضت فرنسا.

اشتركت بريطانيا فى العدوانين: الأول على مصر، فقد كانت تمثل الاستعمار التقليدى، والإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس، والثانى على العراق كتابع للولايات المتحدة الأمريكية والتى خلفتها فى قيادة الاستعمار العالمى.

وشاركت إسرائيل فى العدوان الأول؛ لأنها كانت تتوجس خيفة من حركات الضباط الأحرار والثورات العربية فى سوريا ومصر، ومناهضة الأحلاف العسكرية، حلف بغداد. فقد اعتدت على غزة فى ١٩٥٥م وعلى أثرها تعاقدت مصر على أول صفقة سلاح تشيكية. كانت تريد إسقاط النظام فى مصر، وتحتل سيناء، وتقف على حافة قناة السويس كى يكون لها نصيب فى عائدات الملاحة الدولية. واستولت على أم الرشراش «إيلات» الآن، على مدخل خليج العقبة فتكون قد سيطرت على الخليجين العقبة والسويس وشبه جزيرة سيناء فى الوسط امتداداً للنقب وتوسيعًا للرقعة الفاصلة فى قلب الوطن العربى بين شبه الجزيرة العربية والشام ومصر. وشاركت سرّاً فى العدوان الثانى على العراق عن طريق حث صقور البيت الأبيض. فلا فرق بين الصهيونية فى إسرائيل والصهيونية

(*) جريدة الاتحاد: ٥ أبريل ٢٠٠٣م.

المسيحية فى البيت الأبيض. كما أطلقت بعض الصواريخ سرًا على العراق. واشتركت فى تبادل المعلومات الاستخبارية مع الولايات المتحدة الأمريكية. وما زالت على أهبة الاستعداد للاشتراك فيه إذا ما تحركت سوريا أو لبنان أو إيران. أخطرتها أمريكا بوقت العدوان، وما زالت تخبرها بمساره، وتحتفظ بها كرصيد استراتيجى ومخزون عسكرى لها.

وشاركت فرنسا فى العدوان الأول عقابًا لمصر على مساعدتها للثورة الجزائرية، وتأميم قناة السويس التى كانت معظم أسهمها فى أيدى الفرنسيين بعد أن أصبحت إرثًا تاريخيًا لهم منذ حفرها حتى تأميمها. ولم تشارك فى العدوان الثانى بعد أن انتهت الحقبة الاستعمارية الأولى، واستقلت الجزائر، ورسخت «الديجولية» تعبيرا عن الثورة الفرنسية ومبادئها الثلاثة، الحرية والإخاء والمساواة والمقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى. فأصبحت ضمير العالم الحر الذى يقاوم العدوان ويدافع عن الشرعية الدولية، وحولها باقى الدول الحرة فى الاتحاد الأوروبى بل وفى آسيا، روسيا والصين.

لم تشارك أمريكا فى العدوان الأول. فقد خرجت منذ عقد من الزمان من الحرب العالمية الثانية فى ١٩٤٥م بعد أن ضربت اليابان أسطولها فى بيرل هاربر فى ١٩٤٢م. وما زالت تبزغ كقوة دولية جديدة. وكان إيزنهاور قائد قوات الحلفاء ما زال يتمثل القيم الأمريكية التى عليها قامت الولايات المتحدة الأمريكية والتى جسدها إعلان الاستقلال والدستور، واستمرارًا للآباء المؤسسين چيفرسون وواشنطن وفرانكلن، امتدادًا لمبادئ الثورة الفرنسية. ثم أصبحت هى المعتدى الأول فى العدوان الثانى بعد أن تخلت أمريكا عن قيمها الأولى، واستقرت فى البيت الأبيض عصابة ما زالت تعيش بعقلية الغزو الاستعمارى القديم، الغزو العسكرى لما وراء البحار بحملات بحرية لقتل المدنيين واستئصال السكان الأصليين، والقضاء على الدول والممالك باسم العالم الجديد والحضارة الغربية. فالقوة تصنع الحق، والغزو يقيم العدل، والسلاح هو الحكم.

وقد تغير الظرف التاريخى بين العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦م والعدوان

الثلاثي على العراق في ٢٠٠٣م. فقد وقع العدوان الأول في عصر الاستقطاب أثناء الحرب الباردة. وبرزت مصر بعده، وبعد باندونج في ١٩٥٥م مع أقطاب العالم الثالث في ذلك الوقت في الهند ويوغسلافيا، كعبة لحركات التحرر في العالم الثالث، تبلور كتلة جديدة تتمسك بعدم الانحياز، وتمثل ثلاثة أرباع الأصوات في الأمم المتحدة، وفي توازن دقيق بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية.

ووقع العدوان الثاني في عالم ذي قطب واحد، تتربع على عرشه الولايات المتحدة الأمريكية بعد انهيار الكتلة الشرقية عام ١٩٩١م. تفرض قانونها، وتستعمل المنظمات الدولية لصالحها. هي الخصم والحكم، القاضي والجلاد. وتقطعت أوصال يوغسلافيا. وربما يأتي الدور على مصر والهند. العولمة، وقوانين السوق، والشركات المتعددة الجنسيات، ومنظمة التجارة العالمية، وصندوق النقد، والبنك الدولي آلهة العصر الجديدة. فقد انتهى التاريخ، وتوقفت عقارب الساعة، واكتمل الزمن. ولا مكان لمن يخرج على بيت الطاعة، ويشذ عن النظام العالمي الجديد. محور الشر لا بد أن ينتهي في العراق وإيران وكوريا الشمالية، فالعدوان على العراق يهدف أساسًا إلى إجهاض احتمال قيام قطب ثان في مواجهة الولايات المتحدة تتجمع حوله باقي الدول في أفريقيا وآسيا.

عندئذ تكتمل الحلقة، ويشتد الحصار حول النتوءات في النظم السياسية العاصية. ويتم الاستيلاء على نفط العراق والخليج وإيران لخنق اليابان والشرق الأقصى وأوروبا. وتظل في الخليج القوة الأمريكية، قرابة نصف المليون، لحصار الصين والاتحاد السوفييتي من الجنوب. وتسيطر على العالم من وسطه وليس عبر البحار، فيما وراء الأطلنطي. ثم يبدأ إعمار العراق ويرسى العطاء على الشركات الأمريكية للبناء وللسلاح لتعويض الفاقد. فينشط الاقتصاد الأمريكي بعد ركود حتى ولو كان الثمن الآلاف من حياة الرجال والنساء والأطفال والشيوخ وتدمير وطن بأكمله.

وما لم يكن متوقعًا قد حدث، المقاومة الوطنية في العراق، لا فرق بين سنة وشيعة، عربي وكردي. إذ لم تتم المواجهة على الأرض في العدوان الأول عام

١٩٩١م، ولا فى العدوان الثانى فى رمضان ١٩٩٨م. بدأ الدفاع عن الوطن ضد المعتدى الأجنبى من الشعب قبل الجيش، ومن العشائر قبل المليشيات، ومن الفدائيين قبل الحرس الجمهورى. وقاومت أم قصر والبصرة والنجف. وفرح المعتدون بالجرى شمالاً فى الصحراء من أجل نصر إعلامى بان كذبه بالوقوف خارج المدن لاستحالة التقدم قبل قدوم مائة ألف معتد آخر. والحصيلة مئات القتلى من المعتدين، وتدمير المدن التاريخية، والقضاء على حضارات الشعوب.

وكما تحول ناصر إلى بطل قومى بعد تأميم القناة فى ١٩٥٦م تحولت العراق فى ٢٠٠٣م إلى رمز للنضال الوطنى دفاعا عن استقلال الشعوب ضد الهيمنة الاستعمارية الجديدة. وأصبح بؤرة للنضال الشعبى العربى الجديد. وخرجت المظاهرات فى معظم العواصم العربية ضد العدوان الثلاثى الجديد، كما قامت الملايين فى العواصم الأوروبية والآسيوية والأفريقية والأمريكية ذاتها برفض العدوان. وأصبح العراق ڤيتنام الجديدة من الستينيات إلى العقد الأول من القرن الواحد والعشرين بعد نصف قرن. وتحول النظام العراقى من أزمة الديموقراطية فى الداخل إلى محنة الوطن فى الخارج. وتغلب التناقض الرئيسى على التناقض الثانوى. وكما خطب ناصر فى الأزهر «سنقاتل، سنقاتل» فى ١٩٥٦م أفتى علماء الشيعة فى النجف بأن الدفاع عن الوطن واجب شرعى، وأن الجهاد هو سبيل الأمة. وكما خرج ناصر منتصراً بعد شهرين من العدوان فى ١٩٥٦م، انسحبت القوات الغازية واستردت مصر ممرها المائى كذلك سينتصر العراق، وستنسحب القوات المعتدية بفعل المقاومة الداخلية والرأى العام الخارجى. ويعيد التاريخ نفسه من بورسعيد إلى بغداد، ومن قناة السويس إلى دجلة والفرات، ومن البحر الأحمر إلى الخليج، ومن أحمس إلى حمورابى. ويجمعهما صلاح الدين.

إن العدوان على العراق ثلاث مرات فى ١٩٩١م وفى ١٩٩٨م وفى ٢٠٠٣م وقبله العدوان على المفاعل النووى فى العراق فى ١٩٨٤، ثم العدوان على ليبيا فى ١٩٨٦ ثم حصارها ما يقرب من خمسة عشر عاما وحصار العراق أحد عشر عاماً، وحصار بيروت فى ١٩٨٢م شجع العدوان الخارجى على العدوان على الوطن

العربى ما دام يقبل العدوان ويُعتدى على العواصم العربية، بيروت وطرابلس وبغداد. ومن يفرط فى كرامة الوطن مرة يفرط فيها مرات.

لقد شجع على العدوان على الوطن العربى تحالف بعض الأنظمة العربية مع العدوان وانطلاقه من أراضيها علنًا أم سراً، وعجز باقى الأنظمة عن الوقوف فى مواجهته بالتهديد بقطع العلاقات الديپلوماسية وضرب المصالح الأمريكية البريطانية، وأصبحت كملوك الطوائف، يحارب بعضهم بعضًا، ويسقط الواحد تلو الآخر حتى سقطت غرناطة، وضاعت الأندلس. ومن يفرّط فى العرض مرة يتعود على التفريط فيه مرات. ومن هانت نفسه عليه، تهون نفسه على العالم.

والعدوان على بيروت وطرابلس ومدن فلسطين بالأمس، وبغداد اليوم، قد يكون مقدمة لعدوان جديد على دمشق وطهران فى الغد. والأدلة التى تبحث عن الحرب قائمة: تهريب أسلحة الدمار الشامل من العراق إلى سوريا، إعطاء سوريا العراق مناظر ليلية للدفاع ضد الطيران الليلى، مساندة سوريا لحزب الله، إيواؤها منظمات «إرهابية» فى دمشق. والأدلة جاهزة أيضًا ضد طهران، المفاعل النووى فى خرمشهر، التعاون النووى مع روسيا، مساندة حزب الله، توريد السلاح للمقاومة الفلسطينية. وفى مرحلة تالية، العدوان على الخرطوم قادم لفصل الشمال عن الجنوب، وعلى اليمن انتقامًا للمدمرة كول، بل وعلى السعودية لتفريخها أسامة بن لادن، وتحويلها إلى دويلات فى نجد والحجاز وحضرموت، وأخيراً على مصر التى رفضت الدخول فى التحالف، وما زالت تناصر قضية فلسطين، والأدلة جاهزة، ملف حقوق الإنسان ووضع الأقليات.

وكما انتهى انطونى إيدن رئيس وزراء بريطانيا وجى موليه رئيس وزراء فرنسا بعد ١٩٥٦م، كذلك سينتهى بلير من زعامة حزب العمال وربما تنتهى الزمرة الحاكمة فى البيت الأبيض، عصابة الأربعة، بوش، رامسفيلد، تشينى، كونداليزا رايس. فالأمر لا يحسم بقوة العدوان بل بشدة المقاومة. وقد تخيل قاطنو البيت الأبيض والپنتاجون بل والكونجرس، العرب فى صورتهم النمطية فى ١٩٦٧م، وفى العدوان الأمريكى الأول على العراق فى ١٩٩١م، والثانى فى ١٩٩٨م.

ونسوا العرب في ١٩٧٣م، عبور خط بارليف والحظر النفطي. ظن مخططو العدوان أن شعب العراق سيستقبل جحافل التتار الجدد بالورود والرياحين لتحريرهم من النظام السياسي الذي يقوم على القهر والتسلط، وأن الحرب الخاطفة لن تكلف شيئًا، تحتاج فقط إلى بضعة أيام. بعدها ينصب حاكم عسكري على العراق، وترفع أعلام الولايات المتحدة الأمريكية بدلاً من أعلام العراق على أم قصر وباقي المدن العراقية. وتأتي الديموقراطية على أسنة الرماح. ويصبح المعتدون على العراق محررين له. فاصطدمت هذه الصورة الخيالية بواقع آخر، الدفاع عن الأوطان ومقاومة الشعوب.

وإذا وقع العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦م في بدايات الثورات العربية في سوريا ومصر والعراق في الخمسينيات ثم في اليمن وليبيا في الستينيات لإجهاض الثورة العربية التقدمية المعادية للاستعمار والصهيونية ومضمونها القومي الاشتراكي، فإن العدوان الثلاثي الثاني على العراق في ٢٠٠٣م إنما يقع في نهاية الثورة العربية بعد انقلابها على نفسها، وتحالف غالبية نظمها السياسية مع الاستعمار الأمريكي الجديد، والاعتراف بالصهيونية والصلح معها، وتحولها إلى الاقتصاد الرأسمالي، ونهاية التخطيط. وربما انتهت مرحلة الثورة العربية الأولى بعد نصف قرن إلى ثورة عربية ثانية «تزيح» النظم السياسية العاجزة، وتتحالف مع النضال الوطني للشعوب في مواجهة أعداء الأمة الدائمين، الاستعمار والصهيونية.

* * *

٤- الصفقة الخاسرة

الكل يمنى نفسه بالحياة بعد الموت، وبالأمل بعد اليأس، وبالرجاء بعد الخوف، وبالمكسب بعد الخسارة. فرحمة الله وسعت كل شيء عند المؤمنين، وجدل التاريخ لا ينقطع عند الهيجليين والماركسيين.

وكما يوعد الجرحى بالعلاج، والمنازل المهدمة بإعادة البناء، وتدمير العراق بالإعمار، والجوعى بالطعام، والعطشى بالماء، والمقاتلين بالفرار، والمجاهدين بالخيانة، ونظم القهر بالحرية على أسنة الرماح وفوهات المدافع، والعدوان على الأوطان بالانسحاب القريب بعد استقرار الأوضاع، كذلك يتم التضحية بالعراق من أجل فلسطين فى صفقة خاسرة: تدمير العراق وبناء فلسطين، احتلال العراق وإنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة، ومساعدة العرب علنًا أم سرًا قوات التحالف الأمريكى البريطانى فى مقابل تطبيق خطة الطريق، وهى صياغة جديدة لورقة كلينتون، وتقرير ميتشيل، ووعود بوش، وقبلها مبادرة روجرز، مع تنازل فى كل صيغة عن الصيغ السابقة طبقًا لحجم العرب وثقلهم على الساحة الدولية الذى يتناقص يومًا بعد يوم. فلا يقدم إلى العرب إلا ما يعادل قدر حجمهم من مبادرة روجرز عندما كان عبد الناصر ما زال يحمل عبء إزالة آثار العدوان والتى قبلها عبد الناصر لأنه يعلم أن إسرائيل ترفضها، والمبادرة العربية إعادة صياغة لها، وقد رفضتها إسرائيل بالفعل. حتى خطة الطريق التى تعرضها الإدارة الأمريكية على العرب بعد أن انكسرت شوكتهم فى العراق وفى فلسطين، وهما يقاتلان بمفردهما دون العرب بالرغم من مؤتمرات القمة وبياناتها وبعثاتها الديبلوماسية للوساطة تجنبًا للحرب

(*) جريدة الاتحاد: ١٢ أبريل ٢٠٠٣م.

وبالرغم من اتفاقية الدفاع العربى المشترك التى أصبحت حبرًا على ورق مثل السوق العربية المشركة.

الصفقة الخاسرة هى مقايضة العراق بفلسطين، احتلال العراق فى مقابل استقلال فلسطين. وهى صفقة لا شرعية من حيث المبدأ القانونى. تقوم على مبدأين متناقضين. فمن يعطى الاستقلال لا يحتل. ومن يحتل لا يعطى الاستقلال. وستنتهى باحتلال العراق وفلسطين معًا، والقضاء على المقاومة الوطنية فى فلسطين والعراق معًا.

فالغاية تدمير العراق، والتخلص من قوة عسكرية أريد التخلص منها مرتين سابقًا بدفع أمريكا العراق إلى طعن الثورة الإسلامية فى إيران فى الظهر فى حرب الخليج الأولى، وإغراء العراق على العدوان على الكويت دون تدخل أمريكى فى حرب الخليج الثانية، حتى يدمر العراق نفسه بنفسه وتتخلص إسرائيل من خطر يهددها. وينطبق على العراق ما وصف الله به بنى إسرائيل ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الحشر: ٢]. والآن يأتى الدور على العراق بعدوان مباشر حتى يتم التخلص من قوته نهائيًا وإخراجه من المعركة حتى تصبح فلسطين مكشوفة الظهر بعد أن أصبحت مكشوفة الوجه باتفاقيات السلام مع إسرائيل من مصر أولاً، والأردن ثانيًا، وموريتانيا ثالثًا، أو فتح مكاتب تجارية أو قنوات اتصال معها فى تونس والمغرب وقطر رابعًا.

وتدمير العراق مقدمة لتدمير سوريا ولبنان، ثم إيران وتركيا، ثم السودان واليمن. ثم تأتى الدورة فى النهاية على السعودية ومصر. وقد بدأ التحرش بسوريا التى هربت إليها العراق أسلحة الدمار الشامل التى لم توجد فى العراق، وإعطاء العراق المناظر الليلية، وتدعيمها حزب الله فى جنوب لبنان، ومحورها مع طهران، وتنسيقها مع تركيا. كما بدأ التحرش بإيران وإسقاط عدة صواريخ عليها عن طريق الخطأ، والقصد تدمير المفاعل النووى الإيرانى فى خورمشهر، كما تم تدمير إسرائيل للمفاعل النووى العراقى قبل ذلك بعشرين عامًا فى١٩٨٤م. ولن تغفر أمريكا لتركيا رفضها لمرور قوات العدوان على أراضيها من أجل فتح جبهة

شمالية للانقضاض على بغداد من الشمال، وهى عضو بحلف شمال الأطلنطى، وفى حاجة إلى العون المالى، وإلى تدعيم طلبها للانضمام إلى الاتحاد الأوروبى لتمسكها باستقلالها الوطنى وتيارها الإسلامى المستنير الذى يمثله حزب العدالة والتنمية، «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها». ثم يأتى الانقضاض على اليمن والخرطوم راعيتى الإرهاب. ففى اليمن وقع تدمير جزئى للباخرة كول، وأصول بن لادن تمتد إليها. كما آن الأوان فى السودان لفصل الجنوب عن الشمال طبقًا لخطة التجزئة الفسيفسائية المعدة للوطن العربى بين العرب والبربر والأكراد والسنة والشيعة والمسلمين والأقباط، حتى تصبح إسرائيل أقوى دولة طائفية عرقية فى المنطقة تستمد شرعيتها من واقع المنطقة وليس من أساطير المعاد والشعب المختار والأرض الموعودة كما تصور هرتزل فى «الدولة اليهودية» منذ ما يزيد على قرن من الزمان، عام ١٨٩٧م. ثم يأتى الدور أخيراً على السعودية ومصر. فقد خرج أسامة بن لادن من السعودية التى تفرّخ الإرهاب بنظامها التقليدى. ومصر ما زالت الحصن الأخير الذى لا يفرط فى قضية فلسطين وإن تركت المقاومة بمفردها. كما أنها لم تقاوم محاولات تهميشها حتى تلعب إسرائيل دورها كمركز لتحديث الوطن العربى. فما زال العرب يتوقون إلى قيادتها، ويرنون إلى تاريخها، ويحنون إلى القومية العربية، ويقدرون الشقيقة الكبرى، ويحزنون لما أصابها بعد أن قررت الاحتجاب الطوعى خوفًا من عوائد الزمان.

إن ما تريده الولايات المتحدة هو كشط النتوءات فى العالم التى ما زالت تقاوم القطب الواحد وقوانين السوق باسم العولمة. وما زالت العراق وإيران وكوريا وليبيا تمثل نماذج من هذه النتوءات التى سمتها أمريكا محور الشر. هى النظم السياسية التى ما زالت ترفض الخضوع للإرادة الأمريكية والتى يمكن أن تكوّن قطبًا ثانيًا. فدولتان من دول الشر عربية إسلامية، والقطب الثانى الممكن سيتكون فى المنطقة العربية الإسلامية التى ما زالت تضرب بجذورها فى التاريخ، وما زال حاضرها فى ماضيها، وماضيها فى حاضرها حتى وإن غامت الرؤية بالنسبة لمستقبلها. ما زالت هذه المنطقة تزخر بالتساؤلات عن الماضى والحاضر، الأصالة والمعاصرة، الاستقلال والتبعية، القديم والجديد، التراث والتجديد، الأنا والآخر، الهوية

والاغتراب. إرادتها لم تنضو بعد تحت إرادة القوة الكبرى، وما زالت تقاوم. تنظم شعر المقاومة، وتكتب أدب المقاومة، وتصوغ ثقافة النضال. ولم تضع السلاح بعد، ولم تستسلم لمشاريع الهيمنة المعاصرة.

الغاية من هذه الهجمة الجديدة على الوطن العربى هو كسر الإرادة العربية الإسلامية وثنيها حتى تصبح إسرائيل هى القوة التابعة للقوة العظمى، تفرض إرادتها على المنطقة لتكوين إسرائيل الكبرى، من النيل إلى الفرات، واسترداد أملاك يهود سوريا والعراق. فتمتد إسرائيل من البحر إلى النهر، من البحر الأبيض المتوسط إلى نهرى دجلة والفرات. وتنكمش مصر فى بعدها الأفريقى بعيداً عن آسيا بالرغم من جسر الصداقة فوق القناة الذى يربط بين أفريقيا وآسيا. ثم يحاصر جنوب مصر بفصل جنوب السودان عن السودان، والاستيلاء على منابع النيل، والتحكم فيها، وإعطاء إسرائيل حصتها فيه لتحل أزمة المياه القادمة، بعد الاستيلاء على الأرض، وبما لديها من خبرات فى الزراعة. ولا فرق بين المسيحية الصهيونية فى البيت الأبيض والصهيونية فى إسرائيل، فكلاهما يغذى بعضهما البعض، بأصوات اليهود فى الانتخابات الأمريكية، وبالتدعيم المطلق لصقور البيت الأبيض لإسرائيل. وجارنر الحاكم المرتقب للعراق صهيونى، رئيس المنظمة اليهودية الأمريكية، فتوضع سوريا بين فكّى الكماشة، شارون فى الغرب وجارنر فى الشرق.

وستبقى القوات الأمريكية فى الخليج بعد إتمام مهمتها فى احتلال العراق ووضع نظام حكم تابع للولايات المتحدة، حميد قرضاى عراقى، يحكم العراق باسمها ولصالحها. تستولى على النفط فى أكبر مستودع نفطى فى العالم يحتوى على ثلثيه. تخفض سعره إلى عشرة دولارات للبرميل الواحد وتقضى على منظمة الأوبك، وتغرق الأسواق دون سقف للإنتاج. وتخنق آسيا، اليابان وكوريا وإندونيسيا وماليزيا التى يأتى معظم نفطها من منطقة الخليج. ويصبح الخليج أكبر تاجر فى أسواق العولمة وليس السوق الآسيوى. كما تخنق الولايات المتحدة الأمريكية المتحدة أوروبا حتى تركع أوروبا بعد أن حاولت الاستقلال عن الإرادة

الأمريكية ورفضها للعدوان الأمريكى البريطانى دون شرعية دولية، وقبل استنفاد الوسائل السلمية، وإيجاد أدلة دامغة على امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل. وفى أفغانستان والعراق ما يقرب من نصف مليون جندى لحصار روسيا من الجنوب، ولتهديد الصين، ولإدخال النظام العربى كله بيت الطاعة الأمريكى فيستتب الأمن لإسرائيل. إن وجود هذا الحجم من القوات الأمريكية البريطانية فى الخليج إنما وجد ليبقى حتى تتم تصفية قضية فلسطين لحساب إسرائيل، وتنتهى شوكة العرب كإرادة وطنية مستقلة. فاحتلال العراق أول الطريق وليس نهايته. ويدفع العراق تكاليف الحرب من عائدات نفطه ولشركات الإعمار الأمريكية. ومن ثم تنتهى أكبر دولة عربية بتبديد ثرواتها، وكسر شوكتها، وجعلها تحت الوصاية غير المباشرة لمجلس الأمن.

والحقيقة أن الصفقة لن تتم. فلا العراق سينتهى ولا فلسطين ستنتهى، ولن تتم المقايضة بينهما. فالعرب لن يأخذوا شيئًا. وستكسب إسرائيل الصفقتين. سيقاوم العراق دفاعًا عن الوطن حتى ولو سقط النظام. فمقاومة المحتل جزء من طبائع البشر دفاعًا عن الاستقلال والحرية كحق طبيعى. وستستمر المقاومة حتى يختار شعب العراق من يختاره طواعية لا جبراً من نظام قديم أو جديد، باسم الفرد أو باسم العدوان. فالمقاومة حق طبيعى مشروع دفاعًا عن الاستقلال الذاتى للأوطان. وستستمر المقاومة فى فلسطين بفضل انتفاضة الأقصى فى عامها الثالث. وهى ما زالت صامدة بمفردها بدماء أبنائها وبحياة الشهداء، لا العراق سينتهى، فسيبقى الوطن وإن سقط النظام. والغارة عليه ليست جديدة بعد غارات التتار والمغول من الشرق وعبور نهر دجلة إلى بغداد، وغزو قوى التحالف البريطانى الأمريكى من الغرب وعبور نهر الفرات إلى بغداد مرة ثانية.

لقد شارك العراق فى معظم الحروب العربية الإسرائيلية منذ ١٩٤٨م وحتى ١٩٧٣م. هو بوابة العرب الشرقية، ويحارب فى قلب العروبة فى فلسطين. مشروعه القومى لم ينته، ومدينته الصناعية لكل العلماء العرب سيعاد بناؤها من أجل معركة العرب فى فلسطين وليست مع إيران أو الكويت. وستعود إلى العراق ثروته. وسيعمّر بسواعد أبنائه. لقد صمدت المقاومة الشعبية ثلاثة أسابيع. والتفت

حولها المقاومة العربية، وساندها الرأى العام العالمى. وستظل فى الخيال نموذجًا للصمود حتى ولو عصفت به الرياح. وستظل دماء الشهداء من الأطفال والنساء والرجال والشيوخ تنادى بأنها لم ترق بغير حق، ولن تضيع هباء.

ولا فلسطين ستنتهى. فقد ظلت إمارة الصليبيين فى الشام مائتى عام ثم انسحبت قوات العدوان، وما زالت فلسطين تقاوم منذ ثورة عز الدين القسام فى ١٩٣٦م حتى طلائع فتح وحماس والجهاد وباقى فصائل المقاومة فى انتفاضة الأقصى. قد يلتفت إليها العرب بعد العراق والعودة إلى الجرح القديم، فما زال الجرح الجديد لم يحدث أثره بعد فى الإيلام.

وستنهض مصر من كبوتها وتعود إلى الوطن العربى بعد طول احتجاب، ويحمى القلب الأطراف حتى لا يتآكل الوطن من أطرافه كما يصف القرآن)﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]. وقد تعلمت مصر من تفريطها من قبل فى حصار ليبيا ثم حصار العراق ثم احتلال الضفة الغربية، وحنين الناس إلى الستينيات وإلى خيال الستينيات وإلى لغة الستينيات «فليحمل الاستعمار عصاه على كتفيه ويرحل».

وربما أكملت الثورة العربية دورتها على مدى نصف قرن، ويتوق الوطن العربى إلى ثورة جديدة تحفظ كرامته، وترد إليه اعتباره، وتوحد تاريخه، وتؤمِّن مستقبله. وربما كان العدوان على العراق فى ٢٠٠٣م مثل العدوان على فلسطين فى١٩٤٨م بعد خمسة وخمسين عامًا. لقد توالت الهزائم فى ربعها الأول، هزيمة فلسطين فى ١٩٤٨م، والعدوان الثلاثى بعد تأميم قناة السويس فى ١٩٥٦م، والعدوان على مصر فى ١٩٦٧م. وبين كل هزيمة وأخرى من ست سنوات إلى أحد عشر عامًا. وبعد نصر ١٩٧٣م جاء العدوان الثنائى، البريطانى الأمريكى على العراق بفارق ثلاثين عامًا. ومن ثم لم تكن حرب أكتوبر ١٩٧٣م آخر الحروب بل كانت بداية لسلسلة جديدة من العدوان على فلسطين أولا ثم العراق ثانيًا.

ما زال التاريخ يتحرك، وما زالت الأمة فى حالة مخاض. وما زال الحكم مؤجلاً: هل نجح العراق فى صد العدوان أم تخاذل العرب فى مساندة العراق؟ وفى كلتا الحالتين «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

٥- النظام العراقى

لقد سقط نظام عربى، واحتلت ثانى عاصمة عربية، بغداد فى أبريل ٢٠٠٣م كما تم احتلال بيروت من قبل فى ١٩٨٢م قبل ذلك بعشرين عامًا. وعلى من الدور الآن، دمشق أم جنوب لبنان أم خرمشهر أم صنعاء أم الخرطوم وربما الرياض والقاهرة حتى تنتهى دول الطوق والجبهة المساندة، وتتسع رقعة إسرائيل من البحر إلى النهر، من البحر الأبيض المتوسط إلى دجلة والفرات، ويتحقق حلم إسرائيل الكبرى، من الفرات إلى النيل بعد نصف قرن أو يزيد من احتلال نصف فلسطين فى ١٩٤٨م، والنصف الآخر فى ١٩٦٧م.

حدث زلزال فى الوجدان العربى، ووقعت صدمة للتوقعات العربية. وما زال العرب تحت هول الصدمة، والتحول مائة وثمانين درجة، من المقاومة إلى الاستسلام، ومن الصمود إلى الهروب، ومن البطولة إلى الخيانة، ومن الوطنية إلى بيع الأوطان، ومن التضحية والشهادة إلى التمسك بالحياة أو الموت الحتمى و﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

وبالرغم من أنه ما زال مبكرًا حتى يستوعب الوجدان العربى الصدمة التى لم يفق منها بعد، بل أعادت إلى الذكريات هزيمة ١٩٦٧م عندما كان الوجدان العربى فى ذروة الحلم، حلم القومية العربية، والاشتراكية العربية، والوحدة العربية ثم جاءت الهزيمة لتقضى على هذا الحلم فى ستة أيام. بعدها انكسرت الشوكة، وسكنت الروح. ولم يشفع نصر ١٩٧٣م إلا فى رد الكرامة للجيش العربى، وإظهار

(*) جريدة الاتحاد: ١٩ مارس ٢٠٠٣م.

(**) هذا المقال والمقالات السبعة التالية تنطوى تحت عنوان رئيسى: الدروس المستفادة من العراق المحتل.

التضامن العربى بفرض الحظر النفطى، ورفع الرأس. إن العرب ينتصرون أيضًا فى الحروب، ويأخذون الجيش الذى لا يقهر أسرى. ومع ذلك ظل جرح ١٩٦٧م لم تندمل آثاره فى النفس. ولم تزل آثار العدوان فى الواقع بالرغم من الانسحاب الكلى من سيناء، والجزئى من الجولان، وتعلق الآمال بالمقاومة الفلسطينية حتى يُزاح الاحتلال عن الضفة الغربية، وينسحب الاحتلال عن باقى الجولان فى تسوية شاملة يطمح إليها العرب بداية بخريطة الطريق.

ومع ذلك يمكن التأمل فى الدروس المستفادة مما حدث، العدوان الأمريكى البريطانى على العراق واحتلال بغداد، وتسيير قوات الاحتلال لشئون البلاد، وتعيين حاكم عسكرى عام، كرومر جديد فى مصر أو جوردون فى الخرطوم، وأثر ذلك على العراق ثم على النظم العربية فى الأقطار العربية، وعلى النظام العربى نفسه الذى تمثله الجامعة العربية، وعلى النضال الوطنى العربى الذى بدأ يتبلور إبان المقاومة الوطنية العراقية فى أم قصر والفاو والنجف وكربلاء، وعلى الخطاب السياسى العربى الذى ينقلب على نفسه من النقيض إلى النقيض، من الكل إلى اللاشىء، أو الخطاب العربى المزدوج الذى يظهر غير ما يبطن، ويفعل ما لا يقول، ويقول ما لا يفعل، والسلوك العربى للجماهير أثناء الاحتلال، وإيثار المغانم الشخصية على المصالح العامة، أو المستقبل العربى بعد أن وقعت حالة سابقة يُقاس عليها. ومن يحاصر بيروت ثم يحتل بغداد فلا شىء يقف أمامه لاحتلال كل عاصمة عربية مارقة تعصى إرادة الهيمنة، وتخرج عن بيت الطاعة حتى يتم إعادة تشكيل شرق أوسط جديد بعد اتفاقية سايكس بيكو التى عبرت عن توازن القوى بعد الحرب العالمية الأولى إلى سايكس بيكو ثانية، بوش-بلير، بعد حركات التحرر الوطنى، تعبر عن ميزان القوى الحالى فى عصر القطب الواحد، والإرادة المهيمنة، والعولمة، وقوانين السوق الشاملة من ناحية وضعف العرب وتشرذمهم من ناحية أخرى. فالمصير العربى فى المحك، والتاريخ العربى فى الميزان.

بالنسبة للعراق جاءت الديموقراطية على أسنة الرماح، وفوهات المدافع، وأزيز الطائرات، وانفجار القنابل، واستشهاد الأطفال والنساء والرجال والشيوخ،

وتهديم المنازل، وتدمير مؤسسات الدولة بعد حكم تسلطي دام أكثر من ثلاثين عامًا. ألفا تمثال للزعيم والرفيق والأخ والقائد والرئيس والمجاهد واقفا كالزنهار مادا يده مشيراً إلى الطريق، طريق المستقبل والخلاص. وعشرات الزنازين تفتح من دهاليز تحت الأرض، ومخابئ فى أبنية الدولة بعد أن هرب سجانوها، وتركوا المسجونين يهلكون، والناس لا تسمع من الخارج إلا الأنين. الكل سجان والكل مسجون. وهى ديموقراطية قد تنكسر على أسنة القبائل والعشائر والملل والنحل إن لم تقو المواطنة العراقية، ويظهر الوطن العراقى وطنًا للجميع ضد مخاطر التجزئة إلى دويلات عرقية طائفية تصبح فيها إسرائيل أقوى دولة عرقية طائفية فى المنطقة. تستمد شرعيتها هذه المرة من الواقع السياسى الاجتماعى للمنطقة، وليس من الأساطير القديمة حول أرض المعاد، وشعب الله المختار. وهى ديموقراطية ما زالت محفوفة بالمخاطر، مفروضة من الخارج أكثر من الداخل فى ثقافة عربية ما زالت بعيدة عن التعددية السياسية، وحق الاختلاف فى إطار وطنى موحد. وماذا تجدى التعددية السياسية فى نظام فيدرالى تغيب عنه وحدة السلطة المركزية وعصب الدولة؟

قام النظام فى العراق بحربين عدوانيتين خارج أراضيه: الأولى: حرب الخليج الأولى للعدوان على إيران، وهى فى السنة الأولى للثورة وطعنها فى الظهر مدفوعًا بالنصائح الأمريكية الإسرائيلية حتى تتخلص من قوتين معا لصالح إسرائيل. وراح آلاف الشهداء بلا ثمن، وآلاف القطع والمعدات العسكرية بلا طائل. والخليج يدعم الاثنين اتقاء شرهما معًا باسم العروبة مرة وباسم الإسلام مرة أخرى. وانقسم العرب بين مدافع عن العراق ضد الخطر الإيرانى، ومدافع عن الثورة الإسلامية الوليدة ضد الخطر العراقى. فريق يدعم العراق ضد إيران، فالعراق هو البوابة الشرقية للوطن العربى، وفريق آخر يدعم إيران ضد العراق، الجناح الخائن من حزب البعث العربى الاشتراكى. وبدأ المنظرون فى البحث عن العلاقة بين القومية والعروبة فى العراق، والثورة الإسلامية فى إيران، متفقتان أم مختلفتان. وكلاهما دماء المسلمين التى حرم الله إراقتها بغير حق.

والثانية: حرب الخليج الثانية للعدوان على الكويت بدعوى مزيد من حق

العراق فى آبار النفط الذى تستنزفه الكويت أو طمعًا فى المحافظة التاسعة عشرة. والحقيقة أن النظام فى العراق للمرة الثانية كان مدفوعًا بنفس القوة الأمريكية لتدميره مرة ثانية بعد أن أعاد بناء قوته العسكرية الذاتية فى الثمانينيات. ووقع فى الفخ مرتين مع أنه لا يلدغ المؤمن من الجحر الواحد مرتين. وانقسم العرب هذه المرة. وانضم فريق إلى قوات التحالف للعدوان على العراق المعتدى على الكويت إحقاقًا للحق أو طمعًا فى إسقاط بعض الديون بالمليارات. وتم تشريع العدوان بمؤتمر القاهرة بفارق بسيط لصالح قوى التحالف. وتم إخراج العراق من الكويت بالقوة والمهانة، والجندى العراقى يقبل قدم الجندى الأمريكى، والكويتى يقبل العلم الأمريكى. وحوصر العراق اثنى عشر عامًا بالرغم من تحرر الكويت. وقتل الآلاف من الأطفال فى العراق لغياب الغذاء والدواء. وتم العدوان من جديد على العراق فى١٩٩٨م لإخراجه المفتشين الدوليين، جواسيس الأمريكيين، وتم ذلك فى رمضان. فقد كانت غزوة بدر فى رمضان. والأمريكيون يقتدون بالمسلمين. ويفضل بوش الأب شفارتز كويف عدم دخول بغداد، والتوقف جنوب البصرة نظرا لبقايا حياء فى الإدارة الأمريكية السابقة، مع بقاء النية لإسقاط النظام واحتلال بغداد فى أقرب فرصة. وأتت ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فرصة ذهبية للإدارة الأمريكية وبوش الابن لتضميد الجراح وإرجاع الهيبة بعد أن تم العدوان على القوة العظمى الوحيدة للعالم فى عقر دارها. وكانت الذريعة أن النظام العراقى يرعى الإرهاب، ويمتلك أسلحة الدمار الشامل، وعلى علاقة بأسامة بن لادن، واستعمل الأسلحة الكيماوية من قبل على الأكراد فى شمال العراق.

قضى النظام فى العراق على ثروة العراق وتقدمه العلمى وتبعثرت ثروة أغنى قطر عربى ماديًا وبشريًا بسبب التفرد فى القرار السياسى. واستنزف جزء من هذه الثروة فى ما لا يفيد الوطن، القصور والتماثيل ومظاهر الأبهة والعظمة، أو لبناء الزنازين والسراديب والدهاليز تحت الأرض، أو لأبناء القبائل والعشائر التى تحكم باسم الوطن. وأغدق على المداحين فى مهرجانات الشعر فى المربد وغيره. ودعم الأنصار خارج العراق للدعوة للنظام والقائد الأسطورة. وأنشأ كذلك المجلات

والصحف. فالإعلام قوة. وتمت التضحية بالوطن من أجل النظام، ثم التضحية بالنظام فى سبيل الفرد، ثم التضحية بالفرد من أجل الغرور والتأله.

فلما سقط رأس النظام موتًا أو هربًا أو خيانة سقط النظام، وهرب الجند، وذاب الفدائيون، وتلاشى الحرس الجمهورى، واختفت المليشيات، واستبيحت الأوطان. فقد ارتبط الوطن بالنظام، والنظام بالفرد. وظهر المحتل على أنه محرر للأوطان من الطغيان بعد أن كان معتديًا عليها مسيلاً لدماء من يريد تحريرهم. نظم من ورق. تستأسد على الناس، ونعامة فى مواجهة الغير. تعادى الصديق، وتصادق العدو.

وما البديل؟ المعارضة العراقية فى الخارج قبل الغزو وأثناءه وبعده لم تكن بأحسن حال. فقد انقسمت على نفسها فى الخارج بين متعاون مع الأمريكيين ضد البلاد، ولا يضيره أن يتحرر العراق على أسنة الرماح وبأمواله تدعيمًا للمعارضة فى الخارج واستعمالاً لها. وفريق وطنى يرفض استبدال سيد بسيد، قهر النظام العراقى فى الداخل أو هيمنة النظام الأمريكى من الخارج. وكلاهما ضعيف، عاش فى الخارج، ولم يعان من القهر فى الداخل، ولم يدخل السجون، وليست له قواعد شعبية، ولم يُنتخَب، ولم يعد يعرف ما حدث فى العراق على مدى عقدين أو ثلاثة عقود من الزمان. والعشائر والقبائل والوجهاء سلطة مؤقتة بديلة فى غياب سلطة الدولة. لا تمثل قوة شعبية، وثورة سياسية تأخذ السلطة بيدها وتدافع عنها. بل تملأ الفراغ برضى المحتل وتحت فوهات المدافع.

إن الدرس المستفاد للعراق هو حماية الوطن الأم، وطن الجميع، شعبًا وقادة، ضد القهر فى الداخل، والاحتلال من الخارج. وإنهاء هذه الفترة من التاريخ العربى الحزين ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦]. الدفاع عن الوطن قبل النظام، إذا قاوم النظام العدوان الخارجى فالكل معه. فالتناقض الرئيسى له الأولوية على التناقض الثانوى. أما إذا خان النظام وعرى نفسه بعد أن ضحى بالشعب وهجر الوطن فإنه يكون مثل المحتل الأجنبى، قهر فى الماضى، وهيمنة فى الحاضر. ويكون التحدى بالنسبة للعراق، وماذا عن المستقبل؟

٦- النظم العربية

والنظم العربية بالجمع لأنها نظم سياسية متفرقة لدول أو شبه دول قطرية متعددة لا يجمعها جامع مصلحة إلا التاريخ واللغة والدين والجوار. تتعدد أسماؤها بين المملكة والجمهورية والدولة والسلطنة والإمارة مفرداً أم جمعًا. دخلت التاريخ تواجه التحديات وهى مجزأة، كل على حدة بالرغم من نداء القرآن ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[يوسف: ٣٩] وأحاديث العصبة والترابط بين المسلمين **(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)**، وأحاديث المصلحين عن العروة الوثقى ورابطة الأخوة فى الدين بين المسلمين، وتعلمنا فى المدارس، العصى الواحدة تكسر، ورابطة العصا مجتمعة لا تكسر.

كانت يومًا وحدة واحدة بل وحدة صغرى فى وحدة كبرى هى الأمة الإسلامية كما مثلتها دولة الخلافة. لم تكن بينها حدود. ولا يخضع مواطنوها لتأشيرات دخول أو خروج أو لتفتيش أو لمراجعات فى قوائم المطلوبين والفارين والمشاغبين السياسيين. كان العالم عالمًا فى كل مكان. يجوب الأرض طلبًا للعلم. ويهرع الناس إليه إذا ما أصبح عالمًا.

ولما تفتتت دولة الخلافة وتم استعمار أقطارها قامت وحدة عربية بديلة لمقاومة الاستعمار. وبلغت الذروة فى الخمسينيات والستينيات. بل وقادت حركات التحرر فى العالم كله، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وانحسر الاستعمار عنها. وكانت القومية العربية بمضمونها الاشتراكى التقدمى خير ملاذ للأمة العربية تجسد فيها نهضتها الثانية بعد نهضتها الأولى فى القرن التاسع عشر. وما عبد الناصر إلا محمد على يعود من جديد.

(*) جريدة الاتحاد: ٢٦ أبريل ٢٠٠٣م.

ومع ذلك، الكل ترك العراق وحيداً يجرع كأس السم حتى الثمالة، بمفرده منذ الاستعداد للعدوان حتى وقوع العدوان. قاوم فى البداية بمفرده حتى استسلم. بل إن بعض الأقطار انطلق منها العدوان، والبعض الآخر وجدت فيه القيادة المركزية. وفريق ثالث سمح للطائرات المعادية بعبور أجوائه أو المرور فى مياهه أو التدريب على حدود العراق وانتظار إشارة الانطلاق. كانت الأقطار العربية أقل من تركيا فى مساندة العراق. فقد رفضت تركيا مرور القوات الأمريكية عبر أراضيها لغزو العراق من الشمال. لم تكن القضية الثمن بالمليارات ولا المقايضة بعدم قيام دولة كردية مستقلة فى شمال العراق ووصول الأكراد إلى كركوك والموصل، بل كانت القضية قضية مبدأ، والحزب الحاكم، حزب العدالة والتنمية حزب ذو أصول إسلامية. وكان القرار من البرلمان ممثل الشعب طبقًا لمبادئ الديموقراطية، وهو السلاح الذى توجهه أمريكا ضد النظم العربية، وتحتج به للعدوان، وتتعذر به للهيمنة. فتح الحدود مع العراق جريمة. وتأييد العراق ولو بالكلام عدوان على قوات التحالف الغازية. وتتهم سوريا بتوريد المناظير الليلية لمساعدة العراق فى الدفاع عن النفس فى القتال الليلى. وعندما لم تعثر قوات الغزو على أسلحة الدمار الشامل، فإذاً العراق هربها إلى سوريا. ونظراً لاختفاء القيادة العراقية قبل سقوط بغداد فإنهم هربوا إلى سوريا. ونظراً لتردد بعض الأنظمة العربية فى الدخول علنا مع قوات الغزو فإنها تصبح معادية: «فمن ليس صديقنا يكون عدونا». بل إن الإعلام العربى الذى يرفض العدوان إعلام منحاز للعراق. والمظاهرات المحدودة فى العواصم العربية تأييد للعراق ضد قوات الغزو، وعلى النظم العربية الوقوف ضدها ومنعها، وكأن الديموقراطية لم تعد مطلبًا أمريكيًا فى هذه الحالة.

استعملت كل الأنظمة العربية الخطاب المزدوج، ضد العدوان الأمريكى البريطانى على العراق للاستهلاك المحلى. فالعراق عضو بالجامعة العربية، وشريك فى الحرب وإن لم يصبح بعد شريكًا فى السلام، وذراً للرماد فى العيون وإبقاء لورقة التوت الأخيرة قبل أن تسقط بفعل الزمن وبحركة الواقع والتاريخ. وهو مجرد خطاب لا ينتج عنه فعل. القول هو الفعل، ولا يتجاوز اللسان إلى اليد. وخطاب آخر أقرب إلى الفعل منه إلى القول، يعبر عن مصالح القطر الضيقة فى

المعونات المالية أو عجز نظام الحكم عن معارضة القوة الوحيدة العظمى فى العالم، وهو محاصر بين المطرقة والسندان أو خوفًا من أن يكون مصيره مصير النظام فى العراق، وهو حريص على الاستمرار فى الحكم والبقاء فى السلطة ثلاثة عقود من الزمان أو يزيد، عمر جيل بأكمله أو مدى الحياة كما أقرت بذلك المجالس النيابية استثناء من الدستور. الكل يريد التخلص من النظام العراقى الذى اعتدى على الخليج والسعودية، والذى أصبح سبة فى جبين حزب البعث بالنسبة لسوريا، والذى أصبح همّا يثقل على صدر مصر لما يثيره من شغب، ولما يحمل مصر فوق طاقتها. ولم يبق للنظام فى العراق إلا مساندة بالقول فى اليمن والأردن ولبنان والمغرب. الأردن لتجارته مع العراق، ولبنان لأنه رمز المقاومة بكل طوائفه، واليمن والمغرب بعيدان. وعرف العالم عنا هذا الخطاب المزدوج فلم يعد يصدقنا. لذلك نقد القرآن الأعراب ووصفهم بالنفاق. وكان النفاق فى درجة الشرك لأنه إيمان بإلهين، إله باطن وإله ظاهر. ويرد فى أذهان الناس المثل الشعبى «أسمع كلامك يعجبنى، أشوف أفعالك أستعجب». لذلك قرر الفقهاء قديما أن من شرط الإفتاء اتفاق عمل المفتى مع قوله وإلا سقط حقه فى الإفتاء.

ولم يستطع النظام العربى بالمفرد ممثلاً فى الجامعة العربية أن يفعل شيئًا. ويتردد فى عقد مؤتمر قمة عربية استثنائيا طارئا أم دوريا اعتياديا، والفرق بين الموعدين أيامًا معدودات. وتتشكل لجان لمقابلة الطرفين المتنازعين، للضغط على الضحية بمزيد من التعاون مع المفتشين، والتوسل إلى المعتدى بإمهال العدوان بضعة أسابيع حتى يستكمل المفتشون عملهم. ولم تذهب اللجنة الأولى للضحية حتى لا تكثر سكاكينها. ورفض بوش استقبال اللجنة الثانية فقد انتهى وقت الحوار والكلام وأتى وقت الفعل. وزاد تهديد العراق بالعدوان ثم العدوان عليه بالفعل من شلل النظام العربى الذى لم يستطع حماية بيروت تحت الحصار، ودرء الغزو الإسرائيلى لها عام ١٩٨٢م. وترك الانتفاضة الفلسطينية الثانية، انتفاضة الأقصى تذبح كل يوم على مدى ثلاث سنوات، وما زال الذبح مستمرًا. ولم يستطع المساهمة فى حوار الشمال والجنوب فى السودان، ولا فى إيقاف الحرب الأهلية فى لبنان أولاً ثم فى الجزائر ثانيًا. ولم يستطع منع العدوان العراقى على الكويت فى ١٩٩٠م،

ولا العدوان الأمريكى على العراق فى ١٩٩١م، ولا العدوان العراقى على إيران فى ١٩٨٠م، ولا الإسرائيلى على من تشاء من الوطن العربى، العدوان على المفاعل النووى فى العراق فى ١٩٨٤م، ولا قتل أبى جهاد فى تونس فى ١٩٨٧م، ولا العدوان على الضفة الغربية كلها وإنهاء اتفاقيتى أوسلو ومدريد فى ٢٠٠٠م. ولم يستطع فك الحصار الظالم على العراق على مدى اثنى عشر عاما، ولا عن ليبيا على مدى عشر سنوات فى حين استطاع بعض الرؤساء الأفارقة ذلك؛ مما جعل ليبيا تتوجه إلى الفضاء الأفريقى بعد أن خذلتها الكتلة العربية. البعض يهدد بالخروج من الجامعة العربية، والبعض الآخر يتحفظ على قراراتها أو يطعن فيها. والبعض فى داخلها يقترح أن يتخلى رأس النظام فى العراق عن السلطة إنقاذا لشعب العراق، والتضحية بالنفس فى سبيل الوطن. والكل يتساءل: لماذا لا تؤسس جامعة الشعوب العربية لتحقيق النضال العربى الجماعى مع الجماهير وليس مع الحكّام؟ وسقطت معاهدة الدفاع العربى المشترك التى تقضى بمساندة كل العرب إذا ما وقع العدوان على واحد منهم. وتحجج البعض باتفاقية القسطنطينية التى تسمح بحرية الملاحة فى الممرات المائية العربية، وكأن اتفاقية القسطنطينية منذ أيام الدولة العثمانية لها الأولوية على اتفاقية الدفاع العربى المشترك منذ تأسيس الجامعة العربية. والقياس خاطئ لأن اتفاق القسطنطينية يشير إلى حالة الحرب وليس إلى حالة العدوان.

كان هذا هو ثقل العرب فى الموازين الدولية، وحجمهم فى التأثير على مسار الأحداث العالمية. وإذا كانت القوة العظمى فى العالم لا تأبه بالمنظمات الدولية ولا بأوروبا ولا بالصين ولا بروسيا فكيف تأبه بالعرب وتضعهم فى الحسبان؟ وقد عرض شارون عليها خدماته فى كيفية التعامل مع العرب. نفط العرب تحت يد العدوان، وعائداته فى البنوك الأجنبية، ومياه العرب تبحر فيها البوارج الحربية، وأجواء العرب مفتوحة للطائرات الخفية، والأنظمة العربية يهرع كلّ منها إلى واشنطن لتقديم فروض الطاعة، والتصريح بالخطاب غير المعلن عنه والمغاير للخطاب العلنى للاستهلاك المحلى. فقدَ العرب زمام المبادرة التاريخية بعد أن فضلت الشقيقة الكبرى الحكمة على التهور، والعقل على الخيال، والواقعية

السياسية على المثل العليا والمبادئ، والخدمات للمواطنين على المصالح القومية، والتخوف الزائد على المغامرة غير محسوبة العواقب، والنسيان على الذاكرة. أصبح العرب يستجدون العون لقضاياهم من غيرهم. وأصبحت أوروبا والصين وروسيا أكثر دفاعًا عن القضايا العربية من العرب أنفسهم. وأصبح أقصى ما يستطيعه العرب هو تأييد أوروبا فى الدفاع عن قضاياهم. وتساءل الرأى العام الدولى أين الرأى العام العربى؟ إنه محاصر فى الداخل بين مطرقة النظام العربى وسندان التخاذل واللامبالاة بعد ما يقرب من نصف قرن من احتكار السلطة السياسية للعمل السياسى. فخرجت أجيال جديدة لم تتعود المشاركة فى العمل الوطنى والمساهمة فى صنع الأحداث وتحديد مجرى التاريخ، باستثناء الهبات الشعبية من أجل الخبز أو الحرية مثل مظاهرات الطلاب فى مارس ١٩٦٨م ضد أحكام الطيران ومظاهرات ميدان التحرير فى ١٩٧٢م ضد احتلال سيناء، والانتفاضة الشعبية فى يناير١٩٧٧م ضد غلاء الأسعار، وانتفاضة الأمن المركزى فى ١٩٨٦م ضد الفقر، ثم المظاهرات العارمة ضد العدوان الأمريكى على العراق فى ١٩٩١م، ثم فى ١٩٩٨م، وأخيراً مظاهرات ميدان التحرير فى اليوم الثانى للعدوان فى ٢٠ مارس٢٠٠٣م.

فالنظم العربية جمعًا، والنظام العربى مفرداً قد تجاوزهما التاريخ كما تجاوز النظام العراقى. وإذا كان العدوان الأمريكى البريطانى نذير شؤم على العراق، فقد يكون فاتحة خير على باقى الأنظمة العربية، أن تعى وحدتها فيما بينها، وألا تترك نفسها محاصرة بين المطرقة والسندان، مطرقة العدو الخارجى وسندان الشعوب الغاضبة.

* * *

٧- النضال الوطنى

وبدأ العدوان على العراق من الجنوب. وسمع الناس عن مقاومة أم قصر والفاو والبصرة ثلاثة أسابيع، وأن ستالنجراد ليست فقط منتظرة فى بغداد ولكنها فى كل مدينة وقرية عراقية. وجرت قوات العدوان فى الصحراء، فى الأراضى المفتوحة، من الجنوب إلى الشمال متجنبة المدن كجزء من الحرب النفسية الإعلامية، وأنها على مشارف البصرة وبغداد، وحول النجف وكربلاء والكوت والناصرية. وكان الإعلام العراقى أكثر مصداقية من الإعلام الأمريكى على عكس ما عرف من الخطاب العربى من التهويل والتضخيم والتفخيم والمبالغة، وما عرف عن الغرب من دقة وصدق، والاعتماد على الحقائق الموضوعية وليست بلاغة اللفظ. انقلبت الآية هذه المرة، وعرف العالم أن الخطاب العربى يمكن أن يكون صادقًا، وأن الخطاب الغربى يمكن أن يكون كاذبًا. وكان العالم قد عرف من قبل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م أن الجندى العربى يمكن أن يكون منتصراً، وأن الجندى الإسرائيلى يمكن أن يكون أسيراً. تحول الجنوب إلى حلم، والواقع إلى خيال. فالمقاومة مستمرة، وإذا كانت مدن الجنوب لم تسقط إلا بعد المقاومة من بيت إلى بيت، ومن شارع إلى شارع، فما بال بغداد؟ إنها تحتاج إلى حصار ستة أشهر وإلى عشرات الفرق والامتدادات وتأمين المواصلات والخطوط الخلفية التى يسهل قطعها. وماذا يغنى رأس الثعبان المطل على بغداد وذيله ما زال فى البصرة، وجسمه الطويل مهدد بالقطع من فدائيى المدن، والمليشيات المسلحة، والمقاومة الشعبية، والحرس الجمهورى. والجيش النظامى لم يدخل المعركة بعد انتظار للمعركة الفاصلة.

وبدأ جنود العدو يتساقطون، ومركباته وعرباته المصفحة ودبابته تحرق وتدمر،

(*) جريدة الاتحاد: ٣ مايو ٢٠٠٣م.

وطائراته تسقط بفعل المقاومة الشعبية، ومقاومة بسطاء الناس. وكلما ازدادت المقاومة زاد قتلى العدو وإذا ما وصل قتلاهم إلى الآلاف انقلبت الموازين. فالحرب الآن ليست فقط اكتساب الأراضى بل تدمير قوات العدو وزيادة قتلاه، ومن يخسر الحرب هو الذى يخسر أكبر قدر ممكن من قواته العسكرية المادية والبشرية. وأمحت من الذاكرة وقوع عدوان أمريكى على العراق دون خسائر بشرية أو مادية كما حدث فى العدوان الأول فى يناير ١٩٩١م، وواجه الجندى الأمريكى الجندى العراقى، مفردًا أو من داخل مصفحة على الأرض أو طائرة فى السماء، قتل وقُتل، أسر وأسر. فالحرب سجال، وقتال بين طرفين وليست أحادية الطرف من طرف قاتل وطَرف مقتول، من معتد إلى معتدى عليه.

وإذا كان الجنوب ما زال صامدًا لمدة ثلاثة أسابيع بقوات يصل حجمها بمئات الآلاف، والإمدادات فى الطريق، وبغداد، ستالنجراد العرب، ما زالت فى انتظار العدو، فما بال الشمال! فقد منعت تركيا مرور القوات الأمريكية البريطانية من أراضيها، مع أنها عضو فى حلف شمال الأطلنطى، وتتحرق شوقًا إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، ويُعرض عليها الثمن، زاد أو قل، وتهدد باستيلاء الأكراد على مدن الشمال من أجل خلق نواة الدولة الكردية المستقلة؛ مما يهدد وحدة الأراضى التركية فى الشرق فى المنطقة الكردية ويحيى الأمل لدى الأكراد فى الوحدة والاستقلال الوطنى. والخطوط طويلة بين الشمال وبغداد للإطباق عليها من الشمال كما يطبق عليها من الجنوب لوضعها بين كفى كماشة. ولقد قُدر حصار بغداد بل والاستيلاء عليها فما بال مدن الشمال، كركوك والموصل وأربيل والسليمانية؟ سيصمد الشمال كما صمد الجنوب، وستقوى المقاومة فى الشمال كما أثبتت وجودها فى الجنوب، وإيران شرق العراق تؤيد المقاومة ضد العدوان، وسوريا غرب العراق تدين العدوان. فالعراق بجنوبه وشماله ومقاومته الوطنية يمسح عار الهزائم العربية السابقة منذ ١٩٤٨م ثم فى ١٩٥٦م ثم فى ١٩٦٧م. ويضيف إلى النصر المصرى السورى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م نصرًا جديدًا يغير صورة العرب فى التاريخ الحديث استعدادًا لمعركة العرب الكبرى الفاصلة فى فلسطين، وإحياء للجبهة الشرقية العريضة من إيران والعراق والأردن، والجبهة

الشمالية من تركيا وسوريا ولبنان، والجبهة الجنوبية من مصر وليبيا والسودان، وتصبح إسرائيل محاصرة بين البر والبحر بين المحيط العربى والمحيط المائى. أحلام عربية بعد أن قضيت عليها فامتهنت الكرامة العربية وأصيب الجسد العربى بالشلل والعجز، وترك الانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية تذبح مرتين.

ودافع العراقيون عن الوطن وليس عن النظام. وصمدت المقاومة حماية لاستقلال الأوطان وليس لاستمرار النظام. فالوطن أعز على المواطن من النظام. وليس هناك أعز على الشعوب من استقلال الأوطان كما كتب على قاعدة تمثال هوشى منه فى العاصمة الڤيتنامية. ومهما سقطت تماثيل رأس النظام ملفوفة بالعلم الأمريكى ومجرورة بالحبل الأمريكى فإن الوطن لا يسقط. فالوطن يمتد عبر التاريخ بشعبه وحضارته وآثاره آلاف السنين والنظام لا يتجاوز بضع سنوات، لحظة واحدة فى مسار التاريخ الطويل.

ودافع عن الوطن الشعب العراقى بكل طوائفه. وخسرت قوات العدوان المراهنة على الطائفية والعرقية والعشائرية فى العراق، شيعة فى الجنوب، وسنة فى الوسط، وأكراد فى الشمال، وتكريتيين فى النظام. وتحققت الوحدة الوطنية فى العراق، «لا شيعة ولا سنة بل وحدة وطنية». وبرز الشعب العراقى بديلاً عن نظامه، من الغياب إلى الحضور، ومن الهامش إلى المركز، ومن الهجرة إلى الخارج إلى العودة إلى الداخل. وعاد العراقيون المعادون للنظام والهاربون من بطشه للدفاع عن الوطن المحتل ضد قوات البطش الجديد حتى لا يستبدل العراق سيداً بسيد، وقاهراً بقاهر.

حب الوطن من الإيمان، والحنين إلى الأوطان حنين طبيعى. وتنصهر الديانات والطوائف والأعراق فى الأوطان. فالوطن هو البوتقة التى ينصهر فيها الدين والمذهب، والتى تتوحد فيها القبيلة والعشيرة. وحدة الوطن ووحدة الشعب ووحدة النضال صور متعددة للوحدانية الإلهية. والعروبة حامل الإسلام ومنطلقه الأول، لغته وثقافته ورؤيته للعالم. وكان عمر بن الخطاب يريد توحيد شبه الجزيرة العربية باسم الدين الجديد، ولا يجعل فيها دينين حتى لا ينشأ فيها ولاءان ثم وطنان

ثم دولتان كما هو المخطط الآن فى تحويل الوطن العربى إلى فسيفساء طائفى وعرقى بين عرب وأكراد وتركمان وبربر وسنة وشيعة ومسلمين وأقباط.

والتفت المقاومة العربية حول المقاومة الوطنية العراقية. وبدأ المتطوعون العرب فى القدوم إلى بغداد للمشاركة فى المقاومة ضد العدوان. وتحول الصراع من معركة بين قوة كبرى وحيدة فى العالم ونظام تسلطى فى بغداد إلى صراع بين قوة احتلال ووطن تحت الاحتلال. واشترك الشعب فى المقاومة يدافع عن الوطن إذا ما دافع الجيش عن النظام. وانضم محاربون قدماء من مصر وسوريا والأردن واليمن والجزائر وفدائيون من فلسطين ولبنان إلى المقاومة الوطنية فى العراق. فالمعركة واحدة، فى العراق وفلسطين. ولا فرق بين العدوان الأمريكى المباشر على العراق، والعدوان الأمريكى غير المباشر عبر شارون على فلسطين. وفلسطين بالأمس، والعراق اليوم، وسوريا ولبنان وإيران والسودان واليمن غدًا، والسعودية ومصر بعد غد.

وعمت المظاهرات الشعبية العواصم العربية دفاعًا عن شعب العراق ضد العدوان. وشاركت فيها كل القوى السياسية والأحزاب الشرعية وغير الشرعية، الإسلامية والناصرية والقومية والماركسية والليبرالية. وانضمت إليها كل الأجيال من الشيوخ إلى الشبان، من الثمانينيات إلى العشرينيات. وظهرت أجيال شابة جديدة تتجاوز الأيديولوچيات السياسية والتنظيمات الحزبية، أجيال تلقائية، فالوطن يصرخ من خلال أبنائه، وما زالت الأوطان تولّد أجيالاً جديدة للدفاع عنها. حماية الأوطان تسبق الولاء الحزبى وتتجاوزه.

إن النضال الوطنى الذى تجسد فى المقاومة الوطنية فى العراق هو بداية المخاض العربى الجديد على أرض العراق. وربما يدفع العدوان الأمريكى البريطانى على العراق أولاً وعلى غيره من الأقطار العربية ثانيًا إلى تولد مقاومة وطنية شعبية تكون بديلاً عن نظم الحكم العربية المحاصرة بين المطرقة والسندان، مطرقة العدوان الخارجى باسم الديموقراطية وتحت شعارها، وسندان المقاومة الشعبية حماية للأوطان. فالثورة العربية فى بداية الخمسينيات والتى بلغت ذروتها فى الستينيات

شاخت وكبرت وأعطت كل ما لديها عبر نصف قرن. وطبقًا لقانون التوارث، المخاض الجديد قادم بصرف النظر عن الآليات. ومن المأثور «**إن الله ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر**». فربما يكون العدوان على العراق سببًا لظهور المقاومة العراقية فى الحرب والثورة الشعبية العراقية بعد الحرب من أجل طرد العدوان الجديد وتحرير الأوطان. لقد سقط حائط برلين، وسقطت الأنظمة الشمولية فى أوروبا الشرقية وفى الاتحاد السوفييتى كما تتساقط أوراق الخريف بتحركات جماهيرية لم تستطع النظم الوقوف أمامها وحدها. وعلى أرض العراق وقع عدوان أمريكى بريطانى أيقظ الشعب من سباته فأظهر وحدته الوطنية فى مواجهة الوسيلة الخاطئة لتحقيق الغاية النبيلة. فالاحتلال لا يعيد إلى العراق الديموقراطية، بل يقضى عليها بتنصيب حاكم عسكرى أمريكى على العراق، أو حكومات غير شرعية من الخارج أو الداخل وغير منتخبة تحكم باسم الشعب العراقى.

وكما تعلمت الشعوب من العدوان مقاومة الاحتلال فقد تتعلم باقى النظم العربية من العدوان عليها بالإطاحة بها بالتحالف مع شعوبها والالتفاف حول معارضتها فى الداخل التى طالما طالبت بالديموقراطية، ونادت بالتعددية السياسية حماية للأوطان من القهر الداخلى الذى قد يُأخذ ذريعة للعدوان الخارجى.

كان يمكن للنضال الوطنى أن يظل بؤرة مضيئة فى تاريخ العرب الحديث يعيد لهم كرامتهم، ويصحح لهم تاريخهم، ويكون بداية قفزة نوعية ليس للعراق وحده بل لكل الوطن العربى الذى أنهكه العجز، وأثقله التعود على السكينة. فما كان ينتظره العرب قد أتى. والمخاض قد تحول إلى ولادة يسيرة. فما أسهل نضال الشعوب إذا ما دافعت عن استقلالها، وما أرخص البذل دفاعًا عن الأوطان. كان الشعب العربى كله يشاهد المقاومة الوطنية فى العراق وهى تصنع تاريخًا جديداً يعود به إلى سيرة صلاح الدين. وحينئذ لا تكون القدس صعبة المنال ولا الحرم الشريف خارج الفؤاد.

* * *

٨- الخطاب العربى

الإعلام جزء من الحرب. بل إن الإعلام الحديث وطرق التأثير النفسية جزء من الحرب الحديثة قبل الحرب، وأثناء الحرب، وبعد الحرب. فالإعلام يمهد للحرب، ويعطى لها المشروعية الذهنية والنفسية فى الرأى العام المحلى داخل الطرفين المتحاربين وفى الرأى العام الدولى لدى الجبهات المساندة لكلا الطرفين.

وقد أساء الإعلام الأمريكى قبل الحرب؛ لأن قوات التحالف الأمريكى البريطانى ضربت بالشرعية الدولية عرض الحائط، وقفز فوق قرارات مجلس الأمن، وخرق ميثاقها بالاعتداء على أحد أعضائها، وانفرد بالقرار بعيدًا عن الشريك الأوروبى، وبالرغم من التهديد باستخدام الڤيتو من أغلبية الأعضاء الكبار فى مجلس الأمن، وبالرغم من اعتراض الرأى العام العالمى ونزول ما يزيد على العشرين مليونًا إلى الشوارع فى منتصف فبراير فى عواصم العالم اعتراضًا على الحرب كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية. وظهر أن صقور الحرب فى الإدارة الأمريكية قائمون بالعدوان على العراق لا محالة سواء وجد المفتشون الدوليون أسلحة الدمار الشامل أم لم يجدوا، سواء تنازل حاكم العراق عن السلطة أم لم يتنازل، سواء أصدر مجلس الأمن قرارًا دوليًا بشرعية الحرب ولو على استحياء أم لم يصدر. وسواء ثبت ارتباط النظام فى العراق بالإرهاب أم لم يثبت.

وأحسن الإعلام العراقى فى التأثير على الرأى العام المحلى والدولى، بقبول العراق الالتزام بكافة القرارات الدولية الخاصة بنزع أسلحة الدمار الشامل، والسماح للمفتشين الدوليين بزيارة كافة المواقع العراقية بلا استثناء. والتعاون معهم

(*) جريدة الاتحاد: ١٥ مايو ٢٠٠٣م.

إلى أقصى حد إلى درجة قبول الزيارات المفاجئة للمواقع دون سابق إنذار، بل وقبول بعض وجوه المعارضة العراقية فى الخارج، والإعلان عن بدايات التحول الديموقراطى فى العراق والتعددية السياسية، والتوقيع على اتفاقية منع انتشار أسلحة الدمار الشامل. وكسب العراق معركة الرأى العام المحلى والدولى قبل أن تبدأ الحرب وخسرتها أمريكا، وبعد أن كشف عن المعيار المزدوج الذى تمارسه أمريكا بين العراق وفلسطين. فإسرائيل تمتلك أسلحة للدمار الشامل، وتعصى عشرات القرارات للأمم المتحدة، وتعتدى على الشعب الفلسطينى باسم ديموقراطية النظام داخل الكيان الصهيونى، ولا تريد التعامل مع رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية بالرغم من انتخابه ديموقراطيًا من الشعب الفلسطينى. وتبيت للعدوان على الشعب العراقى، وتريد حل النزاع مع كوريا الشمالية بالطرق السلمية والوسائل الديبلوماسية بالرغم من اعتراف كوريا الشمالية بامتلاكها الأسلحة النووية، رهبة من الصين وكأن العرب لا يرهبون أحدًا.

وعلى العكس من ذلك استطاع الخطاب العراقى تجميع الوطن فى الداخل والرأى العام العربى، دفاعًا عن استقلال الأوطان، ودرء العدوان عنها، وحق كل شعب فى تقرير مصيره، ورفض التدخل الخارجى للقوى الكبرى لتغيير أنظمة الحكم فى الدول الصغرى بالقوة عن طريق العدوان والغزو العسكرى. بدا خطاب القادة وخطاب الشعب واحدًا، وخطاب العراق وخطاب العرب واحدًا، والخطاب العربى والخطاب العالمى واحدًا. لقد تجمع العالم كله مع الشعوب المتحررة دفاعًا عن الاستقلال الوطنى. وعادت سيرة باندونج فى ١٩٥٥م، وتأميم قناة السويس فى ١٩٥٦م. واندلاع ثورة الجزائر فى ١٩٥٤م ثم ثورات العالم الثالث ابتداء من ثورة العراق فى ١٩٥٨م، ثم اليمن فى ١٩٦٤م، ثم ليبيا فى ١٩٦٩م، وحرب أكتوبر فى ١٩٧٣م. واستقلت أفريقيا وتحررت دول أمريكا اللاتينية وآسيا.

عاد الخطاب السياسى العربى فى العراق يعبر عن نخوة العرب وشهامتهم، ومقاومة العدوان. وانطلق الشعر العربى يملأ سطور الخطاب السياسى. فما زال المتنبى حيًا، يكمن فى ضمير العرب وحامل الوحى فى وجدانهم. وأطلق الخيال

العربى سراحه، عودة إلى عزة الستينيات، وتحديد العدو الحقيقى للأمة العربية، الاستعمار والصهيونية. وأجمع المفكرون والسياسيون العرب على خطاب سياسى واحد بالرغم من تفرق الإرادات العربية طبقًا للمصالح القطرية ودرجة الانتماء القومى أو لأهواء البشر والحكّام، وما تبقى من صراعات التاريخ القديم والحديث. وبدأ الخطاب العربى يجدد الحلم القديم الذى أجهضته هزيمة ١٩٦٧م، ويطلق زمام المبادرة التاريخية التى توقفت منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣م حتى انتفاضة الأقصى فى سبتمبر ٢٠٠٠م وحيدة تناضل وتقاوم، وتعَوّد العرب على مناظر دم الشهداء كل يوم بعد أن أصبحت جزءًا من الحياة اليومية. العراق وفلسطين عملتان لواجهة واحدة. المعتدى عليه واحد، الوطن العربى فى شرفه وقلبه. والعدو واحد، الاستعمار والصهيونية، المسيحية الصهيونية فى البيت الأبيض واليهودية الصهيونية فى الأراضى المحتلة.

وأثناء الحرب بدأ خطاب إعلامى جديد أدهش العالم وأصبح موضعًا للتندر بألفاظه وأساليبه، ولغته وأحاجياته مثل لفظ «العلوج» الذى لم يفهمه معظم العرب حتى الآن. وبدلاً من التحليل السياسى العلمى الرصين لأهداف العدوان، الاستيلاء على المخزون النفطى فى العراق ثم فى الخليج ثم فى السعودية، أى ما يزيد على ثلاثة أرباع مخزون النفط العالمى للتحكم فى أسواقه، وخفض أسعاره، والقضاء على الأوبك، وخنق الاقتصاد الآسيوى فى شرق آسيا، كوريا الجنوبية واليابان، والذى يعتمد على ٩٠٪ من حاجاته النفطية من السوق العربية، والسيطرة على أوروبا التى تحصل أيضا على حوالى ٧٠٪ من احتياجاتها النفطية من المنطقة العربية حتى تقضى على استقلالها السياسى وتندم على عدم مساندة قوات الغزو الأمريكى البريطانى فى الحالات القادمة، سوريا ولبنان وإيران وليبيا أولاً، والسودان واليمن ثانيًا، والسعودية ومصر ثالثًا، تبدأ سلسلة من الشتائم لا تليق بأخلاق العرب ولا بحيائهم، ونعت قادة التحالف كأشخاص وليس كسياسات بصفات لا تليق على مستوى القيم العربية. كما تظهر فى بعضها القسوة مثل الذبح، ذبح من دخل مطار بغداد. ومنها ما ينعت القادة عن طريق نعت آبائهم وأمهاتهم. فما كسبه العراق فى الخطاب السياسى الرصين قبل العدوان خسره

بالخطاب «السوقى» أثناء العدوان. وما أكثر التحليلات السياسية الرصينة فى الصحافة ومراكز الأبحاث العربية والدولية. وما أكثر المصطلحات العسكرية لوصف المعارك بين الأطراف المتحاربة. لم تكن قضية العدوان على العراق تتعلق بأشخاص المعتدين ولا بأخلاقهم ولا بآبائهم وأمهاتهم ولا باستحقاقهم الضرب بالنعال أو على القفا، بل قضية إعادة رسم خريطة المنطقة كلها، سايكس بيكو جديدة حتى تتم الهيمنة الكاملة للعولمة وتستقر قوانين السوق فى النتوءات التى ما زالت تستعصى عليها مثل المنطقة العربية والعالم الإسلامى.

وكأن الخطاب السياسى العراقى أوسع بكثير من فعل المقاومة بعد ثلاثة أسابيع من الحرب حيث توقفت فجأة على غير توقع ودون سابق إنذار. كان الخطاب الإعلامى العراقى فى بداية الحرب يتسم بالرزانة والاعتدال مما جعله أكثر مصداقية من الخطاب الإعلامى الأمريكى البريطانى الذى أعلن عن سقوط أم قصر والفاو، وحصار البصرة، وفى الطريق إلى بغداد منذ الساعات الأولى. مع أن أم قصر ظلت تقاوم حتى سقوط بغداد غير المتوقع، وكذلك البصرة. وفرق بين حصار مدينة من الصحراء وبين دخول شوارعها وحواريها وأزقتها فى التجمعات السكانية. هناك فرق بين حصار مدينة من الخارج وسقوطها من الداخل.

وعادت صور المقاومة الڤيتنامية، وتمت المقارنة بين المستنقع الڤيتنامى فى الستينيات والمستنقع العراقى فى أوائل هذا القرن بعد أربعين عامًا، وعاد النضال العربى إلى الذاكرة منذ اندلاع الثورة الجزائرية فى ١٩٥٤م وتأميم قناة السويس فى ١٩٥٦م والانتفاضة الفلسطينية الثانية، انتفاضة الأقصى فى سبتمبر ٢٠٠٠م. وتجمعت المقاومة العربية والإسلامية حول المقاومة العراقية. وبدأ المتطوعون العرب فى الوصول إلى بغداد، مثل العرب الأفغان فى العدوان السوڤييتى ثم الأمريكى السابقين، والظن بأن العراق هى أفغانستان أخرى. وتمت المقارنة بين بغداد ولينينجراد، ونسج الخيال أساطير المقاومة الشعبية. وقدر المحللون العسكريون أن بغداد تستطيع الصمود ستة أشهر بما لديها من مخزون سلاحى وغذائى، وخطط عسكرية لجر قوات العدوان إلى قتال شوارع تجنبًا للسيطرة الجوية للقوات الأمريكية

والبريطانية إذا ما خرجت قوات الحرس الجمهورى إلى العراء. فقد تعلم العراق من العدوان الأول فى ١٩٩١م. وكلما سقط لقوات العدوان من الخسائر البشرية زاد احتمال كسب العراق الحرب والانتصار على العدوان. فالسلاح يُعوَّض، والأرواح لا تستعاد. وخطوط الإمداد لقوات العدو أصبحت طويلة بعد أن جرى فى الصحراء لدخول بغداد حتى يفت فى عضد المقاومة العراقية. طال جسم الثعبان حتى ولو طل برأسه على بغداد، فما أسهل من قطع خطوط الإمداد والقضاء على قوات العدوان حول بغداد. وتوقع الكل النصر للعراق.

وفجأة ودون سابق إنذار انتهى كل شىء فى غمضة عين. اختفى الحرس الجمهورى، وذابت أسلحته الثقيلة والخفيفة. واختفى القادة، ولم يعد الناس يسمعون الخطاب الإعلامى الفج أثناء الحرب. ودخلت قوات الغزو بغداد بلا مقاومة مثل باريس أثناء العدوان النازى عليها، فباريس مدينة مفتوحة حفاظًا على تراثها وفنها وتاريخها. فهل بغداد مدينة مفتوحة حفاظًا على تراثها ومتاحفها وجامعاتها ومكتباتها الوطنية؟ هل تمت صفقة سرية بين الطرفين لتسليم بغداد وإنهاء السلطة فى العراق؟ وفيم كانت المقاومة إذن فى البداية وأرواح الشهداء لو كانت النية فى النهاية الاستسلام؟ هل حدثت خيانة من القادة العسكريين أو السياسيين لتسليم المدينة إنقاذًا للأرواح. فالحكم حكم أفراد وليس حكم الشعب. وبانتهاء الفرد ينتهى النظام؟ فلا فرق بين البطولة والخيانة. هل هرب القادة إلى الخارج شرقًا أم غربًا تاركين الوطن فى مهب الريح؟ هل نزل القادة فى سراديب تحت الأرض مثل الإمام فى عقائد الشيعة حتى يعود من جديد للقضاء على الظلم إذا ما حان الوقت، غيبة يعقبها ظهور؟

أصيب العرب فى تاريخهم وكرامتهم، فى ماضيهم وحاضرهم فى مقتل. فالخطاب العربى بان أوسع من الفعل العربى. وزاد حجة على من وصف العرب بأنهم ظاهرة صوتية. فقد تحول العرب من الصراخ المطلق إلى الصمت المطبق، ومن العلن إلى السر، ومن الظهور إلى الخفاء، ومن التجلى إلى الستر، ومن الحضور إلى الغيبة طبقًا لأحد تيارات ثقافتهم الموروثة. انقلبوا مائة وثمانين درجة،

من النقيض إلى النقيض، من البطولة إلى الخيانة، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن المقاومة إلى الاستسلام، ومن الاستقلال إلى الاحتلال. وتساءل الناس أين العراق؟ أين قادة العراق؟ أين جيش العراق؟ بالونة فى الهواء فرقعت بشكة إبرة أو دبوس، باستثناء جيوب مقاومة مسلحة تعلن رفض الاحتلال، وبدايات ثورة شعبية قادمة توحد الأوطان ضد مخططات التقسيم والحاكم العسكرى الأجنبى، جوردون فى الخرطوم، وكرومر فى القاهرة، أو بعض وجوه المعارضة فى الخارج الآتية على فوهات المدافع وأسنة الرماح.

* * *

٩- السلوك العربى

وكما أن للعدوان الأمريكى على العراق نتائج على العراق، والنظام العربى، والنضال الوطنى، والخطاب العربى فإن لها أيضًا نتائج على السلوك العربى.

وأكثر ما آلم فى النفس مناظر السلب والنهب لحضارة العراق وتاريخه وروحه وثقافته وأحشائه بعد تسليم بغداد بلحظات. صحيح أنه يمكن القول إنهم رعاع من داخل بغداد أو من خارجها حملتهم عربات النقل لتشويه صورة العراق الحضارية؛ مما يعطى شرعية للعدوان الأمريكى ودعواه بتحديث المجتمعات وتمدن الشعوب. وصحيح أيضًا أنه يمكن القول بأن هذا النهب والسلب طبيعى من شعب محروم، تمتع قادته بالقصور، وحصلوا على مباهج الحياة بدعوى القومية والنضال ضد الاستعمار والصهيونية، ومع ذلك فالتراث الوطنى مثل التراب الوطنى ليس ملكًا لأحد فرد أو جماعة بل ملك التاريخ. وهكذا تم بيع تاريخ العراق وعقله ودينه وحضارته وثقافته وفنه فى أسواق النخاسة العالمية. يهرب خارج العراق حتى يبقى فى متاحف الغرب. الشرق يبدع والغرب ينقل. الشرق يُنهب ما أبدعه. والغرب يحفظ ما نهبه هو من قبل إبان الحقبة الاستعمارية الأولى أو إبان الحقبة الاستعمارية الثانية التى بدأت بغزو العراق بعد احتلال بيروت. لم يعد للعراق تاريخ، وهو يدمر الماضى والحاضر والمستقبل بعد أن أثبت المؤرخون والعلماء أثر حضارة ما بين الرافدين فى الفلك والدين خاصة على الحضارتين اليونانية واليهودية. واستقرت فى الغرب الجذور والثمار، المنبع والمصب، البداية والنهاية. كل القامات تسوى بالأرض، لا فرق بين تماثيل بابل وآشور وتماثيل صدام، الأولى تحت الحراسة

(*) جريدة الاتحاد: ١٧ مايو ٢٠٠٣م.

الأمريكية، والثانية ملفوفة بالعلم الأمريكى ومجرورة بالجرار الأمريكى. وكان الشىء الوحيد الذى لم يدمر وحرسته القوات الأمريكية هو وزارة النفط، الحضارة الأمريكية الجديدة. لقد دمرت بغداد من قبل بأيدى التتار، ولكنها تدمر اليوم بأيدى أهلها. لقد دمر التتار حضارة لم يصنعوها فى حين يدمر أهل العراق حضارتهم التى صنعوها عبر التاريخ، اللهم إلا إذا قيل، إن البابليين والآشوريين كانوا صناع حضارة، أما حفدتهم فجوعى مقهورون.

ومما آلم فى النفس أيضًا مشهد قتل الإمام عبد المجيد الخوئى نجل الإمام الخوئى الأكبر داخل مسجد الإمام على لخلاف بين فرق الشيعة، بالرغم مما ورد فى بعض التقارير أنه كان يدافع عن مظلوم مهدد بالقتل فقتل ظلمًا. فإذا سقط طاغية بغداد الذى كان حاميا للنظام العام، ويغتال بنفسه من يريد من زعماء المعارضة، شيعة وسنة، فإن الاغتيال سنة عربية يمارسه الشعب بعد أن يسقط الطغاة. وإذ ما استطاعت قوات التحالف التخلص من طاغية بغداد ونظام حكمه فإنها سعيدة ببقاء القتل والاغتيال سنة ثابتة وقانونًا تاريخيًا فى الشعب العراقى. يدمر نفسه بنفسه. ولا يطيق حل الخلاف بين الفرق إلا بالتصفية الجسدية. فتاريخ العرب والمسلمين ـ فى زعمهم ـ هو تاريخ قتل الخلفاء منذ عمر وعثمان وعلىّ والحسين.

وبالإضافة إلى الاغتيالات الفردية قد تخطط قوات التحالف للاغتيالات الجماعية عن طريق إشعال نار الفتنة بين الشيعة والسنة والأكراد، صراعًا على السلطة أو من أجل حصول كل طرف على أكبر قدر منها. وقد يدفع ذلك قوات التحالف إلى تقسيم العراق. وقد بدت بوادره بتقسيمه إلى ثلاث مناطق، الشمال للأكراد، والوسط للسنة، والجنوب للشيعة، حقنًا للدماء، وخلقًا لكيانات طائفية وعرقية ودويلات صغيرة حتى تصبح إسرائيل أقوى دولة طائفية عرقية فى المنطقة، وتأخذ شرعية من الجغرافيا السياسية المحلية وليس من أساطير المعاد، وشعب الله المختار والأرض الموعودة والميثاق.

وإذا ما تم اختيار مجالس محلية يمثل العراقيون فيها طبقًا للنسب العددية بين الطوائف والأعراق، بين العرب والأكراد والتركمان والشيعة والسنة، وكأن

المواطن العراقى لا وجود له كوطنى إلا بعد انتسابه العرقى أو الطائفى. فتضيع وحدة الوطن بغياب المواطن. ويتأكد تقسيم الوطن بتأكيد تقسيم المواطنين. ولا حوار بينها إلا بالسلاح وإراقة الدماء، وإضعاف الوطن، ونهاية الدولة الوطنية التى طالما ناضلت فى الماضى ضد الاستعمار والصهيونية. ولماذا يظل الغرب يزهو على العرب بأنه حضارة التعددية السياسية، والرأى والرأى الآخر، والنظم البرلمانية فى حين لم تعرف الحضارات الأخرى إلا الرأى الواحد، والحزب الواحد، والفرقة الناجية؟

ومما آلم فى النفس ثالثًا مشاهدة مناظر الانقلاب على النظام، وضرب صور صدام بالحذاء، وتشويه منحوتاته على الجدران، وقلب تماثيله أمام تهليل الناس، مأجورة أو تلقائية. فمعبود الأمس أصبح طريد اليوم. وإله الأمس تحول شيطان اليوم. فكيف للناس أن تصدق سلوك الشعب العربى وتحترم ولاءاته المتقلبة من النقيض إلى النقيض؟ وأين كان الشعب العراقى طول مدة الطاعة والولاء والتأليه طالما يكبت فى نفسه كل هذه المعارضة ويضمر كل هذا العداء للنظام ورموزه؟ هل كان منافقًا فى طاعته صادقًا فى ثورته، أم راضيًا فى طاعته مدعيًا فى ثورته؟ وماذا عن التسعة والتسعين اسمًا التى أعطيت للطاغية متشبهًا بأسماء الله الحسنى مثل: العروبى، الغيور، القائد، الأخ، الرئيس، الرمز، المنتصر، الفارس، الحبيب، البانى، المهندس، الرجل، الفخر، الضمير، الراعى، البطل، الهبة، الإشعاع، الأب، الرائد، الحامى، الحلم، القمة، المحرر، القرة، الصانع، العبقرى، النموذج، الباعث، المعلم، الربان؟ العرب هم العرب يعبدون آلهتهم المصنوعة من العجوة فى الصباح، ويأكلونها فى المساء.

وقد وقع نفس الانقلاب من النقيض إلى النقيض بالنسبة للقومية العربية، أيديولوچية حزب البعث العراقى. فبعد أن كانت هى الأيديولوچية الوحيدة المسموح بها فى العراق أصبحت محرمة وممنوعة بعد حل حزب البعث العربى الاشتراكى القومى والقطرى. وكانت أول الجرائد الصادرة بعد تسليم بغداد جريدة الحزب الشيوعى العراقى فى الداخل، و«الزمان» التى تصدر فى «لندن» بعد أن

أصدرت فى البصرة، وأصبح البطل خائنًا، والخائن بطلاً. وتحول الحلال إلى حرام والحرام إلى حلال. كيف يصدق الرأى العام الدولى، وكيف تحترم القوى الدولية هذا السلوك العربى المتقلب، و«الله أكبر» على علم العراق؟ فهو ليس أقل من السعودية إيمانًا بوضع «لا إله إلا الله محمد رسول الله» على علمها. إيمان بإيمان، وإسلام بإسلام، وانتهازية سياسية فى كلتا الحالتين، باسم الدين. هل هذا عود لفرعون، تدون آثاره على حوائط المعابد أثناء حكمه ثم تـُزال وتمحى ممن يأتى بعده؟ هل هذا هو النظام اليابانى الذى يبدأ فيه التاريخ باعتلاء الإمبراطور على العرش، وكلما أتى إمبراطور جديد يأتى بتاريخ جديد؟

وكيف تتم مقاومة قوات التحالف فى الجنوب، وقتالهم فى أم قصر والفاو والبصرة ثم مصافحتهم وتقبيلهم فى الشمال؟ كانوا أعداء محتلين فى الجنوب فأصبحوا أصدقاء محررين فى الشمال، يانكى فى الجنوب مخلصين فى الشمال؟ ولقد اتهم العرب باعتبارهم ساميين من قبل، فى القرن التاسع عشر لدى مروجى النظرية العنصرية فى الاستشراق عند رينان وليون جوتييه، أن الساميين يفكرون ويسلكون بالنقيضين على مستوى المادة فى البارد والساخن، والسكر والمالح، والكريه والطيب، وعلى مستوى الفكر فى البطولة والخيانة، والنبوة والجنون، والعلم والجهل، والنقل والإبداع، والحجاب والسفور، والستر والتجلى إلى آخر ما هو معروف فى أحوال الصوفية. والتقلب بين النقيضين من طبائع الشخصية العربية. وهو أشبه بما قاله فلاسفة الوجود المعاصرين، الوجود قائم على العدم عند هيدجر وسارتر.

كيف يقاتل الأمريكيون فى الجنوب ويصافحون فى الشمال، يخنقون فى الجنوب ويتعانقون فى الشمال؟ هل سُلِّمَت بغداد بفعل الخيانة؟ هل هذه سمة فى الشعب العراقى منذ استدعاء الحسين من شبه الجزيرة العربية إلى الشمال ثم التخلى عنه ليلقى الشهادة وحده؟ كيف يجمّع العراق الرأى العام العربى والدولى حوله فى أكبر مظاهرات شعبية منذ حرب ڤيتنام فى الستينيات ثم ينفرط العقد من حوله بعد تسليم بغداد وانفراط حبات العقد بعد قطع الخيط؟ هل هى ازدواجية فى الشخصية

العربية بين الظاهر والباطن، بين العلن والسر، بين القول والفعل، بين الإنشاء والخبر، بين الخيال والواقع، مقابل ازدواجية المعايير لدى الولايات المتحدة الأمريكية، معيار فى العراق، عصيان قرارات الأمم المتحدة والعدوان على العراق، ومعيار آخر فى فلسطين، احتلال إسرائيل لكل فلسطين والعدوان على الشعب الفلسطينى وعصيان معظم قرارات الأمم المتحدة. معيار مع العراق بالعدوان، وآخر مع كوريا بالحل الدبلوماسى.

إن تغير المواقف وارد للأفراد وللشعوب بناء على تدبر ووعى بتغير الأزمان والعصور. فلا شىء ثابت فى التاريخ إلا قوانينه وسننه. أما الانقلاب من النقيض إلى النقيض عند نفس الشخص ولدى نفس الجيل وفى نفس الزمن فهو تقلب فى العواطف والأهواء وإضرار بمصالح الشعوب.

وماذا عن المقابر الجماعية التى يتم اكتشافها بين الحين والآخر فى ثرى العراق، أطفالاً ونساء وشيوخًا بعد تعرف الأهالى عليها، وظنهم هجرة الأحباب إلى الخارج؟ وما الفرق بين الهجرة تحت الأرض والهجرة خارج أرض الوطن؟ يكاد يصاب العربى بالخزى أمام هذه التصفيات الجسدية للمعارضين دون تهمة أو محاكمة أو دفاع مشروع عن النفس. هل يصدق العالم إذن ملفات حقوق الإنسان فى الوطن العربى التى تنشرها جمعيات حقوق الإنسان ومنظمات العفو الدولية؟

إن العرب الآن بين خيارين: الدفاع عن العراق كأرض ووطن وشعب وتاريخ ضد الاحتلال الأجنبى، وفى نفس الوقت الدفاع عن نهاية الطغيان والتسلط والقهر وممارسات النظام العراقى. هل يحزن العربى لاحتلال العراق أم يفرح لنهاية نظام التسلط والطغيان؟ وهل لا بد أن تُحمل الديموقراطية على أسنة الرماح وفوهات المدافع، وأن يأتى الفرج على أيدى قوات الاحتلال؟

لقد اختلط كل شىء فى الوجدان العربى، الصديق والعدو، الحق والباطل، الصواب والخطأ، الوسيلة والغاية، الإيمان والكفر، البطولة والخيانة، الماضى والحاضر، السلطة والمعارضة، الملاك والشيطان.

قد يعجز العربى عن التفكير إلى حين. كما قد يعجز عن السلوك والفعل فترة

بعد اختلاط الأوراق. فالتاريخ يتحرك، والمخاض ما زال قائمًا، وطلقات الطلق ما زالت تضرب. فلم يظهر المولود الجديد بعد. وربما تنتهى آلام الوضع بصوت الوليد بعد أن تحرك فى الرحم، خارجًا بالرأس قبل الأقدام، ومستنشقًا هواء العالم صارخًا: لا تكرروا التاريخ، إجهاض النهضة العربية الأولى فى عصرها الليبرالى، وإجهاض النهضة العربية الثانية فى تجربتها القومية الاشتراكية. واحرصوا على نهضة عربية ثالثة تبدأ بالحرية.

* * *

١٠- المستقبل العربى

إن أهم حجة فى التاريخ هى وقوع الحدث. فقد تحول من ممكن إلى واقع. وإن أهم قياس فى بعض النظم التشريعية هو الحالة السابقة. فحجة الواقع أبلغ من حجة الفكر. وقد قيل قبل اجتياح إسرائيل لمدن الضفة الغربية إن هذا لن يحدث. وكيف تجرؤ إسرائيل على معارك المدن والشوارع والمخيمات؟ وقد حدث. كما قيل عن بغداد: وكيف تجرؤ قوات التحالف الأمريكى البريطانى على دخول بغداد وقتال الشوارع، من بيت إلى بيت، ستالينجراد العرب؟ وقد حدث. فاجتياح العراق وتسليم بغداد سابقة فى تاريخ العرب الحديث بعد نصف قرن من حركات التحرر الوطنى، وإنشاء الدول الوطنية الحديثة، وإقرار المواثيق الدولية وفى مقدمتها ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص فى أحد بنوده على عدم جواز تعرض إحدى دول المنظمة للعدوان من دولة أخرى. خطورة الحالة السابقة تحول المستحيل إلى ممكن، والخيال إلى واقع، والفرض إلى حقيقة. تتحول الحجة من النظر إلى العمل، ومن التحليل السياسى النظرى إلى التجربة السياسية العملية. التاريخ أبلغ من الأيديولوچيا، والقوة أكثر تأثيراً فيه من الشرعية. والجنون يتحقق فيه أكثر مما يتحقق العقل. خطورة الحالة السابقة أنها شاهد تاريخى يحدد الحالات القادمة. فإذا تم احتلال العراق بطريقة الغزو الاستعمارى الحديث منذ قضاء بريطانيا على إمبراطورية المغول فى الهند حتى احتلال فرنسا للجزائر فى ١٨٣٠م وباقى دول المغرب العربى، واحتلال بريطانيا لمصر فى ١٨٨٢م، واحتلال إيطاليا الحبشة وليبيا، والبرتغال وإسپانيا جنوب شرق آسيا، وبلچيكا وسط أفريقيا بل والغرب، نصف الكرة الغربى منذ كريستوفر كولومبس والقضاء على الشعوب الأصلية

(*) جريدة الاتحاد: ٢٤ مايو ٢٠٠٣م.

واستئصالها ووضع ما تبقى منها فى محميات، متاحف حية لصناعة السينما وازدهار السياحة. فما المانع أن تُحتل دول أخرى بنفس الطريقة وإن تعددت الذرائع؟

والخطورة الأعظم إذعان باقى الأقطار للدرس المستفاد من الحالة السابقة وأثر ذلك على النضال الوطنى. فقد حققت قوات التحالف الأمريكى البريطانى على الأقل من الخارج ما عجزت المعارضة الوطنية عن تحقيقه من الداخل. حققت قوات التحالف فى الظاهر غاية طالما تاقت المقاومة العراقية إلى تحقيقها، وهو التخلص من أبشع نظم التسلط والطغيان والمقابر الجماعية والتصفيات الجسدية للخصوم السياسيين ولو بوسائل غير مشروعة، الغزو والاحتلال. ولم تنجح المعارضة فى الداخل أو الخارج من تحقيق نفس الغاية بالوسائل المشروعة، النضال الوطنى فى الداخل أو الإعلام فى الخارج. فهل تبرر الغاية الوسيلة؟ وبيد من، بيد الغير أم بيد النفس؟ وهل يعطى ذلك ذريعة لقوات الغزو الأجنبى أن تكرر الحالة السابقة، وما على المعارضة الوطنية إلا الإذعان؟ هل وصل النضال الوطنى داخل نظم القمع إلى طريق مسدود فى حين أن الغزو الأجنبى واحتلال الأوطان طريق مفتوح؟ لقد بدأت بعض الأقلام العربية تصرح بهذا الاتجاه. وهو تحول جذرى ونوعى فى تاريخ النضال العربى. كان الاستعمار القديم يمثل الغزو والقمع والتسلط والعدوان على الشعوب، وكان النضال الوطنى هو السبيل لتحرير الشعوب فى الخمسينيات والستينيات. وانقلبت الآية الآن. فأصبحت الدولة الوطنية حصيلة النضال الوطنى هى التى تمثل القمع والتسلط والعدوان على الشعوب، وقوى الغزو الخارجى واحتلال الأوطان هى التى تقوم بتحرير الشعوب من جلاديها. قديمًا كان الاحتلال من الخارج والتحرر من الداخل، والآن الاحتلال من الداخل والتحرر من الخارج.

لقد ظهر أن الوطن العربى هش فى بنيانه، ضعيف فى نظمه، واسع فى خطابه، كثير فى كلامه، قليل فى فعله، عظيم فى توقعاته، شديد الإحباط فى تحققاته. يبدو أن الوطن العربى قد تغير تغيراً نوعيّا من الخمسينيات والستينيات ثم تحول إلى النقيض فى السبعينيات والثمانينيات وبدأت هزيمة الإرادة العربية فى التسعينيات وبداية هذا القرن وحتى الآن. فى البداية واجه الاستعمار والصهيونية، وحرر

الأوطان، واستعد لتحرير فلسطين قضية العرب الأولى. وفى النهاية تحالف مع الاستعمار، واعترف بالصهيونية، ورضى بمشاريع التسوية ابتداء من مشروع روجرز بعد هزيمة ١٩٦٧م حتى خريطة الطريق بعد احتلال العراق وتسليم بغداد فى ٢٠٠٣م. واجه الاستعمار والصهيونية أولاً وقاوم. والآن وقف عاجزاً عن الدفاع عن الأوطان أمام الموجة الجديدة من الاستعمار التقليدى بالزحف على الشعوب. سماؤه مفتوحة، وأرضه ينطلق منها العدوان، ومياهه تمخر فيها البوارج والأساطيل. والتاريخ يعيد نفسه، دورة وراء دورة. والذرائع موجودة فى الدورتين: الأولى: ذريعة التحضر والتمدن والتحديث، والذريعة الثانية: الإرهاب والعنف من الشعوب، والتسلط والقمع من النظم. فى المرة الأولى رضى عن الدولة الوطنية وسماها الجديدة على نموذج الدول الوطنية فى الغرب وسماها القديمة. وفى الثانية يفتت الدولة الوطنية التى ما زالت تمثل التجسيد الفعلى للمصالح الوطنية دفاعًا عن القطاع العام وحماية للصناعات الوطنية وتململاً من العولمة وقوانين السوق. ويفضل عليها كيانات طائفية أو عرقية مجزأة فى «موزاييك» شرقى أوسطى بعد تجزئته وحتى تصبح إسرائيل فيه أقوى دولة طائفية فى المنطقة. شرق أوسطية جديدة تكون فيه إسرائيل أداة التحديث بدلاً عن مصر ولأمريكا القيادة والتوجيه أو حوض أبيض متوسط جديد تكون فيه إسرائيل أيضًا ولأوروبا الريادة فيه طالما أنها على شاطئه الشمالى فى مقابل العرب فى شاطئه الجنوبى.

لقد تأخرت النظم الحاكمة القائمة كثيراً عن تجديد نفسها. وحكمت أكثر من نصف قرن باسم الثورة العربية بالرغم من تبدل الظروف والأزمان، من عصر الاستقطاب إلى الحرب الباردة إلى القطب الواحد. وأصبح ٦٠ ٪ من العرب تحت سن العشرين، يضيقون بالواقع العربى، بالسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة. ويواجهون واقع الفقر والبطالة والتخلف واليأس. وأصبح الحكّام العرب أكثر الحكّام تعميراً فى العالم. لا يتركون الكرسى إلا باغتيال أو موت. وتغير الدساتير حتى يصبح الحاكم حاكماً مدى الحياة. ولم تنفع نداءات ضرورة تداول السلطة. وإن حدث فمن الأب إلى الابن، وراثية، سواء كانت ملكية أم جمهورية. نشأت

أجيال جديدة بلا رؤية سياسية وبلا تجارب سياسية بعد أن عاشت فى مرحلة الحزب الواحد، والنظام الواحد، والأيديولوچية الواحدة، والزعيم الأوحد. ولم تجد أمامها إلا الهجرة إلى خارج الأوطان أو إلى الهجرة إلى تحت الأرض فى الحركات السرية أو إلى الهجرة فوق الأرض والانغماس فى طلب السلطة والمال أو الهجرة داخل النفس والموت همًا وكمداً حتى يتوقف القلب المرهف الذى لم يتحمل صدمة التاريخ. لقد تكوّن الضباط الأحرار أثناء الفورة الوطنية فى الأربعينيات، ولجنة الطلبة والعمال، والتعددية الحزبية وعلى رأسها الإخوان والشيوعيون. وحصدت الخمسينيات والستينيات نضال الشعوب فى الثلاثينيات والأربعينيات. ثم انتهى الدافع الحيوى. وخفت الفورة الوطنية باحتكار العمل السياسى. ونشأت أجيال الآن لم تمارس العمل السياسى المنظم إلا تحت الأرض مثل بعض الحركات الإسلامية والتنظيمات الشيوعية أو تحت سيف اللاشرعية كالإخوان أو داخل أحزاب المعارضة المحدودة الناصرية أو الليبرالية أو فى حضن الحزب الحاكم من أجل الوصول إلى السلطة والمال. والهبات الشعبية تقوم وتقعد. ولا يوجد تنظيم شعبى قادر على اقتناصها أو سلطة بديلة قادرة على التعبير عن مصالح الشعوب.

وبعد حرب الخليج الثانية، الغزو العراقى للكويت، نشطت القومية العربية، وكانت قد أوقعت نفسها من قبل فى تناقض مع الثورة الإسلامية فى إيران بعد حرب الخليج الأولى والغزو العراقى لإيران. جاء الخطر على دول الخليج من القوميين العرب وليس من الإسلاميين الإيرانيين، من الشمال وليس من الشرق. وزادت النزعة القطرية بعد أن انقسم العرب فى حرب الخليج الأولى بين نصير للقومية فى العراق بوابة العرب الشرقية ونصير للثورة الإسلامية فى إيران التى جددت الناصرية بتحالفها مع الإسلام بعد أن أبعد ناصر الإخوان منها. وكان عبد الناصر هو النصير الأولى للخمينى قبل الثورة ويمد مجاهدى خلق بالسلاح. ثم انقسم العرب أيضًا فى حرب الخليج الثانية فى مؤتمر القاهرة بين مؤيد لقوات التحالف الدولى بقيادة الولايات المتحدة أيضًا ضد العراق، ورافض لأن يحارب العربى مع الأمريكى ضد العراقى. وتبعثر العقد، وانفرطت العروة الوثقى، وزادت النعرة القطرية، الكويت أولاً، مصر أولاً. واختلف العرب فى تحديد من

هو عدو العرب؟ إيران أم العراق وليس إسرائيل أو أمريكا. فقد أتى الخطر من العرب، من العراق وليس من إيران أو أمريكا أو إسرائيل. وبحث كل قطر عن أحلاف خارج الوطن العربى ومركزه مصر وسوريا. البعض وجده فى إيران، وآخر وجده فى أمريكا، وثالث وجده فى إسرائيل. ونشأت مراكز جذب أخرى خارج الوطن العربى لشد الأقطار العربية إلى محاور جديدة غير القومية العربية. ولماذا ليس العولمة وقوانين السوق؟ وبدأ التشرذم فى الوطن العربى وتقطيع الأوصال كما حدث للدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، وتوزيع أملاك الرجل المريض على القوى الغربية الجدية الناشئة.

والآن وبعد العراق، الدور على من؟ ظن البعض أنه على سوريا ولبنان وإيران فهو المحور الأخطر لرفض المخطط الأمريكى الإسرائيلى لرسم شرق أوسط جديد يكون فيه لأمريكا وإسرائيل الدور الرئيسى باسم الشرق أوسطية، أو يكون فيه لأوروبا الدور المحورى باسم المتوسطية، وفى كلتا الحالتين دخول الوطن العربى تحت مظلة العولمة، وذوبانه فى قوانين السوق. وبعد تفجيرات الرياض بدا أن الدور على السعودية أولاً. فهو النظام الذى يفرّخ حركات العنف والمقاومة. فالنقيض يؤدى إلى النقيض. والمحافظة التقليدية إن لم تتطور طبيعيًا نحو الإصلاح فإنها تتحول إلى نقيض سلفى جذرى أو علمانى جذرى كما حدث فى الثورة الإسلامية فى إيران بجناحها المحافظ، والثورة الكمالية فى تركيا بقلبها العلمانى. وكلما قوى النظام فى المحافظة والتقليد اشتدت المعارضة العنيفة له بالمتفجرات لتحرير الأوطان من الاحتلال الأجنبى المباشر وغير المباشر. وبعد السعودية يأتى الدور على نظم القهر التى تمنع الحركة الإسلامية ولا تعطيها بعضًا من الوجود الشرعى العلنى فى تعددية سياسية وانتخابات حرة من أجل تأسيس نظام ديموقراطى فى مصر وسوريا وتونس وليبيا، خاصة وأن الحركة الإسلامية لا ترفض قوانين السوق ولا تبتعد فى فهمها للإسلام عن الاقتصاد الحر. ثم يأتى الدور ثالثًا حتى على الدول التى سمحت للحركة الإسلامية أن تكون جزءًا من الحياة البرلمانية مثل اليمن والسودان والكويت والأردن ولبنان والمغرب؛ لأنها ما زالت نظمًا شمولية لها واجهتها

الديموقراطية. أما الجزائر فإنها تدمر نفسها بنفسها، مائة ألف شهيد فى العشر سنوات الأخيرة، حربًا دموية شعواء بين الإخوة الأعداء باسم الصراع بين السلفية والعلمانية نظرًا، وهو صراع على السلطة فعلاً بعد أن تهرأت الدولة الوطنية.

المستقبل العربى تحفّ به المخاطر. وعدم الأمان أصبح هو الشعور العام لدى المواطن العربى. المستقبل مجهول. ولا ضمان لشىء. فالحالة السابقة يمكن أن تتكرر فى حالات قادمة. والعرب على مفترق الطرق بين ماضٍ يتوارى، وحاضر مظلم، ومستقبل مجهول.

* * *

١١- المواطن العربى

ومن أهم النتائج المترتبة على غزو العراق هى الآثار الوخيمة على نفسية المواطن العربى، ركيزة العرب الأولى. فبعد انهيار المقاومة العراقية وتسليم بغداد، وحل جيش العراق وتسليم أسلحته، وحل حزب البعث واستبعاد كوادره، شعر المواطن العربى بحالة من الإحباط وهو يتوج نضاله الحديث على مدى أكثر من نصف قرن بهزيمة للأوطان بعد أن كانت هزيمة ١٩٦٧م هزيمة للحلم العربى واحتلال لباقى فلسطين. ويتولد عن الإحساس بالإحباط إحساس بالعجز عن المقاومة المبدئية أو الفعلية. فقد استبيحت الأوطان والحرمات، الجيش والشعب، الدولة والإدارة المدنية. وأصبح همُّ المواطن العراقى البحثَ عن رزق، وانتظار المعاش، بالدولار دون الدينار، ملايين من الجيش والشعب فقدوا وظائفهم. والمواطن العربى فى الداخل والخارج يكتفى بمد يد العون لجرحى الحرب دون من تبقى منها أحياء. وقد يصل حد الإحساس بالإحباط والعجز إلى تشكك المواطن العربى أحيانًا فى ثوابته التى تربى عليها إبان نضاله الحديث، عروبته ونضاله ضد الاستعمار والصهيونية وقدرته على الانتصار فى الجزائر وطرد المحتل بقوة السلاح، والتشكك فى الثوابت، وضياع للهوية ومحو للذات، وقضاء على الوجود. فإذا ما اجتمع الإحساس بالإحباط وبالعجز والتشكك فى ثوابت الوجود العربى عم اليأس، وأظلم الطريق. وتحولت انتصارات العرب فى التاريخ إلى استثناء، وهزائمهم إلى قاعدة. وتحقق الهدف البعيد للاستعمار والصهيونية وهو يأس العرب من أنفسهم، وخروجهم من معادلة الزمن ومسار التاريخ. واطمأنت إسرائيل إلى أنها تعيش فى بيئة مواتية وأرض خصبة، وأنها أصبحت بلا حدود جغرافية بعد أن امتدت

(*) جريدة الاتحاد: ٣١ مايو ٢٠٠٣م.

حدودها داخل النفس العربية. وإسرائيل الكبرى ليست فقط «من الفرات إلى النيل» بل داخل كل قلب عربى، من المحيط إلى الخليج.

والأخطر من ذلك كله على نفسية المواطن العربى هو الطعن فى الكرامة، والصبر على الذل، وقبول الضيم، والاستسلام للأمر الواقع، وقبول العالم شرعية الاحتلال بعد وقوعه بعد رفضه له قبل وقوعه. مصير العربى أصبح مرهونا بغيره، وحياة العربى تستمد مقوماتها من غيره. وقوات الاحتلال تجوب الديار، وتقتل المواطنين، وتتمركز فى المدن أو خارجها. وأصبح الجسد العربى يعيش بقلب اصطناعى بعد أن فقد قلبه الطبيعى لإطالة عمره بعد أن استهلك عمره الطبيعى. ومن الطعن فى الكرامة يتولد عدم احترام الذات، والخجل من النفس والحياء من التاريخ، مثل «عزيز قوم ذل». والاحتلال ليست واقعة انتهت، طواها النسيان، بل هى واقعة مستمرة، ترسخ قواعدها كل يوم بقرارات الحاكم المدنى الذى خلف الحاكم العسكرى، وكلاهما صهيونى عتيد. هو الذى سيبيع نفط العراق بلا سقف حتى تهبط الأسعار إلى المنتصف، ويقضى على «الأوبك». وهو الذى سيعين أوجه الصرف لعائدات النفط بدعوى الإعمار، وربما يذهب نصفها دفعا لتكاليف الحرب، وثمنًا لتحرير شعب العراق. ويخضع العربى لمصير يحركه ويتحكم فيه، لا فرق بين مصير الطاغية القديم أو الطغاة الجدد، بين المصير الإلهى ومصير التاريخ. «والمكتوب مامنوش مهروب». وتنتهى قصة الوحدة العربية، والإخوة العربية، والتضامن العربى، واتفاقية الدفاع العربى المشترك، والمستقبل العربى الواحد. والعرب يشاهدون كل يوم حاكم العراق الأمريكى يساعده نائب بريطانى، كالمعتمد البريطانى فى مصر، لورد كرومر، أو جوردون حاكم السودان الذى لاقى مصيره المحتوم بأيدى أحد المواطنين السودانيين أثناء الثورة المهدية. أصبح العرب لقمة طرية يمضغها من يشاء، والعربى رخواً يشكله الأجنبى كيف يشاء.

وينتهى ذلك كله إلى فقدان الاتجاه. فقد جرب العرب الاتجاه إلى أعلى منذ فجر النهضة العربية نحو الليبرالية ومُثل التنوير وانتهى بثورات الضباط الأحرار. ثم جرب العرب الاتجاه يساراً نحو الاشتراكية العربية والقومية العربية بمضمونها

التقدمى ومقاومة الاستعمار والصهيونية وانتهت بهزيمة يونيو ١٩٦٧م. ثم جرب العرب السير يمينًا نحو الانفتاح والقطاع الخاص والاعتراف بالصهيونية والتبعية للولايات المتحدة الأمريكية التى بيدها ٩٩,٩ ٪ من أوراق اللعبة فى منطقة الشرق الأوسط، وكانت النتيجة احتلال باقى فلسطين، والعدوان الأمريكى على العراق، والبقية تأتى. لم تكن حرب أكتوبر آخر الحروب بل تم غزو بيروت فى ١٩٨٢م، وضرب المفاعل النووى العراقى فى ١٩٨٤م، واغتيال أبى جهاد فى تونس فى الانتفاضة الأولى ١٩٨٧م. فلم يبق أمام العرب إلا الاتجاه إلى أسفل حيث السكون والإحباط واليأس، والموت غمًا وكمدًا أو الهجرة خارج الأوطان للحفاظ على ما تبقى من كرامة الفرد أو الانغماس كلية فى المخطط الأمريكى الصهيونى، وتمنى أن يتكرر غزو العراق لباقى الأوطان، واستبدال سيد بسيد، وبقاهر فى الداخل معتد من الخارج. وينشأ جيل عربى جديد محاصر فى كل الاتجاهات بعد أن جرب الآباء كل شىء ولم ينفع شىء. يدور العربى فى المكان، وإسرائيل تكبر، والعولمة تتسع حتى يغرق العربى إلى قاع البحر بعد أن تجذبه الدوامة من كثرة اللف على اتجاه يسبح فيه إلى شاطئ الأمان.

لا يغير نفسية المواطن العربى إلا إذا حدث زلزال جديد يعيد صهره وإفاقته وتجميع طاقاته وتوحيد قواه من أجل صياغة مشروع وطنى جديد فى مقدمته انسحاب القوات المحتلة من العراق مثل انسحاب قوات الاحتلال الإسرائيلى من فلسطين. وهناك إجماع عربى وإقليمى ودولى على ذلك. ويتم ذلك بالعصيان المدنى لشعب العراق لكل قرارات الحاكم الأمريكى الجديد. كما يتم أيضًا بالمقاومة الفعلية عن طريق إرهاق جنود الاحتلال وتكبيدهم خسائر يومية على طريقة حرب العصابات عودًا إلى طريقة أمريكا اللاتينية. وقد نجحت العمليات الاستشهادية التى قامت بها جهاد وحماس وطلائع فتح وسرايا القدس وغيرها من فصائل المقاومة الفلسطينية. قد تعود الروح إلى المواطن العراقى أولاً والعربى ثانيًا عن طريق الشهادة دفاعًا عن الوطن وليس النظام. ويتوحد النضال الوطنى فى فلسطين والعراق. وقد كان أحد أهداف العدوان القضاء على قوة العراق والجبهة الشرقية كلها، سوريا والعراق وإيران من أجل استتباب الأمن للكيان الصهيونى. كما

يستطيع المواطن العربى استمرار المقاومة بمقاطعته البضائع الأمريكية، ورفض المساهمة فى النشاط الأمريكى واستمرار العداء لأمريكا عن طريق منظمات المجتمع المدنى. فالمواطن العربى ما زال هو السند الطبيعى والرصيد الوطنى لمقاومة العدوان على العراق. وكما نجحت مقاومة التطبيع مع الكيان الصهيونى فى الأوطان التى عقدت نظم الحكم فيها معاهدات سلام معه كذلك تنجح المقاومة العربية فى رفض التعامل مع كافة الأنشطة الأمريكية فى الوطن العربى. فتتحول صورة العرب فى الذهن الأمريكى من الرخوة إلى الصلابة، ومن الطراوة إلى التماسك، ومن الاستسلام إلى المقاومة.

يحتاج المواطن العربى إلى نصر جديد يعطى نموذجًا بديلاً لتغير المجتمعات العربية وتحقيق طموحاتها نحو الحرية والديموقراطية بأيديها لا بأيدى غيرها. يحتاج إلى تجربة واقعية أخرى ثم تغيير النظام السياسى بأيدى مواطنيها بجدول أعمال وطنى وعلى رأسه الحرية والديموقراطية والعدالة الاجتماعية، وضرب الفساد، والقضاء على البطالة، وحل أزمة الخدمات العامة كالإسكان والمواصلات. حدث ذلك منذ نصف قرن فى أواخر الأربعينيات فى سوريا، وفى أوائل الخمسينيات فى مصر، وفى منتصفها فى العراق، وفى منتصف الستينيات فى اليمن، وفى أواخرها فى ليبيا. كانت حركات الضباط الأحرار هى الأداة، الأداة الوطنية التى جسدت حركات النضال الوطنى السياسى والاجتماعى. ربما يوجد جيل جديد من الضباط الأحرار الذين عانوا من الهزائم المتكررة فى ١٩٥٦م وفى ١٩٦٧م، ثم احتلال بيروت فى ١٩٨٢م وغزو العراق فى ٢٠٠٣م، ثم هزيمة الإرادة العربية بداية بالصلح مع إسرائيل فى ١٩٧٨م واتفاقية السلام معها فى ١٩٧٩م، ثم اتفاق وادى عربة فى الأردن ثم فتح سفارة لها فى موريتانيا، ومكتبا تجاريا فى قطر، والبقية تأتى. ربما هناك فعاليات جديدة ممثلة فى النقابات والاتحادات ومنظمات المجتمع المدنى مع جماهير الطلاب والعمال فى المدن قبل تحرك الفلاحين فى القرى. طالما أن الوطن العربى من خلال أنظمته السياسية مفرغًا، خاويًا، طبلاً أجوف، فإنه يسهل لقوات العدوان تكرار النموذج العراقى فى غياب نموذج عربى بديل للتغير الاجتماعى. لا يكفى تحرك النظام الاجتماعى نفسه تحركًا شكليًا بإنشاء مجلس قومى لحقوق الإنسان أو مجلس قومى للمرأة أو

إلغاء محاكم أمن الدولة العليا أو حتى إلغاء قانون الطوارئ والأحكام العرفية. فكلها تغيرات شكلية لتجميل النظام وليس لتغييره. جاء بقرار فوقى، أو باستجابة متأخرة لمطلب شعبى ومعارضة وطنية وتحت ضغط الظروف الخارجية. يحتاج الوطن العربى إلى خيال خصب لإيجاد نموذج عربى بديل لتغيير نظم الحكم فيه من الداخل يتحدى النموذج الأمريكى لتغيير نظام الحكم فى العراق من الخارج.

يستطيع المواطن العربى إن عزت الحركة وضمر الخيال أن يحتمى بالتاريخ مؤقتًا كما يحتمى السلفى بتراث الأقدمين. فقد سقطت بغداد عندما اجتاحها المغول وقضوا على الخلافة العباسية. كما سقطت القدس إبان الصليبيين ثم تم احتلالها فى الحرب العالمية الأولى وأخذها من الأتراك العثمانيين. وما زال المواطن العربى صامدا يقاوم فى التاريخ وإن عزت المقاومة اليوم. لا يعنى اللجوء إلى التاريخ هروبا إليه بل احتماء به كنوع من المقاومة، احتماء بالماضى من عواصف الزمن وتقلبات الحاضر. والتعلم من التاريخ يعطى ثقة بالنفس، ويبلور الوعى التاريخى العربى فى عصر تتصارع فيه القوى السياسية بدوافع تاريخية من عصر الأساطير والإمبراطوريات القديمة. النصر فى الملضى ثقة بالحاضر، وتجاوزًا لهزائمه. وما زال فى ذاكرة المواطن العربى قصص الأنبياء رصيدا لوعيه التاريخى وانتصارهم على الظلم والطغيان، موسى وفرعون، ومحمد وأشراف مكة. ومازال فى الوحى رصيد آخر لرفض اليأس ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والبشارة بالنصر ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

* * *

١٢- تهميش مصر

لمصر موقع مركزى عبر التاريخ منذ أحمس وطرد الهكسوس القادمين من فلسطين عبر سيناء حتى انتشار الإسلام بعد فتح مصر إلى ربوع المغرب العربى حتى الأندلس. وظهرت مركزية مصر المتحالفة مع الشام أثناء الحروب الصليبية على الشرق وتحرير القدس وطرد الصليبيين من ربوع بلاد المسلمين.

ثم حاولت مصر منذ القرن التاسع عشر فى عصر محمد على إحياء الخلافة الإسلامية ومركزها القاهرة بدلاً من الخلافة العثمانية ومركزها استانبول. وحولها محمد على إلى دولة عظمى تقف فى مواجهة القوى الكبرى، بريطانيا وفرنسا، والتى حاولت تقطيع أوصال الرجل المريض لابتلاعها قطعة قطعة. ومد محمد على حدود مصر إلى الشام وإلى شبه الجزيرة العربية وإلى السودان تقوية للمركز وتوسيعًا لرقعته. ثم تكالبت عليه الدول الاستعمارية الكبرى وهزمت الأسطول المصرى فى موقعة نوارين البحرية. ثم غزت بريطانيا مصر حتى تقضى على النهضة الجديدة فى الشرق بعد أن حاولت فرنسا قبل ذلك بقرن. فمن يستولى على مصر يستولى على قلب الشرق، وحلقة الاتصال بين الشرق والغرب.

وفى العصر الحديث كانت مصر ركيزة حركات التحرر الوطنى على مدى نصف قرن فى الوطن العربى وفى أفريقيا وفى العالم الإسلامى بل وفى أمريكا اللاتينية. كانت قلب دول عدم الانحياز منذ باندونج حتى بلجراد. تكوّن محوراً ثلاثيّا مع الهند ويوغسلافيا. كانت رمزاً لدول العالم الثالث المتحررة سياسيّا واقتصاديّا، تجمع القارات الثلاث. وبها مركز تضامن شعوب آسيا وأفريقيا. ومنذ نهاية الحرب

(*) جريدة الاتحاد: ٧ يونيو ٢٠٠٣م.

العالمية الثانية قامت على ضفاف النيل وفى مكان معسكرات الجيش الإنجليزى جامعة الدول العربية لتجميع الأقطار العربية فى منظمة إقليمية كبديل عن دولة الخلافة لتجميع المسلمين.

وكانت آخر مبادراتها التاريخية مع الحليفة سوريا حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م لتمحو عار هزيمة يونيو ١٩٦٧م، وبعد مرور ست سنوات تخللتها معركة رأس العش عام الهزيمة وحرب الاستنزاف ١٩٦٨-١٩٦٩م. فعرف العرب معنى النصر على العدو منذ ١٩٤٨م. وذاق العدو مرارة الهزيمة لأول مرة. وكما صرح أحد قادة إسرائيل: لو انتصرت إسرائيل عدة مرات فلن ينهزم العرب. ولو انتصر العرب مرة واحدة فتلك نهاية إسرائيل. وكانت هزيمة الإرادة العربية عندما أعلن أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب. فقد كانت بداية حروب جديدة، إسرائيل فيها هى المعتدية: غزو بيروت فى ١٩٨٢م، ضرب المفاعل النووى العراقى فى ١٩٨٤م، اغتيال أبى جهاد فى تونس أثناء الانتفاضة الأولى فى ١٩٨٧م، ثم اجتياح الأراضى الفلسطينية بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية، انتفاضة الأقصى فى ٢٠٠٠ م حتى قامت أمريكا بالتخلص من العراق واحتلاله فى ٢٠٠٣م، وإرعاب سوريا، وإرهاب إيران حتى تطمئن إسرائيل من انهيار الجبهة الشرقية كلها.

بدأت محاولات تهميش مصر منذ إخراجها من المعركة إثر حرب أكتوبر ١٩٧٣م، ووقف إطلاق النار، ومباحثات فصل القوات، وانسحاب الجيش المصرى من سيناء، وإعادتها لمصر منزوعة السلاح، وإدخال مصر فى عجلة الاقتصاد الغربى منذ صدور قوانين الاستثمار فى ١٩٧٥م، والقضاء على التنظيم السياسى الاشتراكى. وبعد الانتفاضة الشعبية فى مصر فى يناير ١٩٧٧ م ضد غلاء الأسعار هرع النظام إلى البحث عن حلفاء فى الخارج بعد أن فقد شرعيته فى الداخل. فأتت زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧م نفس العام، ثم اتفاقات كامب ديفيد فى ١٩٧٨م، ومعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٩م. وتم إخراج مصر من الصراع العربى الإسرائيلى بالفعل. فما زالت الضفة الغربية والجولان محتلتين بعد ثلاثين عامًا من حرب أكتوبر، وربما أربعين عامًا منذ هزيمة ١٩٦٧م.

وأثناء حرب أكتوبر كان الطيار الإسرئيلي عندما يفيق وهو في الأسر يسأل «هل مصر ما زالت تحارب؟» فيقال له نعم. فيغشى عليه ثانية. ولما عاتبت جولدا مائير هنري كيسنجر وزير خارجية أمريكا في ذلك الوقت بأنه لا يفعل لإسرائيل قدر ما يفعله لمصر وصديقه السادات وهو اليهودي أجاب: «أنت لا تدرين ياسيدتي مدى الخدمة التي أدّيتها لإسرائيل، لقد أخرجت مصر من المعركة!».

وقاطع العرب مصر بعد اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح. وانتقلت الجامعة العربية إلى تونس. نزع القلب من الجسد وبقيت الأطراف حتى عادت الأطراف الحزينة إلى القلب الكسير بعد أن استسلم العرب، ورضوا بالاعتراف بإسرائيل والصلح معها، وإنهاء حالة الحرب بينهما. ومع ذلك رفضت إسرائيل العرض، فهي ليست في حاجة إلى اعتراف أحد بها؛ إذ إنها موجودة بالفعل تسيطر على الأراضي المحتلة، وتعصى القرارات الدولية، وتهدد جيرانها بالعدوان. وماذا تجدي المبادرات العربية والأوروبية بل والأمريكية ما دامت تستجدي الانسحاب ولا توجد قوة وراءها لتدعيمها. وما زال الاستجداء قائمًا حتى خارطة الطريق.

واستمر العدوان الإسرائيلي على الوطن العربي في غياب مصر، غزو بيروت في ١٩٨٢م أول عاصمة عربية تدخلها قوات الغزو الإسرائيلي حتى بغداد في ٢٠٠٣م ثاني عاصمة عربية تحتلها قوات التحالف الأمريكي البريطاني. وعلى مدى عشرين عاما استباحت إسرائيل الوطن العربي، وصمتت أمريكا، وترددت أوروپا. وتكلمت مصر كلام العاجزين الذين لا حول لهم ولا قوة، بدعوى أنه لا مغامرة في مصائر الشعوب، ولا مساس بالأمن القومي، وأن الحرب نتائجها غير مضمونة. فمن الذي يعوض مصر في السلاح وقد انتهى عصر الاستقطاب؟ ومن الذي يموّل الصفقات بعد إفقار الخليج في حربين لا طائل وراءهما، حرب الخليج الأولى وحرب الخليج الثانية؟ ومن الذي سيجبر إسرائيل على الانسحاب من سيناء إذا احتلتها، وأكتوبر آخر الحروب؟ ومن الذي سيعمّر مصر ويحميها من أسلحة الدمار الشامل إذا ما قررت إسرائيل استخدام ترسانتها النووية؟

بل إن اكتفاء مصر بالتحالف مع السعودية وسوريا منذ إعلان دمشق للعب دور أكبر في الخليج بعد انسحاب القوات العراقية من الكويت لم يرض عنه الخليج،

ولم تقبله الولايات المتحدة الأمريكية. وطالبت إيران أن تكون جزءاً منه، فأمنها من أمن الخليج، والاكتفاء بدور المشجع للحوار بين الفصائل الفلسطينية واستضافتها في القاهرة، وتشجيع إسرائيل على الدخول في المشروع السياسي حقنًا للدماء واستضافة كل الفرقاء في شرم الشيخ، والحديث المتواصل مع الولايات المتحدة الأمريكية، والدفاع عن شرعية عرفات، كل ذلك لم يرجع مصر إلى مركزيتها التقليدية. بل إن دخول مصر وسوريا مع قوات التحالف الدولي لإجبار العراق على الانسحاب من الكويت عام ١٩٩١ م لم يرجعها إلى دورها المركزي بل أعطى قوات التحالف الدولي شرعية للتدخل بعد مؤتمر القاهرة في ١٩٩٠م. ولم تحصل مصر إلا على إسقاط بعض ديونها الخارجية. وهو ثمن بخس بالنسبة لمركزية مصر ومبادراتها التاريخية.

وحاولت قوى أخرى ملء هذا الفراغ الذي نتج عن تهميش مصر من دول الخليج مثل قطر صاحبة الصوت المسموع من قناتها الإعلامية الشهيرة أو من تحركات وزارة خارجيتها. كما حاول العراق بتمسكه بثوابت الأمة العربية في مقاومة الاستعمار والصهيونية ولكن متفرداً بالقرار ودخوله حربين بلا هدف ولا طائل. طعن الثورة الإسلامية في إيران في الظهر في ١٩٨٠م بإيعاز من الولايات المتحدة، والعدوان على الكويت بإيماء أيضًا من الولايات المتحدة. وخسر الحرب مرتين. وبدد موارد العرب المادية وأزهق الأرواح البريئة حتى اعتدت عليه القوات الأمريكية البريطانية للتخلص من قوة العراق مهما تعددت الذرائع، نزع أسلحة الدمار الشامل، القضاء على نظام الطغيان، والمقابر الجماعية، دفاعًا عن حرية الشعب، وديموقراطية الحكم. وربما كان الهدف هو الاستيلاء على نفط العراق، ومحاصرة الصين، وتهديد إيران، والقضاء على قوة عسكرية تخشاها إسرائيل.

أصبحت هناك فعاليات جديدة في الوطن العربي بدلاً من مصر، قطر في الخليج كوسيط، أو أمريكا مباشرة أو كوسيط لإسرائيل. فبعد اجتياح الضفة الغربية في ٢٠٠٠م أصبحت لإسرائيل اليد الطولى في الوطن العربي، تذبح وتغتال وتقصف وتجرف وتدمر والعرب على الحياد إلا بالاستغاثة والاستنجاد، والإهابة بالرأى العام العالمي وبالدول الكبرى، والاكتفاء بالإدانة وتبرئة الذمة وإراحة الضمير. ووقف العرب متفرجين على ما يحدث في فلسطين. ولا يدافع عن كرامتهم إلا

المقاومة الفلسطينية والعمليات الاستشهادية. وبعد احتلال العراق وتسليم بغداد وعجز العرب عن الدفاع عن الأوطان أزيحت مصر عن مركزيتها، وأصبحت الشقيقة الكبرى تعبر عن إجماعها الوطنى من خلال الإعلام والمظاهرات والبيانات وربما ببعض المتطوعين فى أيام القتال الأولى وبالمعونات الغذائية والطبية بعد انتهاء الحرب. وفى كلتا الحالتين أين أم الدنيا؟ أين مصر المحروسة؟

إن الغرب الأمريكى لن يرضى بديلاً عن استتباب العولمة، والقضاء على النتوءات فى العالم التى لم تستسلم بعد لقوانين السوق ومنها الوطن العربى والعالم الإسلامى، القطب الثانى المحتمل كى يقف فى مواجهة القطب الأول والأوحد. وطالما أن مصر تقوم بدورها المركزى من أجل تأسيس تجمع إقليمى عربى أو إسلامى مثل مجموعة الثمانى والعشرين من آسيا وأفريقيا، فإنها تظل معادية للعولمة التى لا تقبل إلا السوق الواحدة، سوق الدول الصناعية الثمانى. طالما يرن فى آذان المصريين «ارفع رأسك يا أخى» فلن يرضى عنها نظام القطب الواحد إلا بعد خفض الرأس بل وانحناء الظهر.

ما زال الغرب الاستعمارى الجديد يستنكف من تقارب مصر وتركيا حفاظًا على علاقة تركيا الخاصة بإسرائيل، وإكمالاً لحصار الطوق حول الوطن العربى. كما يمنع الغرب الاستعمارى أى تقارب بين مصر وإيران، وكلاهما مركز ثقل فى الوطن العربى وفى العالم الإسلامى حتى يظل التناقض قائمًا بين الثورة الإسلامية والقومية العربية، وحتى لا يكون للعرب ظهير عند المسلمين، ولا لأفريقيا حليف فى آسيا.

إن تهميش مصر هو المخطط الاستعمارى الصهيونى الجديد للقرن الواحد والعشرين. وهل يمكن تهميش مصر وقد كانت عبر التاريخ مركزًا لمحيط حولها؟ وتتوالى عليها دورات التاريخ، وأحقاب الزمان، فرعونية قبطية إسلامية عربية، والمركز واحد، والمحيط واحد. فهل تستطيع مصر أن تنهض من جديد فى «عودة الروح» الثانية بعد عودة الروح الأولى فى ثورة ١٩١٩م لتحمى العراق وتستقل فلسطين؟ وهل تستطيع مصر أن تستعيد بالذاكرة حافظ إبراهيم فى «مصر تتحدث عن نفسها»:

أنا تاج العلاء فى مفرق الشر ق ودراته فرائد عقدى

رابعًا: ما بعد العدوان

١ - أزمة المعارضة العراقية.

٢ - أزمة المعارضة العربية.

٣ - الهروب إلى الأمام.

٤ - ديموقراطية الاحتلال.

٥ - والمقاومة مستمرة.

٦ - توزيع الغنائم.

٧ - العصــا والجـــزرة.

٨- جروح الأوطان.

٩- معارك الألفـــاظ.

١٠ - بمناسبة الذكرى الأولى للاحتلال: هل تغير النظام في العراق؟

١١ ـ لا سنة ولا شيعة بل مقاومة وطنية.

١- أزمة المعارضة العراقية

المعارضة العراقية ليست وحدها فى أزمة بل إن أزمتها جزء من أزمة المعارضة العربية العامة التى هى نفسها جزء من أزمة الوجود العربى فى مرحلة تاريخية بعينها هى المرحلة الراهنة والوطن العربى فيها على مفترق الطرق بين العودة إلى الحلم المجهض فى الحرية والاشتراكية والوحدة أو الاستمرار فى إجهاض الحلم إلى الأبد نحو التسلط الخارجى والدخول فى اقتصاديات السوق، والفسيفساء الطائفى والعرقى والمذهبى والعشائرى حتى تبقى إسرائيل أكبر دولة طائفية عرقية فى المنطقة، تأخذ شرعية جديدة من الوضع الجغرافى السياسى المحلى بدلاً من أساطير المعاد وشعب الله المختار التى على أساسها صاغ هرتزل «الدولة اليهودية» على نموذج القرن التاسع عشر.

كانت المعارضة العراقية قبل الغزو الأمريكى نوعين: معارضة فى الداخل ومعارضة فى الخارج. المعارضة فى الداخل لم تكن موجودة تقريبًا، نظرًا لعيون النظام المنتشرة فى كل مكان، والتصفيات الجسدية والمقابر الجماعية وكما حدث لبعض المنشقين فى القيادة العراقية ولثورة الجنوب بعد انسحاب القوات العراقية من الكويت عام ١٩٩١م. ونشأ فى الداخل وبحساب شديد الخطاب المزدوج. الأول الخطاب العلنى المؤيد للنظام إلى حد التبرير والتصفيق والتهليل والمزايدة فى التعظيم والتفخيم والتأليه. والثانى الخطاب السرى، همس النفس، ووشوشة الصديق، وأحاديث غرف النوم والجماعات المغلقة الرافضة للنظام والناقمة عليه. وقد يشى الصديق بالصديق، ويوقع الأخ بأخيه لأخذ حظوة من النظام. بل إن «النكتة» لم

(*) جريدة الاتحاد: ٨ فبراير ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ١٧ مارس ٢٠٠٣م.

تطلق على الحاكم الظالم المتسلط فى العراق؛ لأنها تحتاج إلى نوع من الألفة بين الحاكم والمحكوم وهو ما لم يكن متوافراً فى العراق. ولما كان الحراك الاجتماعى الطبيعى لا يتم إلا من داخل المجتمعات، ونظراً لغياب المعارضة فى الداخل فقد استمر النظام فى العراق أكثر من ثلاثين عامًا مضت، وربما ثلاثين عامًا أخرى قادمة. فقد توقف المجتمع عن الحركة، واستتب الأمن للنظام.

وكانت المعارضة فى الخارج، بعد أن اضطرت إلى الهجرة، نوعين أيضًا: الأول: معارضة وطنية تعمل من أجل تحرر شعب العراق والقضاء على نظام التسلط والقهر، وترفض أى تعاون مع قوى الغرب الاستعمارى، أوروبية أو أمريكية، إذ لا يمكن استبدال سيد بسيد، والتخلص من قاهر داخلى لصالح محتل خارجى. فنقصها التمويل والإمكانيات. وماذا يستطيع القول والتجمع والخطاب وإعلان النوايا أمام نظام راسخ بقوة الجيش والشرطة والحرس الوطنى وميليشيات حزب البعث؟ وكيف يتم تغيير الواقع الاجتماعى السياسى داخل العراق عن بعد، آلاف الأميال بين بغداد ولندن؟

والثانى: معارضة متعاونة مع الحليف الغربى أو الأمريكى، تعتمد على الخارج لتغيير الداخل. لها تمويلها ودعمها المادى والمعنوى والإعلامى من الخارج. ومن حق المانح على الممنوح كامل التنسيق وتوحيد الأهداف. وهو خطأ تاريخى فالمعارضة الوطنية فى الخارج لا تعود إلى الداخل على أسنة الرماح وفوهات المدافع للقوى الغازية. لقد عاد الخمينى من النجف أولاً ومن باريس ثانيًا محمولاً على أعناق أنصاره بعد أن اندلعت الثورة فى إيران من الملايين فى الشوارع تنادى قادتها بالعودة. هكذا فعل لينين أيضًا بعد عودته من ألمانيا لقيادة ثورة الداخل فى روسيا عام ١٩١٧م. لم يكن للمعارضة العراقية فى الخارج المتعاونة مع القوى الغربية رصيد فى الداخل لا من حيث قنوات الاتصال الفعلى، ولا من حيث الحضور المعنوى. ولم يكن لها رصيد كبير فى الخارج نظراً لتفرقها وتشعبها وتحزبها واختلافها على اقتسام السلطة، والسلطة ما زالت بعيدة المنال، وعلى اقتسام الكعكة التى لم تطبخ بعد. كانت مستهجنة فى موقفها السياسى، وفى قبول دعمها

المالى من الخارج، وفى استعداء الأجنبى على الوطنى، وإعطاء الأولوية للتناقض الثانوى بين العراقى وأخيه العراقى على التناقض الرئيسى بين العراقى وعدوه الغربى الاستعمارى الصهيونى. بل إن الحليف الغربى كان أيضًا يتشكك فى قدراتها على التغيير وقلب النظام العراقى. فكان يعاونها بحذر، وكان مستعدا أن يتخلى عنها بمجرد أن يظهر له بديل أفضل فى الداخل من كبار قادة الجيش، وإغرائهم بالمال والعفو للانقلاب على النظام. وهو ما تم بالفعل قبيل تسليم بغداد.

كانت قوى المعارضة الرئيسية فى العراق، فى الداخل وفى الخارج، منقسمة إلى شيعة وأكراد وسنة باسم الطائفة أو العرق أكثر منها باسم المواطنة العراقية. صحيح أنهم كلهم ينتمون إلى العراق، ويدينون بالولاء للوطن الأم، ولكن الباعث على الحركة قد يكون المذهب أو العرق. وكانت هذه المذهبية والطائفية أحد أسباب تفرق المعارضة. لم يصهر النظام العراقى طوائفه ومذاهبه فى بوتقة الوطن. فقد اهتم النظام بتدعيم سلطته أكثر مما اهتم بوحدة التراب الوطنى ووحدة المواطنين. اكتفى بالسيطرة على المدن ومنابع النفط أمنيًا لا وطنيًا. وظهرت السلطة المركزية فى بغداد وكأنها سلطة احتلال للشمال وللجنوب. وغذى حصار عشر سنوات هذه الإقليمية وجعل الشمال والجنوب مناطق حظر جوى. لم يحاول توحيد الوطن فى لحظة الحظر دفاعًا عنه ضد مخاطر التجزئة. وأثر السيطرة على الوسط باسم المذهب والطائفة حتى ولو ضحى بالجنوب وبالشمال، وتكريت العشيرة وليست بغداد العاصمة. لم يتعلم الدرس من لبنان ومن الحرب الأهلية فيه التى دامت قرابة عشر سنوات نظرًا لقوة الطائفة والمذهب وضعف المواطنة بالرغم من جهاد الشيعة فى الجنوب وفى مقدمتهم حزب الله.

والأكراد على أنواع: الأول: كردى أولاً وعراقى ثانيًا. ينتظر تاريخيًا تأسيس دولته الكردية المستقلة بصرف النظر عن وحدة أراضى العراق وتركيا وإيران وسوريا. وإن كان العراق أثناء الحصار بعد غزوه للكويت ضعيفًا فإن تركيا وإيران وسوريا ليست كذلك. إنه أمل بعيد غير مستحيل، وإن كان يقوم على مفهوم الدولة القومية أحادية العرق كما كان الحال فى القرن التاسع عشر فى الغرب. وإن

نجح فى العراق المحاصر أولاً والمحتل ثانيًا فإنه قد لا ينجح فى تركيا وإيران وسوريا؛ لأنه يفتت الأوطان، ويساهم فى خلق الفسيفساء الطائفى والعرقى من أجل القضاء على الدولة الوطنية أو القومية العربية. ولا حرج فى حسن استقبال قوات الغزو الأمريكى من أجل إسقاط النظام العراقى الذى قذفهم بالنابالم فى «حلابجة». ولا حرج أيضًا فى نهب المدن من أجل امتلاكها والسيطرة عليها.

والثانى: عراقى أولاً وكردى ثانيًا. يرى مستقبله فى وحدة أراضى العراق وفى نظام فيدرالى يتمتع فيه الأكراد باستقلال ذاتى فى أمور اللغة والعادات والأعراف والتقاليد والمجالس المحلية والتسيير الذاتى. وهو قريب من النظام المللى فى الدولة العثمانية القريب من نظام الأمة المتعددة الأعراق فى الإسلام حيث لكل أمة، كردية أو إيرانية أو بربرية، حقها فى كيانها الذاتى داخل الأمة الإسلامية الواحدة التى تحمى الجميع، ويتعايش داخلها الجميع، جمعًا بين الوحدة والتنوع، وبين الهوية والاختلاف. الوحدة فى آية ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، والتنوع فى آية ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وآية ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. وهو ما يتفق مع الواقعية السياسية دون التخلى عن حلم الوحدة والاستقلال الذاتى للشعوب.

والشيعة عراقيون أولاً وشيعة ثانيًا. ولا يوجد من بينهم من يوالى الغرب أو أمريكا من ناحية أو إيران من ناحية أخرى. فمنهم خرجت معظم الحركات الوطنية. وعانوا من الظلم والاضطهاد. وسقط منهم الشهداء. وهم قادرون على تجنيد الجماهير وحشد الناس أكثر من أى قوة معارضة أخرى. لهم قادتهم الثوريون الذين يرفضون المساومة والحلول الوسط على حرية الشعوب واستقلال الأوطان. ونموذج الثورة الإسلامية فى إيران حاضر فى الأذهان. وثوراتهم فى التاريخ ما زالت فى الذاكرة الجمعية. نشئوا فى المعارضة منذ نشأة الإسلام الأولى حتى الثورة الإسلامية الأخيرة. والحسين ثائراً والحسين شهيداً يحرك وجدان الجماهير. وكما أن لعرب الأهواز ولاءهم لإيران فإن لشيعة الجنوب ولاءهم للعراق.

أما أهل السنة فى الوسط بين أكراد الشمال وشيعة الجنوب فقد كانوا لسوء الحظ

أهل السلطة ورجال السلطان. توحدوا بالدولة ثم وحدوا الدولة بالنظام. المعارضة فى صفوفهم قليلة أو ضعيفة. فلا يحركهم مذهب أو عرق وإن حركتهم بعض الدوافع العشائرية والقبلية. صورتهم فى الذهن أنهم أصحاب سلطة وجاه. وحدوا بين بغداد والعراق، وبين النظام السياسى والدولة. وأعطوا لأنفسهم حقًا تاريخيًا وشرعيًا لحكم كل العراق باسم السلطة المركزية فى بغداد. منهم العلماء الأجلاء، والمناضلون الوطنيون. وتتوافر فيهم حسن النوايا ونبل المقاصد لولا أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة.

إن الخطورة الآن على شعب العراق هى خطورة التجزئة إلى ثلاث دويلات أو أقاليم، كردية فى الشمال، وشيعية فى الجنوب، وسنة فى الوسط، وبالتالى يتم تمزيق العراق، الوطن الأم، وتضعف العراق بل وقد تتناحر الأقاليم الثلاثة على اقتسام السلطة كمقدمة لاقتسام الثروة كما يحدث الآن فى السودان، بين شماله وجنوبه. وقد بدأ ذلك فى الظهور أثناء الانتخابات الأخيرة للمجالس المحلية فى الشمال وتوزيع المواقع بين الطوائف، أكراد وتركمان وعرب، وليس بين العراقيين لاختيار أفضلهم وأقدرهم لكفاءته وليس لعرقه. وتفرح الطائفة إذا حصلت على عدد أكبر من المقاعد. وتحزن أخرى إذا ما حصلت على مواقع أقل. وتضمر الانشقاق إذا خرجت خاسرة من نتيجة الانتخابات، وكأن الوسيلة الوحيدة لخدمة شعب العراق وإحداث تغير اجتماعى فيه لا بد وأن يأتى عن طريق السلطة.

إن تطور الأحداث الأخيرة فى العراق، وبداية المقاومة الشعبية المسلحة لقوات الغزو، والتحول الجذرى فى صفوف المعارضة العراقية التى ظنت أن بتحالفها مع الغرب الأمريكى تستطيع إنقاذ شعب العراق من نظم التسلط ودخولها العراق منتصرة على أسنة الرماح وفوهات المدافع. إن عمل برنامج وطنى عراقى للإنقاذ تلتف حوله كل صفوف المعارضة فى الداخل والخارج لقادر على توحيد العراقيين دفاعًا عن الوطن الأم، وانصهار كل المعارضة الطائفية والمذهبية والعرقية داخل المقاومة الوطنية لطرد المحتل وإقامة نظام حر ديموقراطى فى العراق بأيدى العراقيين وليس بأيدى الغزاة.

* * *

٢- أزمة المعارضة العربية

إن أزمة المعارضة العراقية الخاصة هى جزء من أزمة المعارضة العربية العامة. فبعد نجاح حركات التحرر الوطنى التى كانت تقوم على جبهة وطنية عريضة من إسلاميين وقوميين وماركسيين وليبراليين، استأثر بالحكم فصيل واحد من القوميين أو الليبراليين، واستبعد جناحى المعارضة الرئيسيين، الإسلامية والماركسية، الإخوان والشيوعيون. ولم تستطع الفصائل المستبعدة من الدفاع عن حرية الفرد وديموقراطية الحكم أثناء عنفوان الدولة الوطنية وهى تنازع الاستعمار وتصارع الصهيونية فى الخارج، وتبنى الدولة فى الداخل، وتضع قواعد النظام الاشتراكى، وتقوم بأكبر خطط للتنمية والتصنيع. بل إن بعض هذه الفصائل غير الشرعية أصبحت جزءًا من النظام الحاكم ما دام يحقق مشروعًا قوميًّا، وبررت قراراته وتنازلت عن قضية الحرية والديموقراطية أو أجلتها؛ لأنه «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». ومع ذلك كان معظم الإخوان خارج الحكم صامدين فى الداخل أو عاملين فى الخارج. فى حين انضم معظم الشيوعيين داخل النظام، حلوا تنظيماتهم، وانتشروا فى الثقافة والإعلام والاقتصاد، وأصبح الزعيم يجسد بشخصه مصالح الشعب. يستمد سلطته من نفسه أولاً، ومن أجهزة الأمن ثانيًا، ومن تجسيده لمصالح الجماهير ثالثًا. لا يتعلق الأمر بمصر وحدها بل يمتد أيضًا إلى باقى أرجاء الوطن العربى. فمصر مجرد بوتقة ونموذج ومؤشر على ما يقع فى المحيط العربى.

وبعد هزيمة ١٩٦٧م أصبح النظام جريحًا على وشك الانهيار. وبدلا من أن يبدأ بانفراجة ديموقراطية إثر مظاهرات الطلاب فى ١٩٦٨م ضد الأحكام المخففة

(*) جريدة الاتحاد: ٢١ يونيو ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ٧ يونيو ٢٠٠٣م.

التى صدرت بحق قادة سلاح الطيران، صدر بيان ٣٠ مارس الذى يعترف فيه النظام بالقصور فى تحقيق حرية الفرد وديموقراطية الحكم. وظهرت فكرة المنابر التى تقر بالتعددية السياسية داخل الحزب الحاكم، الاتحاد الاشتراكى، لليمين واليسار والوسط أى للإخوان والشيوعيين والحزب الحاكم. وفى ١٩٧٦م تحولت المنابر إلى أحزاب مستقلة باسم النظام السياسى أو بحكم القانون. البعض منها ظل مستأنسًا، يعارض من داخل النظام، بتأييده وبتمويل جريدته. والبعض من خارج النظام الذى سرعان ما اصطدم به وقضى عليه؛ لأنه خرج على قواعد اللعبة المحسوبة لتجميل النظام وإعطاء واجهة ديموقراطية لنظام تسلطى.

وكلما اتجه النظام يمينًا فى الجمهورية الثانية (١٩٧٠-١٩٨١م) وزادت خطورة اليسار بعد مظاهرات يناير ١٩٧٧م بدأت إزاحة اليسار من الإعلام ومن المؤسسات اعتمادًا على اليمين، وبينهما ثأر تقليدى منذ الأربعينيات. فكلاهما يسعى للتقرب من النظام كى يستولى عليه من الداخل أو يقضى عليه كسلطة بديلة. وتمت تصفية اليسار تدريجيًا لصالح اليمين. ولما انحاز النظام إلى الغرب الأمريكى، وأصبح تابعًا للولايات المتحدة الأمريكية، وصالح إسرائيل منذ اتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٨م، وعقد معها معاهدة سلام فى ١٩٧٩م، انقلب اليمين على النظام وأنهى الجمهورية الثانية باغتيال رئيسها. واستمر خطر اليمين فى الجمهورية الثالثة، وأطلق النظام العنان للتنوير الحكومى كى يستمر فى درء أخطار اليمين الدينى عن الدولة والمجتمع فى توازن محسوب، وواجهة ديموقراطية. وبعد أن تحول اليمين الدينى إلى جماعات سرية مسلحة لقلب نظام الحكم جاهد النظام فى استئصالها. وفى نفس الوقت لم يعترف بالتنظيمات الدينية الشرعية التى تقبل التعددية السياسية والاحتكام إلى صناديق الاقتراع. فالإخوان والشيوعيون والليبراليون والناصريون ما زالوا يمثلون الاتجاهات الرئيسية فى الشارع العربى، وقادرون على الاستيلاء على الحكم والوصول إلى السلطة فى حالة انتخابات حرة يخسر فيها الحزب الحاكم الذى لا يمثل أحدًا إلا رجال الأعمال الذين أثروا فى الجمهورتين، الثانية باسم الانفتاح الاقتصادى، والثالثة باسم الخصخصة والعولمة وقوانين السوق.

أزمة المعارضة العربية إذن هى فى علاقتها بنظم الحكم أولاً. إذا عملت فى إطار الشرعية ابتلعها النظام، وأصبحت جزءاً فيه، تتحمل أخطاءه، وتجمّل واجهته. وإذا عملت فى إطار اللاشرعية أصبحت خارجة على القانون، تدبر المؤامرات لقلب نظام الحكم، وتقوم بالاغتيالات، وتستعمل السلاح، وتمارس العنف. وفى كلتا الحالتين عينها على السلطة والوصول إلى الحكم طبقًا للقول المأثور «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». فانعزلت عن الشعب. وظلت أحزابا نخبوية، أحزاب أقلية، لا تنزل إلى الشارع إلا بأمر وزارة الداخلية، إذا سمحت نزلت، وإذا لم تسمح بقيت فى مراكزها، شقق فى وسط المدينة، تحاصرها قوات الأمن فى مداخلها وعلى نواصى الطرقات. وتتجسس على ما يجرى داخلها بأجهزة التنصت الحديثة. وفى الانتخابات غير المتكافئة بين أحزاب المعارضة والحزب الحاكم وعبر النتائج المزورة لا تدخل من أحزاب المعارضة فى الحكم إلا النسبة التى يسمح بها النظام، قلت أو كثرت فإنها لا تزيد على ٥ ٪ حتى تظل الأغلبية المطلقة للحزب الحاكم. له رئاسة كل اللجان البرلمانية، وله حق الصدارة فى أجهزة الإعلام، وله الصحافة القومية التى تمثل الدولة. وفتاتها يذهب إلى صحف المعارضة التى تصدرها الدولة أيضًا بالدين، وبالرغم من الدعم. يخفت صوت الحزب المعارض، ويعلو صوت جريدته. حتى أنه قيل: الحزب لا يصدر جريدة بل الجريدة تصدر حزبا!!

لذلك أصبح البحث عن أشكال جديدة للمعارضة ضروريًا. تتعلم من خبراتها السابقة التى أدت إلى ضعفها وعدم تأثيرها.

أولها أن تكون مستقلة عن نظام الحكم دون أن تقطع معها، أن يكون لها مقوماتها الذاتية، وتفكيرها المستقل، وبرامجها السياسية والاجتماعية القائمة على مصالح الناس، والغالبية العظمى. وفى نفس الوقت لا تخرج على النظام بالسلاح، ولا تنزل تحت الأرض، ولا تهاجر خارج الأوطان. وتقيم حواراً مع النظام، حواراً علنيّا أمام الناس وعلى أرض الواقع دون الدخول فى جدل أيديولوجى عقيم. فلا يهم أن تحرر فلسطين باسم الحاكمية لله كالإسلاميين، أو الحاكمية للشعب كالليبراليين، أو لأن فلسطين جزء من الوطن العربى كما يريد

القوميون، أو لأن عمال فلسطين وفلاحيها محرومون من الدخول فى الهستدروت والموشاف كما يريد الماركسيون. المهم أن تتحرر فلسطين كهدف مشترك بصرف النظر عن الأطر النظرية. وتغيير الواقع بوصة واحدة خير من عشرات النظريات فى التغيير. لذلك كان التحدى باستمرار لأحزاب المعارضة، كلام كثير وفعل قليل كما قال محمد عبده من قبل «ما أكثر القول، وأقل العمل»، وكما نقد القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]. لا يشعر الناس لا بالحزب الحاكم ولا بأحزاب المعارضة بل يشعر بنقائصهم. فالقمع والفساد والإهمال والمنفعة الشخصية والشللية والانتهازية صور للحزب الحاكم فى أذهان الناس. والعجز والكلام الكثير الصعب على الفهم وأيضًا الشللية والانتهازية والخلافات الحزبية صور للمعارضة فى وعى الجماهير. وتتحسن الصورة عندما تهرع المعارضة وتظهر فى الشارع فى الأزمات كالزلازل والحرائق وتصدع المنازل، وغرق الشوارع بمياه الصرف، وحوادث الطرقات، وتصادم القطارات، وانهيار المنازل.

وثانيها نزع جذور التسلط والقمع من الثقافة العربية التى أصبحت تعبيرًا حيًا عن موروث قديم أبدعه فقهاء السلطان تدعيمًا للنظام الأموى أولا نسبة إلى بنى أمية حتى تحول إلى نظام أبوى «بطريركى» ثابت ودائم عبر التاريخ. ومن هذه الجذور التصور الهرمى للعالم الذى يحدد تصور الناس، ويضع معايير السلوك. وهو الذى يؤيد فيهم الأعلى والأدنى وما بينهما من درجات بين الكمال المطلق والنقص المطلق. ويتمثل الكمال المطلق فى كامل الأوصاف كما يقول الفارابى، سواء قلت الله أو النبى أو الرئيس أو الإمام فإننى أعنى نفس الشىء. فهل يمكن تحويل العلاقة الرأسية بين الأعلى والأدنى إلى علاقة أفقية بين الأمام والخلف فيصبح الأعلى أمامنا، والأدنى خلفنا حتى نساهم فى قضايا التقدم والتخلف ونصبح جزءًا من الحراك الاجتماعى؟

وفى نظم المعارف جعلنا العقل مجرد مبرر ومنظر للحقائق المعطاة سلفًا عن طريق الوحى أو الإلهام. فغاب العقل النقدى التحليلى. فهل يمكن التحول من

العقل المبرر إلى العقل الناقد؟ ولا فرق بين تبرير النظام الإلهى وتبرير النظام الإنسانى. فعمل العقل واحد فى كلا النظامين. وأصبح الغرب يزهو علينا بأنه صاحب العقل الناقد، وأنه هو الذى صاغ المنهج النقدى، ووضع الفلسفة النقدية بالرغم من توافر النقد لدينا فى علم الحديث.

وفى أنساق العقائد استقرت عقيدة القضاء والقدر كموروث شعبى أدى إلى الاستكانة واللامبالاة والفتور كما سماه الكواكبى فى أم القرى. وتحولت إلى أمثال عامية وأقوال مأثورة من القدماء مثل «لا يغنى حذر من قدر» ، «المكتوب مامنوش مهروب» ، « العين صابتنى ورب العرش نجانى» ، « المتعوس متعوس ولو علقوا على راسه فانوس» ، « يا منحوس غير رزقك ما تحوش» . فقد الناس زمام المبادرة، وضاعت منهم أولوية الفعل والحركة. واستسلموا للمقادير، واستكانوا للذل. وتغلغلت فى ثقافتهم الشعبية القيم السلبية الموروثة من التصوف مثل الصبر والتوكل والرضا والخوف والخشية. فهل يمكن تحويل هذه القيم السلبية إلى أخرى إيجابية مثل الثورة والغضب والتمرد والاعتراض والرفض والمقاومة؟

من الصعب قيام معارضة شعبية بثقافة السلطة، وإلا تحولت إلى سلطة بديلة تقوم على القمع بعد أن كانت سلطة نقيضة تهدف إلى الحرية. ومن ثم لزم أولاً معارضة ثقافة السلطة بثقافة المعارضة، ثقافة القمع بثقافة التحرر، ثقافة السلطان بثقافة الجماهير. وهذا عمل المثقفين الشعبيين والمفكرين الوطنيين القادرين على إعادة بناء الموروث الثقافى وتأسيسه على الجانب الآخر المهمش والذى طواه النسيان، ثقافة المعارضة، ثقافة المعتزلة وابن رشد والشيعة والخوارج والحلاج وفقهاء الأمة كابن حزم والعز بن عبد السلام.

وثالثها تقوية المؤسسات الثقافية والعلمية القائمة كالجامعات ومراكز الأبحاث من أجل إدخالها فى مشروع إعادة بناء الوطن بالدخول فى قلبه بدلاً من أجهزة الأمن من أجل تأسيس مجتمع علمى ونظام سياسى رشيد. فالجامعة هى المكان الطبيعى الذى يحمل فيه الأستاذ والطالب هموم الفكر والوطن. ونفس الشىء

بالنسبة لتقوية مؤسسات المجتمع المدنى، الجمعيات الثقافية والعلمية والأدبية والاتحادات والنقابات والروابط باعتبارها منابر شعبية تتجاوز المطالب المهنية الفئوية إلى المصالح الوطنية العامة. ولماذا استبعاد المساجد أيضًا في خطبها ودروسها وهى منابر قائمة ومفتوحة، لها جماهيرها وثقافتها ودعاتها؟ المهم تثوير الثقافة وإعادة بناء الموروث. وإمام ثائر خير من آلاف الموظفين الأيديولوچيين فى أحزاب الحكم أو المعارضة.

* * *

٣- الهروب إلى الأمام

إن أسوأ شيء فى حياة الأمم هو التوقف فى المكان، وعدم القدرة على التحرك فى كافة الاتجاهات. فالزمان يتحرك، والتاريخ يسير، وإن توقفت الأمم ظلت خارج الزمان والتاريخ فاندثرت وطواها النسيان إلا من آثار المتاحف وبقايا الأطلال.

ولما كان مسار الزمن والتاريخ إلى الأمام طبقًا لقانون التقدم فإن تحرك الأمم إلى الخلف يكون ضد قانون التاريخ. والتاريخ لا يعود إلى الوراء. فكل تحرك نحو المحافظة والتشدد والحرفية والتسلط والقمع لا يؤدى إلا إلى مزيد من الكبت حتى يأتى وقت الانفجار. فالتراكم الكمى يؤدى إلى تغير كيفى كما هو معروف فى قوانين الجدل التاريخى. وإن طال الانتظار تيأس الأمة، وتكفر بنفسها قبل أن تكفر بغيرها فتأسن وتتعفن كالمياه الراكدة ثم تتحلل وتموت.

والتحرك إلى أعلى يوقع فى مزيد من الدعوات الدينية وطلب الخلاص من الله واستدعاء إرادته لتدمر عاداً وثمود وفرعون وذوى الأخدود. والله لم يعد يتدخل فى التاريخ، ولا يرسل أنبياء يقومون بالمعجزات عند المعتزلة وابن رشد. فبعد خاتم الرسالات أصبح الإنسان قادراً بعقله المستقل أن يفهم ويحلل ويدرك أسباب قيام الدول وعوامل سقوطها. وأصبح قادرا بإرادته على التحكم فى قوانين التاريخ وحركات الشعوب. وتتكاثر الطرق الصوفية، وتزداد المواجيد والابتهالات لعل الله يفرج الكرب، ويزيح الهم. وهو ما يفسر زيادة التوجه نحو الدين والإيمان بعد هزيمة يونيو – حزيران ١٩٦٧م وحتى الآن، طالما عجز القادة والشعوب عن تغيير الواقع، وتجاوز التوقف فى المكان.

(*) جريدة الاتحاد: ٢٨ يونيو ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ١٩ يونيو ٢٠٠٣م.

والتحرك إلى أسفل يؤدى إلى الحركات السرية لقلب نظم الحكم عندما يحين الموعد، وتنام أعين الرقباء، ويغلى القدر حتى يزاح الغطاء بقوة الدفع من أسفل. فلا يمكن إيقاف مسار الزمن وحركة التاريخ. وقد تكون الهجرة إلى الخارج هربًا من ضغط الداخل. فلم يبق إلا إنقاذ النفس إن استحال إنقاذ العالم. وكلاهما عزلة، عزلة تحت الأرض، وعزلة خارج الأرض. وإن صعبت الهجرتان لم يبق إلا الانغماس فى الدنيا، والسعى إلى الرزق، فى مجتمع الحرام فيه ميسور أكثر من الحلال. ويتحول المواطن إلى رجل أعمال، متدين سابق أو مهاجر عائد أو عضو فى حزب حاكم أو ابن رئيس أو وزير أو مدير مصرف، أو نائب من نواب القروض وأصحاب الفيلات فى الساحل الشمالى، أو على شاطئ البحر الأحمر أو فى قصور الأحياء الجديدة.

فما العمل إذا ما بقى النظام العربى محاصراً بين المطرقة والسندان، انسداد فى الخارج من ضغط النظام العالمى الجديد، وانفراد القوة الوحيدة فى العالم به دون مراعاة لشرعية دولية أو لمواثيق الأمم المتحدة ومنظماتها، وانسداد فى الداخل بالحركة فى المكان، وإحساس بعجز القادة وإحباط الجماهير؟

إذا ما استحال أمام الأمم والشعوب العودة إلى الوراء أو الاتجاه إلى أعلى نظرا للقهر الداخلى والحصار الخارجى أو التوجه إلى أسفل فالعيون فى كل مكان، لم يبق إلا الهروب إلى الأمام، والإسراع فى عمليات التحول الديموقراطى. وهو الطريق الطبيعى بدلاً من أن يستمر القدر فى الغليان حتى يُزاح الغطاء أو ينفجر القدر. وبالتالى يمكن اللحاق بالزمن الضائع، والإسراع فى مسار التاريخ.

والكل يعرف بل ويتندر على الرئيس مدى الحياة. بل وتغير دساتير البلاد من أجل أن يصبح كذلك بدلاً من دورتين، تصبحان ثلاثًا أو أربعًا قبل أن تترك مفتوحة إلى ما لا نهاية. بل وتمتد الدورات إلى الأبناء من بعده، لا فرق بين جمهورية وملكية، لا فرق بين الجيش وقريش. وهو ضد مبدأ تداول السلطة. فأقصى حد دورتان حتى يفسح المجال لاجتهادات أخرى وحتى لا يتم تأليه الرئيس وتحويله إلى معلّم ومخلّص ومرشد وقائد وزعيم وإمام. فهو واحد مثل الله، لا شريك له.

وديجول بطل المقاومة ورمز التحرير فى فرنسا غادر الحكم احترامًا لتصويت الشعب. وسوار الذهب فى السودان قائد الانتفاضة الشعبية فى ١٩٨٦م ترك الرئاسة لغيره طواعية. الدوام صفة الله وحده، سبحان من له الدوام. والخلود يتفرد به الله وحده ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[القصص: ٨٨]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. فالرئيس مدى الحياة يشارك الله فى صفة الخلود، وإن توفاه الله بقيت تماثيله فى الميادين العامة، وصوره على الحوائط حتى يمحوها الدهر أو يزيحها فرعون آخر.

وتتجلى الرئاسة فى مظاهرها التى تؤثر فى الناس سلبًا وتصبح معادية لها. فالناس بطبيعتهم يعلمون أن «كلكم لآدم وآدم من تراب» وكما يبدو ذلك فى عديد من الحكم والأمثال العامية. صور الرئيس معلقة فى كل مكان، فى دور الحكومة ومبانى الدولة أولاً وكأنها قطاع خاص له. والتصوير بغاية التأليه لا يجوز شرعًا. وإن كان لا بد من تزيين الحجرات فما أفضل من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية المختارة جيداً وبعناية، والموجهة ضد عيوب المجتمع وسلوك الناس مثل آيات وأحاديث العمل ضد الكسل، والإتقان ضد الإهمال، والأمانة ضد الرشوة، وحسن التحية بدلاً من الفظاظة فى استقبال الناس.

كما تُطبع صور الرؤساء على الأوراق المالية، وطوابع البريد، وبطاقات المعايدة مثل صور النجوم وعلى الأرصفة فى الشوارع لدى أنصاف الفنانين بجوار الكتب الدينية التقليدية بما فى ذلك «رجوع الشيخ إلى صباه»، وتتصدر أخبارهم نشرات الأخبار الدولية والمحلية. وتقطع الطرقات وتسد الكبارى، وتغلق الميادين وقت مرورهم. فتعطل مصالح الناس، ويهدر الوقت الوطنى، وتضيع الأرزاق. ويكفر الناس بالرئاسة والرؤساء. وفى الاجتماعات العامة، التصفيق والهتاف لكبير العائلة الذى يعطى المنح فى الأعياد، ويهب المكافآت فى المناسبات. ويمنح الشهادات فى عيد العلم والإعلاميين، ويلقى الكلمات فى الأعياد الوطنية والمناسبات الدينية. فهو الإمام فى الدنيا والدين.

وتصل إليه الشكاوى، وتتوجه إليه النداءات، لنصرة المظلوم، وعلاج المريض،

وإيجاد المأوى. كل شىء يتم لتحقيق المصالح العامة فقد تم بتوجيه من الرئيس. وكل حركة تنشأ فى المجتمع إنما تتم تحت عناية الرئيس أو حرمه مما دفع بعض المفكرين السياسيين يومًا إلى كتابة «الوضع الدستورى لحرم السيد الرئيس». تنظف الشوارع وتطلى علامات المرور إذا مر، وتوضع الزهور وقصارى الزرع فى مداخل المؤسسات إذا ما زار، وترفع إذا غادر. ولا فرق بين محافظة وجامعة، بين مؤسسة وحزب. وإذا سار تتقدمه الموتوسيكلات والعربات المصفحة وسيارات الإسعاف لعله يصاب بسوء من الأشرار. هو الأول والآخر، والظاهر والباطن تشبهًا بالله. وهو الذى يعاقب ويعفو، يدين ويبرئ قبل القضاء وبعده. هو رئيس الدولة وقائد الجيش ورئيس الحزب الحاكم. وهو الذى يحدد السياسات الداخلية والخارجية، اشتراكية أو رأسمالية، حربًا أو سلامًا، مقاومة أو إرهابًا، قطرية أم عروبة، شرقًا أم غربًا، صديقًا أم عدوًا. وقد تُضحى بالمصالح العليا للبلاد من أجل خلاف على زعامة أو خوف على مقعد أو انتقام من محاولة اعتداء فاشل.

وحوله تنشأ بطانة السلطان. تزين له أعماله، وتبرر قراراته إن قاوم فلا صلح ولا مفاوضة ولا اعتراف بإسرائيل، والتبرير جاهز ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وإن سالم ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا** ﴾ [الأنفال: ٦١]. فإن أخذ موقف الحياد أثناء الحرب الباردة ذكر ﴿ **لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ** ﴾[النور: ٣٥]. وإن أراد التبعية للغرب والانفتاح الاقتصادى ذكر ﴿ **وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا** ﴾ [التوبة: ٢٤] و﴿ **تِجَارَةً لَّن تَبُورَ** ﴾ [فاطر: ٢٩]. ولا ضير من الربح فى القرآن ولا الغنى فقد كان بعض الصحابة من التجار والأغنياء.

يتطلب الهروب إلى الأمام تجاوز حكم الفرد المطلق الذى يخاطر بالأوطان، ويدخل فى حروب لا طائل منها على شاطئى الخليج، وترك الجبهة الفعلية فى فلسطين. فأسوأ شىء فى الحكم التفرد بالقرار. ولا ينفع مستشارون معينون. ولا خاب من استشار، بحيث لا يهاب المستشار السلطان، ويقول الحق، و«**الساكت عن الحق شيطان أخرس**».

ولا احتكار للحق. فالكل راد والكل مردود عليه. وحق الاختلاف حق شرعى. ومن ثم فالتعددية السياسية أمر طبيعى. ولا يمكن توحيد قلوب الناس ولا مشاربهم ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة: ٤٨]، ولكن يمكن الاتفاق على العمل الصالح، وهو بلغة السياسة برنامج عمل وطنى موحد تتفق عليه جميع القوى الوطنية من أجل إنقاذ الوطن. وتبقى الأطر النظرية متعددة. فالحق النظرى متعدد، والحق العملى واحد كما قال الفقهاء.

واستقلال المؤسسات خطوة ضرورية للخروج من المأزق الراهن، التحرك فى المكان. وهى المؤسسات السياسية والجامعية والقضائية والإعلامية. عمل المؤسسات هو الدفاع عن المصالح الثابتة للشعوب وليس أهواء الحكّام وأمزجتهم. فالمجالس النيابية نتيجة للانتخابات الحرة تعبر عن مصالح الناس. وليس الحزب الحاكم الذى يستأثر بجل المقاعد، ومعظم رئاسات اللجان. كما أن الرئيس باعتباره ممثلاً للسلطة التنفيذية لا شأن له بالأحزاب السياسية، ولا يترأس الحزب الحاكم، ولا يقود الانتخابات، ولا تُسخر أجهزة الإعلام للدعوة له، والمغنّيين والمغنيات للغناء له والشدو بمآثره. والمؤسسات القضائية أيضًا لها استقلالها بعيداً عن ضغوط السلطان ومصالح الحزب الحاكم، والمؤسسات الجامعية تحفظها الحريات الأكاديمية، ومسئولية الفكر والوطن. والاتحادات والنقابات وجميع مؤسسات المجتمع المدنى منابر حرة يتم من خلالها التعبير عن آراء الناس ومواقف الجمهور. ولا يجوز تكبيلها بقوانين تقيد حرياتها وتمنع من حركتها وتهددها بالحل إذا ما أغضبت السلطان ونقدت سياساته. هذا الغطاء لمسرح البالون ينزاح أولاً حتى يتبدد الظلام، ويهرب الممثلون، ويعود الناس إلى الفضاء الفسيح، ويسعون فى العالم أحرارا كما ولدتهم أمهاتهم.

* * *

٤- ديموقراطية الاحتلال

لا أحد ينكر أن من مظاهر أزمتنا العربية الراهنة غياب الحرية والديموقراطية خاصة فى النصف الثانى من القرن الماضى، عصر الثورات العربية التى قادها الضباط الأحرار. وما زالت مستمرة حتى الآن. وأصبحت لها الآن الأولوية على باقى الأزمات بعد أن تم تأجيلها إلى ما بعد التحرر من الاستعمار والصهيونية أولاً وبناء الدولة ثانيًا. وكانت النتيجة أن عاد الاستعمار الاستيطانى من جديد فى العراق بالإضافة إلى فلسطين، وتحولت الدولة إلى دولة قاهرة فى الداخل، وتابعة فى الخارج. وأصبح العرب فى حاجة إلى حركة تحرر عربى ثانية فى الخارج والداخل معًا، ضد الاستعمار والصهيونية فى الخارج، والاستبداد والتبعية فى الداخل. ويتم ذلك بفعل الشعوب، والحركات التقدمية العربية بشتى فصائلها الإسلامية والقومية والليبرالية والماركسية فى جبهة وطنية واحدة تقوم على إعداد برنامج موحد للإنقاذ الوطنى يتأسس على تعددية نظرية، وكما قال الفقهاء قديمًا: «الحق النظرى متعدد، والحق العملى واحد».

والسؤال هو: هل تقوم هذه الديموقراطية على أسنة الرماح وفوهات المدافع وأزيز الطائرات وهدير الدبابات وقصف المدافع عن طريق الغزو العسكرى الخارجى المباشر بدعوى كاذبة، هى امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل، وإسرائيل تملكها أيضًا ، وكوريا تتحدى بها، وبدعوى ثانية القضاء على النظام الاستبدادى فى العراق، وطالما أيدت أمريكا نظم القهر والاستبداد لدى كل شعوب العالم الثالث فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية طالما أنها تخدم مصالحها. فإذا ما

(*) جريدة الاتحاد: ٢٣ أغسطس ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: أغسطس ٢٠٠٣م.

تعارضت المصالح انقلبت أمريكا على هذه النظم، وأصبح حليف الأمس عدو اليوم. وتخرج لها ملفات خرق حقوق الإنسان والمرأة والأقليات ومظاهر الفساد والاستبداد حتى تعود هذه النظم إلى بيت الطاعة من جديد؟

لقد بدأت ديموقراطية الاحتلال بحل الجيش وهو عصب الدولة فى الدول التاريخية مثل مصر والمغرب والشام، وهى الدول المركزية فى المنطقة العربية مثل الصين فى آسيا، وتسريح جنوده وإهانتهم فى أرزاقهم، وجعلهم عاطلين عن العمل وكأنهم مرتزقة يعملون بالأجر عند من يجندهم وليسوا جنودا يدافعون عن الوطن. وكرامة الدولة من كرامة الجيش. وطالما كان هدف الكيان الإسرائيلى النيل من كرامة الجيوش العربية خاصة جيش مصر فى هزائم العرب المتكررة فى١٩٤٨م ثم فى ١٩٥٦م ثم فى يونيو - حزيران ١٩٦٧م للنيل من الكرامة العربية. والانسحاب العسكرى مقدمة للانسحاب السياسى.

وبعد حل الجيش عصب الدولة يأتى حل الحزب وهو قوام الحياة السياسية فى نظم تعتمد على الحزب الواحد، حزب البعث العربى الذى قاد النضال الوطنى إبان حركة التحرر العربى الأولى، وعمل على تحقيق مبادئه فى الحرية والاشتراكية والوحدة فى العهد الناصرى. صحيح أن الحزب الحاكم يدافع عن النظام حتى ولو ضحى بالديموقراطية والتعددية السياسية واستأثر بالحكم دون تداول السلطة. وقد يزيف الانتخابات ويجعلها مائة فى المائة لصالح النظام أو أقل من ذلك بقليل. وصحيح أيضًا أن ميليشياته جزء من النظام، مهمتها السيطرة على الشعب باسم الشعب دون تدخل الشرطة والجيش إلا إذا عجز عن أداء وظيفته فى حالة الثورة الشعبية العارمة. إلا أن الحزب هو قوام الحياة السياسية المدنية كما أن الجيش هو قوام الحياة السياسية العسكرية. وحل الحزب يعنى القضاء على المؤسسة الرئيسية فى المجتمع المدنى بل وبنية المجتمع ذاته مثل حزب البعث فى سوريا والعراق، وحزب جبهة التحرير الوطنى فى الجزائر، والأحزاب الإسلامية فى لبنان واليمن والمغرب.

وبعد حل الجيش والحزب يتم إلغاء الدستور وهو على الأقل ما يربط الوطن بالمواطنين، وينظم الحقوق والواجبات، ويحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم

فتصبح الدولة بلا أساس، والمجتمع بلا قانون. ويضع خبراء القانون مع سلطات الاحتلال دستوراً جديداً للبلاد ويحقق أهداف الاحتلال، حماية للكيان الصهيونى من الشرق، ونزح العراق خارج الوطن العربى، ووضع سوريا بين المطرقة والسندان، احتلال العراق شرقها، والكيان الصهيونى غربها. والدستور فى الغرب هو عصب الدولة وأساس الشرعية، وأداة التواصل فى النظام السياسى مهما تغيرت النظم السياسية.

ومع حل الجيش والحزب وإلغاء الدستور يأتى تغيير نظم التعليم من أجل إعداد جيل جديد من العراقيين يؤمن بأهداف الاحتلال، السوق والتجارة والمال والثراء والاستهلاك ومتع الحياة. فينسى نضاله الوطنى وينقطع عن تاريخه كما انقطعت أمريكا نفسها عن تاريخها، وانقلبت على مبادئها لدى الآباء المؤسسين فى إعلان الاستقلال والدستور والتى تعبر عن مبادئ الثورة الفرنسية فى الحرية والإخاء والمساواة، وتحولت من إلغاء رق الأفراد فى الحرب الأهلية بقيادة لنكولن إلى رق الشعوب بفضل المسيحية الصهيونية بقيادة بوش. وترسل أمريكا خبراء التعليم فى الوطن العربى خاصة فى الخليج والعراق لإعداد جيل جديد يؤمن بالنظام الأمريكى ويتخلى عن مناهج النضال والمقاومة. فتخصص المعونات المالية والعلمية لذلك فى برامج لتحديث المجتمعات العربية.

أصبح الاحتلال الأمريكى الجديد بديلاً عن الاستبداد الداخلى القديم، يقوم بنفس وظائفه واستعمال أدواته. يسكن الحاكم العام فى نفس القصور الرئاسية، وتحتل قوات الغزو نفس أماكن السيطرة فى جهاز الدولة، الجيش والشرطة والحزب والوزارات والهيئات العامة. وكما يُجرّد العراق من حاضره يجرد أيضًا من ماضيه بنهب المتاحف. ويقضى على مستقبله بسلب الجامعات ومراكز البحث العلمى ودور الحكمة حتى يصبح العراق بلا هوية، مجرد فضاء فارغ لقوى الهيمنة الجديدة. ويبحث اليهود العراقيون الذين هاجروا إلى فلسطين بعد إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م عن ممتلكاتهم وأموالهم فى العراق دون أن يكون للفلسطينيين الذين اضطروا إلى الفرار من مذابح العصابات الصهيونية نفس الحق فى العودة إلى الوطن واسترداد الممتلكات والأموال.

ويعيّن الاحتلال مجلسًا تشريعيًا على أساس طائفى حتى يقع النزاع بين السنة والشيعة والأكراد والتركمان، وتبقى قوات الاحتلال الحارس الأمين على المجلس، وللحاكم الأمريكى العام حق النقض. وتقتضى الديموقراطية انتخاب مجلس انتخابا حرا من الشعب ولا يعترض أحد على قراراته باعتباره مجسدا لإرادة الشعب ولمصالحه العامة.

ويتم الاستحواذ على ثروات العراق، والتحكم فيها وتحصيل أمواله بدعوى الإعمار وتوزيع العقود على الشركات الأمريكية لإنعاش الاقتصاد الأمريكى، والبعض منها على دول قوات التحالف التى ساهمت فى الغزو المباشر، أو التى أيدته معنويا، مكافأة على العون القديم وإغراء على التعاون الجديد من أجل تحميلها جزءا من المسئولية بإراقة دم مواطنيها بديلا عن إراقة الدم الأمريكى بفعل المقاومة. والشعب العراقى نفسه، الجيش، والشرطة والموظفون محرومون من مرتباتهم ومن ثروة الشعب الوطنية.

ثم تتوجه ديموقراطية الاحتلال إلى الشعب ذاته، تدمر بيوته، وتقتل السكان، وتقيد الرجال وأيديهم خلف ظهورهم بالوثاق، وتطرحهم أرضًا، وجوههم إلى الأرض وقدم الجندى الأمريكى فوق الظهر، وفوهة المدفع الرشاش مصوب إلى الرأس من الخلف. وتقفز صور الاستعمار الأمريكى لڤيتنام إلى الأذهان. ويعيد التاريخ نفسه، تاريخ الأمريكى راعى البقر مع الهنود الحمر، السكان الأصليين للبلاد. تأخذ بالشبهات، وتلتقط العملاء الذين يخبرون قوات الاحتلال بأماكن تواجد أنصار النظام السابق، من القمة إلى القاعدة. لا فرق بين السيد القديم والسيد الجديد.

وتسير قوات الاحتلال فى الشوارع والطرق تصوب فوهات المدافع نحو المواطنين، وتطلق الرصاص على كل مواطن يتحرك نحوها، وتلقى القنابل على كل منزل يشتبه فى أنه مأوى عناصر المقاومة. وكرامة الشعب تهان كل يوم بعد أن كان يقاوم الغزو ويسقط الطائرات من الجنوب إلى الشمال، من أم قصر إلى بغداد قبل تسليمها. ولا فرق بين أجهزة الأمن فى النظام السابق وقوات الغزو فى النظام الجديد.

وتدهم المنازل دون حرمة لنساء أو لشيوخ. وتسلب الأموال والممتلكات كما تفعل قوات الاحتلال فى فلسطين. وتغتصب النساء، وتهين كرامة الرجال. وتذيع صور الجثث على الفضاء دون حرمة للموتى ودون احترام للمشاعر الإنسانية العامة، وإمعانًا فى إذلال شعب العراق، والقضاء على مقاومته.

ويأخذ العرب العبرة. هذا جزاء من أراد الاستقلال ورفع الصوت حتى على الطريقة العربية، الصوت والصدى، بصوت الزعيم والقائد والمخلص والمهدى المنتظر، ويحاصر ما تبقى من نظم عربية بين المطرقة والسندان، مطرقة الخارج وسندان الداخل، مطرقة القوة العظمى الوحيدة فى العالم، أمريكا وسندان الشعوب التى مازالت تقاوم باللسان، وهى درجة متوسطة بين المقاومة بالقلب والمقاومة باليد. وقد يخشى البعض فيقاوم بالقلب ويتجرأ البعض الآخر فيقاوم بالسلاح.

لا فرق إذن بين ديموقراطية الاحتلال فى العراق من قوات الغزو الأمريكى والحاكم العام وبين قوات الاحتلال فى فلسطين. الاحتلال واحد. وكل يدعى أنه نموذج الديموقراطية وواحتها الأولى فى أمريكا وإسرائيل. أهداف مشتركة للقضاء على النظام العربى، والوطن العربى، والقومية العربية، وتهميش مصر، وتقطيع أوصال الأمة إلى دويلات طائفية وعرقية، عربية وبربرية فى المغرب، وإسلامية قبطية فى مصر، وسنية وشيعية فى الخليج، وسنية وشيعية وكردية وتركمانية فى العراق، وحجازية ونجدية فى السعودية، وشمالية وجنوبية فى السودان واليمن. وبهذا تصبح إسرائيل هى أكبر دولة طائفية فى المنطقة. تستمد شرعيتها من الجغرافيا السياسية المحلية الجديدة وليس من أساطير المعاد التى أسس عليها هرتزل الدولة فى أواخر القرن التاسع عشر. وقد كان ملوك الطوائف فى الأندلس مقدمة لسقوط إسپانيا كلها وإخراج العرب والمسلمين منها.

وما دام العرب قد قبلوا ديموقراطية الاحتلال فى العراق كنموذج سابق فالدور قادم على السعودية التى تفرّخ الإرهاب. فالضغط من أعلى يفجر القدر من أسفل. ويتكرر توليد أسامة بن لادن فى كل نظم القهر كرد فعل طبيعى عليها. والدور على

سوريا. فنظامها شبيه بالعراق. يحكمها نفس الحزب. وما زالت عصية على الاستسلام كلية للحلول السلمية وحتى يتم تصفية الجبهة الشرقية كلها بعد استئناس الجبهة الجنوبية. ثم يأتى الدور على إيران وتفجيرها من الداخل بإشعال الفتنة بين الإصلاحيين والمحافظين. وتدفع الجنوب فى السودان واليمن للاستقلال عن الشمال. وتشعل النار فى المغرب العربى بين العرب والبربر بعد إشعال المغرب النار فى نفسه بين الحركات الإسلامية ونظم الحكم باسم الصراع بين السلفية والعلمانية، بين الإيمان والكفر. وتشتعل النار فى كل مكان حول مصر بعد تهميشها فى قضايا العرب الكبرى. وتندلع الألسنة حولها حتى تنكمش أكثر فأكثر خوفًا من أن تشتعل فيها النار، وهى الشقيقة الكبرى، مصر المحروسة، أم الدنيا.

* * *

٥- والمقاومة مستمرة

انتاب الشارع العربى إحساسان متناقضان، كلاهما صحيح، يعبر كل منهما عن واقع نفسى، توتر بين الفرح والحزن، الرضا والغضب، التمنى وقبول الأمر الواقع وذلك يوم القبض على رمز النظام العراقى السابق، فى حفرة من الأرض لا تتجاوز المترين، وعلى عمق سبعة أمتار، كث اللحية، غائر النظرات، صامتا. ربما يسترجع بالذكريات أيامًا خلت عندما كان ينتقل من قصر إلى قصر، وبيده الصولجان، يحيى ويميت ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. فإذلال العربى، قائدًا أو شعبًا، مهين لكرامة العرب. وهزيمة التحدى الأمريكى يخيب الآمال فى الانتصار عليه. والنصر الأمريكى بعد استدراجه فى مستنقع العراق إنقاذ لأهدافها من العدوان. والأمثلة العامية والأقوال المأثورة كثيرة «ارحموا عزيز قوم ذل»، «أقيلوا ذوى العثرات عثراتهم». انتهى رمز التحدى للقطب الواحد والذى جند الملايين من أنصار السلام فى العواصم الغربية تدافع عن العراق وفلسطين وأفغانستان. لا يعنى ذلك تأييد الرمز بل معارضة العدو وفى المثل «أنا وأخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب». أخافت صواريخ سكود إسرائيل فى حرب الخليج الثانية. وأسلحة الدمار الشامل، حقيقة أم إيهاما كانت ترهب الكيان الإسرائيلى. كانت نهضة العراق العلمية والصناعية نموذجًا للتنمية الحديثة. نموذج كوريا الجنوبية، بالحديد والنار والذى كانت الاستثمارات الأمريكية أكبر عون فيه.

والحزن أيضًا شعور صادق. فقد أصبح فى النهاية رمزًا للمقاومة الوطنية العراقية. يُهتف باسمه بعد كل عملية فدائية. كان ضحية خيانة قادة الجيش والحرس الوطنى ليلة تسليم بغداد واختفى الجيش وسط الشعب بأسلحته الخفيفة والثقيلة.

(*) جريدة الاتحاد: ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٣م.

وانطلقت حرب العصابات تذكّر بحرب ڤيتنام فى الستينيات والچنرال جياب. فلا فرق بين مستنقع ڤيتنام ووحل العراق. شعب فى مواجهة جيش، وعمليات فدائية فى مواجهة قوات غزو واحتلال. تحول الرمز الذى يحيى القلوب إلى واقع مميت. والضابط الأمريكى الطبيب يفحص الأسنان والحلق ببطارية صغيرة تكشف عن لون الدم الأحمر فى الفم. ويعبث بالشعر الكثيف لمعرفة مدى الالتهابات فى جلد الرأس والوجه. لا فرق بين وضع الأمريكى قدمه على رأس المواطن العراقى بشبهة المقاومة وبين استسلام رأس النظام السابق لأيدى الأمريكى تعبث به كيفما تشاء. يعم الحزن جمهور المثقفين فهم الذين يتعاملون مع الرموز، ويدافعون عن حقوق الشعوب، ويقفون فى مواجهة العدوان عليها. هم الذين يتأثرون بنماذج البطولة والفداء، ويشعرون بمآسى الهزائم وأفراح النصر. هم الذين يقدرون عالم المعانى وأهمية الصور الذهنية وقدرة الخيال على المقاومة وإبداع عوالم جديدة تساعد على تجاوز آلام الواقع والاستسلام لموازين القوى الظاهرة، واللجوء إلى أسباب القوى الأخرى، البقاء على الحلم وعالم الإمكانيات.

ويعم الفرح لأن الشعب العراقى بل والشعب العربى تخلص من أسوأ فترة فى تاريخه الحديث، فترة المقابر الجماعية، وتصفية المعارضين، وإلقاء النابالم فى حلابجة، وقتل آلاف الأبرياء فى حرب الخليج الأولى بعدوانه على الثورة الإسلامية فى إيران وطعنها فى الظهر، وهى صامدة أمام الاستكبار العالمى الذى تمثله الولايات المتحدة الأمريكية، وأضاع آلاف المدرعات والدبابات التى كان يمكنها أن تقيم سياجًا حول إسرائيل. فأين الجبهة فى الشرق أم فى الغرب؟ دفعته أمريكا كى تضرب العدو بالصديق، يقتلون أنفسهم بأيديهم، ويصفى العرب والمسلمون بعضهم بعضًا دون ما حاجة إلى عدوان أمريكى أو إسرائيلى. ويحقق حلم إسرائيل بالتخلص من جبهة الشرق وبعدها الجغرافى شرق سوريا فى العراق وإيران. ثم غامر مرة ثانية بالعدوان على الكويت بدفع من الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا حتى يدمر العرب أنفسهم بأنفسهم وينقسموا على أنفسهم. البعض يمول العراق بالمال والسلاح ضد إيران، والبعض الآخر يمول إيران بالمال والسلاح ضد العراق. وفريق ثالث يؤيد الخصمين المتحاربين تجنبًا لشرورهما المحتملة فى

المستقبل. وتم حصار شعب العراق أخذا بجريرة النظام أكثر من عشر سنوات، واستشهد وأصيب ملايين الأطفال العراقيين. وضاعت ثروة العراق، وأصبحت نهبا للطامعين. وتفرق العرب، وهمشت قضية العرب الرئيسية، فلسطين. وغطت مأساة العراق على ما يحدث فى السودان وسوريا.

أما فرح الشارع العراقى فقد يكون البعض منه مفتعلاً وليس كله. فلم يعان شعب من نظام كما عانى شعب العراق. ومن كان يرقص لرمز النظام بنفس القوةَ والحماس منذ بضعة أشهر فإنه يرقص أيضًا عندما يتهاوى الرمز بنفس القوة والحماس. فالشعب فى حاجة إلى انتصار وإظهار مشاعر الفرح وهو فى أعمق الأحزان. «زوربا اليونانى» يرقص من الألم، ويفرج عن همه بالحركة. وقبل ذلك رقص بعض نواب مجلس الشعب المصرى وسط أحزان الهزيمة، هزيمة يونيو- حزيران ١٩٦٧م عندما تراجع الرمز عن الاستقالة. ففرح العودة له الأولوية على هزيمة الوطن. والإعلام خبير بذلك، يحول الأفراح إلى أحزان، والأحزان إلى أفراح، والعداوة إلى صداقة والصداقة إلى عداوة. إن فرح أحزاب المعارضة، الماركسية أو غيرها إنما هو فرح موقوت. فالحزن على منع الأحزاب الشيوعية فى الوطن العربى مازال عاما. ولم يتم إسقاط رمز النظام بالنضال الشعبى الوطنى الداخلى بل بقوات الغزو الخارجى. فهى فرحة منقوصة، وفرح لم يتم. فرح فى الظاهر وحزن فى الأعماق. وماذا لو تكرر النموذج فى سوريا ولبنان وإيران وباقى الأقطار العربية التى تقع تحت نفس الاتهام وبنفس الذريعة. فتصبح الولايات المتحدة بين عشية وضحاها من الاستكبار الأمريكى إلى المحرر الأعظم. وتتحول قوات التحالف من قوات الغزو والاحتلال إلى قوات التحرير والخلاص. وتتحول صورة الاستعمار التقليدى من الطغيان إلى التحرير، ومن القهر إلى التحرر، ومن العداوة إلى الصداقة، ومن المواجهة إلى الأحلاف.

وما يفك هذا التشابه بين الفرح والحزن هو استمرار المقاومة للاحتلال والغزو يقودها الوطنيون العراقيون. فمن كان يعيش فى مترين تحت الأرض لم يكن قائدا للمقاومة الوطنية التى تحتاج إلى غرفة عمليات وخرائط ورجال ووسائل اتصال

لا تتوافر فى مساكن النمل والجرذان. فالوطن ليس رمزه. الوطن خالد بتاريخه وكرامته، والقادة زائلون، طغاة أو أحرارا. وما فائدة استبدال سيد بسيد، السيد الأمريكى الذى يهين الشعب، ويهدم البيوت، ويقيد الرجال، ويهين النساء، ويقتل الأبرياء أخذًا بالشبهات. ويتحد الشعب العراقى بطوائفه سنة وشيعة، وأعراقه عرب وأكراد وتركمان ضد المحتل الغازى. فلم يعد هناك إلا عدو واحد خارجى بعد أن تم الخلاص من العدو الداخلى. فالوطن ليس ملكًا لفرد، ولا ينتسب إلى نظام. إن استمرار المقاومة نوع من الردع لقوات الغزو والاحتلال حتى لا يتكرر النموذج حماية للأوطان. وإلا استكانت الشعوب ولم تأخذ حقوقها بأيديها، وانتظرت الخلاص على أيدى قوات الاحتلال «وداونى بالتى كانت هى الداء». الوطن ليست رموزه فى القيادة. الوطن هو الشعب. ومن ثم تستمر المقاومة دفاعًا عن استقلال الوطن. فلا يستبدل سيد بسيد، ولا قاهر بقاهر، استمرار المقاومة هو السبيل الوحيد كى يسترد الشعب العراقى حقوقه ويخلص نفسه بنفسه. فإذا استعصى عليه التخلص من النظام السابق فإنه أقدر على التخلص من الاحتلال والغزو الراهن.

وما دام الخطب قد ادلهم، ووقعت الواقعة، فالأولى محاكمة الرمز أمام شعب العراق. فهو المتّهَم والضحية. وهو القادر على الدفاع عن تاريخه وبيان آثامه. وليس المحاكمة لدى قوات التحالف فتتكرر مأساة جوانتنامو ولا حتى أمام المحاكم الدولية. فالضحية هى شعب العراق والقانون هو احترام حقوق الشعب العراقى. والقانون العربى والشريعة الإسلامية، كلاهما قادر على أخذ حقوق الأمة من الطغاة والاقتصاص من الحاكم الظالم. الشعب هو الذى يحاكم طغاته حتى يعرف الحكّام أنهم محاسبون أولاً أمام شعوبهم وليس أمام النظام الدولى أو القطب الأوحد. ومن ثم يخشى الحكّام الشعوب بدلاً من خشية القوى الخارجية. وتتحالف معها بدلاً من التحالف مع الخارج، وتفك حصارها بين المطرقة والسندان، سندان الداخل ومطرقة الخارج.

فهل يتعظ حكّام العرب ويتأملون مصير الطغاة؟ وهل تبدأ عملية التحول

الديموقراطى تحقيقًا للنضال الوطنى لأحزاب المعارضة العربية وليس على أسنّة الرماح والخوف من تكرر النموذج العراقى فى سائر الأقطار العربية؟ إن تأجيل قضية الحرية من النظام العربى على مدى نصف قرن أدى إلى تفجرها بالاحتلال المباشر بقوات الغزو الخارجى تحت ذريعة القضاء على الطغاة وتحرير الشعوب، وفى الحقيقة من أجل تحقيق مخططات وأهداف القوى الكبرى وإعادة رسم خريطة المنطقة حتى تطمئن على مصير العولمة كنموذج لهذا القرن فى منطقة الطاقة والعمالة والأسواق. إن الخوف كل الخوف أن تنشأ ذهنية جديدة فى الوجدان العربى، الخلاص من الخارج والاعتماد على القوى الخارجية، وانتشار النموذج الأمريكى، ونمط الحياة الأمريكية. وقد بدأ بعض المثقفين العرب بالمناداة بأن التحرر بيد الأجنبى خير من التسلط بيد الوطنى. ويتحول إحساس العرب بالتاريخ، وتهتز قناعتهم. فقد تحول عدو الأمس، الاستعمار، إلى صديق اليوم. وتنتهى حقبة من التاريخ لتبدأ حقبة أخرى. يصبح الصديق عدواً، والعدو صديقًا، وتختلط الأوراق. واستمرار المقاومة الوطنية هو الذى يبدد الشكوك ويزيل الالتباس، ويعرف العرب أن تاريخهم ما زال مستمراً، من الاستعمار إلى الاستقلال. بقى عليهم فقط إكمال الشوط، من التسلط إلى الحرية.

* * *

٦- توزيع الغنائم

وشتان ما بين البداية والنهاية، بين الأقوال والأفعال، بين الادعاءات والحقائق، بين الظاهر والباطن. فقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية توزيع عقود الإعمار على دول التحالف التى شاركت فى العدوان على العراق مثل المرتزقة الذين يقتلون من أجل المال، والدول التى تعتدى من أجل الغنائم. فلم يكن العدوان بدوافع نبيلة تحقيقًا لغايات سامية بل كان ذريعة لتحقيق المصالح، مصالح الشركات الكبرى. كانت أسباب العدوان مجرد ذرائع لتحقيق أهداف أخرى غير معلنة، هى الأهداف الحقيقية للحرب والبواعث الفعلية على العدوان.

كانت الذرائع المعلنة القضاء على ديكتاتورية نظام العراق، وتحرير شعبه من أبشع نظام تسلطى عرفه التاريخ، وكأن أوروبا لم تعرف مثله فى النظم النازية والفاشية. وأمريكا هى التى خلقته ودعمته فى عدوانه الأول على الثورة الإسلامية فى إيران وهى فى أوج تحديها للولايات المتحدة الأمريكية وقوى الاستكبار العالمى. وهى التى دفعته مرة ثانية للعدوان على الكويت حتى تتدخل قوات العدوان وتدمر العراق وتستولى على ثروته بدعوى تحرير الكويت. وكم من نظام تسلطى فى العالم أيدته الولايات المتحدة الأمريكية وما زالت فى الوطن العربى والعالم الإسلامى، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. تؤيده طالما يحقق مصالحها وينفذ أغراضها. ثم تنقلب عليه إذا ما شق عصا الطاعة عليها. وقام بدوره الخاص المستقل عن الدور الذى رسمته له الولايات المتحدة، دور العميل. فالعمالة إلى الأبد. ولا تنتهى بالموت. العمالة قانون للضعفاء لسيطرة الأقوياء. لذلك تحارب الولايات المتحدة كل الحركات الوطنية التى تدعو إلى الاستقلال مثل حركات التحرر العربى

(*) جريدة الاتحاد: ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ٥ يناير ٢٠٠٤م.

الإسلامى، وكل السياسات المستقلة التى لا تريد الانخراط فى النظام الدولى الذى يقوم على الاستقطاب أو على القطب الواحد مثل مصر الناصرية، والهند أيام نهرو، ويوغسلافيا تيتو، وماليزيا محاضير.

وكانت الذريعة الثانية تدمير أسلحة الدمار الشامل بالرغم من عدم وجود الأدلة، وعدم عثور مفتشى الأمم المتحدة على أى منها. وقد بان أخيراً أنها كانت فرية من وضع الاستخبارات البريطانية والأمريكية. كان قرار العدوان قد تم اتخاذه والمطلوب إيجاد شرعية له حتى ولو تجاوزت الشرعية الدولية. وقامت الولايات المتحدة الأمريكية بدور الأمم المتحدة والهيئة الدولية للطاقة الذرية. والدول الكبرى ذاتها تملك أسلحة الدمار الشامل، نووية وكيميائية وغيرها. وتمنع ذلك الحق عن الدول الصغرى حتى تظل القوة فى المركز دون الأطراف. بل تخشى الولايات المتحدة من العدوان على كوريا الشمالية بنفس الحجة وهى تكوّن مع العراق وإيران محور الشر. فلكوريا الشمالية سندها فى الصين والاتحاد السوفيتى والعرب لا سند لهم. وإسرائيل ترسانة لجميع أنواع أسلحة الدمار الشامل. ولم توقع على معاهدة عدم انتشار أسلحة الدمار الشامل. ولا يحتلها أو يعاقبها أو يهددها أحد. بل إن الغاية الحقيقية لتدمير السلاح النووى العراقى إن وجد هو الدفاع عن إسرائيل وأمنها بتدمير الجبهة الشرقية وكما فعلت إسرائيل فى تدمير المفاعل النووى العراقى فى ١٩٨٢م بيدها، والتهديد بضرب المفاعل النووى الإيرانى والپاكستانى حتى تظل إسرائيل هى الدولة النووية الوحيدة فى المنطقة تحمى احتلالها لفلسطين وتوسعها فى الأراضى العربية، سوريا ولبنان وتهديد مصر وسيطرتها على منطقة الشرق الأوسط كلها، الوطن العربى والعالم الإسلامى. فحدود إسرائيل هى المدى الذى يستطيع جيش الدفاع الإسرائيلى الوصول إليه. وكما عبر عن ذلك محمد محاضير فى خطابه الأخير وهو يتنازل عن السلطة لجيل آخر طبقًا لمبدأ تداول السلطة بأن اليهود يحكمون العالم بالوكالة. فقد حاولوا ضرب العملة الماليزية والإندونيسية حتى يبقى فى الذهن أنه لا استقلال ولا تنمية إلا عن طريق التبعية. وقد آثرت ماليزيا طريق الاستقلال.

وكانت الذريعة الثالثة للعدوان على العراق الإرهاب بالرغم من غياب أى دليل على تعاون النظام العراقى مع منظمات الإرهاب الدولى. وإرهاب المنظمات السرية هو رد فعل طبيعى على إرهاب الدول الكبرى العلنى على المستوى الدولى، كما أن إرهاب الأفراد على المستوى المحلى هو رد فعل على إرهاب الدولة. والحقيقة أن الولايات المتحدة بعد حوادث ١١ سبتمبر تريد استرداد هيبتها وإثبات أنها قادرة على الدفاع عن نفسها خارج حدودها. فقد طعنت حوادث ١١ سبتمبر الولايات المتحدة فى غرورها وكبريائها وسطوتها أكثر مما فعلت بيرل هاربر فى ١٩٤٢م التى كانت بعيدا عن القارة الأمريكية فى وسط المحيط. ولم تدرك دلالة الحدث، أن القوة بلا عدل تدمر نفسها بنفسها، وأن منظمة التجارة العالمية والپنتاجون مع البيت الأبيض رموز للسيطرة والهيمنة والعدوان، ورمز للتجمع العسكرى الصناعى الذى يريد السيطرة على مقدرات العالم، وأن هناك غضبًا فى القلوب، وتمرد لدى الشعوب ضد الهيمنة الأمريكية كما كان الحال فى الستينيات فى حركات السلام المناهضة للحرب والعدوان على ڤيتنام، والمناهضة العنصرية فى الداخل والدفاع عن الحقوق المدنية للأمريكيين الأفارقة. ولا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يقاوم الإرهاب إلا الإرهاب المضاد. إرهاب المنظمات السرية فى مقابل الدول الكبرى، وإرهاب الأفراد ضد إرهاب الدول. والجرائم المنظمة للأفراد والجماعات رد فعل على مجتمع فى ظاهره ديموقراطى وفى باطنه يقوم على جريمة رأس المال، الاستغلال والاحتكار والنهب والسلب، فى الداخل والخارج. كان الاستعمار التقليدى إرهاب الدول الكبرى للدول الصغرى عن طريق الاحتلال المباشر ثم أصبح السيطرة الاقتصادية على الموارد والأسواق والعمالة. ثم تحول إلى هيمنة ثقافية عبر قنوات الفضاء ونشر القيم الاستهلاكية باسم العولمة.

وعندما تم العدوان واحتلال العراق، والقبض على رأس النظام وتحققت الأهداف غير المعلنة بدأ تقسيم الغنائم بين اللصوص والمرتزقة بتوزيع عقود الإعمار على الشركات الأمريكية والبريطانية، وبيع الدم العراقى لشركات الإعمار بل وبيع دم قوات التحالف أيضًا بعقود الإعمار. يموت الأبرياء ليثرى الأغنياء. ويقضى على العمران من أجل الكسب واستنفاد الثروات. كان النفط فى مقابل الغذاء.

والآن النفط فى مقابل الإعمار. أمريكا تدمر وأمريكا تعمّر حتى تقضى على أزمتها الاقتصادية وانهيار عملتها وينجح رئيسها فى دورة انتخابية ثانية. مازالت الرؤية المادية للعالم تتحكم فى الولايات المتحدة. ومازال قول لينين الشهير «الاستعمار أعلى مرحلة للرأسمالية» قول صحيح. فالرأسمالية باسم العولمة هذه المرة وبعد عصر الاستقطاب تتمثل فى الاحتلال المباشر للدول فى أفغانستان والعراق، مناطق النفط والثروة، ومن أجل الهيمنة على العالم القديم كله كما فعل الاستعمار التقليدى، محاصرة الصين والاتحاد السوفييتى من الجنوب، وإقامة قواعد عسكرية فى أواسط آسيا، والقرب من نفط بحر قزوين، وتحقيق الشعار الاستعمارى القديم «الاندفاع نحو الشرق» ولكن هذه المرة ليس اندفاع الغرب الأوروبى بل الغرب الأمريكى. ويبدو أن الاستعمار التقليدى كان هو روح القرن التاسع عشر. خلفته حركات التحرر الوطنى فى القرن العشرين. ثم عاد الاستعمار التقليدى من جديد فى القرن الواحد والعشرين الذى استبشر العالم كله ببدايته. فقد اكتملت دورة النظام العالمى فى قرنين، قرن للاستعمار وقرن للتحرر، والآن يعود الاستعمار فى دورة جديدة. وقد تبشر بدايات المقاومة فى فلسطين والعراق وأفغانستان بأن الدورة الثانية هذه المرة لن تكون طويلة.

لم تكن الأخلاق والقيم الأمريكية إلا الكسب والرزق والإثراء وكل ما يتعلق بالسيطرة على العالم والاستحواذ على مقدراته. وكانت مذاهبها المثالية فى غالبيتها من صنع المهاجرين الأوروبيين إليها ولم تكن يومًا مؤثرة فى سلوكها أو نمط حياتها أو محددة لرؤيتها للعالم. نموذج الأمريكى «كيف تكسب مليون دولار؟». ونموذج المؤلفات «دليل رجل الأعمال». وهدفها الإجابة على سؤال «كيف تنجح فى الحياة؟». البطل هو راعى البقر الذى يرعى ويقتل. هو «رامبو» الرجل القوى العضلات القادر على قهر الأعداء. هو المنتصر دائمًا والمخلّص من الأزمات. وكانت القيم والمبادئ المستوردة من الثورة الفرنسية والتى كانت وراء كتابة الدستور الأمريكى ووثيقة إعلان الاستقلال محصورة داخل القارة الأمريكية، وليس خارجها كما هو الحال فى حصرها داخل القارة الأوروبية دون خارجها فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. بل إن المبادئ والقيم لا تنطبق إلا على عنصر واحد من

المجتمع الأمريكى، العنصر الأبيض خاصة الأبيض الأنجلوساكسونى الأبيض البروتستانتى أى «الواسب» WASP.

يبدو أن الوعى الأمريكى قد بُنى على السيطرة والهيمنة والإقصاء. فقد تم اكتشاف أمريكا بحثا عن الذهب، ورغبة فى التوسع بعد سقوط الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس، وآخر معاقلها فى غرناطة ١٤٩٤م. وقد اتجه كولومبس غربًا بفضل الخرائط العربية، كما اتجه ماجللان وفاسكو دى جاما شرقًا بفضل الملاحين العرب. البحث عن المادة والسعى وراءها هو أهم مكوّن فى الوعى الأمريكى، والنجاح فى استئصال السكان الأصليين وإحلال المهاجرين محلهم. فالقتل والتدمير وسيلة للاستحواذ على ممتلكات الغير. وظل ذلك الباعث من البداية إلى النهاية، منذ اكتشاف أمريكا حتى سقوط أمريكا كما أعلنت «أمة الإسلام» وكتب إِلَيْجَا محمد.

ومن يدرى، فربما تنقلب موازين القوى، ويصبح الجلاد هو الضحية. وتحاكم قوات التحالف يوما بجرائم الحرب، بقتل الأطفال والنساء والشيوخ. فشن حرب دون شرعية دولية جريمة حرب. واستعمال الأسلحة النووية المحدودة جريمة حرب. وتدمير المنازل وقتل المدنيين جريمة حرب. لا فرق بين أمريكا فى العراق وأفغانستان، وإسرائيل فى فلسطين.

إن غضب الشعوب إن لم يتفجر فإنه يتحول إلى طاقة كامنة فى التاريخ. والحق الضائع لا يتلاشى بل يتراكم فى القلوب والمشاعر حتى يجىء وقت الانفجار. ولا توجد إمبراطورية قائمة إلى الأبد. كل من ينشأ ينتهى. وكل ما يبلغ الذروة ينهار. المهم هو الصمود وعدم التخلى عن المقاومة، والقدرة على معرفة إمكانيات العرب وسلبيات الإمبراطورية الرومانية الجديدة. إن صراع القوى الآن ليس بين المعسكرين التقليديين بعد انهيار المعسكر الاشتراكى بل بين العولمة التى تمثل القطب الواحد واحتمال وجود قطب ثان فى الوطن العربى قلب العالم الإسلامى، أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. لذلك يشتد الحصار عليها بالاحتلال والحصار والغرب والتآمر والتهميش حتى تطمئن العولمة إلى أنها أصبحت مسار التاريخ وحركته.

ولماذا اليأس؟ وهذه ليست أول مرة تحتل فيها بغداد، وتهدد سوريا، وتحاصر ليبيا، وتُهمش مصر. المهم عظة التاريخ. وكلما تشتد الأحزان يكون الفرج. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

لـــــذلك عندما زار الشاعر والفيلسوف محمد إقبال مدافن بريطانيا ووجد شاهدًا كبيرًا من رخام وسأل لمن؟ قيل لأكبر صاحب سوبر ماركت فى بريطانيا. فلما اقترب قرأ «وُلِدَ إنسانًا ومات بقالاً». واستعجب إقبال وقال «لقد جعلتم عالم الله دكانا».

* * *

٧- العصا والجزرة

فى الثقافة العربية الإسلامية الموروثة يقبع « الزعيم». وهو مفهوم ترسب فى وعينا التاريخى من الأنبياء كقادة للأمم ومخلصين للشعوب، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، أولو العزم. نوح ينقذ قومه فى سفينة. وإبراهيم يقود أهله إلى دار الإيمان، وموسى يقف فى مواجهة فرعون، وعيسى فى مواجهة اليهود، ومحمد ضد أشراف قريش وساداتها.

ثم تحولت الخلافة بعد النبوة إلى ملك عضود، يتوارثه الأبناء من الآباء. وتتم البيعة لمعاوية بالعصا و الجزرة. ثم يتأله الزعيم، ويصبح ظل الله فى الأرض وليس خليفة للمسلمين أتى بيعية، فالإمامة عقد وبيعة واختيار. ثم تحاول المعارضة زحزحة الزعيم، والخروج على الحاكم الظالم، والعودة إلى الشرعية، شرعية الشورى، والاختيار الحر من أهل الحل والعقد. ولا يفل الحديد إلا الحديد. فيظهر الإمام المعصوم ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وصفاته لا تقل ألوهية عن الحاكم الظالم، إمام بإمام، وزعيم بزعيم.

ويتجلى الزعيم أيضًا فى السيرة الشعبية، أبو زيد الهلالى، والزناتى خليفة، وسيف بن ذى يزن، ويقتل الزعيمُ الزعيمَ أمام تهليل الحاضرين وفى خيال السامعين. وفى الأدب الشعبى يظهر ابن البلد أو الفتوة الذى يجند الناس لمحاربة الظلم، ويحقق العدل بين الناس، وكما صور نجيب محفوظ فى «الحرافيش» وفى «أولاد حارتنا» ، جبل ورفاعة وقاسم فى الماضى وعرفة فى المستقبل، وكما ظهر فى مسرحية «الزعيم» ورواية «سقوط الإمام». والكل ينتظر الزعيم كلما اشتد

(*) جريدة الاتحاد: ١٠ يناير ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٧ يناير ٢٠٠٤م.

الضنك، وعظم البلاء، وعم الإحباط، وساد العجز، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١].

والزعيم فى الداخل وليس فى الخارج، يتسلط على قومه سواء كان فى الحكم أو فى المعارضة. الزعيم فى الحكم يزج بالمعارضين فى السجون أو يصفيهم جسديّا. وإذا ثارت جماعات ضده قضى عليها، ووضعها فى مقابر جماعية، واستعمل كل وسائل الفتك والهلاك، القذائف والحرائق. وهرب الباقى إلى الخارج. وكوّنوا بؤراً للمعارضة فى عواصم البلدان الأخرى. ولا ضير فى التعاون مع أعداء الوطن فى الخارج ما دام لهم عدو مشترك فى الداخل. ولا ضير أن تأتى المعارضة فى الخارج على أسنة الرماح وفوهات المدافع وأزيز الطائرات؛ كى يكونوا حكامًا بديلاً عن الزعيم. بل إنه يطيع أوامر الخارج، مرة بالعدوان على جاره الإسلامى فى الشرق، ومرة أخرى على جاره العربى فى الجنوب، مدمرا قواته مرتين، والعدو فى الغرب، يحتل فلسطين أكثر من خمسين عامًا.

ولما بدأ الزعيم يشق عصا الطاعة، ويقوم بلعبته الخاصة، ولحسابه الخاص صدر الحكم بإعدامه، بالحصار على شعبه أكثر من عشر سنوات ثم بالعدوان عليه مرتين تحت عدة ذرائع، أسلحة الدمار الشامل، الإرهاب، التسلط والديكتاتورية. وقرار التخلص منه بالعدوان العسكرى حتى ولو كان خارج إطار الأمم المتحدة. وتم لقوات التحالف ما أرادت. وتم القبض عليه وإذلاله وهى تعانى من اشتداد المقاومة الوطنية ضدها. وهذا جزاء من يشق عصا الطاعة، عصا معاوية دون جزرته، القوة المسلحة للقضاء عليه. والعرب يتفرجون. والبعض منهم يتحالفون. وفريق ثالث يرتعش خشية أن تدور عليه الدائرة. فالتسلط تهمة الجميع، والتلويح بالعصا فى وجه الكل.

وترتعد فرائص باقى الزعماء المحاصرين بين مطرقة الخارج وسندان الداخل. فيهب زعيم آخر كان يومًا ما من زعماء الرفض، والمطالبة بالحد الأعلى فى القضايا الوطنية. وينتقل من القومية العربية إلى الاتحاد الأفريقى. فلم يعد يطيق خذلان العرب، ولا عجزهم عن الوقوف أمام الولايات المتحدة الأمريكية لفك الحصار

عنه. يخشى من النموذج الأول فيسير وفقًا للنموذج الثانى. يترك نموذج الكراهية ويفضل نموذج الطوع طبقًا للآية الكريمة ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣]. وأعلن بلا مقابل وبلا سابق إعلان للجماهير العربية التى طالما وجّه الخطاب إليها عن تدمير أسلحة الدمار الشامل التى طالما أنكر وجودها. بل ويطالب باقى الأقطار الشقيقة خاصة سوريا، والجولان ما زالت محتلة، بالاقتداء بنفس الفعل، والسير فى نفس النموذج، التخلى طوعًا عن أسلحة الدمار الشامل دون التوجه إلى إسرائيل بنفس النصح. ويسرع قادة الغرب بالثناء عليه، بريطانيا وأمريكا، ويمدح هذه الخطوة الشجاعة من الزعيم الهمام الذى انقلب فى غمضة عين من العداء للغرب الاستعمارى إلى التسليم بمطالبه، والدفاع عن حقوقه، أملا فى رفع الحصار عنه. ويدعو الشركات الأجنبية، البريطانية والأمريكية، للقدوم إلى البلاد من أجل الاستثمار. ويدخل بيت الطاعة بعد أن كان ناشزًا.

وحدث نفس الشىء بالنسبة إلى إنكار تدمير الطائرتين الأمريكية والفرنسية ثم القبول بالمسئولية ودفع التعويضات بمليارات الدولارات، تحولا مائة وثمانين درجة، من النقيض إلى النقيض، من الزعامة الجوفاء إلى الاستسلام الذليل، ومن البطولة العمياء إلى الرضوخ الكامل. وأصبح أشهر نموذج لعدو الغرب صديقًا له دون التفوه ببنت شفه عن حقوق الإنسان فى الداخل وتصفية الخصوم السياسيين، وتكميم أفواه المعارضة، وانتهاك حقوق الإنسان، والفساد، والرشوة. فما يهم الغرب هو استسلام الحكام وليس مصالح الشعوب، إنهاء النتوءات البارزة والنغمة النشاز فى العلاقات الدولية التى تحددها القوى الكبرى وليس الحرية والديموقراطية للشعوب.

والآن على باقى الزعماء الخيار بين نموذج العصا ونموذج الجزرة، بين التسليم كرها بالحرب والعدوان أو الاستسلام طوعا والانقلاب مائة وثمانين درجة، والتحول من النقيض إلى النقيض، من الأسد إلى النعامة، ومن الثقة الزائدة بالنفس إلى تصغير النفس وتقبيل الأيادى، ومن رفض النظام الدولى إلى التوسل للانخراط فيه. وهما خياران أحلاهما مر، القضاء على الزعيم بالعدوان الخارجى

وإنهاء البطولة الجوفاء أمام الخارج أو القضاء على الزعيم بالرضوخ والاستسلام فى الداخل بدعوى الواقعية السياسية، وتجنب العدوان، وحماية لمصالح الناس.

واحتار الزعماء أى النموذجين أفضل؟ الأول خسارة أمام الخارج، والثانى خسارة فى الداخل. والسير فى المحل دون حركة فى أى اتجاه، يمينًا أو يسارًا، مقتل تاريخى للنظام. فالمياه الآسنة ليست صالحة للحياة. والحقيقة أن مقياس اختيار الزعماء هو البقاء فى الحكم. كلما كان الخيار الأول هو خسارة الحكم فالاختيار الثانى هو الأفضل، البقاء فى الحكم ولو ذليلاً راضخًا مستسلمًا بعد أن كان مرفوع الرأس ينظر فى السماء، يستلهم العلم والمعرفة. ويتحول من «نبى الصحراء» إلى «رسول الأعداء» يبلغ رسالاتهم للقبائل العربية.

يتحول الزعيم من طرف إلى طرف، من أمين القومية العربية إلى زعيم الاتحاد الأفريقى، ومن العدو الأول للاستعمار والمنظمات الدولية الخاضعة لنفوذ الدول الكبرى إلى المستسلم لقراراتها والداعى لها لزيارته والتفتيش على مصانعه ومستودعاته. كما تحول الزعيم الآخر فى النموذج الأول من مدافع عن القصور الرئاسية إلى أن أصبحت هذه القصور مراكز قيادة لقوات التحالف، ومن ساكن للقصور إلى ساكن للقبور. فلا فرق فى التطرف والانتقال من الحد الأقصى إلى الحد الأدنى بين الحكّام والمحكومين، بين الزعيم ومعارضيه. فالتطرف سنة الجميع، من البطولة إلى الخيانة، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهداية.

وأين النموذج الثالث، نموذج التحالف مع الداخل ضد الخارج، النموذج الوطنى الذى يجسد مصالح الشعب ويدافع عن استقلاله وكرامته، نموذج ماليزيا الذى يتنازل عن السلطة وهو فى قمتها، ويترك الحكم لجيل جديد وماليزيا فى أعلى معدل للتنمية بعد الصين؟ لم يمهد الحكم لابنه لخلافته كما هو الحال فى الجمهوريات الملكية، وفى الجيش الذى يتحول إلى قريش. وهو النموذج الإيرانى الذى أتى بثورة من الشعب وبانتخاب حر من الناس بالرغم من وجود توتر وصراع مكبوت بين المحافظين والإصلاحيين. لذلك كان هو الهدف القريب الثالث الذى

عليه الاختيار بين العصا والجزرة، والرضوخ لقوات التحالف كرها أو طوعا. وإسرائيل مستعدة للمؤازرة فى حالة اختارت إيران الصمود ضد العدوان الخارجى وتدمير المفاعل النووى كما دمرت من قبل المفاعل العراقى.

لقد كانت حجة الزعيم بعد حركة الاستقلال الوطنى التنمية وبناء الدولة والتخطيط والتحول الاشتراكى والتصنيع. فلا وقت للجدل والصراع. زعيم واحد، وحزب واحد، ورأى واحد، وقرار واحد. والعمل خير من النظر، والفعل أفضل من المشاورة، والقرار أمضى من الحوار. فلما تم بناء الدولة وتحقق التخطيط، وسدت الحاجات الأساسية للشعوب رفع شعار كل شىء فى مواجهة العدو الخارجى لاستكمال حركة التحرر الوطنى فى فلسطين. ولا شىء يعلو فوق صوت المعركة. وانتظر الناس المعركة فى قدس الأقداس. فقد ضاعت نصف فلسطين فى العصر الليبرالى فى ١٩٤٨م، وضاع النصف الآخر فى العهد الاشتراكى القومى فى ١٩٦٧م. وما زال الشعار مرفوعًا حتى ضاعت فلسطين وضاعت الحريات العامة. واستولت إسرائيل على كل فلسطين، واستولى العجز والإحباط والخوف والاستكانة والتخاذل على الشارع العربى حتى بعد سقوط عاصمتين عربيتين، بيروت فى ١٩٨٢م من إسرائيل، وبغداد فى ٢٠٠٣ م من قوات التحالف. والآن لم تعد هناك حجج وذرائع أخرى فلا فلسطين تحررت ولا المواطن العربى استرد حريته. وكانت الخسارة مزدوجة بعد أن توهم الناس أن النصر سيكون مضاعفًا على أرض الوطن وفى روح المواطن.

متى تتحول الزعامة من الفرد إلى الجماعة، ومن الزعيم إلى الشعب، ومن حكم الفرد المطلق إلى حكم الأمة، ومن البقاء فى السلطة مدى الحياة إلى تداول السلطة، ومن العقد الإلهى الأبدى بين الزعيم وبين الله أو التاريخ إلى العقد الاجتماعى المؤقت بينه وبين الشعب؟ متى يفك الزعيم العربى الحصار حول نفسه بين مطرقة الخارج وسندان الداخل حتى لا يضطر إلى الاختيار بين العصا والجزرة، بين الموت أسيرًا أو الموت ذليلاً؟

لقد انتهى النظام العربى وأكمل دورته على مدى نصف قرن فى النصف الثانى

من القرن العشرين، منذ الثورات العربية التي قادها الضباط الأحرار وحركات الاستقلال الوطني التي قادها الملوك. لقد أصبح النظام العربي حملاً ثقيلاً على الأمة العربية. فلا هو يحقق مطالبها في الحرية والديموقراطية في الداخل، ولا الكرامة والاستقلال تجاه الخارج، ولا هو قادر على الصمود أمام العصا أو الجزرة شاقا لنفسه طريقا ثالثا، طريق التحالف مع الداخل ضد الخارج. فلا شيء بمعجز في التاريخ، ولا شيء يمنع الشعوب من الحركة إذا توافرت الإرادة الجماعية، ولا القادة من المناورة إذا ما توفر لهم الخيال السياسي الضروري الذي يجعلهم قادرين على رؤية مسار التاريخ على الأمد الطويل وليس فقط النظر إلى كراسي الحكم وتحت الأقدام.

إن تعامل النظم السياسية مع الخارج بمنطق العصا أو بمنطق الجزرة سيؤدي في النهاية إلى زوالها لغياب منطق ثالث هو زحف الشعوب على القصور كما حدث في إندونيسيا وجورجيا. فلا طريق أمام الشعوب لاسترداد حريتها وكرامتها واستقلالها إلا بالتخلص ممن أذلوها وأذاقوها الهوان إلى درجة فقدان استقلالها واحتلال أراضيها. في مواجهة منطق العصا والجزرة الذي تلوح بها القوى الكبرى للحكام كي تختار هناك منطق قارب النجاة بالتحالف مع الشعوب ورد حرياتها المسلوبة منها إليها، منطق السُّلَّم الذي يهبط عليه الحكام من التطلع إلى أعلى إلى التطلع إلى أسفل. والأرض أكثر يقينا وأمنا من السماء.

* * *

٨- جـروح الأوطـان

ليست الجروح فقط فى الأبدان بل هى أيضًا فى الأوطان. جروح الأبدان تؤلم الأفـراد، فى حـين أن جـروح الأوطان تؤلم الأمـة كلهـا. جـروح الأبدان يمكن مداواتها، فهى موضعية محلية، فى حين أن جروح الأوطان يصعب مداواتها لأنها عامـة فى كل مكـان. جروح الأبدان فى الأجسـاد فى حين أن جـروح الأوطان فى الأرواح. وعذاب الروح ووخز الضمير أقسى من آلام الأجساد ووخز الجراح.

الوطن العربى جريح فى مختلف أقطاره وتعدد ساحاته، مطعون فى كرامته عشر طعنات. كل منهـا جرح نافذ وقاتل. ومـا زال الجسـد ينزف. ومع ذلك لم يتوقف القلب عن النبض تمسكا بالحياة عبر العصور. المهم الآن إيقاف النزيف، والإسعاف العاجل بعد أن طالت المدة، والجسد العربى ينزف على قارعة الطريق.

الطعنة الأولى: الاحتلال، احتلال العراق واحتلال فلسطين، ومن دول الجوار احتلال أفغانستان وكشمير والشيشان. فالعروبة قلب الإسلام، والإسلام ثقافة العروبة. ما زال الدم ينزف فى العراق، دم المقاومة من الشهداء. المهم أن تستمر المقاومة ضد الاحتلال الأجنبى دون نعرات طائفية، سنة وشيعة، أو عرقية، عرب وأكراد وتركمان. الخطورة على المقاومة من الفتنة الطائفية، تفجير مساجد كل طائفة من عملاء مرتزقة أو صراع على السلطة فى مرحلة ما بعد التحرير، واستباق الأحداث، وترقب الثمرة قبل أن يحين موعد اقتطافها أو اعتماد سلطة كل طائفة على مقدار ما قدمت من شهداء، شهداء انتفاضة الشيعة فى الجنوب بعد تحرير الكويت فى ١٩٩١م، وشهداء انتفاضة المثلث السنى فى الشمال بعد احتلال العراق. ولما كان الرجل وسبقه فى الإسلام كذلك تكون الطائفة وسبقها فى

(*) جريدة الاتحاد: ١٧ يناير، جريدة الزمان: ١٥ يناير ٢٠٠٤م.

المقاومة. وكلاهما يعيشان فى وطن واحد. المواطنة تسبق الطائفية. ووحدة الوطن أساس التعددية الثقافية. فكيف تتحرك الأعراق الآن لاحتلال مدن محتلة مثل كركوك، فيصبح الاحتلال مضاعفًا، احتلال من عرق أو طائفة فى الداخل، واحتلال من قوات التحالف فى الخارج؟ وطرد العدو المحتل فى الخارج له الأولوية المطلقة على الصراع العرقى على سلطة فى وطن ما زال تحت الاحتلال الأجنبى.

الطعنة الثانية: تهديد سوريا وإيران واليوم السعودية ومصر بتكرار النموذج العراقى ولإكمال مشروع الهيمنة الصهيونى على الشام، سوريا بعد العراق والقضاء على المفاعل النووى الإيرانى كما تم تدمير المفاعل النووى العراقى من قبل، ثم السعودية التى تفرّخ الإرهاب، ومصر الشقيقة الكبرى التى مازالت ظهير السلطة الوطنية الفلسطينية. وبعدها تأتى پاكستان بعدوان مباشر من إسرائيل أو بالتعاون مع الهند. والذرائع جاهزة: أسلحة الدمار الشامل فى سوريا، تسرب المقاومة العراقية من على الحدود، إيواء بعض رموز النظام السابق، مساعدة حزب الله، وجود مكاتب للمقاومة الفلسطينية فى دمشق، عدم توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، عدم دخولها بيت الطاعة بعد. وما زالت تمثل نتوءًا أو نشازًا فى إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط الجديد. ولا أحد يذكر الجولان المحتل، وضرورة تحرير الأوطان، واستقلال الدول، والدفاع عن كرامة الشعوب. والذرائع لپاكستان موجودة: قوة الحركات الإسلامية، بقايا تنظيم القاعدة، أسلحة الدمار الشامل، تأييد المقاومة الوطنية فى كشمير، الديكتاتورية العسكرية.

والطعنة الثالثة: انقسام الأوطان وتفتيتها بين شمال وجنوب فى السودان ثم تفتيت الجنوب والشرق والغرب حتى يتشرذم جنوب مصر، وتنشط إسرائيل وأمريكا لتهديد مصر بقطع شريان النيل، وبإقامة السدود والخزانات أو بإعادة توزيع حصة المياه. وبالرغم من اتفاقيات السلام وإنهاء الحرب الأهلية إلا أن الخطر ما زال واردًا، والتآمر على وحدة السودان وأمن مصر القومى ما زال قائمًا. ويخطط لتحويل الوطن العربى كله إلى فسيفساء طائفى وعرقى، دويلات وكيانات هشة، سنة وشيعة، مسلمين وأقباط، تركمان وأكراد، عرب وبربر. وهو ما تجاوزه

التوحيد بإعلان وحدة الأمة وهويتها الأخلاقية «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح». ومن ثم تصبح إسرائيل هى أكبر دولة عرقية طائفية فى المنطقة، تستمد شرعيتها من طبيعة الجغرافيا السياسية مثل جاراتها، وليست من أساطير المعاد والشعب المختار كما تصورها هرتزل فى «الدولة اليهودية» فى أواخر القرن التاسع عشر والتى لم يعد يصدقها أحد. فلا تنشأ الدول والكيانات الوطنية على خرافات وأساطير.

والطعنة الرابعة: نظم القهر والتسلط التى ما زالت تسود معظم الأقطار والتى أصبحت ذريعة لفرض التحول الديموقراطى على أسنة الرماح وفوهات المدافع وأزيز الطائرات وأصوات القنابل. وليس صعبا على الأنظمة الحاكمة أن تفك حصارها بين المطرقة والسندان، مطرقة التهديد الدولى الخارجى وسندان الضغط الشعبى الداخلى. ما زال حكّامنا أطول الحكّام عمراً واستمراراً فى الحكم، توريثا باسم قريش أو انقلابا باسم الجيش. لا يعرفون إلا توارث الحكم وليس تداول السلطة. ملفات حقوق الإنسان فى الأوطان ثقيلة، وعدد المسجونين السياسيين والهاربين والقانطين فى الخارج فى بؤر للمعارضة تنتظر العودة على أسنة الرماح يتزايد باستمرار. والحزب الحاكم مازال يستحوذ على الأغلبية المطلقة، تكاد تقترب من مائة فى المائة حتى أصبحت موضوعا للتندر والسخرية والنكات السياسية. والعدو الصهيونى يتغنى بأنه واحة للديموقراطية، والعدو الأمريكى قلعتها. وما زال منطق «الفرقة الناجية» هو الذى يحكم، ويكفِّر المعارضة كفرق هالكة.

والطعنة الخامسة: العنف الذى تمارسه النظم الحاكمة على جماعات المعارضة السياسية، والعنف الذى تمارسه هذه الجماعات على النظم السياسية أو على بعضها البعض أو على الشعوب التى تمثل مصالحها. أصبح الوطن مرادفًا للإرهاب. وأصبح الإرهاب ذريعة للاحتلال. الإرهاب من طبيعة ثقافة العرب، وناشئ عن عقائدهم فى الحاكمية والألوهية والربانية والعبودية والجهاد ودار الكفر. لا تطيق الحوار. الكل يستبعد الكل، فريق يكفّر فريقا، وفريق يخوّن فريقا. الحقيقة يمتلكها فريق واحد وباقى الاجتهادات باطلة مع أن الحق عند القدماء متعدد، وكل مجتهد

مصيب. إذا أخطأ فله أجر واحد، وإذا أصاب فله أجران. بل لقد تحول الخصام الوطنى إلى حروب أهلية كلفت مئات الآلاف من الشهداء الأبرياء هنا وهناك فى لبنان والجزائر بعد أن كان الأول رمزا لليبرالية والحرية، والآخر رمزا للوطنية والاستقلال.

والطعنة السادسة: تبعية بعض نظم الحكم العربية للخارج، خاصة للولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القوة الوحيدة القادرة على المنح والعطاء، واحتلال الأعداء، وتأييد الحلفاء. فقدت الدول استقلالها الوطنى الذى كان أعز ما لديها، حاربت من أجله، وأصبح من أهم منجزات هذا الجيل الذى بدأ يمضى. لم يعد نظام سياسى واحد يستطيع أن يعترض وإلا واجه نفس المصير، بالعدوان المباشر أو بانقضاض الكيان الصهيونى عليه. لا فرق بين نظام عقد معه معاهدة سلام أو نظام ما زال يتردد، أو نظام يتعاون سراً دون معاهدة علنية. وتتراوح التبعية بين التحالف العسكرى المباشر أو إقامة قواعد للعدوان ومراكز قيادة أو السماح باستخدام القواعد والأجواء أو الصمت التام والتواطؤ مع الجريمة أو الإدانة الديبلوماسية المكبوتة ذرا للرماد فى العيون أو للاستهلاك المحلى. شاخ النظام العربى بعد أن حكم أطول مما ينبغى على أكثر من نصف قرن.

والطعنة السابعة: الاستسلام التام، والتحول من النقيض إلى النقيض، ومن طرف إلى طرف، ومن الالتزام القومى إلى الخوف القطرى، ومن المطالبة بالحد الأعلى إلى التنازل حتى عن الحد الأدنى. فالرياح عاتية ولا تقوى سفينة العرب على مواجهة الأمواج العالية، لا إنقاذا للسفينة بل حرصًا على الربان الذى اختاره القدر لحكم البلاد، المخلص والزعيم والملهم، الفرد الصمد الذى لا مثيل ولا قرين له ولا شبيه به. فقد العرب الواقع والخيال، القوة والحلم، الحاضر والمستقبل، السياسة والشعر. فقد قتل اللصوص المتنبى فينا. فقد العرب حتى منّة الكلام، ورنة الصوت، وموسيقى اللغة، ولحن الخطاب والذى جعل العربَ يتحولون من الجاهلية إلى الإسلام بفضل السماع إلى جرس القرآن، وهم الذين تعودوا على موسيقى الشعر. بل لم يعد الشعب العربى يلقى النكات على حكامه بعد أن أدار

كل منهما ظهره للآخر. فالنكتة السياسية فى النهاية دليل على الحيوية والاهتمام، ورغبة فى تجاوز الأمر الواقع وعدم الاستسلام له. ومن كثرة التعود على المهانة فى العقود الثلاثة الأخيرة تعود الجسد العربى على المزيد منها بعد أن احتلت عاصمة عربية فى الثمانينيات وأخرى فى التسعينيات. وباقى العواصم تحاصر أو تهدد حتى تنتهى أسطورة العرب فى التاريخ.

والطعنة الثامنة: عزلة بعض الأقطار وعدم تأثيرها فى السياستين المحلية والدولية. فهى جزر فى محيط أو سواحل ممتدة على قاراته، مطحونة بالانقلابات العسكرية يقودها مرتزقة أجانب أو بحروب أهلية بين أمراء الحروب. والشعب يعانى من الفقر والجفاف. هم أعضاء فى الجامعة العربية، ومحسوبون على الأمة العربية ولكن ما باليد حيلة «العين بصيرة واليد قصيرة». وما لا يستطيع أن يقدم العون لنفسه كيف يستطيع أن يقدم العون لغيره؟ بل إنه فى حاجة إلى عون الغير وكما هو الحال فى المثل الشعبى: «جبتك يا عبد المعين لتعين، لقيتك يا عبد المعين تتعان». والصغر فى الحجم الجغرافى والسكانى لا يعنى قلة فى الأهمية السياسية. وماذا عن سنغافورة الجزيرة الصغيرة والتى يعادل نتاجها القومى أربعين مرة من إنتاج مجموع العرب!

والطعنة التاسعة: السير فى المكان، «محلك سر» من الشقيقة الكبرى. فقد دام حصار العراق أكثر من عشر سنوات ثم احتلاله بعد ذلك، وهو البوابة الشرقية للوطن العربى. ولا يفيد الكلام الدبلوماسى الكثير. هو أضعف الإيمان، حديث القلب وهمس النفس. كان يمكن للشقيقة الكبرى أن تدافع عن القطر العربى المعتدى عليه من قطر عربى آخر باسم العروبة كما حدث من قبل فى الستينيات، والدعوة لمؤتمر قمة لتصفية الخلاف بين الإخوة الأعداء بدلاً من انقسام العرب بين مؤيد لتحرير القطر الصغير بالقوة الأجنبية ورافض لها حماية لمصالح الشعوب. والانتفاضة فى عامها الرابع تقوم الشقيقة الكبرى بتسهيل الحوار مع الفصائل الفلسطينية من أجل حوار أوسع مع العدو المحتل. وتستجدى العون من القوة الكبرى، وتدعو أوروبا لتفعيل دورها. ويهيب الفلسطينيون بالعالم كله لإيقاف

العدوان اعتماداً على مبادئ العدل، ونجدة للضعيف من القوى، وللمظلوم من الظالم فى عالم يقوم على أخذ الحقوق بالقوة وليس بالاستجداء، عالم لا يعترف إلا بالأقوياء، إسرائيل والولايات والمتحدة، نموذجا.

والطعنة العاشرة: هى أن الشقيقة الصغرى، لبنان، هى التى ما زالت تداوى الجراح، وتدافع المقاومة فى الجنوب عن كرامة العرب. فقد استطاعت طرد المحتل، وتحرير الجنوب، وما زالت تعمل لتحرير مزارع شبعا. وما زالت تفاوض العدو الصهيونى على إطلاق المئات من الأسرى العرب. لا تتنازل ولا تساوم. وما زالت تتمسك بالحد الأعلى فى القضية. ففلسطين قضية العرب، لا فرق بين الأراضى المحتلة فى ١٩٤٨م أو فى ١٩٦٧م. ما زالت بمجتمعها المدنى، وصحافتها الحرة، وتعدديتها الثقافية والسياسية تمثل بؤرة ضوء داخل النفق العربى المظلم. هو القلب النابض فى الجسد الهامد. ومنه قد ينطلق البعث العربى الجديد بعد أن يداوى العرب جروح الأوطان. وتنهض الشقيقة الكبرى، ويعود إليها خيالها السياسى منذ أحمس وصلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر، قلب ينبض، يضخ الدم فى الأطراف.

* * *

٩- معارك الألفــــاظ

ليست المعارك فقط هى معارك الأرض بين قوى التحرر وقوى الهيمنة، بين الفقراء والأغنياء، بين العبيد والسادة، بين المعذبين فى الأرض والمترفين فيها بل هى أيضًا معارك فى الثقافة، معارك المفاهيم والتصورات.

وقد تحول الصراع الآن من صراع القوى إلى صراع المصالح. وإذا كان صراع القوى يعبر عن نفسه بالسلاح وصراع المصالح بالاستغلال فإن الصراع الثقافى يعبر عن نفسه من خلال اللغة. فالمفاهيم والتصورات والمقولات الذهنية هى ألفاظ وتعبيرات وأسماء فى اللسان.

وإذا كانت آخر معارك العرب بالسلاح والتى قامت بها الجيوش الوطنية هى حرب أكتوبر ١٩٧٣م والتى أخذوا فيها زمام المبادرة لتحرير الأراضى المحتلة فإنها ما زالت مستمرة فى المقاومة الوطنية الشعبية فى الانتفاضتين الفلسطينيتين الأولى بالحجارة والثانية بالسلاح أو فى المقاومة الوطنية العراقية، والمقاومة الوطنية الأفغانية، والمقاومة الوطنية الكشميرية، والمقاومة الوطنية الشيشانية.

وإذا كان العرب خسروا معاركهم الاقتصادية فى التنمية المستقلة، وازدادوا تبعية للقوى الكبرى فى المال والاقتصاد، وازدادوا فسادًا فى الداخل بالاعتماد على القطاع الخاص دون تمثل قيمه الليبرالية فى المنافسة الحرة، ووضع قوانين لها تضمن حرية السوق، وإذا كانوا أيضًا قد أوشكوا على خسارة معاركهم السياسية أيضًا من الدول أو التكتلات الكبرى، بل إن المكسب فى الرأى العام الدولى بدأ ينحسر بتردد أوروبا فى نقدها لجدار الفصل العنصرى وإحالة الموضوع إلى محكمة العدل

(*) جريدة الاتحاد: ٢٨ فبراير ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٢٦ فبراير ٢٠٠٤م.

الدولية، وإذا كانت الثقافة العربية، وهى آخر حصن فى الصمود، برفضها التطبيع مع الكيان العنصرى، قد بدأ أيضًا شقها بثقافة السلام والأرض محتلة فإن المعركة الآن تدور على مستوى الألفاظ. والألفاظ ليست مجرد كلمات وأصوات وعبارات بل إنها تدل على الفكر الذى وراءها، وتكشف عن المضمون الذى تعبر عنه، وتهدف إلى الغاية المقصودة منها. لذلك كان الله هو «الكلمة»، وكانت «الكلمة» مع الله.

تبدلت الألفاظ فى الإعلام العربى فى الآونة الأخيرة بالنسبة للمقاومة الوطنية العراقية والمقاومة الوطنية الفلسطينية. فالشىء الواحد له لفظه الذى يعبر عنه من منظور المقاومة الوطنية وله لفظ آخر من منظور دول الاحتلال، ولفظ ثالث من منظور نظم الحكم العربية التى تريد أن تكون محايدة بين المقاومة الوطنية وقوات الاحتلال، ومحاصرتها بين مطرقة الولايات المتحدة وسندان الشعوب.

فبالنسبة للمقاومة العراقية المقاومة الوطنية هى الإرهاب. وفى رأى نظم الحكم القتال للمساواة بين الطرفين المتنازعين، ودون أخذ موقف لصالح فريق دون فريق. وقوات الاحتلال هى قوات التحرير والخلاص من حكم الطغاة. وفى نظر النظم الحاكمة هى قوات التحالف، لفظ محايد لا يبين تحالف من ضد من، دون أخذ موقف يعطى شرعية للمقاومة. وخسائر القوات الأمريكية والبريطانية هى خسائر عراقية وكأن الذى يقود الطائرات المروحية عراقيون وليسوا أمريكيين. وهى مجرد خسائر فى الأرواح فى رأى النظم الحاكمة، لا فرق بين عراقى يرضخ تحت الاحتلال وأمريكى يحتل أراضى الغير. والمواطنون العراقيون الذين تجمعهم صفة المواطنة على حد سواء، فى السراء والضراء، هم سنة وشيعة وأكراد وتركمان من أجل تأكيد التجزئة فى الواقع وفى الذهن. وفى رأى نظم الحكم طوائف وأعراق وملل وصفا لواقع متخليا عن المثال. والتعددية السياسية والثقافية هى التقسيم والتوزيع للمناصب بين الطوائف والأعراق لخلق تناحر وصراع وهمى بينها ونسيان التناقض الرئيسى بينها وبين الاحتلال. وهى الفيدرالية فى رأى نظم الحكم اعترافا بواقع، فيدرالية تقوم على أساس عرقى وطائفى، شيعة فى الجنوب، وسنة فى

الوسط، وأكراد فى الشمال، وليست فيدرالية بمعنى اللامركزية فى الحكم كما هو الحال فى النظم الفيدرالية فى ألمانيا وإسبانيا والولايات المتحدة. ومن ثم تتبدل معانى الألفاظ طبقا للمنظور، المقاومة الوطنية أو قوات الاحتلال الأجنبى أو نظم الحكم العربية.

ويحدث نفس الشيء بالنسبة للقضية الفلسطينية تتبدل فيها الألفاظ عن قصد للتخلى عن المواقف الوطنية؛ لأنها غير واقعية تزيد من المخاسر والآلام لشعب فلسطين والاقتراب من ألفاظ نظم الحكم السياسية المحايدة فى معظم الحالات دون أن تتجرأ بعد على تبنى ألفاظ الكيان الصهيونى. فجيش الاحتلال الصهيونى هو فى نظره قوات الدفاع. وفى رأى النظم السياسية هى القوات الإسرائيلية. والأراضى المحتلة هى أرض المعاد. وفى رأى النظم العربية هى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس، مجرد وصف جغرافى منذ أن كان ما تبقى من فلسطين تابعًا للأردن شرقًا وغربًا. والكيان الصهيونى أو فلسطين المحتلة هو أرض إسرائيل. وفى لغة نظم الحكم هى إسرائيل اعترافا بالأمر الواقع. ولا ضير من وضعها فى الخرائط فى الصحف وأجهزة الإعلام بل وفى الكتب المدرسية. والمستوطنون هم شعب إسرائيل يعودون إلى أرض الآباء والأجداد فى يهودا والسامرة. وفى رأى نظم الحكم هم الإسرائيليون، وصفًا سياسيًا محايداً. وجدار العزل العنصرى هو السياج أو السور الواقى ذريعة للاستيلاء على الأرض باسم الأمن. وهو فى لغة نظم الحكم السور العازل كما هو الحال فى عمليات البناء والتشييد. وربما يكون أسمنته ورمله وحديده من القطاع الخاص العربى. والشهداء هم الانتحاريون والمقاومة الفلسطينية هو الإرهاب. وفى رأى نظم الحكم العمليات بعد أن وقع خلاف وتردد بين الفقهاء والعلماء حول كيفية وصف العمليات الاستشهادية. وحركة التحرر الوطنى الفلسطينى هى النزاع أو الخلاف العربى الإسرائيلى، وكأن الأمر مجرد خلاف بين وجهتى نظر وليس بين تحرر واحتلال. وفى رأى نظم الحكم العربية وإعلامها الرسمى الصراع العربى الإسرائيلى. وهكذا يبدأ اللعب بالألفاظ فى أهم قضية، القضية الفلسطينية، قلب النضال العربى وبؤرته.

وليس هذا جديدا بل حدث إبان التحولات الرئيسية فى تاريخ الوطن العربى. فهو من وجهة نظر بريطانيا الشرق الأوسط أو الشرق الأدنى بالنسبة للشرق الأقصى وهو الصين أى مدى قربه أو بعده عن بريطانيا. وهو بالنسبة للغة الإعلام الرسمية التابعة لأنظمة الحكم العربية العالم العربى أو البلاد العربية أو البلدان العربية أو الدول العربية أو الأقطار العربية. والثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢م هى بالنسبة لأعدائها انقلاب الجيش، وبالنسبة لباقى الأنظمة العربية المحافظة، النظام المصرى أو الحكم المصرى الجديد. والثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩م هى الثورة الإيرانية دون وصفها بالإسلامية خوفا من الإسلام الثورى. وهى فى لغة نظم الحكم العربية الحكم الإيرانى دون وصفها بالثورة الإيرانية أو الإسلامية خوفا من لفظ الثورة بعد أن انقلبت الثورات العربية على نفسها وتحولت إلى ثورات مضادة من داخلها.

إن المعركة الآن ليست فقط المعركة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية بين قوى الهيمنة وقوى التحرر بل أيضًا على مستوى اللغة والمفاهيم والألفاظ خاصة فى المجتمعات التقليدية التى مازالت تتمسك باللغة فى مواجهة قوى الهيمنة وقدرتها على تزييف المصطلحات. فالهيمنة الجديدة بعد نهاية عصر الاستقطاب وتفرد قطب أوحد بالعالم سميت بالعولمة. وفى لغة أنظمة الحكم نظام العالم الجديد والرأسمالية واستفرادها بالعالم باعتبارها النظام الوحيد الصالح لكل الشعوب بعد نهاية المعسكر الاشتراكى وانهياره فى عدة أشهر، ابتداء من الغرب زحفا نحو الشرق هى نهاية التاريخ لإيقاف عقارب الساعة. فلم تعد هناك مرحلة بعد الرأسمالية، ولم يعد الاستعمار أعلى مرحلة من مراحل الرأسمالية. وفى منظور أنظمة الحكم هى الاقتصاد الدولى وبنوك الاستثمار ومنظمات التعاون ومنظمة التجارة العالمية واتفاقية الجات، وصفًا موضوعيّا محايدًا بلا موقف مضاد. وصراع المصالح بين المركز والأطراف، بين مجموعة الثمانى الأكثر تصنيعًا وبين دول العالم الثالث هو صراع الحضارات للتعمية والتغطية والتستر. وهى فى لغة الإعلام الرسمية حوار الحضارات من أجل بيان فضيلة التسامح والتعاون والاعتراف بالآخر والانفتاح ضد تهمة الانغلاق على الذات ورفض الغير. وإضعاف الدولة وتخليها عن الإرادة

الوطنية وحماية صناعاتها هى المجتمع المدنى ومؤسساته المستقلة الذى يقف ضد طغيان الدولة ومؤسساتها المزيفة وأجهزة أمنها القهرية. والمواطنة، وتساوى المواطنين فى الحقوق والواجبات دون تمييز بين ذكر وأنثى هى قضية حقوق المرأة «الجندر» كأحد مظاهر القهر السياسى والاجتماعى. وهى فى نظر الحكومات قضية الأحوال الشخصية وضرورة إصلاحه. والفساد وتهريب الأموال، ونواب القروض واحتكار تجارة الحديد والغلاء المفتعل للأسعار، وتعويم العملة الوطنية هو القطاع الخاص وضرورة تنشيطه من أجل مواكبة الاقتصاد العالمى وقوانين السوق وحرية المنافسة. وفى رأى نظم الحكم هو الرأسمالية الوطنية القادرة على تجاوز خسائر القطاع العام وبيروقراطية الدولة. ونقل المعلومات بدلا من إبداعها هو ثورة الاتصالات عن طريق شبكات المعلومات. وفى رأى نظم الحكم تحديث التعليم والإدارة وطرق حفظ الأرشيف.

وهكذا يتم تزييف معانى الألفاظ من أجل التشويش على الثقافة، وتمييع المواقف، واختلاط الأمور، وغموض الرؤى. ويفقد العقل قدرته على التفكير السليم، والتمييز بين الأشياء. ويضيع من الخيال قدرته على الحلم. وتضعف الإرادة لإيجاد بدائل عما هو مطروح.

ما زالت الثقافة العربية قادرة على الصمود فى معركة الألفاظ. والعرب أهل فصاحة وبيان. ما زالوا يحسنون الكلام حتى لو اختفت الأفعال واتهموا بأنهم أصحاب أقوال دون أفعال ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣]. وبالرغم من تغيير جوته آية يوحنا «فى البدء كانت الكلمة» إلى «فى البدء كان الفعل» إلا أن الكلمة نفسها فعل (كن فيكون) والفعل كلمة تتحقق.

إن الثقافة العربية، لغة وشعراً، ما زالت هى القادرة على الصمود أمام الانحناء المتزايد أمام قوى الهيمنة. ومهما استولوا على أحمس وصلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر وعلال الفاسى وبن بركة وسيد قطب وشهدى عطية وشهداء المقاومة الوطنية فلن يستطيع عجم اليوم وبرابرته الاستيلاء على سيبويه والخليل بن أحمد والمتنبى وفارس بنى حمدان.

١٠- بمناسبة الذكرى الأولى للاحتلال:
هل تغير النظام فى العراق؟

وهاجت ذكريات إطلاق الصواريخ على بغداد ليلة ٢٠ مارس ٢٠٠٣م من قوات الإمبراطورية الأمريكية الجديدة بطريقة القرن التاسع عشر والغزو الاستعمارى القديم منذ قضاء بريطانيا على إمبراطورية المغول فى الهند، وربما أيضًا قبلها منذ انهيار الأندلس وسقوط غرناطة ونهاية المرحلة الإسلامية فى تاريخ العالم وبداية المرحلة الغربية، بما يسمى بالاستكشافات الجغرافية وحصار أوروبا لنصف الكرة الغربى، اعتمادًا على خرائط العرب ثم التفافها عبر أفريقيا إلى جنوب آسيا بفضل الملاحين العرب فى بحر عمان. فالإمبراطورية الأمريكية الجديدة هى وريثة أوروبا الاستعمارية القديمة، ووريثة الإمبراطورية الرومانية القديمة. والعولمة هى أحد مظاهر هذا الانتشار الأوروبى الأمريكى خارج الحدود الجغرافية للقارتين إلى القارات الثلاث، أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

وبعد عام انكشف المستور، وبان الكذب، امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل. وحتى لو كان ذلك صحيحًا فإسرائيل تملكها ولم يغزها أحد. كان الدافع هو تحقيق أطماع الإمبراطورية الأمريكية الجديدة بالهيمنة على الوطن العربى والعالم الإسلامى حتى آبار النفط فى بحر قزوين بعد أن اطمأنت على نفط الخليج، وحصار روسيا والصين، وإكمال مشروع إسرائيل الكبرى، وإجهاض احتمال نشأة قطب ثان يواجه القطب الأول ويتحداه من أجل عالم متعدد الأقطاب.

وبعد النصر الزائف، والوصول إلى بغداد بفعل الخيانة والغدر، والخلط بين

(*) جريدة الاتحاد: ٢٧ مارس ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٢٥ مارس ٢٠٠٤م.

الدفاع عن النظام والدفاع عن الوطن، لم يخضع شعب العراق. واستمرت المقاومة منذ اليوم الأول للعدوان. ومازالت فى تصاعد مستمر. بل وأصبحت بؤرة للمقاومة العربية الإسلامية ضد الخطر المشترك. ولم يفت فى عضدها القبض على الرئيس العراقى السابق بل ازدادت قوة وعنفوانًا. وتعاطف العرب والمسلمون معها، وازدادت خسائر قوات العدوان حتى فاقت بعد نهاية المعارك خسائر الحرب ذاتها. وازداد العنف. وتجلى ذلك فى إسپانيا. واستطاع تحويل نظام الحكم من اليمين إلى اليسار، وإجبار إسپانيا على سحب قواتها من العراق، بداية لتفكك قوى الاحتلال كما انسحبت القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان بفضل المقاومة اللبنانية وبؤرتها «حزب الله».

صحيح أن الرئيس العراقى السابق كان نموذجًا للحاكم المطلق، بتصفية الخصوم فى الداخل، وإقصاء المعارضة، والتصفيات الجسدية، والإعدامات العلنية، والمقابر الجماعية، واغتيالات زعماء الشيعة رموز المقاومة. وهاجر أبناء العراق وكونوا بؤرا للمعارضة خارج الأوطان مستقلة أو بالتعاون مع القوى الأجنبية، وبالتحالف مع الإمبراطورية الأمريكية الجديدة. كان هو الرئيس العربى الذى وصل نظامه إلى الحد الأقصى من نظم التسلط والقهر حتى خشيه الجميع. فازدوج الخطاب بين التأييد العلنى والرفض السرى الذى تسمعه أجهزة المخابرات، فينكل بأصحابه حتى لو كان الهمس بين الأصدقاء فى الاجتماعات المغلقة أو بين الأحباء فى غرف النوم. فعين الله ساهرة لا تغفل، ترى وتسمع وتبصر كل شىء، وتعلم وتقدر وتريد ما تشاء. ولا فرق بين عين الله وعين السلطان.

وأغرى المؤيدين له فى مهرجانات المربد، والصحافة العربية المشتراة داخل الوطن العربى وخارجه، وبعض الأحزاب القومية والناصرية. ورسمت له صورة البطل المنقذ، خليفة عبد الناصر. فبغداد تملأ الفراغ الذى تركته القاهرة. وتزعمت جبهة الصمود والتصدى. وأصبح البديل الجهورى للنظام العربى المستسلم. يثير الخيال والرعب فى آن واحد.

ومع العدوان فى الداخل على شعب العراق أضيف العدوان فى الخارج على

الثورة الإيرانية بإيعاز من الإمبراطورية الأمريكية الجديدة للتخلص من الثورة الإسلامية فى إيران المناهضة للشيطان الأكبر، ولتصفية ثانى أكبر قوة عربية، وثانى أكبر جيش عربى، وحتى تطمئن إسرائيل. فقد انهارت الجبهة الشرقية بالقضاء على الثورة الإسلامية فى إيران، وتدمير جيش العراق. ثم وقع العدوان الثانى على الكويت للاستيلاء على الثروة البترولية ومنابع النفط دون مراعاة للجوار أو للقومية العربية، وهى نظريًا الأيديولوچية الحاكمة فى العراق، وخرقا للأمن القومى العربى، واتفاقية الدفاع العربى المشترك، وتجاوز القانون الدولى الذى أصبح العراق فيما بعد ضحيته عندما اعتدت عليه قوات التحالف متجاوزة الأمم المتحدة والشرعية الدولية.

وأحاط النظام نفسه بهالة من القداسة والقوة. وأعلن عن بناء مدينة العلم فى ضواحى بغداد، واستقدام أى عالم عربى لبناء عصر علمى عربى جديد. ونشرت أجهزة الإعلام الكثير من الروايات عن مصانع العراق، والنهضة العلمية فى العراق، والمدفع العملاق، وأسلحة الدمار الشامل بعد أن استخدم البعض منها فى حلابجة. فصواريخ العراق قادرة على ضرب إسرائيل وحرق نصفها ثم يزايد المستمعون لا بل حرقها كلها. ثم تحول الكلام إلى ذريعة للعدوان عليه. ولم تحرق إسرائيل بل احتُل العراق.

وأتى نظام جديد بعد العدوان على العراق، والتخلص من نظام القهر والتسلط والطغيان. وألقى القبض على رأس النظام بطريقة مهينة أمام أجهزة الإعلام، والضابط الأمريكى يعبث بشعر رأسه، ويفحص فمه المفتوح. فهل اختلف النظامان، القديم والجديد، العراقى والأمريكى، صدام وبريمر فى بغداد؟

بدأ النظام الأمريكى فى بغداد وممثله السامى بريمر بحل الجيش وهو عصب الدولة المركزية. وحول ما يزيد على المليون عراقى إلى عاطلين. ثم حل الحزب الذى كان يحكم العراق منذ ثورة يوليو-تموز ١٩٥٨م أى ما يقارب نصف قرن. فازداد عدد العاطلين مئات ألوف أخرى. ثم استبدل كبار المسئولين فى الدولة بآخرين فازداد عدد العاطلين من النخبة الحاكمة. وفضلوا الخوف من النظام السابق

على الجوع فى النظام الحالى. وأقصى العاملين بالإعلام وأتى بآخرين. ولا فرق بين الاثنين فى دفاع كل فريق عن النظام وغياب النقد. اختلف السيد والعبد واحد.

وفى كل يوم يتم إهانة الشعب العراقى، اقتحام المنازل، وتفتيش النساء، وتقييد الرجال من الخلف، وعصب الأعين، والدوس بالأقدام. وزاد معدل الجرائم بفعل جنود الاحتلال أو جماعات السطو المسلح من العاطلين والناقمين. وانتشرت حوادث الاغتصاب. وحن العراق إلى أمن الطريق، وتوفر الحاجات الأساسية، وضمان الرزق. القهر واحد، قهر وأمان، وقهر وخوف.

تغير النظام ولكن القهر واحد. وتعددت الأسباب والموت واحد. حاكم قاهر وطنى من داخل البلاد، وحاكم قاهر أجنبى من خارج البلاد. كل منهما يأمر وينهى، يعيّن ويعترض. فالقهر لم يتغير فى النظامين، القديم والجديد. وقهر الوطنى أولى من قهر الأجنبى إذا كان من القهر بُد.

بل لقد بدأ الحنين إلى النظام السابق، والترحم على أيامه. كان الغذاء موفورا للجميع، والعلاج فى مقدور الجميع، والتعليم قائمًا، والجامعات مفتوحة، والمكتبات عامرة، والمتاحف مصانة بالرغم من الحصار. والآن الجوع قاسم مشترك بين الناس، ينقصها الدواء، والتعليم يترنح، والجامعات تعانى، والمكتبات ما زالت خاوية، والمتاحف تحت الإعمار. وعراق التاريخ أفضل من عراق بلا تاريخ.

كان العمل موفوراً للجميع. الرزق متاح، والرواتب مكفولة، بالرغم من الحصار وغلاء الأسعار، والتضخم، وانهيار الدينار. والآن تعم البطالة. ويتحول العاطلون إلى جماعات للجريمة المنظمة فى مجتمع أصبح فيه العنف الخارجى والداخلى عادة متبعة ووسيلة لتحقيق الأغراض بما فى ذلك توفير الخبز. انتهى الوطن وجاع المواطن. وضاعت الدولة فعرى الناس.

كانت كرامة المواطن محفوظة باستثناء الخوف. وكان الأمن فى الطرقات العامة مستتبًا، والشرطة فى كل مكان لأمن المواطن وأمن الدولة على حد سواء. ثم تم انتهاكها من جنود الاحتلال كما كانت تنتهك من شرطة النظام. تفتح المنازل عنوة،

ويقبض على الرجال بل وتغتصب النساء طبقا للتقارير الأمريكية عن حالة الأمن. ويُضرب الشباب، ويُداسون بالأقدام تحت ذريعة الانضمام إلى المقاومة. انتهكت كرامة الوطن، وضاعت كرامة المواطن.

كان العراق مصنّعًا، معمّرًا، نموذجا للتنمية عند كثير من المراقبين. نفطه لأهله من أجل التنمية بالرغم من الحصار. ثم أصبح العراق خرابا فى حاجة إلى إعمار. وتتقدم الشركات الأمريكية والأجنبية لعقود الإعمار، كل دولة حسب مساهمتها فى التخريب. من ضرب أكثر يعمّر أكثر. ومن آثر الشرعية الدولية فلا تثريب عليه ولكن فليتحمل وزره، فلا نصيب له فى عقود الإعمار.

كان العراق وطنًا موحدًا باستثناء قضية الأكراد التى كانت فى طريق الحل عن طريق الحكم الذاتى أو الإدارة الذاتية داخل العراق الموحد مع قدر كبير من اللامركزية. وهو متفق مع الرؤية الوطنية والموقف الإسلامى. ثم أصبح العراق مهددا بالتجزئة والتفتيت بين سنة وشيعة وأكراد وتركمان. ثم يأتى الدور على سوريا حتى تصبح إسرائيل أقوى دولة طائفية عرقية فى المنطقة. تأخذ شرعية جديدة من الجغرافيا السياسية للمنطقة، بدلا من الشرعية القديمة القائمة على أساطير العودة والشعب المختار وأرض المعاد التى أعطاها لها هرتزل فى أواخر القرن التاسع عشر والتى لم يعد يصدقها أحد.

كانت إسرائيل تخاف من أسلحة الدمار الشامل، صدقًا أو كذبًا، والتى تروج حول العراق. وقد أطلقت عدة صواريخ سكود عليها لأول مرة فى تاريخها فى حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م. وتتحيّن الفرصة للرد والانتقام. ثم لم يعد العراق يخيف أحدًا. بل عاد بعض اليهود العراقيين للبحث عن ممتلكاتهم وهو ما لم يُسمح به للفلسطينيين الذين أجبروا على ترك الديار. بل وتشترى إسرائيل أراضى فى شمال العراق من أجل توطين اليهود الأكراد. ونقل عن أن شارون هو أول من رأى الرئيس العراقى فى الأسر كى يشفى الغليل.

إن تغيير النظام الفعلى فى العراق لا يتم بإحلال نظام محل نظام، نظام عراقى بنظام أمريكى وكلاهما قاهر، يعانى منهما شعب العراق. بل يتم خلق نظام جديد

ديموقراطي تعددي حر يحفظ للوطن وحدته، وللعراقيين كرامتهم، ويضمن لهم ثرواتهم من أجل إعمار البلاد. فيعيش فيه المواطنون فى أمن وسلام. ويكون البوابة الشرقية للأمن العربي. ويكوّن جبهة شمالية مع سوريا وإيران، عمقًا استراتيچيًا للوطن العربي من أجل حشد القوى لصالح معركة العرب الأولى فى فلسطين.

إن تغيير النظام فى العراق لا يكون فى الشكل بل فى المضمون، ولا فى العرَض بل فى الجوهر، ولا فى اسم الحاكم أو ألقابه بل فى بنية العراق السياسية، من حكم الفرد إلى حكم الشعب، ومن حكم القبيلة والعشيرة إلى حكم الدولة والوطن. وهو ما لا يأتي بتغيير رأس النظام بل بتغيير مسار التاريخ.

* * *

١١- لا سنة، ولا شيعة، بل مقاومة وطنية

فى وسط الإحساس العام باليأس والإحباط والعجز وكراهية النفس والإحساس بالذل والامتهان الذى عم الوطن العربى للعام الرابع منذ بداية الانتفاضة الأولى فى فلسطين، انتفاضة الحجارة فى ١٩٨٧م ثم الانتفاضة الثانية، انتفاضة السلاح فى ٢٠٠٠م وهى وحيدة تقاوم جاءت المقاومة الوطنية العراقية التى لم تتوقف منذ الاحتلال الأمريكى البريطانى لأراضى العراق منذ أبريل العام الماضى تنشط وتقوى تدريجيًا حتى بلغت الذروة بعد عام حركة مقاومة وطنية مشروعة ضد الاحتلال الأجنبى الذى حل بالبلاد تحت ذريعة القضاء على أسلحة الدمار الشامل فلم يجد. وكانت الذريعة فرية وبهتانًا. وإسرائيل مدججة بالسلاح التقليدى وغير التقليدى وتعلن ذلك على الملأ، وترفض التوقيع على اتفاقية عدم انتشار الأسلحة النووية بالرغم من توقيع العرب عليها. وكانت الذريعة الثانية القضاء على نظام قهرى استبد الشعب العراقى ويمثل خطرًا على قيم الحرية والديموقراطية. وأمريكا هى التى خلقته ودعمته وأيدته. ودفعته إلى طعن الثورة الإسلامية فى إيران فى الظهر بعد عامها الأول فى حرب دامت ثمانى سنوات بلا هدف إلا التدمير المتبادل لأكبر قوتين عربية وإسلامية فى وسط الوطن العربى وفى قلب العالم الإسلامى، الدعامتان الرئيسيتان للجبهة الشرقية مع سوريا ضد الكيان الصهيونى فى فلسطين. وكان أول الفرحين للاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق هى إسرائيل وأول الزائرين للعراق بعد الاحتلال هم يهود العراق باحثين عن ممتلكاتهم السابقة منذ ١٩٤٨ والفلسطينيون فى الخيام ليس لهم حق العودة أو التعويض. وكان أول من رأى الرئيس العراقى السابق بعد القبض عليه هو رئيس الوزراء الإسرائيلى تشفيا بعد أن سقطت صواريخ العراق على إسرائيل لأول مرة أثناء العدوان الأمريكى الأول على العراق بدعوى تحرير الكويت فى يناير ١٩٩١م، تركيع العراق إذن كان

هو الهدف غير المعلن عنه مثل تركيع ليبيا ومحاولات تهميش مصر وإخماد صوت سوريا حتى يدخل العرب جميعا فى بيت الطاعة

بدأت المقاومة الوطنية فى العراق منذ يوم الاحتلال الأول بعد أن تحول جيش العراق إلى شعب العراق وانخرط فيه وعاد إليه. فالجيش من الشعب، والشعب رحم الجيش. وبدلا من تدميره فى معركة غير متكافئة الأطراف فى البر والجو والبحر كان من الأفضل التحول من حرب المواجهة إلى حرب العصابات، ومن حرب الجبهات بين الجيوش المنظمة التى تحسنها قوات الاحتلال إلى حرب الكر والفر التى يحسنها العرب. وهو ما تم من قبل فى حرب ڤيتنام بعبقرية آسيا فى شرقها، والعراق فى آسيا فى غربها، والعدو واحد. والنتيجة أيضا واحدة، هزيمة أمريكا بعد وقوعها فى مستنقع ڤيتنام ، والآن هزيمة أمريكا بعد وقوعها فى مستنقع العراق.

وتحدثت أجهزة الإعلام فى الغرب أولاً ثم تناقلته وكالات الأنباء العربية عن مقاومة المثلث السنى، بغداد والرمادى والفلوجة. وألصقت المقاومة بالسنة حتى تغير الشيعة فتثور على السنة. وبدأت حوادث اغتيالات الشيعة فى المساجد والتفجير في المواكب حتى يتم الإيقاع بين السنة والشيعة. ويدمر العراقيون وطنهم بأيديهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الحشر: ٢]. ولما عظم نضال الفلوجة وهى على نفس تسمية «الفالوجة» أثناء الحصار الصهيونى لها وعبد الناصر ضابط فيها فى ١٩٤٨م وهى الآن فى فلسطين المحتلة، وأصبحت رمزاً للمقاومة الوطنية انضم إليهم إخوتهم فى الوطن، الشيعة، بقيادة المناضل الشاب مقتدى الصدر وجيش المهدى. فتحولت المقاومة المحدودة إلى انتفاضة شعبية مسلحة فى معظم مدن العراق. تسقط المروحيات، وتدمر العربات والمركبات والدبابات، ويتساقط جنود الاحتلال، ڤيتنام عربية جديدة. وتناقلت أجهزة الإعلام الغربية ثم العربية، المقاومة السنية فى المثلث السنى، والمقاومة الشيعية فى النجف وكربلاء حتى ينشق الصف وتصبح المقاومة طائفية وليست وطنية. والحقيقة أن المقاومة لا سنية ولا شيعية بل هى مقاومة وطنية ضد الاحتلال وقودها شعب العراق بكل أطيافه السياسية والمذهبية. ولا جريمة أن تنضم إليها المقاومة العربية من مصر وسوريا والأردن ولبنان واليمن. فمعركة العرب واحدة. وما ظنه الناس فى الداخل

والخارج على أنه انتهى إلى غير رجعة، القومية العربية، ما زال حالاً فى النفوس، يحرك القلوب، ويثير الذاكرة، مجد العرب فى الخمسينيات والستينيات عندما كانت القومية العربية حركة تحرر وطنى. ولا جريمة فى أن تنضم إليها المقاومة الإسلامية من إيران أو پاكستان أو أفغانستان. فقد وحد الإسلام كحركة تحرر وطنى بين المجاهدين. وكما جاهد «العرب الأفغان» فى البوسنة والهرسك وكوسوڤا وألبانيا وأفغانستان وكشمير فلا ضير أن يجاهد «الأفغان العرب» أى الآسيويون المسلمون فى العراق وفلسطين. أمة واحدة، وجهاد واحد، وعدو مشترك.

إن هدف أمريكا قبل أن تغادر العراق هو زرع الطائفية فى العراق من أجل حرب أهلية بين السنة والشيعة والأكراد والتركمان فى العراق، صراعا على السلطة والثروة. فينتهى العراق جيشًا ونظامًا بالعدوان الأمريكى، ثم ينتهى العراق شعبًا ومقاومة بالحرب الأهلية. فيُقسّم العراق ويتحول إلى ثلاث دول طائفية عرقية. ويستمر مخطط التقسيم فى سوريا وشبه الجزيرة العربية والمغرب العربى حتى يتحول الوطن العربى إلى فسيفساء عرقى وطائفى ومذهبى، سنة وشيعة، وعرب وبربر وأكراد، ومسلمين وأقباط حتى تصبح إسرائيل هى أقوى دولة طائفية فى المنطقة تأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية والتكوين الثقافى للمنطقة، شرعية من الداخل، بدلاً من الشرعية القديمة التى أعطاها لها هرتزل فى «الدولة اليهودية» فى أواخر القرن التاسع عشر، الدولة القومية الغربية، دولة شعب الله المختار تحقيقًا للوعد بالأرض وبالمدينة وبالهيكل، وهى الأساطير المكونة للدولة الأولى والتى لم يعد يصدقها أحد. وبالتالى يتحقق هدف المحافظة الجديدة المسيطرة فى الولايات المتحدة واليمين الصهيونى فى إسرائيل على تحقيق الإمبراطورية المشتركة، أمريكا الكبرى من الغرب إلى الشرق، وإسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل.

بقى الإخوة الأكراد، الإخوة فى الوطن وفى الدين. لقد عاش العرب والأكراد أمة واحدة فى إطار من الأخوة الإسلامية وجاهد الأكراد مع العرب إبان حركة التحرر الوطنى العربى. ومنهم صلاح الدين فى السلاح، وأحمد شوقى فى الشعر، وكرد على فى اللغة. وليست العروبة بأم وأم إنما العروبة هى اللسان. فكل من تكلم العربية فهو عربى. ويسمع العالم كله عن مقاومة المثلث السنى وقلبه

الفلوجة، ومقاومة الشيعة فى النجف وكربلاء. ويتساءل الناس وأين الموصل وكركوك والسليمانية؟ وأين الأحزاب الكردية، حزب العمال، والحزب الوطنى، وقد سمع الناس عن الاقتتال بينهما على السلطة فى شمال العراق أو عن الاقتتال بينهم وبين النظام فى العراق أو بينهم وبين الأتراك ولم يسمع أحد عن قتالهم ضد قوات الاحتلال الأمريكى البريطانى. لقد رفضت تركيا مرور قوات الاحتلال على أراضيها لغزو العراق. فالوطن واحد، والاحتلال واحد لا فرق بين عراقى وتركى. لن ينفع الأكراد اعتمادهم على قوات الاحتلال لتحقيق مطالبهم القومية؛ لأنها مازالت حليف تركيا وروسيا. ولا تريد تكوين دولة كردية تقدمية اشتراكية تعيد سيرة الخمسينيات والستينيات. ولن ينفع الأكراد حيادهم بين الاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق والمقاومة الوطنية العراقية بعنصريها الرئيسيين، السنة والشيعة. إن الباب مفتوح أمام الإخوة الأكراد من أجل الانضمام إلى المقاومة الوطنية فى العراق بفتح جبهة فى الشمال. مقاومة وطنية فى عموم العراق هى القادرة على الوقوف أمام المخطط الأمريكى لتجزئة العراق إلى ثلاث دول، كردية فى الشمال، وسنية فى الوسط، وشيعية فى الجنوب. إن مستقبل الأكراد ليس فى وطن مستقل ولا فى فيدرالية بمعنى التقسيم بل وطن عراقى موحد متعدد الأعراق والثقافة. فالوحدة تتضمن التعددية ولا تنفيها. والتعددية لا تعنى التقسيم بل اللامركزية والديموقراطية. الوحدة قوة والتجزئة ضعف. والإخوة الأكراد أقرب إلى العرب والأتراك والإيرانيين منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو الغرب باسم حقوق الأقليات.

فالأكراد ليسوا أقلية فى الوطن العربى ولا فى العالم الإسلامى بل هم جزء من النسيج التاريخى المتعدد الذى يكوّن الأمة الإسلامية.

إن خطأ قوات الاحتلال الأمريكى البريطانى أنها اعتبرت أن حاضر العراق ينتهى بنهاية النظام السياسى حتى ولو كان أعتى النظم السياسية إغراقا فى التسلط والقهر، دون أن تأخذ فى الحسبان تاريخ العراق أى شعب العراق الذى يرفض كل صور القهر سواء كان قهر الوطنى من الداخل أو قهر الأجنبى من الخارج. فالقهر واحد بصرف النظر عن مصدره.

تصورت الولايات المتحدة أن العراق مجرد نظام سياسى، فارغ من أى شعب فاختفى النظام وظهر الشعب. وقد ظنت إسرائيل من قبل أن فلسطين وطن فارغ، بمجرد القضاء على النظام البريطانى أثناء الاحتلال أو السلطة الوطنية بعد الاحتلال فظهرت المقاومة الفلسطينية تجسد نضال الشعب الفلسطينى.

وكما استطاعت المقاومة الفلسطينية وحدها الإبقاء على الشرف العربى، والدفاع عن الكرامة العربية، كذلك استطاعت المقاومة العراقية أن تثبت أن النظم ذاهبة ولكن الشعوب باقية. وفى كلتا الحالتين النظام العربى هو الخاسر فى فلسطين وفى العراق. فالشعوب هى التى تتحرك وليست النظم، والتنظيمات الشعبية هى التى تقاوم وليست الجيوش النظامية. عصر عربى جديد، يعود الحق فيه إلى أصحابه. وتسترد فيه الشعوب المبادرة التاريخية من النظم العربية التى خنقته على مدى نصف قرن حتى أضاعت استقلاله الوطنى، ومن النظام العالمى الجديد، العالم ذى القطب الواحد، عصر الإمبراطورية الأمريكية وإسرائيل الكبرى. فكم من إمبراطوريات انهارت وكم قرنا عاشت إمارات الصليبيين فى الشام.

إن المقاومة الوطنية فى العراق والتى أصبحت الفلوجة رمزًا لها تتلوها النجف وكربلاء إنما هى بداية هبة شعبية شاملة فى مدن العراق. فالعراق بتاريخه وحضارته موجود كشعب وإن توالت عليه النظم السياسية. ولعل ذلك يكون بداية للمقاومة الفلسطينية أيضا بالنصر طالما أن شعب فلسطين باقٍ ومقاومته الوطنية فى القلب.

* * *

خامساً: العجز العربى

١ـ بين رفض الواقع وعجز القلم.

٢ـ الوطن المستباح.

٣ـ أمـة المستغيثين.

٤ـ إلى مؤتمر القمة.

٥ـ هل انتهى النظام العربى؟

١ ـ بين رفض الواقع وعجز القلم

أصبح العجز العام سمة العصر، وفقد زمام المبادرة التاريخية التي تجلت منذ احتلال البلاد لمقاومة الاستعمار أولا في النصف الأول من القرن الماضي ثم الاستعمار والصهيونية ثانيا في النصف الثاني منه. وأصبحت الأفعال ردود أفعال على ما يحدث في الخارج والداخل. فلا يقام بفعل إلا كرد فعل، وقد مل الجميع انتظار الموت. فوقوع الموت أفضل من انتظاره. والموت البطيء أقسى على النفس من الموت الفجائي. الأول إذلال للنفس، وإماتة للروح قبل سكون الجسد. والثاني قضاء على النفس والبدن معا دون إذلال وامتهان.

فبعد حركات التحرر الوطني وقيام الدول الحديثة بدأ الدافع الحيوي في الهبوط. فالنجاح في مقاومة الاستعمار الخارجي كان أكثر ظهوراً من النجاح في بناء الدول في الداخل. فقد تولى القادة الوطنيون الذين قادوا حركات التحرر باقتدار وهمة رئاسة الدول. وعاشوا على ذاكرتهم التاريخية وعلى زعاماتهم الشخصية. فثقة الجماهير بهم ما زالت قائمة. وعبق التحرر الوطني ما زال في الآفاق، وشذا الاستقلال ما زالت تحمله الرياح.

كما نجحت خطط التنمية الأولى لصالح الجماهير فيما يتعلق بالإصلاح الزراعي، ومجانية التعليم، وتدعيم المواد الغذائية، وتحديد إيجار المساكن، وتشغيل العاطلين، ومضاعفة الدخل القومي، وزيادة معدلات التنمية، وتوفير الخدمات العامة، وإشباع الحاجات الأساسية، مهما تعثرت آليات التطبيق.

ثم انتهت الحركة إلى سكون، وبرد الدافع الحيوي، وتضخم جهاز الدولة،

(*) جريدة الاتحاد: ١ فبراير ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ٢٦ يناير ٢٠٠٣م.

وعمت البيروقراطية، ونشأت الطبقات الوسطى لتقوم بدور الأجنبى، الولاء للخارج قبل الداخل، وللربح الشخصى قبل المصلحة الوطنية، وللسلعة قبل الخدمة. وتكون القطاع الخاص تدريجيًا بما تصحبه من قيم رأسمالية فى مجتمع تقليدى. فغابت القيم الليبرالية، المساواة فى الحقوق والواجبات، حرية المنافسة، قوانين السوق لصالح الفساد، والواسطة، والتهرب من الضرائب، وتهريب رءوس الأموال، والسيطرة على الحزب الحاكم، واحتكار العمل السياسى. فأصبح الفساد هو الظاهرة الأولى فى مرحلة ما بعد الاستقلال مصحوبًا بالفقر والقهر حتى ترحم البعض على أيام الماضى، وعلى استعمار الأمس بدلاً من استقلال اليوم.

وقامت الهبات الشعبية فى كل قطر تدافع عن حقوق الشعوب ضد الفساد وغلاء الأسعار، وارتفاع مستوى المعيشة، وعموم الفقر، ونقص الخدمات. تحن إلى الستينيات، أثناء البناء الاشتراكى، وتستعيد ذاكرتها التاريخية التى لم تمت بعد، وترفض واقعها الذى لم تستسلم له، وتتطلع إلى مستقبل جديد ترنو إليه. هبات وقتية لا تبلورها معارضة، ولا عصب لها فى تنظيم سرى. تتصدى لها الشرطة والجيش فتخبو وتموت.

واحتاج النظام السياسى إلى حليف خارجى بعد أن فقد حليفه الداخلى، جماهير الشعب. فاتجه إلى الاستعمار القديم يجد فيه العون والتأييد فى صيغة أحلاف غير معلنة أو قواعد عسكرية أو تنسيق فى المواقف والجهود لمناهضة الإرهاب أى الجماعات الإسلامية المناهضة للولايات المتحدة الأمريكية ونظم الحكم الداخلية. تحولت النظم المستقلة إلى نظم تابعة خاصة بعد نهاية عصر الاستقطاب، وبداية نظام عالمى جديد ذى قطب واحد، يعطى الغذاء والسلاح والمعونات والاستثمار. بل تعدى الأمر إلى عدو الأمس وحليف اليوم، الصهيونية. وتم الاعتراف بها، والصلح معها، واستجداء المفاوضات منها. فقد النظام السياسى استقلاله فى الخارج وشعبيته فى الداخل، وأصبح محاصرا بين الضغوط الخارجية للتبعية والضغوط الداخلية للوطنية. لا فرق بين نظام سياسى فى دول عربية أو دول إسلامية. أصبح كل حاكم عربى وكأنه فى پاكستان محاصراً بين قوى الخارج وقوى الداخل، بين المطرقة والسندان.

فقد السياسى قدرته على الفعل والمبادرة بالرغم مما يحدث فى فلسطين من مجازر يومية وفى العراق من امتهان للكرامة العربية . وتصدر قرارات القمة العربية فلا يصغى إليها أحد . وتتم الزيارات المتبادلة كل يوم لتدارس الأوضاع وإصدار البيانات التى لا يستمع إليها أحد .

ولا ضير من اتباع خطاب مزدوج ، واحد للاستهلاك المحلى ، برفض العدوان الأمريكى على شعب العراق ، ورفض الاشتراك فى التحالف الدولى ، الأمريكى البريطانى ، ورفض إعطاء أى تسهيلات جوية أو برية أو قواعد عسكرية أو قوات تشارك فى العدوان على الشقيق العربى الذى التزم بقرارات الأمم المتحدة ، وقبل بإعادة المفتشين ، وأعلن خلوه من أسلحة الدمار الشامل . والآخر لقوى العدوان ، ضرورة التخلص من صدام ومن نظامه التسلطى القاهر لشعب العراق ، والمهدد لجيرانه الودعاء ولقوى السلم فى العالم .

وتحركت الجماهير فى الغرب ، جماهير سياتل ولندن وباريس ودافوس وجنوة وبراج وفلورنسا لتدافع عن الحق العربى فى فلسطين والعراق بمئات الألوف فى الشوارع ، ترفع أعلام فلسطين والعراق . والكل يتساءل : أين الشارع العربى؟ أين الجماهير العربية؟ أين أصحاب الحق؟ ينتظرون حتى تقع المصيبة ، نقل الفلسطينيين إلى الأردن فى عملية تهجير واسعة والعدوان الأمريكى على العراق . فلا صراخ إلا بعد الألم ، ولا فعل إلا كرد فعل ، ولا اعتراض إلا بعد أن تقع المصيبة .

وماذا يفعل المفكر؟ هل يصاب أيضًا بالإحباط؟ هل يعجز القلم؟ وماذا يقول؟ يندد بالعدوان القادم على العراق ، ويشجب العدوان القائم على شعب فلسطين ، فينضم إلى بيانات السياسيين وأبواق الإعلاميين ، وصراخ العاجزين ، ونداء المستضعفين؟ عندما تتضح الحقائق ويصبح الواقع بديهيا فإنه لا يحتاج إلى بيان أو تحليل أو صراخ . وتعيش الناس نفس الامتهان والعجز والألم الذى يعيشه المفكر وربما أشد . فالناس تكتم غيظها فى قلوبها ، والمفكر يعبر عنه بصرير القلم فيتخفف منه . فيكره المفكر نفسه كما يكره عالمه ، ويشعر بامتهان النفس مثل امتهان العالم له .

وماذا يجدى الكلام، البيان أو المقال، والسكين يشحذ والبقرة تجر والجزار قادم، والناس تبكى على الضحية، والإعلامى يصور، والسياسى يمهد الطريق ويعد المسرح؟ والمفارقات فى كل مكان. الإعلام الجهورى المزايد فى الحرية والوطنية تقوم على أرضه القواعد العسكرية الأمريكية، وتنطلق منه قوى العدوان على شعب العراق. ويسمع الناس ويشاهدون «سرى للغاية»، «بلا حدود»، «الرأى والرأى الآخر»، «شاهد على العصر»، ويرون الجنود الأمريكيين تتحرك، وإقامة قيادة العدوان المركزية من نفس الأرض الذى ينطلق منها الإعلام الحر الوطنى. «أسمع كلامك يعجبنى أشوف أفعالك أستعجب». وقديمًا قرر الفقه القديم من لا يطابق عمله قوله تسقط فتواه.

إن لم يكن القلم كالسيف يقاوم ويدفع، يحرك ويشحذ، ويأمل فى النصر فإنه يصبح كالسيف الخشبى مثل النظام السياسى أو الإعلام الرسمى، إعلام الدولة. وقد يحاصر أيضًا كما يحاصر السياسى والإعلامى ليس خوفا من أحد، فى الخارج أو الداخل، بل من تشكك فى قيمة الكلمة التى لم تمنع منزلا يهدم، ولا أرضًا تجرف، ولا طفلاً يُقتل، ولا مقاومًا يُغتال.

وهنا يبرز موقف الشهيد الذى يأخذ زمام المبادرة من العدو، ويأتيه من حيث لا يحتسب. فقد الشهيد كل شىء، الوطن والأرض والموطن والسكن والأهل والأقارب والأصدقاء. كما فقد العزة والكرامة. لم يعد لديه شىء يخشى من ضياعه أو يحرص عليه. لم يبق له إلا جسده كقنبلة موقوتة يفجره فى العدو ويكبده الخسائر حتى لا ينعم بحياة، وتزول عنه الطمأنينة الزائفة.

الشهيد وحده هو الذى يكتب. لذلك كان مداد العلماء دماء الشهيد. هو الذى يؤثر ويفيد فى زمن آثر السكون والموت. هو نبضة القلب قبل أن يتوقف حتى يتحرك العصر ويتقدم التاريخ. هو الذى ما زال يسمع صوته. يخشاه الأعداء، ويحرج الأصدقاء، ويعطى نموذج الفداء للطفولة القادمة، وكما أنشد نزار:

الفدائى وحده يكتب الشعر وكل الذى كتبناه هراء

ويجادل أهل الفتوى، حركات استشهادية أم عمليات انتحارية؟ وتود أجهزة التوجيه المعنوى فى الولايات المتحدة الأمريكية تغيير البرامج الدينية فى المدارس حتى يمنع الإرهاب من الجذور، ويخرج الأطفال مسالمين، يحبون الأعداء، ويباركون اللاعنين. يتعاونون مع الأمريكيين والإسرائيليين، ويعيشون فى عصر العولمة.

ومن ثم يعجز السياسى أولاً. ويبقى محاصراً بين الخارج والداخل حتى يزداد الحصار ويصبح محاصراً بينه وبين نفسه؛ مما يستوجب التوجه له ولأمثاله بالنداء «حاصروا حصاركم». وقد يعجز القلم ثانيًا. فماذا يمكن أن يقال، والصراخ للأطفال والبكاء للنساء؟ ثم يتحرك الشهيد من بين الأنقاض، ويبعث من الرفات، فينبض القلب من جديد. فقد تتحرك الأطراف.

وقد يعود الحلم العربى المجهض، وتنشط الذاكرة العربية إبان حركات التحرر الوطنى العربى. وينطلق الخيال السياسى العربى الذى مازال هو رصيد العرب الأول والذى جسده الشعر العربى والقرآن العربى. فإذا ما وقع العدوان الأمريكى على العراق تذكر العرب العدوان الصهيونى على فلسطين. ويبلغ السيل الزبى. فتتحرك الجماهير العربية لتبدع أشكالا جديدة للمقاومة لردع العدوان، لا فرق بين جيش وشعب. وقد يفيق الحكّام، «اليوم خمر وغداً أمر».

ومع ذلك يخرج القلم عن عجزه كلما انتفض الشارع العربى أولا، وكلما ازدادت المعارضة الدولية ضد العدوان على شعب العراق خاصة المعارضة الأوروبية ثم المعارضة داخل الولايات المتحدة الأمريكية لتستدعى الذاكرة حركات السلام المناهضة للعدوان الأمريكى على شعب ڤيتنام، وكلما صمدت روسيا والصين، وكلما ترددت بريطانيا فى أن تكون حليفًا تابعًا بازدياد المعارضة داخل مجلس العموم وتحرك الجماهير فى شوارع لندن.

ويخرج اللسان عن صمته كلما صمدت المقاومة. فلم تعد تخسر شيئًا. ولم يتبق أمامها إلا مزيد من المقاومة حتى يعرف الكيان الصهيونى أنه لا أمن بلا انسحاب من الأراضى المحتلة. فمن يخسر المعركة هو الذى سيصرخ أولا، وكما قال عنترة فى

تعريف الشجاعة ضاربًا المثل بخصمين، أصبح كل منهما في فم الآخر. ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. والألم متبادل، ولكن ألم المقاومة مشفوع برجاء النصر ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

وينبض القلب من جديد، ويبعث الجسد الهامد. فهذه ليست أول غارة على العالم الإسلامي وأول غزو للوطن العربي منذ الصليبيين والاستعمار الغربي الحديث من الغرب والتتار والمغول من الشرق. فلماذا القنوط؟ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥]. ولماذا اليأس؟ ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

يبدو أن عجز القلم إحساس طارئ، وتوقف مؤقت. وستظل الكلمة سندا للسلاح. فكلاهما فعل مقاومة. الكلمة قول وفعل، إعلان وشهادة، ومداد العلماء مثل دماء الشهداء.

* * *

٢- الوطـن المستبـاح

بالرغم من كل ما يقال حول فكرة إنشاء جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥م بعد الحرب، وربط الدول العربية المحتلة آنذاك برباط جديد غير الرباط العثمانى أو الإسلامى فإنها كانت نوعا من الترابط بين العرب حتى ولو كان على مستوى الدول أكثر منه على مستوى الشعوب، لاقت قبولاً وترحابًا بين الناس. فقد جسدت فى صيغة مؤسسية ما مارسه العرب على أرض الواقع خاصة بين بر الشام وبر مصر، بين مصر والسودان، بين بلدان المغرب العربى للحجيج عبر مصر.

وبعد هزيمة الدول العربية فى فلسطين١٩٤٨م وضياع أكثر من نصفها قامت الثورات العربية بفضل الضباط الأحرار والجيوش الوطنية فى سوريا فى ١٩٤٩م ثم فى مصر فى ١٩٥٢م ثم فى العراق فى ١٩٥٨م ثم فى اليمن ١٩٦٣م ثم فى ليبيا ١٩٦٩م لتمحى الأوطان فى الداخل من نظم القهر ملكية كانت أو سلطانية، وفى الخارج ضد الاحتلال الأجنبى المباشر أو قواعده المتناثرة فى الأوطان.

ثم بدأت مقاومة الأحلاف العسكرية بعد الثورة المصرية ومع سوريا، حلف بغداد فى ١٩٥٤م، وكسر احتكار استيراد السلاح بصفقة الأسلحة التشيكية بعد العدوان الإسرائيلى على غزة فى ١٩٥٥م. وظهر التضامن العربى أثناء العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦م بتفجير أنابيب النفط فى سوريا. ومن هذا التضامن، وتهديد الأوطان بقوى خارجية أثناء الحرب الباردة نشأت الوحدة مع سوريا فى ١٩٥٨-١٩٦١م، الجمهورية العربية المتحدة، أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب فى النصف الثانى من القرن العشرين. وقوّى الاختيار الاشتراكى، وصدور قوانين

(*) جريدة الاتحاد: ٨ فبراير ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ١٧ مارس ٢٠٠٣م.

يوليو الاشتراكية فى ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣م من التضامن العربى بحيث أصبحت القومية العربية ذات مضمون اشتراكى تقدمى. وتمت مقاومة الحلف الإسلامى، محور الرياض وطهران وكراتشى فى ١٩٦٥م الذى كان يهدف إلى حصار القومية العربية من الخارج بحلف إسلامى تحت وهم أن الإسلام فى قلوب الناس أعمق فى التاريخ من القومية العربية الحديثة، والناس تعلم أنه مجرد غطاء شرعى لإخفاء قوى الرجعية المتحالفة مع الاستعمار ضد قوى التقدم فى الوطن العربى.

وما لم يتحقق بالحصار الخارجى عن طريق الأحلاف العسكرية تحقق بالعدوان الداخلى من داخل المنطقة فى العدوان الثلاثى فى ١٩٦٧م. فوحدت المصائب الأوطان، ورفض العرب، حكامًا وشعوبًا الهزيمة فى الخرطوم، باللاآت الثلاث، لا صلح ولا مفاوضة ولا اعتراف بإسرائيل. وقاومت مصر الهزيمة فى حرب الاستنزاف ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩م. فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، والضفة والجولان قبل سيناء. وأوقفت مصر مذابح أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٠م فى الأردن حفاظا على المقاومة الفلسطينية، وتأكيدا على وحدة المصير العربى.

وتحالفت مصر وسوريا فى حرب أكتوبر ـ تشرين ١٩٧٣م، شركاء فى الهزيمة والنصر. وقادت السعودية حظر النفط حتى تنسحب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة فى تضامن عربى مشهود. فجمع العرب بين النصر العسكرى والسلاح الاقتصادى والكرامة الوطنية دفاعا عن الوطن الذى يحميه جنده وأهله وقادته ونظمه السياسية على تعدد مشاربها وتوجهاتها واختياراتها الأيديولوچية.

وبعد ما يقرب من عقدين من الزمان هبت الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج احتجاجا على العدوان الأمريكى على العراق فى ١٩٩١م ومعه نصف الأنظمة العربية. وهبت ثانية فى ١٩٩٨م احتجاجا على العدوان الأمريكى الثانى على العراق فى رمضان، فقد كانت غزوة بدر فى رمضان! وفى كلتا الحالتين يتوقف العدوان خشية من المقاومة الشعبية، والإضرار بالمصالح الأمريكية، وتهديد النظم العربية الصديقة للولايات المتحدة الأمريكية.

وما زال هذا الروح قائما فى سوريا والعراق وليبيا واليمن ولبنان. وما زالت

بقاياها فى مصر والجزائر والمغرب والأردن والخليج، خيط رفيع يربط الماضى بالحاضر، ويتواصل من خلاله التاريخ. وتعمل بفضله الذاكرة، ويعطى بعض الأمل فى عصر يسوده اليأس والإحباط.

ثم انقلبت الآية، وتحول المسار العربى مائة وثمانين درجة، من النقيض إلى النقيض، من الوطن الذى يحمى نفسه إلى الوطن المستباح. فبعد زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧م كرد فعل على الهبة الشعبية فى يناير من نفس العام، وبعد اتفاقية كامب ديفيد واتفاقية السلام فى١٩٧٨م، خرجت مصر من المعركة. وغاب حارس الوطن، وانزوى الأخ الأكبر. فضرب المفاعل النووى العراقى، وتم غزو جنوب لبنان حتى بيروت فى ١٩٨٢م، وضربت الصواريخ السورية فى البقاع، وخطفت الطائرة المصرية فوق مالطة، وأصبحت سيناء منزوعة السلاح، وتم اغتيال أبى جهاد فى تونس، وفتحت مكاتب لإسرائيل فى قطر وتونس والمغرب. واعترفت موريتانيا بإسرائيل. ووقع اتفاق وادى عربة مع الأردن. ولم يعد هناك سياج واق للوطن العربى يحميه من تغلغل الكيان الصهيونى من ثناياه.

واستمر حصار العراق على ما يزيد عن عقد من الزمان، وآلاف من الأطفال يموتون جوعًا ومرضًا. لم يجرؤ زعيم عربى على الذهاب إلى بغداد. فهو محاصر الأجواء لأن العراق لم يطبق قرارات الأمم المتحدة، ولم يركع نهائيا أو يستسلم. وفرض حصار مماثل على ليبيا بتهمة تستوجب الدفاع ودون دليل إدانة. وإسرائيل أسقطت طائرة مصرية فوق سيناء دون أن يدينها أحد بالرغم من توفر أدلة الاتهام. أصبح العرب سجناء فى بلادهم. لا يستطيعون عبور الأجواء. ولم يبق لهم إلا العبور برا عبر الحدود. وخرق بعض الزعماء الأفارقة الحصار الجوى من قلب الصحراء والعرب قابلين الحصار مما دعى ليبيا إلى التوجه الأفريقى بعيدا عن العار العربى، وتهدد بالانسحاب من جامعة الدول العربية.

وتغلغلت إسرائيل فى أفريقيا، فى أعالى النيل لحصار مصر من الجنوب، وحلت محل مصر كنموذج للتحديث. وتحالفت الهند مع إسرائيل وكأن غاندى ونهرو لم يخططا استراتيجية ثابتة للهند، وكأن نهرو وناصر لم يكونا دعامة العالم الثالث منذ

باندونج حتى بلجراد. فأصبح الأمن القومى العربى أيضًا مستباحا فى أفريقيا وآسيا.

وأخيرًا وبالرغم من اتفاقيات مدريد وأوسلو والقاهرة وبزوغ السلطة الوطنية الفلسطينية على رقاع صغيرة من أرض الوطن تم احتلال الضفة الغربية كلها، مدنها وقراها، ومناطقها التى تم الاتفاق عليها. وعليها تدور أبشع جرائم الحرب منذ النازية فى ألمانيا. فأصبح الضحية هو الجلاد. وترك العرب الانتفاضة الثانية تقاوم وحدها بعد أن دخلوا أربع حروب فى سبيلها، واستشهدوا بالآلاف من أجلها. ويتم تهويد القدس أمام أعين الجميع، وهى أمانة فى رقاب العرب والمسلمين.

وسقط اتفاق دمشق لحماية الأوطان. فكل قطر يسعى لحماية نفسه عن طريق التحالف مع من يراه قادرا على حمايته. واختلف العرب فى تعريف من العدو؟ البعض يراه العراق، والبعض الآخر يراه إيران. كما اختلفوا فى تحديد من الصديق؟ البعض يراه أمريكا والبعض الآخر يراه إسرائيل. فاختلطت الأوراق. وانشغلت الأنظمة السياسية بالدفاع عن نفسها عن الدفاع عن الأجواء. وقامت أمريكا بدور مصر فى حل مشاكل الوطن العربى، فى السودان واتفاقية مشاكوس فى غياب الأخ الأكبر. وتتدخل لحل قضية الصحراء فى غياب الاتحاد المغاربى. وترعى قضية فلسطين، فأوراق اللعبة فى يدها، مع أن الدواء هو الداء. وتسقط المبادرة العربية فى بيروت. ويجرى العرب وراء خطة الطريق التى ترفضها إسرائيل. ويمنع الوفد الفلسطينى من مغادرة الوطن، ويُحجز ياسر عرفات رهينة فى رام الله. وتستباح حرمة الأوطان. وترفض تأشيرات الدخول للعرب حتى يثبت أنهم ضد الإرهاب. وتنتهك حرمة العرب المقيمين بأمريكا حتى يثبتوا أنهم أبرياء. وتنتهك أمريكا حرمة الأوطان فى البر والبحر والجو ببناء القواعد على الأرض، وعبور الممرات المائية، واختراق الأجواء. وكل الإخوة يغسلون أيديهم من دم يوسف. وإسرائيل بالمرصاد. تنتظر بداية العدوان الأمريكى على العراق حتى تقوم بعملية التهجير، وتنتهى قضية فلسطين. والكل يتساءل متى تقع الحرب؟ ولا أحد يسأل لماذا تقع الحرب؟!

لـــــذلك يحن الجميع إلى الماضى القريب، إلى الخمسينيات والستينيات، عصر حرمة الأوطان. وتتصاعد المقاومة الإسلامية فى لبنان وفلسطين وپاكستان وكشمير والشيشان بعد أن همشت إبان المد القومى بالرغم من خروج معظم حركات التحرر الوطنى منها. وتتصاعد المقاومة الشعبية ضد التطبيع، وضد الحرب، وضد العدوان. وتحل أمريكا فى الوجدان العربى محل بريطانيا أو فرنسا إبان حركات الاستقلال. فاستباحة الأوطان لها حدود، والكرامة العربية بلا حدود.

يمكن أن يستعيد الوطن كرامته بحماية الأوطان، وهى رغبة الجميع حكومات وشعوبا. تستطيع الحكومات الصمود أكثر فى مواجهة الضغوط الخارجية والإغراءات المادية. فبالتعاون الإقليمى تكسب النظم السياسية أكثر. فقد طاوعت تركيا من قبل القوى الخارجية، وسمحت بإقامة قواعد أجنبية على أراضيها. بل وأصبحت عضوا فى حلف شمال الأطلنطى. واختارت العلمانية الغربية طريقا لها وهذا لم يمنع اقتصادها من الانهيار، ولم يخفف من حدة رفض الاتحاد الأوروبى قبولها عضوا فيه بدعوى ملفات حقوق الإنسان. وتسير بعض النظم العربية فى الأطراف فى هذا الطريق دون أن تأخذ عبرة بتركيا مع أن مصالحها القطرية وأمنها القومى فى دول الجوار المباشر على شاطئ الخليج.

وتستطيع الشعوب أن تتحرك دفاعا عن السلام، ومناهضة للحرب كما تفعل الحركات الشعبية فى الغرب، والتحركات الجماهيرية فى أوروپا وأمريكا دفاعا عن قضايانا. الجماهير العربية هى صاحبة المصلحة فى السلام. ففى حالة استباحة الأوطان الأطفال والنساء والشيوخ والرجال هم الخاسرون. واستباحة السماء من استباحة الأرض. والأجواء المفتوحة العارية من الحماية كالأرض المكبوتة والشعوب المسجونة، استباحة فى الخارج لحرمة الوطن، واستباحة فى الداخل لكرامة الشعب.

والجماهير لا تتحرك إلا بوعيها الجماهيرى الذى يجسده مثقفوها وفنانوها وعلماؤها وأدباؤها، حملة الوعى التاريخى. إذ يستطيعون ما لا تستطيعه أحزاب المعارضة، السلطة البديلة التى يحكمها أيضًا منطق السلطة وليس منطق التاريخ.

السلطة لها بنية واحدة فى الحكومة أو فى المعارضة فى الحفاظ على النظام الحالى أو المستقبلى فى حين أن وعى الجماهير له بنية بديلة فى الوعى بالتاريخ وتغيير النظام القائم طبقا لمسار التقدم فى التاريخ.

إن الوطن المستباح فى الخارج هو الوطن المستباح فى الداخل. ولا حماية للأوطان فى الخارج إلا بحمايتها فى الداخل. العدوان واحد، والمقاومة واحدة. وإذا تحالف العدوان فى الداخل والخارج اتحدت المقاومة فى الداخل فى جبهة وطنية واحدة على صخرتها تتكسر أمواج العدوان.

* * *

٣ـ أمة المستغيثين

يكاد الإنسان منا يبكى كل يوم لكثرة ما يسمع من نداءات الاستغاثة عبر القنوات الفضائية التى دخلت كل بيت، وغطت كل سماء. فقد تحولت أمة المجاهدين إلى أمة المستغيثين، وانقلبت أمة الفاتحين إلى أمة الشحاذين.

بدأت نداءات الاستغاثة أثناء العدوان العربى على المسلمين فى البوسنة والهرسك وكوسوڤا خاصة بعد اجتياح المناطق الآمنة وسقوط سبرنيتسا. ولم تتطرق نداءات الاستغاثة إلى الشهداء من الرجال المقاتلين الذين ذبحوا أولا ولا إلى الشيوخ والنساء والأطفال الذين صفوا ثانيا بل إلى من تبقى منهم أحياء من أجل طلب الخيام أو المأوى والغذاء والكساء والدواء. فالموت قدر محتوم ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]. والشهداء فى الدنيا ليسوا فقط هم الأحياء فى الآخرة، بل الأحياء الموتى فى الدنيا. وأصبحت أمة تفوق المليار نسمة وتمثل خمس سكان العالم، وتمتد عبر القارات الخمس، ولها من القوة المادية والمعنوية، وتملك من العتاد والسلاح التقليدى وغير التقليدى ما تتفوق به على القوى الكبرى، عاجزة عن نصرة إخوانهم فى يوغسلافيا السابقة بعد أن تفتتت إلى صرب وكروات ومسلمين، وكأن الإسلام عرق وليس دينا وثقافة وحضارة وتاريخًا. وتهدمت المساجد، ومالت المآذن، وضاعت المعالم التاريخية للمدن الأثرية وما بقى من مآثر «الاستعمار التركى» لأوروبا الشرقية وحتى لا توجد دولة مسلمة فى أوروبا ينتقل منها الإسلام إلى أوروبا الغربية والشمالية والجنوبية. تكفى الهجرات التركية إلى ألمانيا، والمغربية من تونس والجزائر خاصة المغرب إلى أوروبا جنوبًا وشمالاً.

(*) جريدة الزمان: ١٩ مايو ٢٠٠٣م.

وبدأت المعونات تصل إلى البوسنة والهرسك وكوسوفا من الاتحادات والنقابات والمنظمات الأهلية. وتمنع بعض النظم العربية من وصولها بدعوى تحويل بعض منها إلى الجماعات الإسلامية داخل البلاد.

ثم بدأت نداءات الاستغاثة مرة ثانية بعد العدوان السوفييتى على الشيشان، والقضاء على الجمهورية الإسلامية المستقلة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى القديم وخلافة روسيا الاستعمارية القديمة لها، والتى قضت إبان الثورة الاشتراكية فى ١٩١٧ على الجمهوريات الإسلامية المستقلة، بعد أن أصبحت موسكو منذ أيام القيصر مركز جذب جديد لأطراف العالم الإسلامى بعد أن توقفت مراكز الخلافة فى دمشق وبغداد والقاهرة واستانبول. ورأى المسلمون مذابح أخرى لإخوانهم فى الشيشان، الغزو العسكرى، هدم المنازل، ذبح المجاهدين، اغتصاب المسلمات، قتل الأطفال والشيوخ، ونزوح السكان من المدن للاحتماء بالجبال أو على حدود الدول الأخرى. وتوالت نداءات الاستغاثة لنصرة المسلمين فى الشيشان. وربما سمع بعض المسلمين عن الشيشان من هذه النداءات بعد أن تقطعت أوصال الأمة ووضعت حولها الحدود تحت سيطرة القوى الكبرى، وانشغال المسلمين وفرحهم بالدول القومية والوطنية وليدة حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

وبالرغم من بعد المسافة، وقتال بعض المتطوعين العرب دفاعا عن استقلال الشيشان، إلا أن أصوات الاستغاثة ما زالت مستمرة. واستجاب بعض الأتقياء للنداء لنصرة إخوانهم فى الشيشان. ومع ذلك، منعت بعض النظم العربية إيصال المعونات خشية من وصول بعضها إلى الجماعات الإسلامية داخل الأوطان، الشيشان أولا وغيرها ثانيا. ولا فرق بين العدوان الخارجى على الأوطان من الدول الكبرى والعدوان الداخلى عليها من أنظمة التسلط والطغيان. وظل الشعب الأفغانى يناضل وحيدا كما فعلت مدن الأندلس من قبل وهى تتساقط واحدة تلو الأخرى حتى سقطت غرناطة آخر مدنها الإسلامية. العواطف موجودة، والإخاء متوافر، والنصرة باللسان أو بالقلب، وهو أضعف الإيمان. فلم يبق سوى الاستغاثة والإهابة بالرحمة فى قلوب المحسنين.

ثم اجتاحت إسرائيل مدن الضفة الغربية وقراها أى نصف فلسطين فى سبتمبر ٢٠٠٠ م بعد أن احتلت النصف الأول فى مايو ١٩٤٨م. وكما صدرت نداءات الاستغاثة من فلسطين فى الاجتياح الأول وبعد هزيمة الجيوش العربية صدرت نداءات الاستغاثة مرة ثانية فى الاجتياح الثانى تحت أعين الجيوش العربية، وتحت بصر الشعوب العربية. وقاومت المخيمات وحدها ومازالت. وأصبحت مقاومة جنين أسطورة. وتم اغتيال قادة المقاومة واصطيادهم بالصواريخ فى العربات أو فى المنازل أو بالعربات المفخخة. واستشهد النساء والأطفال والشيوخ. وصدرت نداءات الاستغاثة بأصوات المشايخ الأجلاء، يستصرخون الإخوة وبنى العمومة. ويتوجهون إلى الله بالنداء مستعيدين بالذاكرة مناجاة الرسول قبيل غزوة بدر. فإلى من يكلهم أرحم الراحمين، إلى عدو يتربص بهم؟ ويشكون إليه هوانهم على أنفسهم وهوانهم على الناس. وتنتهى صرخات الاستغاثة باسم البنك ورقمه لمن شاء التبرع من أمة المستغيثين. فإذا ما استجاب الناس، وأنشئوا لجان مناصرة الانتفاضة، وتبرعوا بالمال والغذاء والكساء والدواء والماء دون السلاح استولت نظم الحكم عليها. فهى الوسيط بين الناس والمقاومة أو صادرها الكيان الصهيونى على الحدود. فإذا ما أخذ الشعب المبادرة لنصرة فلسطين فقد يتعود على ذلك ويأخذ زمام المبادرة للتخلص من الوسطاء بينه وبين فلسطين. فالمعركة واحدة فى الخارج وفى الداخل. ومنع وصول المعونات لفلسطين واحد من الخارج أو من الداخل. وترفع صور محمد الدرة والطفلة إيمان. ونلعن قساة القلب، ونستدعى الرحمة والشفقة بالإنسانية المعذبة وبشعب فلسطين الجريح. فإذا ما استجابت بعض المنظمات الدولية مُنعَت هى الأخرى من الوصول. وإذا ما وصلت تم اغتيال بعض ممثليها. وتتوالى نداَءات الاستغاثة للمسلمين وللضمير العالمى من أجل استدعاء قوات مراقبة دولية تحمى الحمل من الذئب، وآذان الخراف صماء.

ثم تم العدوان على أفغانستان، واخترقت بالصواريخ التى ثمن كل منها عشرة ملايين دولار الخيام وثمن كل منها عشرة دولارات. ودمرت قرى أفغانية عن بكرة أبيها. وهبطت الحمم على الكهوف والجبال ودخلت المغارات لتخنق المجاهدين. وتمت التصفيات الجسدية للأسرى. وحوصر المسلمون فى أفغانستان بين تسلط

الطالبان فى الداخل، والغزو الأمريكى من الخارج، وفقر الصحراء الجدباء فى الأفق. ولم يعد هناك شىء قائم فى أفغانستان بعد أن تم تدمير كل شىء. أقوى دولة فى العالم تعتدى على أفقر دولة فى العالم فى حالة الحرب، وتستعمل أراضيها لزراعة الحشيش فى السلم والحرب كى يتم استهلاكها فى الغرب. وأمريكا هى التى خلقت الطالبان أثناء الغزو السوفييتى لأفغانستان. وهى التى شجعت أسامة بن لادن وأمدته بالسلاح لقتال العدو المشترك، الشيوعية. ودخل المجاهدون فى الكهوف. ونزح البعض منهم إلى الحدود المترامية الأطراف. وترك النساء والشيوخ والأطفال ضحية لحمم السماء. وتوالت نداءات الاستغاثة بشعب أفغانستان، والإهابة بروح التضامن الإسلامى والأخوة الإسلامية ووحدة الأمة التى إذا اشتكى منها عضو تداعت لها سائر الأعضاء بالسهر والحمى. والأمة بنيان مرصوص، عروة وثقى لا انفصام لها. وتقوم المظاهرات فى پاكستان لنصرة أبناء العم. يحمون المجاهدين، ويعترضون على خرق الأجواء الپاكستانية، وإعطاء التسهيلات فى الموانى والمطارات للقوات الأمريكية ضد رهان النظام السياسى عليها، وهو محاصر بين النووى الهندى من الشرق والنووى الإسرائيلى من الغرب. وآسيا الوسطى رقبةٌ تحذر. بل وتسمح قازقستان ببناء أكبر قاعدة عسكرية أمريكية فى أراضيها. وهى مستعدة للتعاون مع إسرائيل بلا حدود. ولم يبق أمام الأئمة إلا الاستغاثة، والتضرع إلى وجهه الكريم، «يا خفىّ الألطاف، نجنا مما نخاف»، ورفع الأكف إلى السماء، لعل الله ينزل نصرا من لدنه، وكأنه لم ينزل من قبل ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وأخيراً جاءت طامة العراق، ووقعت الواقعة، وزلزلت الأرض زلزالها. احتلت العراق بعد أن قاوم الجنوب، وسُلِّمَت بغداد، وعين الحاكم العسكرى الأمريكى على بلاد الرافدين، تلاه حاكم مَدنى آخر، وكلاهما قلبه فى إسرائيل. واستشهد المناضلون فى الجنوب، وفر الحرس الوطنى فى الوسط، وسقط شهيدا كل من حاول المقاومة بالسلاح أو حتى التظاهر ضد قوات الاحتلال. مقابر جماعية بالآلاف فى عهد النظام السابق، وقتل وأسر وإذلال للعراقيين فى النظام الجديد. بل وتم تسليم المتطوعين العرب إلى قوات العدوان، كما تم تسليم العرب الأفغان

من قبل وترحيلهم إلى قاعدة جوانتنامو. وصرخت النساء، وبكى الأطفال. وجاءت صرخة الاستغاثة من جديد، أغيثوا شعب العراق الذى جاع ومرض من الحصار الأول. وها هو يجوع ويمرض من العدوان الثانى. وبعد أن عزت المقاومة باليد، فلم تبق إلا المقاومة باللسان وبالقلب. وأصبح الصوت الراجح للأمة هو صوت المستغيثين الطالبين الرحمة. ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء.

وأصوات الاستغاثة جاهزة ومستعدة، والقنوات الفضائية بها مساحات كافية لصرخات الاستغاثة إنقاذا لشعوب سوريا ولبنان وإيران أولا، والسعودية وليبيا واليمن ثانيا، والسودان ومصر ثالثا. والأمة تعلم ماذا يخبئ لها المستقبل، رسم شرق أوسط جديد خلال عشر سنوات، تنتهى فيه السياسة لصالح الاقتصاد. وتتخلى القومية العربية عن دورها لصالح إسرائيل، وتصبح الأمة الإسلامية من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى مجالا حيويا خصبا للكيان الصهيونى. ويستتب الأمن الدولى، ويستقر السلام العالمى. وتبتلع العولمة نتوءاتها فى الوطن العربى والعالم الإسلامى لصالح قوانين السوق والهيمنة الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة الأمريكية. وبعد أن كانت إسرائيل هى التى تستصرخ منذ الأسر البابلى حتى حائط المبكى فى فلسطين المحتلة تصبح الأمة الإسلامية هى أمة المستغيثين منذ سقوط بغداد الأول تحت جحافل التتار إلى سقوطها الثانى تحت جحافل الأمريكيين.

وماذا يفيد الشاة سلخها بعد ذبحها؟ وماذا تنفع الاستغاثة بعد أن استبيحت الأوطان واحتلت الديار؟ وهل مصير مليار وربع من المسلمين هو مصير اللاجئين الطالبين الغوث والإعانة منذ فلسطين ١٩٤٨م حتى العراق ٢٠٠٣م؟ وتصبح أغنى أمم العالم التى تستثمر أموالها فى الغرب لتنشيط الاقتصاد الغربى هى التى تستقبل معونات وكالات غوث اللاجئين التى يشرف عليها عادة المسلمون أصحاب القلوب الرحيمة. لقد رضى المسلمون بالهوان، والهوان لم يرض بهم. ربما يكون الشهيد وحده هو الذى يرفض إغاثة الأفراد والشعوب من أجل استرداد الأوطان وحرية الشعوب. فالفرد بلا وطن كالجسد بلا قلب، والشعوب بلا حرية محميات بشرية.

٤ - إلى مؤتمر القمة

يعقد فى مارس من كل عام العرس العربى على مستوى القمة. والعرب ينتظرون تحقيق أمانيهم. وقد كان أقصى مطالب الشقيقة الكبرى عقد مؤتمر القمة فى موعده أسوة بمؤتمرات القمة فى الغرب والشرق بصرف النظر عن الموضوع واحتمالات الاتفاق والاختلاف. فالتأجيل يسقط من العرب ورقة التوت الأخيرة، والأمل الوحيد فى لم الشمل وتوحيد الكلمة. والنظام العربى فى حاجة إلى شرعية إعلامية فى الخارج للتذكير بدور العرب فى نظام العالم، وفى الداخل فى الرأى العام العربى. فتحرك العرب ما زال مشاهدا درءاً لتهمة التحرك فى المكان وخروج العرب عن مسار الأحداث وقلب الزمن.

وهو عرس سنوى حتى ولو لم يتم الزفاف الفعلى من أجل إنتاج جيل جديد من الأطفال العرب يكونون أقدر من الآباء والأجداد على حمل الأمانة وتحقيق أمانى العرب فى الحرية والاشتراكية والوحدة بعد أن بدأت هجمة جديدة من الاستعمار التقليدى بالاحتلال المباشر والحصار والتهديد والتهميش ودون أن تقابلها حركة تحرر عربية ثانية شبيهة بالأولى فى الخمسينيات والستينيات التى قامت بها حركات التحرر الوطنى وجبهات التحرير الوطنى. ولا يقف أمام الهجمة الاستعمارية الثانية إلا المقاومة الوطنية فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير وبعض حركات العنف التى تمارسها بعض التنظيمات السرية التى تتهم بالإرهاب من النظم العربية والنظام العالمى بالرغم من استطاعتها إسقاط النظام اليمينى فى إسپانيا المتحالف مع قوات الاحتلال الأمريكى البريطانى، وإجبار النظام الاشتراكى التالى

(*) جريدة الاتحاد: ٢٠ مارس ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٢٢ مارس ٢٠٠٤م.

له على سحب القوات الإسبانية من العراق فى آخر يونيو - حزيران هذا العام وتسليم السلطة فى العراق للعراقيين.

هو عرس مجدب لا يولد شيئا. قد يكرر ما هو معروف سلفا. إذ تعد البيانات قبل عقد مؤتمر القمة، وما على الرؤساء إلا التوقيع. تتضمن نقاط الاتفاق المعروفة: الدعوة إلى السلام فى فلسطين، وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وتطبيق قرارات الأمم المتحدة واتفاقيات أوسلو ومدريد، ورؤية الرئيس بوش المعظم بإنشاء دولتين فى فلسطين وتطبيق خارطة الطريق.

وبند ثان عن العراق واستقلال شعب العراق ووحدة أراضيه وضرورة انسحاب القوات الأجنبية كحل وسط بين قوات الاحتلال وقوات التحالف، مع تسليم السلطة للعراقيين وإقامة حكومة منتخبة تمثل الشعب العراقى.

وقد تأتى فقرة ثالثة عن ضرورة الإصلاح من الداخل بإرادة شعوب المنطقة وليس مفروضا من الخارج ردا على «مبادرة الشرق الأوسط الكبير» التى انقسم العرب حولها، الجناح الشرقى للوطن العربى لا يرفضها موضوعا ولا شكلا، والجناح الغربى له يرفضها شكلا تحت ضغط الرأى العام ويقبلها موضوعا بناء على المصالح الآنية. ويرد عليها بمبادرة عربية أخرى مشابهة فى المضمون وإن اختلفت فى الشكل، بإرادة خارجية أم بإرادة داخلية، مفروضة من الخارج تحت أسنة الرماح وجنازير الدبابات والتهديد أم تلبية لمطالب الشعوب بضرورة التحرك نحو الإصلاح، ونظم الحكم الديموقراطية وحريات الأفراد، واستقلال المؤسسات، وتداول السلطة، وتقوية المجتمع المدنى.

ويعقد مؤتمر القمة كنوع من الإحراج أمام الشعوب، فقد قرر الرؤساء عقد القمة فى موعدها كل عام. وهم مجبرون على تنفيذ الوعود. وتردد إحدى الدول مرة فى الجناح الشرقى بأن ظروفها غير مناسبة فتعقد فى القاهرة. وتتردد دولة أخرى فى الجناح الغربى عليها الدور لولا الضغوط الأدبية عليها فتقبل على مضض. والشقيقة الكبرى مستعدة دائمًا لعقدها فى القلب إذا ما تردد الجناحان الشرقى

والغربى حرصا على دورها المركزى فى مواجهة محاولات التهميش من إحدى الشقيقات الصغرى أو من القوى الكبرى حتى تنتهى قصة العرب بتوقف القلب عن النبض بعد شلل الأطراف.

وهو إحراج أمام الخارج أيضًا. إذ ينظر الكل إلى العرب ماذا هم فاعلون ودولتان عربيتان محتلتان، فلسطين والعراق. وثالثة مهددة بفرض العقوبات، ورابعة رضيت بالجزرة خوفا من العصا. تحدى أمريكا للإرادة الدولية واستمرارها فى احتلال العراق ما زال مستمراً. وتحدى إسرائيل لقرارات المنظمات الدولية بل وللإرادة الأمريكية وخارطة الطريق ما زال قائمًا. فماذا يفعل العرب؟

ولو كان الأمر بيد مؤتمر القمة لما عقد منعا للإحراج الداخلى أمام الشعوب، والإحراج الخارجى أمام الدول. فهو مؤتمر يزيد عدد المؤتمرات السابقة واحدا. ويُعلّق الشعوب بأمل ضعيف حتى ولو كان على مستوى الكلمات والخطاب فى ثقافة الخطاب السياسى أو الدينى فيها بديلاً عن الواقع وتشابكه.

يعقد المؤتمر حتى لا يقال إن العرب لا يتحركون حتى ولو كان التحرك فى المكان لا يمينا ولا يساراً، ولا أمامًا ولا خلفًا. فالعرب يتكلمون ويصدرون البيانات بروح الوفاق، والاجتماع على الحد الأدنى منه، شهادة على العصر، وإبراء للذمة، وتسجيلا لمواقف على صفحات التاريخ الخالدة.

والشعوب العربية تعرف الحقيقة. يطالبون بإصلاح الجامعة التى تستجيب لمطلب الإصلاح الداخلى، طريقة أخذ القرارات بالإجماع أم الأغلبية، ضرورة إنشاء برلمان عربى أكثر صراحة فى التعبير، وأقوى على نقد الأوضاع دون التقيد بسياسة الحكومات، وإنشاء محكمة عدل عربية حتى لا يعتدى أخ على أخيه. فالمعتدى يُحاكَم داخل بيت العرب، وفى محكمة العرب بدلا من أن تغزو القوات الأجنبية الأوطان وتقبض على الزعماء فَتُهين الرياسة بعد إهانة الشعوب، وتظل صورة رئيس عربى سابق أشعث الشعر، زائغ النظرات، ذليل القسمات، يلعب فى شعره جندى أمريكى، ويكشف عن حلقه وأسنانه بمصباح ضوئى.

وإذا أراد العرب النجاح فى مؤتمرات القمة وفى اتخاذ القرارات الفعلية الناجحة فإنهم قادرون على ذلك. والدليل الاجتماع السنوى لوزراء الداخلية العرب، واتفاقهم على الأمن الوطنى للنظم العربية ضد قوى المعارضة وعناصر الشغب. ويتبادلون المعلومات الأمنية بلا حواجز أو تردد، وتربط شبكات المعلومات عن الخارجين على النظام حتى يتم تعقبهم فى كل قطر عربى باسم الأمن القومى العربى، واحترام النظم العربية بعضها البعض، وتأكيد الوفاق العربى دون ضجة أو ضجيج أو شغب.

وبفضل هذا النجاح الأمنى والتحقق الفعلى لتنفيذ بعض مؤتمرات القمة فلماذا لا يقرر العرب رفع الحدود والحواجز الجمركية، وتبادل الصحف والمجلات والكتب بلا رقابة خشية من الكلام؟ لماذا لا توضع بنود «شنجن ـ Schengen» عربى، تلغى تأشيرات الدخول للبلاد العربية والمفروضة على العرب والوقوف بالأيام أمام سفاراتها فى العواصم العربية؟ فالموافقة لا بد أن تأتى من المركز فى الوطن الأم وليس من السفارة أو القنصلية. ومن شروطها الكفيل أو الوصى أو الدعوة أو الزيارة، ومعرفة هل طالب التأشيرة من المعارضين للنظام العربى الآتى إليه أم من الموافقين أو الصامتين، وهو أضعف الإيمان. لماذا لا يتحرك العرب فى أوطانهم بلا شرطة توقفهم أو جوازات وهجرة تطالبهم بالتصريح؟ إن الأجنبى الآتى، الأوروبى والأمريكى أو حتى الإسرائيلى، فى بعض البلدان يدخل المطارات العربية بتأشيرة يأخذها من المطار بعد دفع رسوم طابع يلصق على جواز سفره دون بحث فى ملفات الأمن لعله يكون جاسوسًا. والعربى الآن بتأشيرة «شنجن» أوروبية واحدة يستطيع أن يجول فى أكثر من عشرين دولة أوروبية. والعرب يتوقون للحاق بالاتحاد الأوروبى ولا يأخذون بأفعاله فى حرية التنقل بين الدول. كما يتوق العرب إلى حرية انتقال الجرائد والمطبوعات والمجلات والكتب دون رقابة، فوحدة العرب فى وحدة الثقافة. بل وترفع الحواجز الجمركية أيضًا على البضائع العربية تنفيذا لأحد بنود السوق العربية المشتركة منذ أكثر من نصف قرن كسوق إقليمية فى مواجهة الأسواق الإقليمية المجاورة فى أوروبا وآسيا.

إن خطوة عملية واحدة يشعر بها العرب بعد اجتماعات مؤتمرات القمة أنها حققت عروبتهم فى الحرية والتنقل، وفى الرزق والعمل، وفى الإحساس بالوطن الواحد بلا حدود، لأفضل من عشرات البيانات المكررة والمعادة والتى عرفها العرب قبل سماعها. إن تغييراً فعليّاً واحداً على الأرض خير من عشرات البيانات المعادة المكررة التى أصبحت موضوعًا للتندر بين المواطنين، عامة ونخبة.

لقد كانت البداية لعقد مؤتمرات القمة فى الستينيات عندما دعا لها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ضد محاولات إسرائيل تغيير مجرى نهر الأردن. كانت الغاية عملية وليست نظرية، من أجل توحيد الجهود على الفعل وليس على القول. ثم أصبح الهدف منها حقن الدماء بين العرب وإيقاف الصراع بين النظم التقدمية والنظم الرجعية حتى لا يتدخل الأجنبى بينهم لمساعدة هذا الفريق أو ذاك، وتحقيقا للوفاق العربى. ثم كان الهدف الدفاع عن القضية الفلسطينية واعتبار منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى، وتشكيل لجنة القدس حماية لها من التهويد واستردادا لها كجزء من الأراضى المحتلة وعاصمة دولة فلسطين المستقلة. ثم انفرط العقد بعد كامب ديفيد التى فرقت العرب وجعلت مصر وحيدة فى السلام كما كانت شبه وحيدة فى الحرب. وكان عبد الناصر يقول لو كانت المشكلة سيناء لاستردها فى أربع وعشرين ساعة ولكن عينه على الضفة والقدس والقطاع. وهى مازالت ترزح تحت الاحتلال حتى الآن. ولم تكن حرب أكتوبر ١٩٧٣م آخر الحروب بل إشارة الانطلاق للعدوان الصهيونى المستمر على العرب بضرب المفاعل النووى العراقى، واغتيال أبى جهاد، وغزو جنوب لبنان، والعدوان المستمر على شعب فلسطين للعام الرابع منذ ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠م، وهو تاريخ لم يعد أحد يذكره وهو أحد معالم تاريخ العربى الحديث. فى حين يُذكر باستمرار ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بعد أن أصبح التاريخ الأمريكى هو تاريخ كل الشعوب.

فهل يمكن لمؤتمر القمة اليوم أن يعود إلى قراراته العملية واتخاذ قرار عملى واحد على طريق الوحدة والإصلاح بإلغاء تأشيرات الدخول على المواطنين العرب

وهم يعبرون الحدود حتى يشعروا أنهم فى وطن واحد؟ وبعد المواطنين تأتى المطبوعات بعد توحيد القنوات الفضائية مثل الجزيرة والعربية الأوطان وعبور الأفكار السياسية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب. وبعد المواطنين والمطبوعات تأتى المصنوعات تحقيقا للسوق العربية المشتركة بجهود المواطنين دون انتظار للجان التنسيق. وإذا كان الغرب قد أقام مشروع حداثته على الفكر والمعرفة «أنا أفكر فأنا إذن موجود» فإن العرب يستطيعون إقامة مشروع حداثتهم على العمل والفعل ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وكما نادى النبى ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ﴾ [هود: ٩٣].

* * *

٥- هل انتهى النظام العربى؟

كان أمل العرب من قبل هو اجتماع مؤتمر القمة العربى فى موعده أسوة بالمؤتمرات الأفريقية والآسيوية والأمريكية اللاتينية، وكلها لدى شعوب العالم الثالث الذين شاركوا فى السراء والضراء فى نصف القرن الأخير. فحديث القادة مع أنفسهم فى التحديات التى تواجهها الأمة هو فى ذاته مكسب. والتشاور أفضل من القرارات الفردية، والاجتماع خير من التفرق. وبالرغم من أن بيانات القمة كانت مكررة ومعادة ولا جديد فيها، أقوال دون أفعال، ولكنها كانت تريح القلب، وتطمئن العرب أن ما زال لديهم أضعف الإيمان وهو تغيير المنكر باللسان بعد العجز عن تغييره باليد. والآن حتى اللسان توقف عن الحركة. فلم يعد لدى العرب إلا القلب وهو أضعف الإيمان. ومن يدرى فربما تغير القلب أيضًا وإن تحدث اللسان، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ومنذ رفض الكيان الصهيونى المبادرة العربية، انسحاب كامل من كافة الأراضى العربية المحتلة فى مقابل اعتراف كامل وتطبيع شامل، سياسى واقتصادى وثقافى قضت الصواريخ الثلاثة التى أطلقت على الشيخ ياسين ورفاقه على هذه القمة قبل ساعات من انعقادها ليبلغ رسالة أن القادة العرب فى مرمى صواريخه. وسيغتال جميع قادة المنظمات الفلسطينية وقادة حزب الله. ومن ثم لا يحتاج إلى التصفية الجسدية للقادة العرب بعد أن انتهوا معنويا وانتهى معهم النظام العربى. فإسرائيل فى الوطن العربى هى التى تسيطر على الأحداث، تحل وتعقد وليس أهل الحل والعقد فيه. هى القوة العظمى فى المنطقة التى تقوم بدور مصر التقليدى فى المنطقة

(*) جريدة الاتحاد: ١٠ أبريل ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٥ أبريل ٢٠٠٤م.

والتى تصل حدودها فى پاكستان وأعالى النيل. حدودها ليست فى الأرض بل فى ذراع إسرائيل الطويلة، المدى الذى يصل إليه الطيران والصواريخ الإسرائيلية.

والحقيقة أن القادة العرب جميعا قبلوا وثيقة «الشرق الأوسط الكبير»، منهم من قبلها بحذافيرها فى المشرق العربى، ومنهم من قبلها على استحياء بعد إعادة صياغتها وإجراء التعديلات عليها، أن تكون نابعة من الداخل وليست مفروضة من الخارج، وأن تكون متفقة مع الخصوصية الثقافية للوطن العربى بل وخصوصية كل قطر عربى على حدة. فالبدو غير الحضر. الخلاف ليس فى الجوهر بل فى الشكل كما هو الحال فى الوسط العربى وفى المغرب العربى. من قبلها بلا مواربة أراد فرضها على مؤتمر القمة حتى بلا نقاش. فأمريكا تأمر والأمة العربية تطيع وطمعا فى سياسة الجزرة دون العصا. أراد فرضها فى آخر لحظة قبل انعقاد القمة بساعات وبلا مناقشة. هكذا كان الأمر، ولا بد من التنفيذ. وإسرائيل بالمرصاد لمن يشق عصا الطاعة. امتهان وراء امتهان، من قمة إلى قمة، من محاصرة رئيس السلطة الفلسطينية وعدم السماح له بمغادرة رام الله إلى بيروت أو حتى الحديث إليها مباشرة عن طريق الآليات الحديثة للبث المباشر إلى اغتيال الشيخ ياسين والدور قادم على رمز السلطة وعلى باقى قيادات المقاومة.

وكان الخلاف أيضًا حول إلى متى يظل القادة العرب يكررون البيانات حول فلسطين وضرورة امتثال الكيان الصهيونى للقرارات الدولية والالتزام باتفاقيات السلام وتنفيذ بنودها فى خارطة الطريق، وحول العراق فى ضرورة انسحاب قوات التحالف وتسليم السلطة للعراقيين، والحفاظ على وحدته الوطنية، وضرورة الإعمار، والدم يسيل كل يوم، والقادة لا حول لهم ولا قوة إلا الزيارات والنداءات والاستجداءات لأوروپا وأمريكا ولشعوب العالم المحبة للسلام وسط صراخ النساء وعويل الأطفال ونحيب الشيوخ. والسلطة الوطنية الفلسطينية ليس لها صوت. همها الحفاظ على الرئيس من الاغتيال والخوف على حياته بعد الإهابة بالضمير الإنسانى. ومجلس الحكم العراقى المعين محاصر بين المطرقة والسندان، مطرقة قوات الاحتلال وسندان الشعب العراقى المطالب بالحرية والاستقلال.

لقد قبل العرب امتهان الكرامة بعد أن انتهت حرب أكتوبر ١٩٧٣م واكتشفوا أنها ليست آخر الحروب بل بداية العدوان الصهيونى على كل العرب وبداية التنازل عن الحق العربى فى الأراضى المحتلة بما فى ذلك سيناء المنزوعة السلاح. وتم الاعتداء على المفاعل النووى العراقى، واغتيال أبى جهاد فى تونس، وخطف الطائرة المصرية فوق مالطة، وهجرات اليهود السوڤييت إلى إسرائيل، والعدوان على العراق وحصاره حتى العدوان الثالث عليه العام الماضى. وترك الانتفاضتين الفلسطينيتين الأولى بالحجارة والثانية بالسلاح مضرجتين بالدماء، وها هى تبدأ عامها الرابع وحيدة تلقى الشهادة كل يوم. ولا ترضى إسرائيل بأقل من تركيع العرب والاستسلام التام وقبول خطة الفصل العنصرى من جانب واحد والقضاء على المقاومة فى غزة، والإبقاء على الحدود مع مصر ومطار غزة وميناءها تحت السيطرة الإسرائيلية، ونقل مستوطنات غزة فى الضفة. وعلى العرب أن يقبلوا ذلك دون قيد أو شرط وإلا فالصاروخ الإسرائيلى والڤيتو الأمريكى فى الانتظار.

والسبب ليس الخارج وحده بل الداخل أيضًا. وإذا كان الخارج من صنع الآخرين، فالداخل من صنع العرب. لقد طال النظام العربى أكثر مما يجب. وحكم القادة عشرات السنين. ومنهم من قارب خمسة وثلاثين عامًا فى الحكم. ومنهم من يبقى مدى الحياة بعد تغيير الدستور. فهو الزعيم والمخلص والأب وكبير العائلة والمهدى المنتظر فى حين طال انتظار الخلاص، وظهر المخلص ولم يتم الخلاص. بل ازدادت الأزمة، وعم الضنك، وازدادت مساحة الأراضى المحتلة، وازداد عدد المهجرين، وتكاثر سيل دماء الأبرياء. آن الأوان لتداول السلطة، وتناوب المرشحين وتعددهم، وصياغة برامج حزبية، وتشكيل حكومات مسئولة أمام البرلمانات العربية. فإن تأخر الإصلاح فإما العصا أو الجزرة، عصا العراق، وجزرة ليبيا. أما «محلك سر» فلم يعد مقبولاً لأنه ينتهى إلى التفكك والضياع، وزيادة الإحباط واليأس مما يؤدى إلى الاستسلام التام. والنظام العربى يترنح بعد إلغاء تونس للقمة بقرار فردى وحدوث ارتياح فى إسرائيل لتفرق العرب وإسقاط ورقة التوت الأخيرة، وصمت أمريكى لأن هذا شأن العرب وأمريكا لا تدخل فى

شئونهم بل تفرض عليهم فقط أنماط حياتهم فى مشروع «الشرق الأوسط الكبير» . والدعوة إلى مؤتمر قمة عربى جديد تهدف إلى إنقاذ ماء الوجه، والإبقاء على ما تبقى من شرعية للنظام العربى الذى ما عاد قادرا على حماية الأوطان من العدوان الخارجى فى فلسطين والعراق ولا على حماية مصالح الشعوب ضد الفساد والتلاعب بالثروات والمال العام.

ووسط حالة الإحباط واليأس وعدم احترام النفس قبل عدم احترام الغير لنا وشماتته فينا لم يبق للعرب إلا خيار المقاومة فى الداخل والخارج بعد فشل كل اتفاقيات السلام والمبادرات العربية والأمريكية بل والإسرائيلية من جانب واحد بعد مخطط تدمير غزة قبل مغادرتها. بل وتوسيع نطاقها فى فلسطين ولبنان والعراق فى الوطن العربى، وامتدادها فى العالم الإسلامى فى أفغانستان والشيشان وكشمير. فالمعركة واحدة ضد الإمبراطورية الأمريكية الجديدة وحليفتها إسرائيل الكبرى، وتدعيمها بالمال والسلاح والدواء من الجماهير العربية.

لم يبق للعرب إلا أن يلتف الشارع العربى كجبهة عريضة مساندة حتى لا تبدو الانتفاضة معزولة مرتين، مرة من الأنظمة العربية ومرة من الشارع العربى. فتشتد المقاومة لأنها تعمل فى محيط أوسع. فالمقاومة فى عامها الرابع ما زالت صامدة بمفردها وهى قادرة على الصمود سنوات. أما الخزى العربى فلا يبقى أسابيع أخرى.

كما تستطيع الجماهير العربية الضغط على الأنظمة العربية فى مصر والأردن وموريتانيا من أجل قطع جميع العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع إسرائيل، وإيقاف جميع أشكال التطبيع السياحى، وإيقاف الزيارات المتبادلة كما تم إيقاف زيارة الوفد البرلمانى المصرى للكنيست الإسرائيلى بمناسبة مرور ربع قرن على معاهدة كامب ديفيد. هذا بالإضافة إلى مقاطعة البضائع الأمريكية والشركات والمؤسسات الأمريكية لتأييد أمريكا المطلق لإسرائيل واستعمالها حق الفيتو ضد مشروع إدانة الأمم المتحدة لاغتيال إسرائيل للشيخ ياسين.

فإذا تحرك العرب الآن فإنهم يحتاجون إلى أمد طويل لتحريك الشارع العربى. فقد ولدت أجيال بعد الثورات العربية الأخيرة. لم تمارس السياسة. ولم تنضم إلى الأحزاب السياسية لغيابها، نظرا لسيطرة الحزب الواحد، هو الحزب الحاكم. لقد خرج الضباط الأحرار فى منتصف الخمسينيات من أتون الحركة الوطنية فى الأربعينيات. وجيل الأربعينيات هو الآن فى الثمانينيات. وما زال يواصل النضال، حماية للأوطان وجمعًا بين التجربتين الليبرالية والاشتراكية. أما جيل السبعينيات الذى كان دافعًا على حرب أكتوبر من أجل تجاوز حالة اللاسلم واللاحرب فقد أصيب بالصدمة هو أيضًا. ولم يبق إلا جيل جديد غاضب يتظاهر داخل أسوار الجامعة فى الحركة الإسلامية التى أصبحت تجسد النضال الوطنى.

مسئولية النظام العربى أن يتحرك بدلاً من أن يعلن انهياره وإفلاسه فتسقط ورقة التوت الأخيرة. تستطيع مصر أن تسترد دورها النشط الفعال بعد أن تعلمت الدرس الأخير من محاولات تهميشها وإخراجها من بؤرة الصراع بعد زيارة القدس فى نوفمبر ٧٧، وتوقيع معاهدة كامب ديفيد فى ١٩٧٨م، ثم معاهدة السلام فى ١٩٧٩م، واستردادها سيناء منزوعة السلاح، وأخذها خطا معتدلا فى الصراع العربى الاسرائيلى. فمازالت مصر هى القلب. إذا توقف عن النبض توقفت الأطراف عن الحركة، «اليوم خمر وغداً أمر». وحولها سوريا والسعودية كما حدث فى حرب أكتوبر - تشرين أول ١٩٧٣م، بالسلاح والنفط. والخيال السياسى لم يمت بعد طالما أن المتنبى وعنترة وامرأ القيس ما زالوا فى الوعى العربى. لم يخش الضباط الأحرار فى يوليو ١٩٥٢م من تفجير الثورة ضد الاستعمار والقصر. ولم يتخوف عبد الناصر من تأميم القناة فى يوليو - تموز ١٩٥٦م بالرغم من احتمال العدوان. فالمبادرة التاريخية دليل على الحرية.

تستطيع مصر مع العرب فك الحصار المفروض على النظام العربى، حصاره بين المطرقة والسندان، مطرقة القوى الخارجية، أمريكا وإسرائيل، والقوى الداخلية، حركات الشعوب وقرب انتفاضها. فما زال الأمل معقوداً على مصر. ولا تستطيع دولة أخرى مهما صغر حجمها، وعظم قدرها، وعلا صوتها أن تحل محلها.

قد يتفجر بركان الغضب فى قلوب الناس وتحدث ثورات شعبية تتحرك نحو القصور كما حدث فى الفيليبين وإندونيسيا وجورجيا وجمهورية الدومنيكان. لقد جربت مصر المفكرين الأحرار فى ثورة ١٩١٩م، والضباط الأحرار فى ١٩٥٢م. ولم يبق إلا أن يُجرب العرب الشعوب الحرة فى أخذ مصائرها بأيديها دون انتظار إصلاح يدعو إليه المصلحون منذ قرنين من الزمان وقبل أن تقدم أمريكا مشاريع إصلاحها مثل الشرق الأوسط الكبير. لقد أجهض العرب الثورة مرتين، الثورة الليبرالية، والثورة الاشتراكية لعلهم يستطيعون هذه المرة أن يحسموا أمرهم بثورات الشعوب.

* * *

سادساً: المقاومة الفلسطينية

١- أنا أفكر أم أنا أفعل؟

٢- البيان أم المقاومة؟

٣- الانتفاضة الثالثة: متى يتفجر الغضب؟

٤- الثورة والدولة.

٥- هل تجوز الصلاة فى الدار المغصوبة؟

٦- الأشباه والنقائض: قراءة فى وثيقة جنيف ومؤتمر القاهرة.

٧- يـــــوم العـــــار.

٨- المسألة اليهودية فى الفكر الغربى المعاصر.

٩- النموذج الأندلسى وحل المسألة اليهودية الفلسطينية.

١ ـ أنا أفكر أم أنا أفعل؟

كثر الحديث فى فكرنا العربى المعاصر عن نظرية المعرفة ابتداءً من ديكارت وبيكون، كانط وهيوم حتى باشلار وفوكو. وردد المفكرون العرب خاصة الإخوة المغاربة الألفاظ المعربة مثل إبستمولوچيا، والوحدة المعرفية «إبستميه» عند فوكو، والقطيعة المعرفية عند باشلار، وانبهروا باللسانيات المعاصرة وتحليل الخطاب، حتى أصبح القول مغلقًا على ذاته لا يهدف إلا إلى بنيته الداخلية، وتركيب ألفاظه، وتكوين جمله.

شعر بعض المفكرين العرب بالنقص أمام البعد المعرفى فى الثقافة الغربية منذ بدايات العصور الحديثة فى عصر النهضة فى القرن السادس عشر عندما بدأ الوعى الأوروبى يشعر باستحالة الاعتماد على أرسطو وبطليموس وآباء الكنيسة كمصادر للمعرفة، فشتان ما بين هذه المصادر القديمة والمصادر الجديدة عند كبلر وجاليليو ونيوتن. فى المصادر القديمة الأرض مركز الكون والشمس تدور حولها، وفى المصادر الجديدة الشمس مركز الكون والأرض تدور حولها وكما أثبت كوبر نيكوس.

كان لا بد من القطيعة المعرفية مع الماضى، والتحول من القديم إلى الجديد، والبداية بالعقل فى مواجهة الطبيعة لتأسيس العلم الطبيعى ومعرفة القوانين الطبيعية، والعقل فى مواجهة المجتمع لتأسيس العلم الإنسانى ووضع نظرية العقد الاجتماعى. فقد تبين أن النقل لا يمكن أن يكون أساسًا للعقل بل العقل هو أساس النقل. لذلك توجه العقل إلى النص بعد أن تحرر منه، وبدأ يعمل فيه النقد والتحليل حتى كشف عن مكوناته التاريخية ووضعه البشرى وقضى على ادعاء ألوهيته وقدسيته. وأنشأ علم النقد التاريخى للكتب المقدسة.

(*) جريدة الاتحاد: ٣٠ مارس ٢٠٠٢م.

وبدأت نظرية المعرفة فى الغرب الحديث بوضع مناهج للمعرفة، المنهج الاستنباطى كما استقاه ديكارت من العلوم الرياضية، ومقياس صدقه تطابق النتائج مع المقدمات. والمنهج الاستقرائى كما استخلصه بيكون من العلوم التجريبية. ومقياس صدقه تطابق النتائج مع الوقائع فى العالم الخارجى. وظل المنهجان يتصارعان مرة ويتفقان مرة أخرى طوال العصر الحديث فى الغرب، والعلوم الإنسانية حائرة بينهما حتى وضع لها منهج مستقل فى الظاهريات فى الفكر المعاصر.

واعتز الغرب بهذا البعد النظرى المنهجى، وجعل التنظير خاصيته الأولى التى يتفرد بها على باقى الحضارات المغرقة فى العمليات والأخلاقيات. فالغرب هو الذى يفكر منذ ديكارت حتى ماكس فيبر وهوسرل. والشرق هو الذى يعمل ويتطهر. وأصبح التنظير أحد الخصائص المكونة للنظرية العنصرية وتحليل طبائع الشعوب والتمييز بين العقلية الآرية والعقلية السامية، بين العقلية المتحضرة والعقلية البدائية، بين الفكر الحضرى والفكر البدوى، بين الفكر الراقى والفكر المتوحش إلى آخر هذه التصنيفات فى الأنثروبولوچيا الثقافية التقليدية.

لذلك بدأت الماركسية بداية جديدة، فليس المهم فهم العالم بل تغييره. وركزت البراجماتية على الفعل، وأن التحقق الواحد خير من عشرة أفكار. وظهر فلاسفة يعطون الأولوية للفعل على التأمل، وللعمل على النظر مثل بلوندل الذى جعل الفعل الإنسانى أحد التجليات الإلهية، ومين دى بيران الذى أثبت وجود الذات عن طريق الجهد والمقاومة، وبرجسون الذى جعل النظر ضعف فى الإرادة، ومن قبلهم فشته الذى أثبت وجود الذات بالمقاومة. الأنا تضع نفسها حين تقاوم، وكانط الذى أعطى الأولوية للعقل العملى على العقل النظرى وناقض جوته الآية الأولى من أنجيل يوحنا «فى البدأ كانت الكلمة» بالشعر فى البدأ كان الفعل.

أما الثقافة العربية الإسلامية فإنها تبدأ بالفعل. ففى علم الكلام بعد التأمل فى الطبيعة يثبت وجود الله. وبعد إثبات وجود الله ينفرد الإنسان عن الله بخلق الأفعال عند المعتزلة أى بالفعل الحر. وكى تصبح الحرية مسئولة يأتى العقل

لمساندتها، ويساعدها على التمييز بين الحسن والقبيح، فيختار الحسن ويتجنب القبيح. فالحرية والعقل مظهران للعدل بعد التوحيد.

ولقد هبط آدم من الجنة بالإرادة وعدم القدرة على مقاومة الغواية مع أنه كان يعرف الفرق بين الخير والشر وتحدى إبليس الإنسان وقبل الإنسان التحدى، وحمل الرسالة والأمانة، وسعى فى الأرض وكد وكدح فيها. وعبر عن ذلك القرآن بقوله ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ [التوبة: ٩] قبل، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١]، وبالأمر ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ـ٢] وأيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ① قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١ـ٢]. والقراءة فى﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] تعنى فعل الاعتراف واليقظة الداخلية؛ لأن الرسول كان لا يعرف القراءة والكتابة. وتحدث الصوفية عن المقامات والرياضة والمجاهدة كطريق إلى الله حتى تحصل المعرفة بعد ذلك. وفى أصول الفقه عند الشاطبى كل مسألة لا ينتج عنها أثر عملى فهى زائدة على العلم. والعلم هو العلم النافع، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] وخيرنا للناس أنفعنا للناس ونعوذ بالله من علم لا ينفع.

وقد سئم الفكر العربى المعاصر المداخل الأيديولوچية للواقع المعاصر. لا فرق بين ليبرالية وقومية وماركسية فى تنظير الواقع، والتحديات مستمرة، وتحرير الأرض لم يتم، وحرية المواطن لم تتحقق، ووحدة الأمة ما زالت بعيدة المنال، والعدالة الاجتماعية طموح لم يتحقق، والتنمية المستقلة مجرد أمل، والدفاع عن الهوية حلم، وحشد الناس وتجنيد الجماهير شبه معدوم، وصمت الشارع العربى عما يحدث من مذابح يومية فى فلسطين ما زال شبه مطبق.

وتكثر الكتابة، وتدبج المقالات، وتختلف الآراء، وتتعدد الاجتهادات، وتكثر الصحف، حكومية ومعارضة، وتذاع البيانات والنشرات، وتنتشر المحطات الفضائية التى تمتلئ بصراخ المحللين، والواقع لم يتغير. لذلك كتب محمد عبده من قبل «ما أكثر القول وأقل العمل».

فهل يتخلى العرب عن إثبات وجودهم بالعمل وليس بالنظر، «بالأرجو» وليس «بالكوجيتو» خاصة وفى مواجهة الصهيونية التى عبر عنها بيجن بقوله: «أنا أحارب فإذن أنا موجود».

٢- البيان أم المقاومة؟

وبعد أن انتهى مؤتمر القمة الرابعة عشرة بالرغم من غياب نصف الرؤساء، ولكلٍّ دوافعه، وتم تعريب المبادرة السعودية وتحويلها إلى مبادرة عربية، تستأنف مبادرة روجرز ثم مبادرة الملك فهد فى مارس ثم تعيد صياغة مبادئ مدريد وأوسلو، الأرض فى مقابل السلام، ومد العرب غصن الزيتون بيد وتأييد المقاومة الفلسطينية باليد الأخرى ومن خلف الظهر كسر الكيان الصهيونى اليد الممتدة بغصن الزيتون، وبدأ اقتحام الأراضى الفلسطينية وتصفية المقاومة، وطلب رأسها بعد هدم بنيتها.

وبعد أن اختلف العرب حول صيغ البيان، كلمة هنا، وكلمة هناك وفرحوا بوحدة الموقف، وبالاتفاق على البيان المشترك، بدأ الكيان الصهيونى بالقضاء على السلطة حتى بقى بيان القمة طائراً فى الهواء، بخاراً تذروه الرياح. وقد امتلأت الديباجات بأصحاب الفخامة والجلالة والعظمة والعزة والسعادة والسيادة مع أنه لا عزة ولا جلالة ولا عظمة إلا لله. وانكسرت قواعد اللغة العربية فى الخطاب الشفاهى والمدون مع أن البدو سكان الصحراء أهل فصاحة وبيان. وتداخلت الرموز مع الألقاب، رموز الشيخ والملك والعسكرى، وسادت الإنشائيات والحماسيات المكررة وكأن شيئًا لم يتغير قبل الانتفاضة وبعدها. وظهر النقص فى الإبداع الفكرى العربى، بالرغم من تحليل أحد الخطابات الرئاسية مفهوم الإرهاب والمطالبة بالتدقيق فى استعمال المصطلحات. الجهد فى الكلام، والخلاف فى الصياغة، وكأن الخطاب السياسى عالم مغلق على ذاته، مكتف بنفسه، ويتحقق

(*) جريدة الاتحاد: ٦ أبريل ٢٠٠٢م.

بالنصر باتفاق المختلفين على العبادة أو التوفيق بين عبارتين. البضاعة كلام، والصناعة كلام، والنتيجة بيان يقرأ على الناس، وتتناقله أجهزة الإعلام.

والكيان الصهيوني يفعل ويخطط ليقضي على المقاومة ويقوض السلطة الفلسطينية، أسيراً أو طريداً أو قتيلاً. يدمر المنازل، ويحتل المدن، ويغتال قوات الأمن وأفراد المقاومة، نحن نتكلم وهو يفعل، نحن نصوغ العبارات ونختلف على الصياغات، وهو يوحد بين الجهود، لا فرق بين الليكود والعمل. يسرق الأرض، ويعتقل المواطنين. ثم يصدر بيان الشجب والإدانة. ونطالب الجميع بإصدار بيانات مشابهة. وكل منا يلقي التبعية على الآخر ويذكره بموجباته. والكل يقرأ ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ** ﴾[البقرة: ٤٤].

فما السبب في الاحتماء بالكلمة وجعلها بديلاً عن الواقع ؟ لماذا الصولان والجولان في البيان والعجز العربي واضح للعيان ؟ هل الكلام تعويض عن العجز عن الفعل ؟ ألا يمكن إحداث اختراق نوعي في الفكر العربي بحيث يخرج من عالم الأذهان إلى عالم الأعيان، من الذهن إلى الواقع، ومن النظر إلى العمل، ومن «الأنا أفكر» إلى «الأنا أفعل» بل إن خطاب رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية لم يخرج عن هذا الإطار، وهو رمز المقاومة، إنشائيات مدرسية تتكرر في دروس الخطابة للناشئين دون تحليل عقلي أو وصف واقعي.

إن حركة الشارع وغضب الجماهير نوع من الفعل. والفعل الأعظم هو المقاومة، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد. ولا يواجه الاحتلال إلا بمقاومة المحتل، العدو يأمن الكلام بعد أن مهد له الاستشراق بأن العرب ظاهرة صوتية. ويخاف الفعل الذي يقضي على أمنه الوهمي في المنزل والطريق بل وداخل البروج المشيدة. هو حريص على الحياة قدر حرص الشهيد على الموت. فعل في مواجهة فعل، ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ليس الفعل هو الفعل الأهوج العشوائي بل الفعل القصدي الهادف. هو الفعل الذي يبني ولا يهدم «أنا أفعل.. فأنا إذن موجود»، «الأنا تضع نفسها حين تقاوم». لذلك رأى بعض الفلاسفة أن التأمل ضعف في الفعل. نواجه المحتل بالبيان وهو

يواجهنا بالفعل. لذلك كان الشهيد وحده هو المتكلم منذ عصر الشهداء الأوائل فى المسيحية والإسلام حتى عصر المقاومة الفلسطينية والانتفاضة الثانية. لذلك أنشد نزار..

والفدائى وحده يكتب الشعر وكل الذى كتبناه هراء

إن استمرار الاحتلال يراهن على الصمت العربى، والقضاء على السلطة الوطنية الفلسطينية يراهن على العجز العربى، وضرب العراق يراهن على السكوت العربى، وتهديد لبنان والسودان وسوريا يراهن على الخوف العربى. أصبحت صورة العربى فى ذهن المحتل أنه مجرد صوت وصورة دون فعل وأداء، «سكوت حنصور».

وكلما كثر الكلام، وتكاثرت البيانات، وتعددت التحليلات، وتداخلت الأيديولوچيات، كشف ذلك عن الضعف والعجز وقلة الحيلة. إذا انسد الواقع انفتح اللسان. لم يعد المثقف العربى قادراً على الكتابة، ولم يعد المفكر العربى قادراً على التحليل. ماذا يكتب وماذا يحلل، ورئيس السلطة الوطنية، محاصر فى مصيدة واجتياح الأراضى الفلسطينية مستمر مدينة وراء أخرى ؟ والكل يشجب ويدين ويستنكر أو يستجدى ويتسول الحل من الجلاد.

ألا يمكن للزمن العربى أن يتغير، وللإبداع العربى أن يتقدم نوعيّا قفزاً على المفردات القديمة، مفردات الناى والربابة التى ما قتلت ذبابة ؟ ألا يحتاج العرب الآن إلى فلسفة فى الفعل وليست إلى فلسفة فى القول ؟ إن دماء شهيد واحد خير من مداد آلاف الأقلام، وإن دماء الشهداء عند الله خير من مداد أقلام العلماء.

ما زلنا تحت مقولات الإصلاح الدينى وفجر النهضة العربية، الإصلاح والتنوير والنهضة، الشهاب والنور والنذير، المصباح والمنار والهدى، اليقظة والبعث والأحياء، فمتى تتغير مفاهيم عصر النهضة الأولى إلى مفاهيم الانتفاضة، المقاومة والشهادة والرفض والتمرد والغضب والاعتراض والثورة ؟ ما زالت فلسفاتنا ونهضتنا بل وأيديولوچيتنا تقوم على النظر دون العمل، وعلى المعرفة قبل الفعل.

لذلك كفر بعضنا بعضًا، وأقصى بعضنا بعضًا، وخون بعضنا بعضًا، والعدو الصهيونى يبتلع ما تبقى من فلسطين، ونحن نستصرخ ونستنصر، ونطالب الآخرين أن يفعلوا شيئًا ، أوروبا وأمريكا وروسيا والصين والأمم المتحدة، مهمتنا النداء ومهمة الآخرين الفعل. دورنا فى صياغة البيان ونجاحنا فى الاتفاق عليه، ودور الآخرين فى التنفيذ. والآخر يعلم حدود قدرتنا فى الكلام، ونحن نعلم مقدار عجزنا عن الفعل. ثم تتحرك الجماهير ثأرًا للكرامة فيتحول مسار التاريخ، «فى البدء كان الفعل».

لقد سقطت أيديولوچياتنا الليبرالية والقومية والماركسية والإسلامية المستنيرة التى أرادت أن تفهم الواقع وأن تشخص اللحظة التاريخية الراهنة بالحاجة إلى الأيديولوجيا، الحرية لشعب فلسطين وللمواطن الفلسطينى فلا شىء أعز على الشعوب من الحرية، حرية المواطن وحرية الوطن. وفلسطين هى آخر بقعة فى الأرض من بقايا الاستعمار الاستيطانى القديم بعد جنوب أفريقيا التى لم تتحرر بعد. وها هم شهداء الحرية يتساقطون كل يوم شهداء أو أسرى، لا فرق بين أسرى القاعدة فى جوانتانامو على أيدى الأمريكيين أو أسرى الانتفاضة فى الحافلات إلى معسكرات الاعتقال على أيدى الإسرائيليين.

وبالصمت العربى، وترك الانتفاضة بمفردها من الأنظمة التى ما زالت ترى أنها أنظمة قومية، وخوفًا من تكرار مأساة ١٩٦٧م، وكأن نصر ١٩٧٣م ما هو إلا الاستثناء، وأن القاعدة هى نكبة ١٩٤٨م وعدوان ١٩٥٦م وهزيمة ١٩٦٧م، كانت النساء تصرخ أين أنت يا عبد الناصر ؟ أين أنت يا مصر ؟ فقد هبت مصر لنجدة فلسطين فى ١٩٤٨م، ثم لنجدة سوريا فى ١٩٦٧م. والقومية مازالت هى التيار الغالب فى سوريا والعراق واليمن والخليج والأردن ولبنان وليبيا. والانتفاضة تدافع عن الشرف العربى، وتوقف التوسع الإسرائيلى عن أراضى العرب، وللعروبة رب يحميها.

والماركسية أيضًا التى أرادت توحيد العمال والفلاحين أصحاب المصلحة الحقيقية فى الوطن، ورائدة التحليل المادى للتاريخ والصراع بين الطبقات،

وصاحبة المنهج الجدلى ضد الفهم المثالى للظواهر وقفت عاجزة عن أن توفر العمل، وتجند العمال. فالعامل مطحون بالاحتلال أكثر مما هو مستغل من صاحب رأس المال. والفلاح مطرود من أرضه التى يستوطن عليها الصهاينة فى المزارع الجماعية أكثر مما هو مستبعد من الإقطاع.

والإسلام المستنير لم يعد يكفى أمام حركات الاستشهاد والمقاومة. فاستنارة العقل أقل بكثير من المقاومة بالفعل. والعقل ثورة كما لاحظ ماركوز. إن الإسلام المستنير ظاهرة حضرية فى مجتمع مستقر وفى دولة قائمة، ولا يكفى فى حالة النضال الوطنى. هو ظاهرة ثقافية حضارية إلى التحرر، من النقل إلى العقل. والحرية تسبق العقل كما قال المعتزلة. ويتفرد الإنسان عن الله بالحرية. ثم يأتى العقل سنداً لها كى تكون حرية مسئولة داعية.

لقد أعلن بعض مفكرى الغرب الحديث منذ هيجل عن نهاية الفلسفة، ونهاية الأيديولوچيا، ونهاية للتاريخ. والعرب يعلنون اليوم نهاية الأيديولوچيات العربية التى لم تستطع توفير الحماية للمقاومة وتجنيد الجماهير لاستمرارها.

وكما انتهت الأيديولوچيات العربية ظهرت حدود الأنظمة العربية الملكية والجمهورية وتفريعاتها فى الدولة والإمارة والسلطنة والجماهيرية. يرى كل نظام أن الحرب مغامرة غير محسوبة العواقب، وأن إسرائيل قد أعدت عدتها بحيث تنتصر على الجيوش العربية كلها مفرقة أو مجمعة، وأن لا أحد قادر على أن يعوض العرب عن السلاح بالمال أو بالعتاد، وأن عصر الاستقطاب قد انتهى، وأصبحت أمريكا وحدها هى التى تقرر وتحكم. وقد اختارت صف إسرائيل، وما زال الخيال السياسى العربى لتكوين جبهة مع إيران أقل كثيراً من طموحات العرب.

ما زال الأمل فى الإبداع العربى، والاختراق العربى للأزمة الراهنة التى سقطت فيها البيانات والأيديولوچيات والأنظمة. فمن مخاض الألم تتم الولادة الجديدة. وللمقاومة أشكال لا حدود لها، وللصمود طرق لا نهاية لها. المهم تجاوز اليأس والإحباط والأحزان. وربما يتشكل جيل جديد الآن، أطفال الشهداء، يكون قادراً على استرداد فلسطين فى الأرض بعد أن حافظ عليها الآباء فى القلب.

٣- الانتفاضة الثالثة: متى يتفجر الغضب؟

إذا كانت الانتفاضة الأولى هى انتفاضة الحجارة، والانتفاضة الثانية هى انتفاضة الأقصى، وكلتاهما فى فلسطين، فإن الانتفاضة الثالثة قد تكون هى انتفاضة العرب دفاعا عن الكرامة ورد فعل على العجز. وقد تكون الانتفاضة الرابعة انتفاضة المسلمين فى آسيا خاصة إذا ما حدث مكروه للمسجد الأقصى وهدده الكيان الصهيونى عن قصد أو غير قصد لإعادة بناء الهيكل كى تصبح القدس العاصمة الأبدية لإسرائيل.

وتقع الانتفاضة الثالثة، انتفاضة العرب بعد أن وصل العجز العربى إلى مداه، وتحول إلى إحساس بالإحباط وامتهان للكرامة. وأصيبت النفس بالغثيان كما وصف الوجوديون، ودخل الموت إلى النفس فأصبحت كسيرة حزينة كما وصف السيد المسيح.

فقد تركت الانتفاضة الأولى بمفردها بالرغم من إعجاب العالم بها وبأطفال الحجارة. وأصبحت الدولة الفلسطينية «على مرمى حجر». وعادت سيرة غاندى العرب، سياسة اللاعنف، تفتت معنويات الجندى الإسرائيلى المدجج بالسلاح وهو يقاتل طفلاً بريئًا ليس فى يده إلا حجارة. ويقف أمام الدبابات يرشقها، والعربات المصفحة يواجهها. وحصل بعدها الفلسطينيون على السلطة الوطنية الفلسطينية، نواة الدولة الفلسطينية المستقلة.

وتحولت انتفاضة الحجارة الأولى إلى انتفاضة السلاح الثانية تحولاً طبيعيًا من الداخل بعد أن غاب العرب عن أن يكونوا رصيداً فعليًا للانتفاضة الأولى. ووقف

(*) جريدة الاتحاد: ١٨ أكتوبر ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ١٦ أكتوبر ٢٠٠٣م.

المناضلون الفلسطينيون بما لديهم من سلاح يدوى خفيف فى مواجهة المجنزرات والآليات على الأرض والطائرات الأباتشى وإف١٦ فى الجو، وهم لا يملكون صواريخ ضد الدروع ولا ضد الطائرات. وسجلوا ملحمة المخيمات والتى أصبح مخيم جنين رمزاً لها. وغاب الرصيد العربى للمرة الثانية فى انتفاضة السلاح.

ويدأ العدوان المحدود يصبح عدوانًا شاملاً، من العدوان على أفغانستان واحتلالها، ثم العدوان على العراق واحتلالها، ثم العدوان على سوريا ربما قبل احتلالها. قامت بالعدوانين الأولين الولايات المتحدة الأمريكية وقام بالعدوان الثالث على سوريا الكيان الصهيونى كى يتم حصار سوريا من الشرق، من العراق، ومن الجنوب، إسرائيل. والتهديد مستمر لإخراج إسرائيل من مأزقها الداخلى مع المقاومة فى فلسطين ولإخراج أمريكا من مأزقها الداخلى أيضا فى العراق. فتوحد الموقف بين أمريكا وإسرائيل. ولم يجدا الحل إلا فى «الهروب إلى الأمام» وبزيادة المشكلة تعقيدا، وحتى ينسى العرب الشر الأقل وهم موحولون فيه أمام الشر الأعظم وهم غارقون فيه.

والتحرش بإيران ما زال مستمراً، والتفتيش على نشاطها النووى ما زال مطلبا. وتستطيع أمريكا الاعتماد فى ذلك على قوة إسرائيل فى المنطقة كما فعلت فى ضرب المفاعل النووى العراقى فى ١٩٨٤م وصواريخ البقاع بعد ذلك. والحشود على لبنان مستمرة بدعوى قتل جندى إسرائيلى. والخطة إشعال المنطقة وللتغطية على المقاومة فى العراق والمقاومة فى فلسطين، والحصول على كسب سريع خاطف لرفع معنويات الجيش الأمريكى والجيش الإسرائيلى. وقد يحدث ذلك قبل نهاية العام الحالى قريبًا من أكتوبر وحتى يمحى من ذهن العرب نصر أكتوبر ١٩٧٣م.

فإذا ظلت الأنظمة العربية فى عجزها وسكونها وحيادها. لا تفعل أكثر من استجداء الأمم المتحدة ومجلس الأمن لاستصدار قرارات لإدانة العدوان تصطدم بالفيتو الأمريكى، وظلت الجماهير العربية تتحرك بحساب، تحاصرها أجهزة الأمن وقوات الجيش حتى لا تخرج من الجامعات ومقار الاتحادات والنقابات والأحزاب والمنظمات غير الأهلية فإن قوة الضغط على الأنظمة ومحاصرتها بين المطرقة

والسندان، المطرقة الأمريكية الصهيونية وسندان الشعوب وتحركات الشارع تدفع إلى الحركة بطبائع الأشياء، ويتحرك الساكن. ويسقط من يسقط، ويرتفع من يرتفع.

لقد قربت نهاية القاع على الظهور، ووصل الشعب العربى إلى عتبة التحمل قبل أن يحدث الانفجار. فالقدر يغلى. والمياه الجوفية عارمة. ولم تظهر قمة جبل الجليد بعد. والحطب جاف ينتظر الشرارة. وهو العرض التاريخى. قد لا يكون غلاء الأسعار هذه المرة كما حدث فى انتفاضة يناير ١٩٧٧م أو فى انتفاضة الخبز فى المغرب وتونس فى الثمانينيات أو فى الأردن فى التسعينيات بل قد يكون هذه المرة العدوان على سوريا أو على لبنان أو على إيران أو حتى على مصر خاصة وأن الكيان الصهيونى يريد تحويل انتصار أكتوبر ١٩٧٣م إلى هزيمة بعد ثلاثين عامًا. وتزداد الاتهامات الإسرائيلية لمصر وسوريا بأنهما تنويان شن حرب جديدة على إسرائيل مما يعطيها ذريعة لشن حرب وقائية على سوريا ومصر. العرض التاريخى هذه المرة لن يكون الخبز بل الحرية، وليست الأسعار بل الكرامة، وليست الدنيا بل الآخرة.

والغرض من ذلك كله كسر شوكة العرب بدعوى عدم الانصياع الكامل للمشروع الأمريكى الجديد للاستيلاء على العالم كله، والتخلص من الإسلام المجاهد المقاوم بدعوى الإرهاب. ويتحقق الحلم الأمريكى الجديد فى الاستقرار فى آسيا على مقربة من الصين وروسيا لإجهاض الثورة الصناعية فى شرق آسيا فى كوريا وهونج كونج والصين واليابان وكوريا الجنوبية، وفى جنوب شرق آسيا فى ماليزيا وإندونيسيا، والقضاء على بؤرة الثورة الإسلامية فى إيران، وعلى الجماهير الإسلامية فى پاكستان وعلى التجربة الديموقراطية الإسلامية فى تركيا، وبناء قواعد عسكرية دائمة فى العراق والخليج وقازاقستان فى أواسط آسيا.

وفى نفس الوقت يتحقق حلم خلق إسرائيل الكبرى، من النيل إلى الفرات. فقد بدأ يعود اليهود العراقيون إلى العراق للمطالبة بممتلكاتهم وأراضيهم التى تركوها فى ١٩٤٨م. ويفعل اليهود العرب الذين هاجروا إلى إسرائيل نفس الشىء، المطالبة

بأراضيهم فى أوطانهم. وهو ما تنكره إسرائيل على اللاجئين الفلسطينيين برفضها حق العودة لهم من المخيمات فى جنوب لبنان والأردن وسوريا ومصر وبلاد المهجر وأرض الشتات.

وكل ذلك يهدف فى النهاية لحصار مصر وتقزيمها وتحويلها إلى دويلة عربية، تقوم إسرائيل مقامها كمركز تحديث للمنطقة، وتستثمر أموال النفط فيها، وتمد أنابيب النفط إليها. وتتحول المنطقة العربية كلها إلى منطقة خدمات لأمريكا وإسرائيل، أسواق وطاقة وعمالة رخيصة.

فإذا كانت أمريكا وإسرائيل الآن تخططان لوثبة إلى الأمام فإن العرب يحنون إلى الماضى، ويقومون بوثبة إلى الخلف هروبا من الحاضر ورغبة فى الحصول على انتصار حتى ولو كان بالذاكرة.

إذ يحن الإسلامى إلى عصر النبوة والخلافة الراشدة عندما كانت جيوش المسلمين فاتحة لفارس والروم، ولأواسط آسيا وشمال أفريقيا حتى الأندلس. إذ لا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها. ويستدعى أبا عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، والزبير بن العوام، وطارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس. وينزل تحت الأرض مؤقتا انتظارا لليوم الموعود أو يهاجر فى سبيل الله ليستشهد فى أفغانستان أو الشيشان أو كشمير أو العراق أو فلسطين أو كوسوفا، فكل بلاد الله أوطان.

ويحن القومى إلى الخمسينيات والستينيات إلى عصر حركات التحرر الوطنى، «على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل»، الاستعمار البريطانى. «وإن لم تشأ أمريكا أن تشرب من البحر الأبيض فعليها أن تشرب من البحر الأحمر»، ومقاومة بورسعيد عدوان ١٩٥٦م، وحرب الاستنزاف ٦٨ ـ ١٩٦٩م، وحرب أكتوبر ١٩٧٣م التى لم تكن آخر الحروب بعد غزو لبنان وضرب المفاعل النووى العراقى، واغتيال أبى جهاد فى تونس وإعادة احتلال أراضى الضفة الغربية ثم العدوان على سوريا.

والليبرالى يحن إلى مصر قبل ١٩٥٢م حيث كانت حرية الصحافة، والتعددية

الحزبية، والانتخابات البرلمانية، والوزارة المسئولة أمام البرلمان. كان الفرد حرّاً بالرغم من اضطهاد الإخوان والشيوعيين وفساد الأحزاب وتبعية بعضها للقصر والإنجليز. وكانت جامعاتها وكتابها وفنانوها وشعراؤها ملء السمع والبصر، وفى الأربعينيات ازدهرت الحركة الوطنية التى تكون فيها الضباط الأحرار والتى استأنفت ثورة ١٩١٩م لتحقيق الاستقلال الوطنى.

والماركسى يحن إلى ثورة ١٩١٧م التى أسقطت القيصر وقضت على نظام الإقطاع، وحققت أول تجربة اشتراكية فى التاريخ. قاومت العدوان النازى فى الخارج، وحققت الاشتراكية فى الداخل، ووقف الاتحاد السوفييتى متحدياً الاستعمار الغربى فى عصر الاستقطاب يساعد شعوب العالم الثالث على التحرر والتنمية.

والآن، متى يغضب العرب؟ متى تحدث الانتفاضة الثالثة، انتفاضة العرب؟ متى لا يثب العرب إلى الخلف كما يفعلون الآن أو إلى الأمام كما تفعل أمريكا وإسرائيل بل يثبتون فى الحاضر، ويرفعون الهامة «منتصب القامة أمشى، مرفوع الهامة أمشى، وفى كفى نعشى»؟ متى يدخل العرب التاريخ من جديد ولا يظلون على هامشه، ويأخذون زمام المبادرة ويؤثرون فى مجرى الحوادث؟

ربما يتكون جيل جديد من الضباط الأحرار حرّكتهم هزيمة الإرادة العربية وعجزها أمام أمريكا وإسرائيل واحتلال العراق وضرب سوريا وربما لبنان كما حركت الجيل الأول من الضباط الأحرار هزيمة فلسطين. فالجيوش العربية جيوش وطنية حاربت فى فلسطين خمس مرات على الأقل، وتعرف من عدوها ومن أين يأتى الخطر، من الشام لقطع المشرق العربى عن مغربه.

وربما تستطيع النقابات والاتحادات والمنظمات غير الحكومية وأحزاب المعارضة الشرعية منها وغير الشرعية، إسلامية وماركسية تحريك الشارع العربى، ونزول الملايين إلى الشوارع مثل مظاهرات ١٩٦٨م ضد الهزيمة، ومظاهرات ١٩٧٢م لنفاد الصبر على المعركة، وهبّة يناير ١٩٧٧م ضد غلاء الأسعار، والأمن المركزى فى ١٩٨٦م، والعدوان الأمريكى على العراق فى ١٩٩١م، والعدوان الثانى فى ١٩٩٨م، والآن أسبوعيا ضد العدوان على فلسطين وأخيراً سوريا.

وربما يحدث كلاهما، الضباط الأحرار مع المفكرين الأحرار، الجيش والشعب، بعد الوصول إلى نهاية القاع، وتفجر الغضب، وبلوغ السيل الزبى حتى ترتفع الهامة من جديد، وتنتصب القامة خارج أكوام الرمال.

إن الوطن العربى الآن أصبح مخصبًا، والأمة العربية حبلى. وتنتظر المولود الجديد، فى ستة أشهر أو فى تسعة، ولادة طبيعية أم بعملية قيصرية، طفلا صحيحا أو مشوها. المياه الجوفية قاربت على أن تتفجر فى ينابيع عدة. وحتى «جحا» لم يعد قادرا على حكاية نوادره بعد أن أدار ظهره للجميع. ولم يعد الشعب العربى يبدع «النكات» حول حكّامه فلم يعد أحد منهم يثير خياله. قد يكون هو الهدوء الذى يسبق العاصفة.

* * *

٤ـ الثـورة والدولـة

يقلق الفلسطينيون، وتغضب المقاومة، وتحتار السلطة بعد ثلاثة أعوام من الانتفاضة وبداية عامها الرابع. ويخشى الكل أن يقع تناقض بين الدولة ممثلة فى السلطة الوطنية، والثورة ممثلة فى المقاومة الشعبية. وبدلاً من أن يتوجه الرصاص إلى قوات الاحتلال ينقلب إلى صدور المقاتلين والشهداء. وتأتى الضغوط الخارجية الصهيونية والأمريكية من خلال السلطة لإيقاف المقاومة كشرط للمفاوضة، وتطبيق مشاريع السلام، ومقايضة الفعل بالقول. وتأتى الضغوط الداخلية من شعب فلسطين والمقاتلين على قيادة المقاومة للاستمرار فى القتال ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. وتحاصر السلطة الوطنية بين المطرقة والسندان، مطرقة المقاومة الشعبية والسندان الأمريكى الصهيونى. وتتغير الحكومات بتغيير أسماء رؤساء الوزارات ونوعيتها، طوارئ أو عادية والسبب قائم، علاقة الدولة بالثورة. ويتم التركيز على الأشخاص، رؤساء الوزارات أو أشخاص المجلس الوطنى أو قادة الفصائل وكأن التحرر الوطنى قائم على أمزجة الأفراد، وكأن الأمر يحسم باغتيال القادة أو طرد أو اعتقال أو اغتيال رئيس السلطة الوطنية «من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات». وبعد اندلاع المظاهرات فى عموم الأراضى المحتلة بعد قرار الكيان الصهيونى إخراج رمز الدولة كان الهتاف من الثورة للدولة «بالروح، بالدم، نفديك يا أبو عمار». وكان هو يرد باسم الدولة تحية للثورة «بالروح، بالدم، نفديك يا فلسطين». الثورة تدافع عن الدولة، والدولة تدافع عن الثورة.

والحقيقة أن التوتر بين السلطة والمقاومة توتر طبيعى. وهو التوتر المعروف فى

(*) جريدة الاتحاد: ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٣.

تاريخ الثورات بين الدولة والثورة. الدولة التى تفاوض، والثورة التى تقاوم. يد تضع البنود، ويد تحمل السلاح. هكذا كان الأمر فى ڤيتنام على مدى خمس سنوات، المقاومة مستمرة على الأرض، والوفد الڤيتنامى يفاوض فى باريس. لو توقفت المقاومة لضعف موقف المفاوض. فلم يعد لديه شيء يفاوض به. ولو تعثرت المفاوضة فالمقاومة ليست هدفًا فى ذاتها بل لإجبار العدو على التنازل، وإعطاء الفرصة له لإنقاذ ماء الوجه بدل الهزيمة التى قد تلحق به لا محالة. فالاستقلال الوطنى للشعوب هو المنتصر دائمًا. وقوات الغزو هى المندحرة دائما. التوتر إذن طبيعى بين الدولة والثورة. وهو توتر لا صراع، وتكامل لا تناقض. الدولة كالدرع تحمى المقاومة، والمقاومة كالرمح تشق الطريق أمام الدولة كى تحصد نتيجة المقاومة. كلاهما يعمل لهدف واحد، الاستقلال الوطنى، بطريقتين مختلفتين، الدولة بالقلم، والثورة بالدم، ومداد العلماء كدماء الشهداء. كلاهما جناح الوطن، يجمعهما الوطن فى الاسم: السلطة الوطنية والمقاومة الوطنية، وفى الميدان، فقادة السلطة جيل قديم من المقاومة، وقادة المقاومة يفاوضون ويعلنون ويضعون شروط الهدنة. وهو نفس التقابل الشهير بين السياسة والحرب. فالسياسة تحقيق لأهداف الحرب بوسائل أخرى. وقد كان عظماء السياسة من قادة الحرب مثل عبد الناصر وديجول وهوشى منه وماوتسى تونج ونابوليون ومانديلا ومروان البرغوتى، والشيخ ياسين، وحسن نصر الله، والإمام الخمينى... إلخ. والخيال واحد، خيال سياسى أو خيال حربى.

الثورة وراء الدولة تحميها من الاستسلام أو المساومات على الحقوق الوطنية، والرغبة فى حل القضية بأى ثمن باسم الواقعية الساذجة، والتعب السابق للأوان. والدولة أمام الثورة تحميها من الاتهام بالطفولة اليسارية أو بالمثالية بعيدة المنال، وبالأمانى صعبة التحقيق. استمرار الثورة هو الذى يجعل فلسطين ١٩٤٨م ما زالت فى القلب، ويافا وحيفا واللد والرملة وأشدود وعسقلان ما زالت تتراءى فى الخيال، حية فى الذاكرة. وهو الذى يحافظ على فلسطين ١٩٦٧م باسم الواقعية السياسية من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بإزالة آثار العدوان، والعودة إلى حدود الخامس من يونيو ـ حزيران ١٩٦٧م، وإنشاء الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها

القدس. الثورة هى التى تعطى الدولة الأمل فى حالة اليأس والضعف، والدفع فى حالة التوقف، والحركة وقت السكون. والدولة هى التى تعطى الثورة عقلها السياسى، ورؤيتها الخارجية، ومشروعيتها فى المحافل الدولية. الثورة هى القلب الذى يدفع ويحرك وينبض، والدولة العقل الذى يفكر ويدبر ويحلل. الثورة هى الوقود الذى يشعل ويحمى ويولد الطاقة، والدولة هى التى تختزن الطاقة وتستفيد منها فى الصنع والإنتاج. الثورة بلا دولة مضمون بلا شكل، ومادة بلا صورة كما هو الحال فى حركات التحرر الوطنى، والدولة بلا ثورة شكل بلا مضمون، وصورة بلا مادة كما هو الحال فى الدولة العربية الحالية. الدولة لسان حال الثورة وليست بديلا عنها أو نقيضها. والثورة يد الدولة وقبضتها. لذلك كان شعار الثورة قبضة اليد، وكان شعار الدولة ختم النسر. وكلاهما علامة ورمز.

ما يقوى الثورة فى فلسطين أن لا شىء معروض على الدولة للمفاوضة عليه إلا الكلمات والوعود المشروطة بالتخلى عن المقاومة بلا ثمن حتى تستسلم الدولة بعد أن تفقد رصيدها التفاوضى. وكيف تتخلى الثورة عن السلاح والشهادة فى مقابل ورقة أو خريطة يرفضها العدو الصهيونى؟ وإذا ما عقدت الدولة معاهدة أو هدنة باسم الثورة من أجل بداية التفاوض، وانصاعت الثورة من أجل منطق الدولة، خرق العدو الهدنة، وقتل الأبرياء، واغتال زعماء المقاومة. جرف الأراضى، وهدم المنازل، واستمر فى بناء السور العازل، واقتطاع الأراضى الفلسطينية، موضوع التفاوض. ومن يعرض الورقة أو الخارطة للتفاوض، وهى الولايات المتحدة الأمريكية، يدعم أحد الطرفين على الإطلاق، ويضاد الطرف الآخر على الإطلاق، وبالتالى يفقد دور القاضى العدل، والحكم النزيه. لطرف واحد، وهو العدو الصهيونى، حق الدفاع عن النفس وليس للطرف الآخر حق مقاومة الاحتلال. وإذا كان لا سلام مع الإرهاب صحيحا فصحيح أيضا أن لا سلام مع الاحتلال. وهل الدفاع عن النفس يكون فى احتلال أراضى الغير، وتكون كل مقاومة له إرهابا؟ المقاومة فعل، والسلام قول. الثورة شهادة، والدولة غيب. دم الشهداء يسيل، وحبر المفاوض يجف. تقوى الثورة حين تضعف الدولة. وتقوى الدولة حين تضعف الثورة. فإذا ما ضعفت الثورة وضعفت الدولة انقرضت الدولة

وخمدت الثورة. وإذا ما قويت الثورة وقويت الدولة فإنها تصبح مركز جذب لدول الجوار المشاركة لها فى الثقافة والتاريخ والمصير. لذلك احتدم السجال الأيديولوچى العربى بين الثورة العربية هى الطريق إلى الثورة الفلسطينية، والثورة الفلسطينية هى الطريق إلى الثورة العربية، وبين الوحدة العربية هى السبيل إلى تحرير فلسطين والثورة الفلسطينية هى السبيل إلى الوحدة العربية. بل إن الدول التاريخية الممتدة عبر الزمان مثل مصر والعراق والصين، الدولة على ضفاف الأنهار الكبرى فى حاجة إلى ثورة وإلا تكلست وتحجرت وتحولت إلى موضوع للمتاحف والآثار. والثورة الفنية المعاصرة فى أمريكا اللاتينية وفى بعض الدول الأفريقية فى حاجة إلى دولة تحافظ على مكاسبها، وتوحد أجناسها، وتخلق وحدتها.

وتحت ذريعة السلام والتفاوض والهدنة يُطلب إيقاف الانتفاضة. والدافع الحقيقى هو إيقاف الخسائر البشرية والمادية التى لحقت بالعدو الصهيونى على مدى ثلاث سنوات. فقد تكبد العدو من القتلى ما قارب خسائره فى حروبه السابقة. كما تكبد فى حكم اليمين المتطرف ضعف ما تكبده فى الحكومات السابقة منذ بداية الانتفاضة. وخسر الملايين من نتاجه القومى لانحسار السياحة وضعف الاستثمارات. وبدأ الوهن فى قوات الاحتلال، وانهيار الروح المعنوية للجنود والطيارين وهم يقاتلون أطفال الحجارة، ويقذفون بالصواريخ على المنازل وقتل الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ. وتمر إسرائيل بأطول حرب فى تاريخها مع عدو لها لم تعرفه من قبل. فقد تعودت على الحرب الخاطفة ضد جيوش نظامية تعرف قدراتها الدفاعية مثل حرب الأيام الستة. وتحقق إسرائيل أهداف الحرب، ابتلاع فلسطين كلها، بوسائل السياسة بدلا من أن تحقق فلسطين أهدافها، تحرير الأراضى المحتلة. وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس، بوسائل أخرى، المفاوضات. لطالما كانت المفاوضات مع العرب أمل إسرائيل أثناء الرفض العربى التفاوض تحت الاحتلال. فلما فاوض العرب بقى الاحتلال وترسخ وامتنعت إسرائيل عن المفاوضة. كان الهدف فقط كسر الإرادة العربية والقضاء على قوة الرفض. وبعد أن تم لها ذلك ادعت بأنها لا حاجة للاعتراف من أحد. فالوجود لا يحتاج إلى اعتراف. إنما الاعتراف هو الذى فى حاجة إلى وجود مثل الاعتراف

بقرار التقسيم فى ١٩٤٨م بإنشاء دولة فلسطين، واعتراف القمم العربية بالدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس وعشرات القرارات الأخرى من الأمم المتحدة ومجلس الأمن لصالح القضية الفلسطينية على مدى نصف قرن.

إن القيادة الثورية هى القادرة على إيجاد ميزان التعادل بين الدولة والثورة. تفاوض وتقاوم، تسالم وتحارب. يد تمسك بالقلم، ويد تقبض على المدفع. هى القيادة المفاوضة مع الخارج والتى تستمد قوتها من الداخل. وهو ميزان دقيق يصعب الحفاظ فيه على التعادل المطلق. فقد تميل القيادة الثورية أحيانا إلى الدولة إذا ما تعقدت المتغيرات الدولية وإذا ما انحصرت جبهات المساندة من الدول المجاورة. وقد تميل إلى الثورة إذا ما شعرت بعدم جدية المفاوضة وإن المعروض عليها هو الاستسلام. وقد ترجع إلى المقاتلين، وتعود الدولة إلى الثورة وإلى نشأتها الأولى كحركة تحرر وطنى، وهو خيار تفكر فيه القيادة الفلسطينية إذا ما انسدت أمامها السبل، وتفاقم العدوان، وأصبح السلام محض سراب. بل وتجاوز العدوان على فلسطين إلى العدوان على سوريا وإيران. وتتسع جبهة العدوان حتى يصبح العدوان على فلسطين أحد مظاهر العدوان الشامل. ويتشتت الدفاع العربى، من أين نبدأ؟

لا خوف إذن على المقاومة الفلسطينية، ثورة ودولة، فى هذا التكامل بينهما وتقسيم العمل. كل منهما سند للآخر. لا تخوّن الثورة الدولة، ولا تكفّر الدولة الثورة. لا تزايد الثورة على حكمة الدولة، ولا تنتقص الدولة من شرعية الثورة. فالعلاقة بينهما ليست على التبادل بل على التكامل. فمنطقهما فى النهاية هو منطق واحد، منطق الوطن. وهو غير منطق التنازل عن الدولة باسم الثورة أو المساومة على الثورة باسم الدولة. وهو غير منطق التوفيق بين السياسيين والمقاتلين وإيجاد الحلول الوسط من الوسطاء فى الداخل والخارج. إنما هو منطق التاريخ فى ثورات الشعوب من أجل الحرية والاستقلال.

* * *

٥ - هل تجوز الصلاة فى الدار المغصوبة؟

من السهل إدانة الأحداث واستعمال أقصى العبارات ضد فاعليها وإطلاق المالينبغيات الأخلاقية وبيان الواجبات على الناس. وهذا لن يغير من الواقع شيئا. ولن يمنع من تكرار الأحداث. مثال ذلك الموقف من الإرهاب بالشجب والإدانة والاتهام والتوعد بالسيف دون الفهم بالقلم. والعالم كله يدين ويشجب الإرهاب منذ عقود من الزمان. وكثرت أحكام الإدانة فى السنوات الأخيرة بعد حوادث واشنطن ونيويورك والخبر وأحياء غرناطة وأشبيلية والمحيا فى الرياض. ولم يتوقف الإرهاب. بل إن خطورته تزداد. وفى أعياد الميلاد هذه الأيام ترفع درجة التأهب والحذر، وتلغى الرحلات الجوية، ويكتم العالم أنفاسه، وتبلغ القلوب الحناجر، تحسبًا لعمليات إرهابية وتوقعًا لها.

والإرهاب ظاهرة معقدة تستدعى التحليل والفهم والحياد، إرهاب من ضد من؟ إرهاب الأفراد أم إرهاب الدول؟ قتل الأبرياء والمدنيين أطفالا ونساء وشيوخا أم المقاومة الوطنية المشروعة دفاعا عن الاستقلال؟ الإرهاب المرئى، إلقاء قنبلة فى مبنى عام وتفجير منزل، أم الإرهاب اللامرئى وجعل المواطن ضحية جميع أشكال العنف فى حياته من نظم وقوانين لم يخترها والعذاب الذى يلقاه لإشباع حاجاته الأساسية ولا يملك إلا الصراخ؟ الإرهاب كرد فعل على إرهاب آخر، وكنوع من الدفاع عن النفس أم الإرهاب البادئ كفعل وعدوان؟ إرهاب الجلاد للضحية أم صراخ الضحية من الجلاد؟ إرهاب الدول الصغيرة التى تحاول الدفاع عن حريتها واستقلالها أم إرهاب النظام العالمى الجديد الذى تسيطر عليه القوى الكبرى والعالم ذو القطب الواحد، إرهاب المركز على الأطراف باسم العولمة؟

(*) جريدة الاتحاد: ٣ يناير ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ١٣ يناير ٢٠٠٤م.

وقد وقع اعتداء على وزير خارجية مصر فى ساحة المسجد الأقصى. وتدل بعض الشواهد، إدخال الإسرائيليين له من باب المغاربة وانتظار الفلسطينيين من باب آخر، على أن الاعتداء وقع بتدبير إسرائيلى لإحداث وقيعة بين مصر والسلطة الوطنية الفلسطينية، وفك الارتباط بين مصر والقضية الفلسطينية. إذ تتهم إسرائيل مصر دائما بأنها وراء «التشدد» الفلسطينى، وبأنها هى التى نصحت ياسر عرفات فى كامب ديفيد الثانية بعدم قبول ورقة كلينتون؛ لأن القدس أمانة فى عنق كل المسلمين وليس فقط الفلسطينيين. فمصر وإن لم تتدخل بالسلاح لوقف النزيف الفلسطينى على مدى ثلاث سنوات وهى التى دخلت أربع حروب فى سبيل القضية الفلسطينية إلا أنها مازالت تمارس دورها بالسياسة وليس بالحرب، فالسياسة أحد أشكال الحرب طبقا للقول المعروف.

ربما كان العرب عامة والفلسطينيون خاصة ينتظرون من مصر أكثر مما تعطى. فهى الشقيقة الكبرى التى قدرها حمل قضايا العرب، الاستقلال وبناء الدولة. وهى قائدة الحرب ورائدة السلام. والانتفاضة طالت، وما زالت مستمرة، وحيدة باستثناء العون المادى المحدود والمعنوى بلا حدود. فهى التى ما زالت ترفع هامة العرب مع حزب الله فى طرده المحتل الصهيونى من جنوب لبنان. ربما كان الكل ينتظر من مصر أكثر من دور الوسيط بين الفلسطينيين من ناحية، والإسرائيليين والأمريكيين من ناحية أخرى. صحيح أن مصر عُرفت بالاعتدال والعقلانية والاتزان بعد أن عانت من المغامرات غير المحسوبة وغير المسئولة فى الجمهوريتين الأولى والثانية. وصحيح أيضًا أن الحذر المطلق مياه آسنة لا تتحرك، سرعان ما تفسد وتقتل ما فيها من أسماك. ومصر هى خيط العقد إن انقطع أو غاب تنفرط حبات العقد كلها. وهى القلب الذى إن توقف عن النبض، توقفت الحياة فى سائر الأطراف.

زيارة للسلطة الوطنية الفلسطينية ورئيسها فى رام الله كانت بإمكانها الحفظ على التوازن بعد الزيارة (زيارة أحمد ماهر) إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى الذى لا يعترف بالسلطة ولا برئيسها، ورد الاعتبار للفلسطينيين وليس فقط الحوار بين فصائل المقاومة من أجل التوحيد بينها وتكوين مجلس للأمن القومى قادر على التفاوض على مصير فلسطين.

والقدس تحت الاحتلال. وقد تكون زيارتها من مسئول عربى اعترافًا بالاحتلال وإضفاء الشرعية عليه. لذلك تساءل القدماء، علماء أصول الفقه وعلماء أصول الدين: هل تجوز الصلاة فى الدار المغصوبة؟

عرض علماء أصول الفقه لهذا السؤال وهم بصدد البحث عن استحالة الجمع بين الحظر والوجوب فى فعل واحد من جهة واحدة لتقابل حديهما إلا على رأى من يجوز التكليف بالمحال، وهو باطل بإجماع الأمة. والخلاف هل يجوز انقسام النوع من الأفعال إلى واجب وحرام من جهتين كوجوب الفعل المعنى الواقع فى الدار المغصوبة من حيث هو صلاة وتحريمه من حيث هو غصب شاغل لملك الغير؟ الصلاة واجبة والاحتلال محظور. ولا يجتمع الفعلان فى فعل واحد من وجه واحد.

قال الجبائى وابنه أبو هاشم والقاضى أبو بكر وأحمد بن حنبل وأهل الظاهر والزيدية وقيل إنه رواية عن مالك، قالوا: الصلاة فى الدار المغصوبة غير واجبة ولا صحيحة ولا يسقط بها الفرض ولا عندها ـ ووافقهم على ذلك القاضى أبو بكر إلا فى سقوط الفرض فإنه قال يسقط الفرض عندها لا بها ـ مصيراً منهم إلى أن الوجوب والتحريم إنما يتعلق بفعل المكلف لا بما ليس من فعله، والأفعال الموجودة من المصلى فى الدار المغصوبة أفعال اختيارية محرمة عليه وهو عاص بها مأثوم بفعلها، وليس له من الأفعال غير ما صدر عنه، فلا يتصور أن تكون واجبة طاعة ولا مثابًا عليها متقربًا بها إلى الله لأن الحرام لا يكون واجبًا، والمعصية لا تكون طاعة ولا مثابا عليها ولا متقربا بها مع أن التقرب شرط فى صحة الصلاة.

هناك تعارض إذن بين أداء الواجب وتجنب المحظور ولا بد من الترجيح بين الفعلين طبقًا للأولوية. وتحرير الأرض المغصوبة لها الأولوية على الصلاة. تحرير الأرض واجب جماعى، يمس مصالح الأمة. فواجب الإمام حماية الديار، والذب عن البيضة، وتقوية الثغور، ومد الجسور، وتجهيز الجيش. وقبول الاحتلال بدعوى الصلاة فى الأرض المحتلة يوجب العزل.

الواحد بالتعيين كصلاة زيد فى دار مغصوبة من عمرو فحركته فى الصلاة فعل

واحد بعينه هو مكتسبه ومتعلق بقدرته. فالذين سلموا فى النوع الواحد نازعونا فقالوا لا تصح حتى الصلاة، إذ يؤدى القول بصحتها إلى أن تكون العين الواحدة من الأفعال حرامًا واجبًا وهو متناقض. فالإمام لا يجوز له الصلاة فى الأرض المغصوبة؛ لأن الصلاة فعل حسن، والاغتصاب فعل قبيح، وتحرير الأرض سابق على الصلاة فيها.

وهنا تبدو أهمية التواصل مع التراث القومى للأمة الذى ما زال حيًّا فى وجدانها يحدد تصوراتها للعالم ويعطيها موجهات للسلوك. التراث هو الذى يشكل الوجدان السياسى ونسق القيم ومعايير الأخلاق. وفى نفس الوقت توجد حالة من الاحتقان والضيق فى الصدر العربى. بعد دفع الملك فيصل حياته لأنه وعد أمام الصديق هنرى كسنجر فى وجهه بأنه سيصلى فى القدس بعد التحرير وليس وهى واقعة تحت الاحتلال. ومصر هى الرمز. هى الصورة فى الأذهان التى صدمها الواقع فى الأعيان. هى التوقع بعد أن طال الانتظار. هى الإمكانيات بعد أن عزت القدرات. هى الأمل فى لحظات اليأس والقنوط. هى مصر أكتوبر ١٩٧٣م التى محا جيشها من الذاكرة عار ١٩٦٧م والتى ما زالت آثاره حتى الآن فى احتلال نصف فلسطين والجولان.

إن ما حدث فى القدس ليس ضد وزير خارجية مصر ولا ضد مصر بل هو شوق لوزراء خارجية مصر السابقين منذ صلاح الدين حتى عمرو موسى، وليس إهانة لمصر بل هو نداء على دور مصر فى نصرة الشقيق الأصغر فلسطين على حدود مصر الشرقية. ورفح تربط بين الشقيقين. هو صرخة مظلوم يهيب بمصر «وامصراه» مثل صرخة العربية التى أسرها الروم «وامعتصماه».

وهى صرخة تأتى من داخل مصر أيضا من مثقفيها الوطنيين، كتابا ومفكرين وقادة من مختلف الأجيال. إنها انتظار عودة الأخ الغائب الذى يعصر الألم قلبه ولسان حاله يقول «العين بصيرة، واليد قصيرة». وقد كانت يد مصر طويلة عبر التاريخ منذ أحمس حتى صلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر.

لا يجدى اعتذار لأنه لا إساءة هناك. ولا ينفع غضب مكتوم فدماء الشهداء من المصريين ليس أقل قيمة من التهجم على وزير خارجية مصر. وكل العبارات التى

تقال قصدها التخفيف من حدة التوتر. والدبلوماسية لا تنفع فى وقت الحرب والسلم معا. فالحرب تحتاج إلى تضامن. والسلم يحتاج إلى قوة.

إنما هو النذير بأن السيل قد بلغ الزبى، وأن القلوب فى الحناجر، وأن الأنفس كأنما تتصعد إلى السماء، وأن الأرض قد ضاقت على الفلسطينيين بما رحبت. إن سحب السفير الإسرائيلى من القاهرة خطوة على طريق الاحتجاج النشط الفعال. كما أن قطع العلاقات الاقتصادية بين مصر وإسرائيل خطوة أخرى. وما قيمة قطعة من الورق تسمى كامب ديفيد فى يد شعب يقاوم التطبيع، ويحفر الأنفاق بين سيناء وقطاع غزة. فما تحت الأرض أكثر مما هو فوق سطح الأرض.

إنما هو مؤشر على ما هو أقسى وأشد مما قد يقع فى المستقبل القريب فى الوطن العربى تنفيسا عن حالة الاحتقان فى أوردة العرب وشرايينهم. وقد ظهر قبل الأنبياء نذرها مثل النبى يحيى نذيرا لقدوم السيد المسيح.

قد كانت الخارجية المصرية دائما مدرسة للوطنية مثل مؤسستى الرياسة والجيش. والضيق منها هو «عشم» فيها. والتهجم عليها هو تهجم على النفس قبل التطاول على الآخر. لقد عم الضيق وكادت الألسن أن تكفر وتذكر غير اسم الله.

عدوان على العراق، وآخر على فلسطين، وثالث ربما قادم على سوريا، وكتمان الغضب له حدود كما أن للصبر حدوداً. وأقسى أشكال العدوان هو العدوان على النفس ومصر هى نفس فلسطين، وفلسطين هى نفس مصر. والنيل منهما نيل للعرب. للعرب معها صلة رحم. جندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة.

* * *

٦ ـ الأشباه والنقائض
قراءة فى وثيقة جنيف ومؤتمر القاهرة

لفظان استعملهما الفلاسفة واللغويون فى تراثنا القديم وفى التراث الغربى للدلالة على تشابه الحقيقة وتناقض الحلول. ففى الحياة العملية قد لا يستطيع العقل أن يقدم الحلول المرضية والمقبولة فى أخذ القرار. إذ تتعقد المواقف العملية فى حين أن العقل واضح بديهى لا يعمل بسهولة إلا فى الرياضيات التى تقوم على الاتساق، اتساق النتائج مع المقدمات مع البراهين والأدلة. فى الحقائق الصورية ينجح العقل. وفى الحقائق المادية يتردد العقل مهما استقرأ الجزئيات وعمّم منها للوصل إلى الكليات. فالاستقراء بطبيعته ناقص. والعقل ينبع من طبيعته المبدئية وليس من الوقائع الجزئية. أما فى أمور الحياة والمواقف العملية. فيبدو أن حلول العقل أقل بكثير من متطلبات الواقع المعقد والمداخل الأيديولوچية المتعددة.

فالاشتباه هو تردد موقف بين أمرين متعارضين فى الظاهر وكلاهما صحيح. فالواقع توتر بين قطبين، وامتداد بين طرفين، وشد وجذب بين حركتين، وكلاهما صحيح. فلا فرق بين من يتمسك بالمثال والحد الأقصى والمبدأ ورفض التنازل أو المساومة وبين من يشعر بثقل الواقع ويريد البداية بالحد الأدنى، وما يمكن تحقيقه، وتخفيض سقف المطالب مرحليا دون مساومة على المبدأ أو تنازل عن الحق. ويرجع ذلك إلى خلاف طبيعى فى وجهات النظر. فكل طرف رؤية ومنظور. ولا توجد رؤية كلية أو منظور شامل إلا بالتوافق والرضا والعودة إلى قاعدة الأشياء والتى يرتكز عليها. الرؤية من علٍ والتوافق من أسفل. الرؤية ذات والقاعدة موضوع.

(*) جريدة الاتحاد: ١٣ ديسمبر ٢٠٠٣م.

ولا فرق فى ذلك بين الواقع والنص. فكما أن الواقع متشابه بين المثال والواقع؛ لأنه حركة بين الاثنين فكذلك النص محكم ومتشابه، حقيقة ومجاز، ظاهر ومؤول، مجمل ومبين، مطلق ومقيد، عام وخاص إلى آخر ما عرضَ الأصوليون القدماء. تلك طبيعة النص التى تتفق مع طبيعة الواقع. كلاهما متشابه يخضع لمنطقين متعارضين، كلاهما صحيح. فالاشتباه حقيقة إنسانية وإن لم تكن حقيقة رياضية أو علمية. تعبير عن تعقد الموقف الإنسانى وليس بداهة الحقائق الرياضية.

وكذلك النقائض، حلول متعارضة لموضوع واحد، كلاهما صحيح. لا تكشف عن ضعف العقل بل عن قدرته على معرفة حدوده. وقد عبّر كانط عنها فى «نقائض العقل الخالص» داخل «العقل النظرى» ذاته. والأمثلة على ذلك: هل العالم له بداية أم ليس له بداية؟ وكلاهما صحيح له بداية فى الخلق عند اللاهوتيين ومن ثم فهو حادث ولا بداية له عند العلماء، ومن ثم فهو قديم. ومازالت النظريتان متعارضتان ولا يستقر العقل النظرى على أى منهما. كل حل له دليل ودليل مناقض، برهان يثبت وآخر ينفى. هل العالم له نهاية أم ليس له نهاية؟ والحلان متعارضان. له نهاية عند اللاهوتيين بعدها يبدأ البعث والنشور واليوم الآخر. ولا نهاية له عند العلماء فالمادة قديمة لا تفنى ولا تتبدد، والطاقة تتحول ولا تفنى. واحتار الفلاسفة والعلماء بين الموقفين، بين الإثبات والنفى. هل النفس فانية بفناء البدن أم خالدة لا تفنى بفنائه؟ واختلف الفلاسفة بين الرأيين. هناك أدلة تثبت الأول يقدمها الطبيعيون، وأدلة أخرى تثبت الثانى يقدمها اللاهوتيون. وظل الفكر البشرى متوترا بين الرأيين منذ بدايته حتى الآن. فكلاهما محتمل كما قال ابن رشد باسم العقل. وهل الإنسان مخيّر أم مسيّر، حر فى اختياره أم مجبر عليه، هل هو صاحب أفعاله أم أنه خاضع لمشيئة أخرى تحدد مساره؟ والنظريتان متداولتان بين أنصار الجبر وأنصار الاختيار، بين الدفاع عن القضاء والقدر، والدفاع عن خلق الأفعال، بين حق الإرادة الإلهية وحق الإرادة الإنسانية. ولا يوجد حل نظرى إلا جمع المنظورين فى تحليل الأفعال الإنسانية أو البرهان العملى على إحداها بمنطق المكسب والخسارة. هناك اختيار عملى يقوم على الأصلح. فالأصلح أن يكون الإنسان حرا مسئولا عن أفعاله. كما أن الأصلح ألا يكون للموت كلمته النهائية

والدنيا مليئة بالظلم والأحزان، والأصلح أيضا أن يكون للعالم بداية ونهاية حتى ولو كانتا فى الشعور حتى يظل الشعور قائما بذاته، حقيقة أولى، متوحدة فى ذاته لا تحتاج إلى غيرها.

ويمكن تطبيق هذين المفهومين فى أهم حدثين معاصرين. وثيقة چنيف للسلام، بين القبول والرفض، وحوار القاهرة بين الفصائل الفلسطينية، بين النجاح والفشل. وكلاهما صحيح خارج منطق الصواب والخطأ، والحكم بالوطنية والخيانة، والبطولة والعمالة. فمما لا شك فيه أن وثيقة چنيف للسلام تمثل مكسبا نظريّا وعمليّا فى المرحلة الحالية. فهى مكسب فلسطينى لأنها تحقق طموح الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس ولا تحقق مطلب حق العودة أو تتركه للزمن، لأجيال قادمة بحكم الواقع أو باستبدال الفلسطينيين فى المخيمات بالمستوطنين فى الأراضى المحتلة، حوالى ثلث مليون من أربعة ملايين فلسطينى لهم حق العودة أى ما لا يتجاوز العشر. والزمن كفيل بتحقيق العودة لمجموع الشعب إلى الدولة الفلسطينية الجديدة أو إلى فلسطين ١٩٤٨م فى وقت أصبح فيه العالم قرية واحدة، ونشأت فيه التجمعات الإقليمية، وأسقطت حدود الدولة الوطنية التقليدية وفى إطار حق العودة لليهود العرب إلى أوطانهم العربية والأوروبية بدلاً من الجيتو الصهيونى الذى أنشأ فى ١٩٤٨م بناء على نموذج الدولة الوطنية التى تصورها هرتزل بناء على النموذج الذى ساد فى الغرب فى القرن التاسع عشر حلا للإمبراطوريات الأوروبية النمسوية وغيرها. «خذ وطالب» بدلا من «طالب وطالب» وعدم أخذ شىء. تحارب وثيقة چنيف بالسلام، وتحاصر اليمين الإسرائيلى الحاكم، وتخاطب الرأى العام العالمى، ولا تعارض نموذج الدولتين الذى أقرته الدول الكبرى، وتقلل من اتهام المقاومة بالإرهاب. وفى نفس الوقت لا تحقق كل الطموحات وتحتوى على تنازلات مؤلمة. والأفضل أخذ كل شىء أو لا شىء بعد طول انتظار فاق نصف القرن. وماذا عن مصير الملايين فى المخيمات وتحويل شعب إلى لاجئين دون رفع الظلم عنهم وتطبيق القرارات الدولية المتعلقة بحق العودة؟ اليمين الحاكم فى الكيان الصهيونى فى أزمة كما أن أمريكا فى العراق فى أزمة وليست مهمة المقاومة الفلسطينية حلها.

ويخضع حوار القاهرة أيضا لنفس منطق الأشباه والنقائض. تشكيل قيادة فلسطينية سياسية موحدة لمنع التضارب بين الفصائل فى الأقوال والأفعال، وتوقيع هدنة لمدة عام يترك فيها المجال للحل السياسى القائم على الدولتين، وفك الحصار عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، وإيقاف بناء المستوطنات وفك ما قام منها، وإيقاف استكمال جدار الفصل العنصرى العازل، وإيقاف الاعتداء على المدنيين واغتيال قادة المقاومة. كل ذلك مكسب ولا شك. وفى نفس الوقت عدم وجود ضمانات كافية من الطرف الآخر باستيفاء التزاماته وبقبول الهدنة، وعدم وجود ضغوط أمريكية وأوروبية ودولية كافية لتحقيق مثل هذه الهدنة من أجل تحويلها إلى اتفاق والتزام متبادل بين الطرفين يجعل الإعلان عنها من طرف واحد، عطاء بلا أخذ، وتضحية بلا مقابل، والتزامًا من طرف وعدم التزام من الطرف الآخر. والمقاومة قادرة على الاستمرار. والعدو الصهيونى هو الذى يئن ويتوجع. فالصبر آل ياسر فإن موعدكم فى الأرض بعد تحريرها، لا فرق بين فلسطين بعد ١٩٤٨م وفلسطين قبل ١٩٤٨م. وهو أيضا مطلب صحيح، يعبر عن التزام القادة وصمود المقاتلين. لا يعبأ بالتضحية، ومستعد لمزيد من المعاناة. والتخلى عن الموقف المبدئى بداية الاستسلام فى عالم يقوم على الخديعة ولا يحقق الوعود، وكلا الموقفين صحيح، الحد الأدنى والحد الأعلى، الواقع والمثال، ما هو كائن وما ينبغى أن يكون، الآنى والآتى، ما يستطيعه هذا الجيل وما هو متروك لأجيال قادمة. فالصراع العربى الإسرائيلى سيظل قائما لعدة أجيال قادمة. وقد استمر الصراع مع الصليبيين ما يقارب قرنين من الزمان، اختفت بعدها إمارات الصليبيين فى الشام بفعل قوانين التاريخ والإرادة الجماعية.

ولا يوجد حل نظرى للأشباه والنقائض بل يوجد فقط حل عملى لأحد الطرفين بناء على حساب المكسب والخسارة، والعاجل والآجل. فبعد بضع سنين قد لا توجد أرض يتم التفاوض عليها. وقد يتنامى اليمين الإسرائيلى والأوروبى والأمريكى، ويزداد الموقف العربى ضعفا وتشتتا، عاجزا عن المبادرة وتحقيق الطموحات حتى فى حدها الأدنى.

لم يبق إلا الرهان. فحساب المكسب والخسارة ما زال يخضع للعقل. وفى حياة الأوطان واللحظات المصيرية يتوارى حساب المكسب والخسارة المرهون بتوازن القوى وحسن إدارة الصراع. والرهان ليس مخاطرة غير محسوبة العواقب سواء فى حالة القبول أو الرفض، الإثبات أو النفى، الحد الأدنى أم الحد الأعلى، بل هو تجريب عملى مؤقت واستكشاف لكل الاحتمالات الممكنة. السير فى طريق والعين على الطريق الآخر. والواقع له باستمرار الأولوية على الفكر. فهو أحد مراحل تحققه. والفكر واقع مجرد لم يتحقق بعد إلى واقع عينى. وشعب فلسطين يتطلب الراحة بعض الوقت والتقاط الأنفاس. والمقاومة تحتاج إلى تجميع القوى، وإعداد النفس لمرحلة قادمة إذا ما استعصى الطريق الأول.

والحكمة أساس الرهان. وتتطلب التخلى عن المواقف الأيديولوچية المسبقة والرغبة فى النصر السياسى وإثبات جدارة القيادة للشعب الفلسطينى. الحرب والسياسة وراء منطق الأشباه والنقائض. والسياسة هى إدارة الحرب بوسائل أخرى. لقد أثبتت الانتفاضة الفلسطينية وهى فى عامها الرابع قدرتها على الاستمرار وفرض إرادتها على الساحة الدولية. وهى قادرة على الاستمرار أيضا لسنوات قادمة. وفشلت خطة اليمين الحاكم فى الكيان الصهيونى فى القضاء عليها فى مائة يوم. ويزداد أنصار السلام فى إسرائيل. ويكاد يعترف العالم بالدولة الفلسطينية وهى على مرمى حجر، بعيدا عن منطق التخوين والتكفير.

وتتجلى الأشباه والنقائض فى شعور المواطن العربى وتأرجحه بين الفرح والحزن، بين التفاؤل والتشاؤم. يفرح لوثيقة چنيف وأثرها على الرأى العام الإسرائيلى والدولى، ويحزن لسقوط حق العودة الذى طال انتظاره. ويحزن لعدم اتفاق فصائل المقاومة فى القاهرة وإعادة ترتيب البيت الفلسطينى من الداخل وتكوين القيادة الفلسطينية الموحدة التى تقاوم فى الداخل وتفاوض فى الخارج، ويفرح لصمود المقاومة ورفضها إعطاء تنازل مجانى غير مضمون إسرائيليا ودوليا. ويظل العرب حائرين، يسيرون فى نفس الحلقة المفرغة بين الحرب والسلام.

* * *

٧- يوم العـــــار

واستيقظت فلسطين، ونهض العرب، وقام المسلمون فجر الاثنين ٢٢ مارس ٢٠٠٤م على نبأ اغتيال الشهيد الشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة حماس، بعد عام من العدوان الأمريكى على العراق. وقد سقط أول صاروخ على بغداد قبل ذلك بيومين. الصاروخ الأول أمريكى، والصواريخ الثلاثة الثانية التى انطلقت على الشهيد ورفاقه التسعة إسرائيلية التوجيه أمريكية الصنع. فأمريكا تمثل الأوطان، وإسرائيل تغتال الرجال. وأضيفت أحزان إلى أحزان. ولم يكد العرب يفيقون من هواجس الذكريات الأولى للعدوان على العراق حتى انتابتهم أهوال ما يشاهدون من اغتيال الشهيد. وأضيفت إلى أشجان الماضى القريب أحزان الحاضر الأليم.

والرمز أهم من السلطة. واغتيال الرمز هو اغتيال المعنى. واغتيال المعنى هو نهاية كل شىء. فالشهيد شيخ قعيد. ضعف جسده فى قوة روحه. أَسَرَتْه إسرائيل كرمز ثم أفرجت عنه تكفيرا عن ذنبها فى محاولة اغتيال خالد مشعل بدس السم فى أذنه وإنقاذه بالمصل بعد تدخل ملك الأردن السابق. ورئيس المكتب السياسى أصبح رئيسًا لحماس. والشهيد، قائد حماس فى قطاع غزة أصبح هو قائد المقاومة الفلسطينية كلها، يطل عليها من وراء السحب، ويدفعها إلى مزيد من المقاومة. فالروح لم تضعف بضعف الجسد، ولم تنته بنهايته. صوته الضعيف المبحوح يتضمن أمرًا، وجسده المشلول على الكرسى المتحرك يحمل هذا الأمر إلى كل المناضلين فى العالم، داخل فلسطين وخارجها. نال احترام الجميع، خصومه قبل أنصاره، أعداؤه قبل أصدقائه، داخل الحركة الإسلامية وخارجها. طلب الشهادة

(*) جريدة الاتحاد: ٣ أبريل ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ١ أبريل ٢٠٠٤م.

ونالها. وكانت أقصى أمانيه أن يرضى الله عنه. وقد رضى الله عنه ورضى الناس ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

هى رسالة موجهة لكل القادة والزعماء والرؤساء العرب، قبل اجتماعهم فى تونس بعد أسبوع من الاستشهاد. الكل سيلقى نفس المصير. لو تجرأ أحدهم على النيل من الكيان الصهيونى حتى ولو بالقول الذى لا يصحبه فعل، وبالبيان الذى هو أضعف الإيمان. وكما قذف الكيان الصهيونى بالمبادرة العربية بعد قمة بيروت فى وجه الرؤساء العرب، ورفضت الاعتراف الكامل والتطبيع الكامل وهو ما كانت تتمناه وتطلبه فى مقابل الانسحاب الكامل وهو ما رفضته دائما. فما أخذته إسرائيل من يهوذا والسامرا لا يرجع إلى شعب فلسطين. والسرطان الصهيونى لا يتراجع عن أرض استولى عليها ولا ينحسر عن مكان انتشر فيه.

لقد كان الاغتيال انتهاكا لكل القيم الأخلاقية والمواثيق الدولية والأعراف الإنسانية. لم يكن الشهيد مسلحا بل كان أعزل. وقتل المدنى غير المسلح فى أعراف الحرب بأعتى الأسلحة مثل الصواريخ المنطلقة من الطائرات جريمة ضد الإنسانية. وتحول كرسى القعيد إلى رمز للمقاومة كما تحول محمد الدرة قبل ذلك، استشهاد طفل فى حضن أبيه رمزا للشهادة، الشيخ تبع الطفل، والطفل سبق الشيخ، وكلاهما شهيد، وكل الناس من كل الأعمار شهداء. وقد تم ذلك وهو خارج من المسجد بعد صلاة الفجر، وهو عائد إلى المنزل. فالشهيد يخرج من المنزل إلى المسجد، ويعود من المسجد إلى المنزل. ويتصدق على الفقراء فى الطريق. هو الأب العائل لكل المحرومين، والأم الحنون لكل اليتامى والثكلى والمحرومين.

ومن قرر عملية الاغتيال وأشرف عليها؟ هو رئيس وزراء دولة، مجرم حرب سابق فى مذابح صبرا وشاتيلا. دولة عصابة، ورئيس وزرائها رئيس عصابة. تعودت يده منذ أن كان فى العصابات الأولى فى ١٩٤٨م حتى اغتيال الشيخ على سفك الدماء و﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]. واستقبل بالتصفيق من أعضاء حكومته استحسانا لما صنع. قاتل يمدحه القتلة. وليس ببعيد على قتلة الأنبياء اغتيال الشهداء. وفرق بين حجة الدفاع عن إسرائيل والدفاع عن

احتلال إسرائيل لأراضى الغير. وقد أوصى الشهيد بعدم القيام بالعمليات الاستشهادية وراء الخط الأخضر «فلسطين ١٩٤٨م»، إنما فقط فى الأراضى المحتلة منذ ١٩٦٧م. كما أوصى بعدم التضحية بالمدنيين الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ مع أن أطفال إسرائيل هم جنود المستقبل، يربون على أن الفلسطينيين هم الأعداء الذين اغتصبوا أرض يهوذا والسامرا. والنساء فى إسرائيل جنود فى الخدمة العسكرية مع الرجال. والشيوخ يعملون فى الخطوط الخلفية ويقومون بالأعمال المدنية العسكرية بعد تجنيد الشباب الاحتياطى وقت الحرب. ففى الكيان الصهيونى لا فرق بين جيش وشعب. الكل فى خدمة جيش الدفاع.

وفى نفس الوقت الذى يُعلن فيه عن خطة الانسحاب من غزة من طرف واحد يخطط لتدمير غزة قبل الانسحاب، قادة وفصائل، ومدنا وقرى، منازل ومخيمات كما فعلت فرنسا حين دكت دمشق قبل الرحيل، بمنطق شمشون «علىّ وعلى أعدائى يارب». وفى نفس الوقت، يتم توحيد اليمين الذى ما زال بعض أجنحته يعارض الانسحاب من أى شبر من فلسطين، أرض الآباء والأجداد، أرض الميعاد. هو مجرد توزيع أدوار بين يمين معتدل ويمين متطرف، بين رفض للانسحاب من غزة وتفكيك مستوطناتها باستثناء الحدود مع مصر، والحدود مع الضفة، وبين إعلان للانسحاب النظرى لخداع الرأى العام والهدف هو تدمير القطاع وتصفية قادته.

والحقيقة أن بعملية الاغتيال انتهت عملية المفاوضات، وتبدد وهم السلام. وبان للعالم كله أن الكيان الصهيونى لا يقدم إلا على الحرب والعدوان، ولا يدافع عن نفسه إلا بالاغتيال والقتل. منطق العصا الذى استعملته أمريكا مع العراق هو نفسه الذى يستعمله الكيان الصهيونى فى فلسطين. والعدو واحد «الإرهاب»! والمقاومة الوطنية ليست إرهابا بل مقاومة مشروعة دفاعا عن النفس طبقا للشرائع الإنسانية والمواثيق الدولية. الإرهاب اعتداء على الغير الآمن، والمقاومة نضال ضد المحتل الغاصب.

قد تكون شهادة الشيخ بداية عمل وطنى فلسطينى عربى إسلامى جديد، يغير

مسار التاريخ، ويقضى على حالة البلبلة والتردد بين وهم السلام وضرورة المقاومة. ولا يوجد من أعطى الاحتلال فرصة للسلام قدر ما أعطته السلطة الوطنية الفلسطينية حتى ولو خسرت شعبيتها لصالح المقاومة، والمبادرات العربية حتى ولو تم رفضها بالرغم من إعطائها للكيان الصهيونى ما طالب به دائما من اعتراف وصلح ومفاوضة ضد لاآت العرب الثلاثة بعد يونيو - حزيران ١٩٦٧م، والجهود المصرية بالرغم من ضعف نتائجها، وعدم حماس الكيان الصهيونى لها، وتردد فصائل المقاومة فى السير فيها للمعرفة المسبقة بنتائجها. فالكيان الصهيونى لا يريد إلا الاستسلام الكامل للمقاومة الفلسطينية، وابتلاع كل فلسطين فى فرصة تاريخية قد لا تتكرر كما تكررت فى ١٩٦٧م كما بدا فى ١٩٤٨م، ضعف العرب، وتفتتهم، وتبعية قادتهم، وعجز شعوبهم. فقد دخل العرب بقيادة مصر الحرب أربع مرات فى ١٩٤٨م ثم فى ١٩٥٦م ثم فى ١٩٦٧م ثم فى ١٩٧٣م ومازال جرح الهزائم غائراً لم يندمل. ولم تشفه حرب أكتوبر ١٩٧٣م التى أعادت الثقة للعرب فى إمكانية النصر وإن لم تعد لهم كل الأراضى المحتلة فى فلسطين وسوريا ولبنان.

لقد وحّدت شهادة الشيخ أولاً فصائل المقاومة الفلسطينية، ومنعت من أى احتمالات للصدام بينها فى غزة أو فى باقى الأراضى الفلسطينية. وأدركت أنه لا فرق بين حماس والجهاد وفتح فى ضرورة النضال حتى الاستقلال. وتبدد الخوف من حدوث صدام بين فصائل المقاومة تكون فلسطين فيه هى الخاسر، والكيان الصهيونى هو الكاسب. ودم المسلم على المسلم حرام.

كما وحّدت الشهادة ثانيا بين فصائل المقاومة والسلطة الوطنية الفلسطينية. فكلتاهما هدف للعدو الصهيونى، من رفض الاستسلام ومن قبل السلام، من يعرف منطق العدو ولا يستسلم له، ومن يأخذ بعين الحسبان الموقف العربى والموقف الدولى. وإذا تم اغتيال الشهيد اليوم رمزا للمقاومة فإن الدور قادم على رمز السلام أو رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية حتى ينتهى الخياران، خيار المقاومة وخيار السلام، الرمح والدرع، الهجوم والدفاع.

ووحّدت الشهادة ثالثًا النضال الفلسطينى والنضال العربى على مستوى الجماهير

العربية بعد أن تساءل الجميع : أين الشارع العربى؟ واندلعت المظاهرات فى مصر والأردن تطلب بقطع العلاقات وإلغاء المعاهدات مع الكيان الصهيونى، وفى المغرب واليمن والعراق والبحرين تأييداً للمقاومة الفلسطينية. وسبقت إدانة الجماهير إدانة الأنظمة العربية المعاصرة بين قوى الداخل والتبعية للخارج. وقد تنهض الجماهير فى ليبيا وتونس والجزائر وموريتانيا وشبه الجزيرة العربية، الوسط والأطراف، وفى سوريا فيتوحد النضال العربى معيداً ذكريات الخمسينيات والستينيات، من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر حتى على مستوى الكلمات فى عصر عز فيه القول وانحسر فيه الفعل، وضعف فيه الخيال.

ووحدت الشهادة رابعًا القوى الفلسطينية والعربية مع القوى الإسلامية. فقد قامت المظاهرات فى باكستان تعلن استنكارها لاغتيال الشهيد. وتبين أن الشارع الإسلامى هو ظهير الشارع العربى، وأن المقاومة الإسلامية فى كل مكان سند للمقاومة الفلسطينية والعربية. وما زالت الجماهير فى الهند وماليزيا وإندونيسيا وأواسط آسيا وإيران وتركيا لم تتحرك. موعدها فى القدس لو ناله مكروه. والمخطط الصهيونى له قائم، هدم الأقصى وبناء الهيكل. ويكفى المسلمين الكعبة قبلتهم دون أولى القبلتين وثالث الحرمين.

لقد تحرك الشارع العربى من أجل فلسطين بعد أن تحرك من أجل العراق، إجابة عملية على سؤال: أين العرب؟ ومازالت الجماهير العربية فى الشوارع تطالب باستمرار المقاومة كخيار رئيسى فى مواجهة العدوان والاحتلال والاغتيال والتصفية الجسدية. إنه تحول تاريخى بعد نصف قرن من اندلاع الثورات العربية بقيادة الضباط الأحرار فى منتصف الخمسينيات إلى الجماهير العربية بعد أن تم إخراجها من معاركها التاريخية لصالح النخبة الثورية أولاً ثم تحولها إلى نخبة مضادة للثورة كما حدث فى كل الثورات قبل أن تندلع الثورة من جديد وتهتف «يعيش زاباتا» رمز الثورة الدائم مثل الشيخ ياسين.

وانغرست القضية فى الأعماق، بعد طعن الكرامة الوطنية. وثأر الكرامة يضاف إلى ثأر الوطن. فاغتيال الشهيد طعنة فى قلب كل عربى. لقد أولت الجماهير من

قبل عبد الناصر القضية لأنها كانت فى يد أمينة. والآن استردت القضية بعد أن تخلت الأيادى عن الأمانة. فالعدو الصهيونى شعب ونظام. والعرب شعوب بلا نظم.

وعادت المقاومة كخيار وحيد بعد أن تبددت أوهام السلام. فلا يفل الحديد إلا الحديد. ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وقتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار. قرحنا استجابة لله والرسول ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]. وقرحهم جزاء للعدوان والاغتيال.

وتخلص الجميع من الحيرة المزدوجة بين السلام والمقاومة. فقد ظهرت استحالة السلام مع عدو لا يبغى إلا الحرب. ويريد الاستيلاء على كل فلسطين، فلسطين ١٩٤٨م وفلسطين١٩٦٧م. ابتلع النصف الأول فى تسعة عشر عاما، والنصف الثانى بعد سبعة وثلاثين عامًا. فلم يعد هناك شىء للتفاوض عليه. والترحيل إلى شرق الأردن وارد لمن أراد الرحيل. فالأردن هى فلسطين، وفلسطين هى الأردن. ومن تشبث بالأرض فعليه أن يعيش كما يعيش عرب فلسطين فى ١٩٤٨م، ينعمون بالمواطنة الإسرائيلية، ولهم حق التمثيل فى الكنيست، وحق تكوين الأحزاب السياسية. يعملون ضد البطالة، ويأمنون ضد الاغتيال أو الطرد.

وبعد فلسطين، يأتى الدور على لبنان وسوريا والعراق والأردن ومصر. ويتحقق شعار من النيل إلى الفرات، مشروع إسرائيل الكبرى، الراكض وراء أمريكا الكبرى. والثمن دم الشهيد. والعزاء نضال الأبطال.

* * *

٨- المسألة اليهودية فى الفكر الغربى المعاصر

منذ القرن الماضى وهذا القرن تثار قضية عُرفت باسم «المسألة اليهودية» عند عديد من المفكرين تعبر عن وضع اليهود فى الغرب، هل هم جزء منه أم منفصلون عنه، هل هم جزء من كل أم هم كل والشعوب كلها أجزاء فيه؟ وهى قضية فى الفكر الغربى وحده دون غيره من الحضارات غير الأوروبية. تعرضت إليها معظم التيارات الفكرية مثل الليبرالية كما قال برونو باور فى كتابه «المسألة اليهودية» ١٨٤٣م أو الماركسية كما فعل ماركس فى «المسألة اليهودية» ١٨٤٣م والوجودية كما كتب سارتر «تأملات فى المسألة اليهودية» ١٩٥٤م. أراد باور تحرير اليهود فى ألمانيا عن طريق الدولة الألمانية القومية الليبرالية التى تقوم على الأيديولوچية الألمانية، الوعى بالذات، الجماعة والحرية، وهى مُثل التنوير الألمانى. فلا بقاء للخاص إلا فى العام، ولا تحرر للجزء إلا بتحرر الكل. وأراد ماركس أن يحقق نفس الهدف ولكن عن طريق تحرير المضطهدين فى العالم كله وليس اليهود وحدهم، فالتحرر حق الجميع. وهذا لا يتم إلا عن طريق القضاء على البرجوازية المستغلة وتوحيد جميع المضطهدين فى العالم ضد الاستغلال العالمى. فلا تحرر لليهود إلا بتحرير العالم وليس الدولة القومية الليبرالية عند باور. أما جان بول سارتر فقد جعل السبب الرئيسى للمسألة اليهودية هو رؤية الآخرين. فاليهودى ما يراه الآخرون أنه يهودى. فالخطأ من الآخر وليس من الذات. ولما كان الآخرون هم الجحيم فإن اليهودى ليس مسئولا عن اضطهاد الآخرين له. وبالتالى ينكر سارتر الأسباب الموضوعية للمسألة اليهودية ويضحى بها من أجل وصف العلاقات بين الذوات، تجعل اليهودى ضحية تشييئ الآخرين له. ومن ثم فتحرر اليهودى ليس من داخله

(*) جريدة الاتحاد: ٧ ديسمبر ٢٠٠٢م.

بل من خارجه. فهو الضحية وليس الجلاد. والسبب الرئيسى للمسألة اليهودية هو باختصار المعاداة للسامية.

وسبب بروز «المسألة اليهودية» فى الفكر الغربى هو عزلة اليهود فى المجتمعات الأوروبية، وعيشهم فى «الجيتو» لا هم من المجتمع، جزء منه، متساوون مع باقى أفراده فى الحقوق والواجبات، ولا هم خارج المجتمع، مجتمع آخر منفصل عن المجتمع الأم. لا هم وطنيون ولا هم غرباء، لا هم من أهل البلاد ولا هم من خارج البلاد. ففى حالة المد الوطنى أو القومى فى المجتمعات تبرز المسألة اليهودية، وماذا عن اليهود؟ هل هم جزء من المجتمع الألمانى أو الفرنسى أو الإيطالى أم هم خارجه، قومية خاصة؟ وفى حالة الترابط القومى والاجتماعى كيف يسمح بوجود قوميتين أو مجتمعين داخل المجتمع الواحد والقومية الواحدة؟ هل اليهود جزء من الأغلبية أم هم أقلية؟ هل ولاؤهم للمجتمع العام وللدولة الوطنية أم أن ولاءهم للمجتمع الخاص أو لمجتمع آخر ودولة أخرى خارج الحدود؟

وقد نشأت المسألة اليهودية فى الدول القومية الكبرى مثل روسيا وألمانيا وفرنسا. فحركة التطهير العرقى من اليهود إنما تمت فى روسيا فى القرن الماضى فيما عرف باسم «البورجوم»، وفى فرنسا بعد حادثة درايفوس فى أواخر القرن الماضى، وفى ألمانيا إبان الحكم النازى فى النصف الأول من هذا القرن. كما نشأت المسألة اليهودية فى المجتمعات التى تعانى من أزمة هوية مثل مجتمعات أوروبا الشرقية، غربية أم شرقية، كاثوليكية أم أرثوذكسية، سلتية أم سلافية، رأسمالية أم اشتراكية. لذلك خرج كثير من دعاة الصهيونية من أوروبا الشرقية. كما نشأت كثير من الحركات الصوفية المعاصرة مثل «الحاسيدين» فى أوروبا الشرقية تعبيراً عن الانكفاء على الداخل والمحافظة على النفس. ونشأت لغة «اليديش» الخاصة بيهود أوروبا الشرقية تعبر عن خصوصيتهم، عبرية سلافية.

وأصل المسألة اليهودية فى وجود نزعتين فى تاريخ اليهودية منذ العبرانيين الأوائل حتى الصهيونية المعاصرة: الأولى النزعة الخاصة التى تظهر فى أسفار موسى الخمسة وأثناء الأسر البابلى والاحتلال الرومانى لفلسطين والصهيونية

الحديثة منذ القرن الماضى. وهى نزعة تقوم على عقائد التوراة مثل العهد والوعد وأرض الميعاد. فقد عقد الله حلفا خاصا بينه وبين بنى اسرائيل يعطيهم بمقتضاه الأرض والمدينة المقدسة والمعبد والهيكل، ويؤيده بالنصر. فالشعب شعب الله، والحرب حرب الله، والعداء عداء الله، والنصر نصر الله. وفى مقابل ذلك لم يطلب الله منهم شيئا، لا تقوى ولا طاعة ولا عملا صالحا ولا إيمانا بالله ولا تصديقا بالأنبياء. فالعهد أحادى الطرف. الله يعطى واليهود يأخذون. الله يعطى مجانا، واليهود يأخذون بلا مقابل. هو عهد غير مشروط. إنما الالتزامات وحدها من جانب الله، واليهود أبناء الله وأحباؤه لا التزام عليهم بشىء ولا حتى بمحبة الله. وهو عهد مادى لا أخلاقى، يعطى الفول والعدس والبصل وأرض مصر ولا يتطلب الإيمان أو الطاعة أو كمال الأخلاق. وهو عهد جماعى وليس عهداً فرديا يتم بين اليهود كشعب وبين الله وليس عهدا فرديا يقوم على الاختيار الحر والمسئولية الفردية. المسئولية فى العهد جماعية، والإنقاذ جماعى، ولا عقاب. وكيف يعاقب الله أبناءه وأحباءه؟ ويتم الإنقاذ للجماعة المذنبة الخاطئة حتى ولو كان فيها واحد مؤمن. فالأقلية الصالحة تغفر للأغلبية العاصية. وطالما كان هناك مؤمنون متعبدون فى البِيَع يؤمنون بإله الأجداد والآباء فإن بوسع الأبناء والأحفاد أن يفعلوا أى شىء حتى ولو كان القتل والذبح والعدوان والاستيلاء على أراضى الغير.

وأصل فكرة العهد أن العبرانيين عقدوا حلفا بين أسباطهم الاثنى عشر تقوية لهم فى حروبهم مع باقى القبائل السامية للاستيلاء على أراضيهم وثرواتهم وذبح أطفالهم ونسائهم. فليس عليهم فى الأميين سبيل. ثم حولوا هذه المعاهدة السياسية بين الأسباط إلى عهد الله، بين الله وشعبه. تحول الأفقى إلى رأسى، والسياسى إلى دينى، والإنسانى إلى إلهى. فأعطى اليهود لأنفسهم تبريراً شرعيّا للعدوان والاستيلاء على أراضى الغير بأمر إلهى ووعد كونى عند نوح، تجدد عند إبراهيم، وتجدد مرة ثالثة عند موسى فى التوراة.

وفى مقابل هذه النزعة الخاصة كانت هناك نزعة عامة تضعف وتقوى تبعًا

للعصور ومدى قبول العبرانيين ثقافات الشعوب الأخرى وحضاراتهم. فلقد ثار الأنبياء ضد هذه النزعة الخاصة عوداً بالوحى إلى شموله لكل الشعوب، الإيمان بالله والعمل الصالح، وهذا ما أثبته الإسلام، آخر مرحلة للوحى، باعتباره جوهر الإيمان. وعادت النزعة العامة باتصال العبرانيين باليونان عند فيلون السكندرى وتأويل اليهودية بما يتفق مع العقل والفضيلة. وظهرت مرة ثالثة مع المسيحية، عند الاسينيين الذين كانوا يفسرون اليهودية تفسيراً روحيّا بعيداً عن العنصرية والعدوان. وقد كان المسيح منهم كما تبين «مخطوطات البحر الميت». ثم ظهرت النزعة الشاملة داخل الحضارة الإسلامية لدى يهود مصر والعراق واليمن والمغرب العربى وإسپانيا. ولم تعرف اليهودية علم كلام أو فلسفة أو فقهًا إلا بفضل نماذج هذه العلوم فى الحضارة الإسلامية. سعيد بن يوسف الفيومى مثل الفارابى ومعاصريه، بهيا بن باقودة مثل مسكويه، ويهودا هاليفى مثل الغزالى، وموسى بن ميمون مثل ابن رشد. ولأول مرة عرفت اليهودية بالحكمة العقلية والبراهين الفلسفية بعيدا عن العنصرية والاختيار. وفى الفلسفة الغربية الحديثة ظهرت النزعة الشاملة فى القرن السابع عشر إبان الليبرالية الغربية عند اسبينوزا الذى نقد العهد اليهودى المحافظ، المادى، أحادى الطرف، المجانى غير المشروط، ونادى بعهد آخر أخلاقى تبادلى مشروط، نقلا للديكارتية من المسيحية إلى اليهودية. ونقل موسى مندلسون الكانطية والفلسفة النقدية إلى اليهودية جاعلاً مدينة القدس أثينا جديدة، عاصمة التنوير. النزعة الخصوصية مورثة من الداخل والنزعة الشاملة وافدة من الخارج. بل إن بعض التيارات اليهودية المعاصرة مثل الظاهراتية الاشتراكية عند بوبر أو الوجودية اليهودية عند روزنزفيج تدعو إلى التحرر عن طريق تحرير الوجدان والذات والوجود الإنسانى الفردى والاجتماعى وليس عن طريق الكيان الصهيونى.

كان القرن التاسع عشر هو عصر القوميات الكبرى، الألمانية والفرنسية والإيطالية والروسية والأمريكية. الوحدة المتجانسة القائمة على العرف واللغة والأرض والتاريخ والدين والثقافة. نشأت فى العصر الرومانسى الذى كانت غايته العودة إلى الأرحام والارتباط بالجذور الأولى حيث منشأ الروح الذى تجلى فى

التاريخ، واتحد بالطبيعة. واندلعت الحروب بين القوميات من أجل استقرارها على الأرض والاعتراف بحدود ثابتة لها طبقا لصراع القوى فى ذلك الوقت. نشأ الفكر القومى اليهودى على هذا المنوال. وترك فلسفة التنوير عند اسبينوزا ومندلسون. ورفض عرض نابوليون على يهود فرنسا أن يكونوا مواطنين فرنسيين متساوين فى الحقوق والواجبات مع باقى الفرنسيين. وتحولت الصهيونية من نزعة روحية، المحافظة على التراث اليهودى والتمسك بالهوية الثقافية اليهودية ضد مخاطر التمثل والاستيعاب والذوبان فى باقى القوميات وثقافاتها فى القرن الثانى عشر عند الكالى إلى صهيونية سياسية ترى حل المسألة اليهودية على النموذج القومى الأوروبى فى القرن التاسع عشر، الدولة كما تصورها هرتزل. ولما ضاقت القوميات بحدودها انتشرت خارجها وتحولت إلى غزوات استعمارية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية خارج الحدود الأوروبية الأمريكية. وللمرة الثانية تم تصور الكيان الصهيونى خارج حدود أوروبا وأمريكا، فى الأرجنتين فى أمريكا اللاتينية أو جابون فى أفريقيا أو فلسطين فى آسيا. ولما كانت الصهيونية السياسية فى القرن التاسع عشر من النزعة الخاصة فقد وقع الاختيار على فلسطين. ففيها تتحقق العودة إلى الأرحام، والنشأة الأولى، وعليها عقد العهد الأول، عهد إبراهيم وموسى. وهى أرض المعاد التى بها المدينة والمعبد والهيكل. وفى نفس الوقت كانت فلسطين مع العرب من ممتلكات «الرجل المريض» مطمعًا للقوى الأوروبية الناهضة لا تحميها إلا الجيوش العثمانية. كلها فراغات. فلسطين أرض بلا شعب واليهود شعب بلا أرض.

ولما كانت فلسطين جزءًا من دولة الخلافة، وأراد اليهود الغربيون شراءها من السلطان رفض السلطان بيعها. فأمانة التاريخ لا تباع. كما رفض محمد على التنازل عنها، وفتح الشام حفاظا عليها وتوحيدا لمصر الشام والسودان وشبه الجزيرة العربية من أجل رد الحياة إلى دولة الخلافة بزعامة مصر. ولما خسرت تركيا الحرب الأولى استعمرت بريطانيا ممتلكاتها فى مصر والسودان وفلسطين والعراق واليمن والخليج. واستعمرت فرنسا سوريا ولبنان والمغرب العربى. واحتلت إيطاليا ليبيا والصومال. وبدأت الهجرات التطوعية الأولى فى فلسطين كمواطنين داخل الدولة العثمانية طبقا لنظام الملة. تحولت بعدها إلى هجرات منظمة بعد احتلال بريطانيا

ووعد بلفور من أجل إنشاء وطن قومي لليهود. وكلما ازدادت الهجرات فى المزارع الجماعية زادت المقاومة الفلسطينية حتى ثورة عز الدين القسام قبيل الحرب الثانية. وتحت غطاء الإحساس بالذنب للمحرقة أثناء الحكم النازى لألمانيا ازدادت الهجرات بعد الحرب حتى تأسيس الكيان الصهيونى فى ١٩٤٨م على نصف فلسطين ثم على ثلاثة أرباعها بعد هزيمة ١٩٤٨م وعليها كلها بعد هزيمة ١٩٦٧م. وبفضل حرب ١٩٧٣م بدأت مشاريع التسوية فى مدريد ١٩٧٤م وأوسلو فى ١٩٩٤م واتفاقيات القاهرة وواشنطن وقيام السلطة الوطنية الفلسطينية على نصف الضفة الغربية حتى محادثات الوضع النهائى. وموازاة لابتلاع فلسطين تدريجيّا ينشأ الكيان الصهيونى ويتوسع شيئا فشيئا من الهجرات الأولى حتى قيام الكيان السياسى فى ١٩٤٨م حتى عدوان ١٩٥٦م ثم عدوان ١٩٦٧م حتى استسلام الإرادة العربية والاعتراف به منذ زيارة القدس فى ١٩٧٧م، واتفاقية كامب ديفيد فى ١٩٧٨م، واتفاقية السلام فى ١٩٧٩م ووادى عربة فى ١٩٩٣م. ومازال الكيان الصهيونى يخطط لعصر إسرائيل الكبرى التى لا حدود لها جغرافيا أو سياسيّا أو اقتصاديا أو ثقافيا حتى يرث القومية العربية، ويصبح هو أداة التحديث للعرب. ويقوم بدور مصر المركزى بعد تهميشها. وفى عصر العولمة واقتصاديات السوق لا شيء يحول دون اندماج العرب فيه بأموالهم وأسواقهم دون إرادتهم الوطنية المستقلة.

* * *

٩- النموذج الأندلسى وحل المسألة اليهودية الفلسطينية

كان الهدف من إنشاء الكيان الصهيونى فى قلب العالم العربى هو إيجاد نقطة انطلاق للاستعمار الغربى وجسرا يمتد إليه. فهو قلعة متقدمة للغرب داخل الشرق. وقد قام الكيان بما وكل إليه فى العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م بالتعاون مع فرنسا وانجلترا، وفى عدوان ١٩٦٧م بالاعتماد على الولايات المتحدة. تستغل المياه والأرض والتربة والعمالة والأسواق العربية. وتقوم على القوة والمادة والربح ولعب دور الإمبراطوريات الكبرى فى القرن الماضى، وتقوم وسط أفريقيا لحصار مصر والعرب من الجنوب. وتتعامل مع الجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا حتى الصين لتجفيف منابع التأييد العربى عن المسلمين فى آسيا. وتتحالف مع تركيا لحصار سوريا من الشمال. وتجد التأييد الفعلى العلمى والصناعى فى الغرب الأوروبى الأمريكى.

وفى نفس الوقت ينحسر المشروع التحررى العربى من تحرير فلسطين إلى إزالة آثار العدوان إلى الدولة الفلسطينية على مجموع التراب الوطنى الفلسطينى إلى السلطة الوطنية الفلسطينية. ويعادى العرب إيران وما زال مشروعها التحررى لفلسطين هو مشروع العرب الأول. ويخسر العرب باقى دول الجوار فى آسيا مثل تركيا وفى أفريقيا مثل دول القرن الأفريقى. وتبدأ سلسلة من التنازلات العربية ليس فقط على الأرض ولكن أيضا فى الشعور والوجدان بداية بالاستسلام والإحساس بالعجز والضياع والهوان وامتهان الكرامة وقبول الأمر الواقع، والتأقلم مع النظام العالم الجديد. فالعولمة قدر لا يمكن الفرار منه، والحداثة تطحن من لا يقوى

(*) جريدة الاتحاد: ١٤ ديسمبر ٢٠٠٢م.

عليها، ولا مكان للضعفاء بين الأقوياء. تضيع النخوة العربية شيئا فشيئا، ويختفى الشعر والخيال من الوجدان. تاريخ الصهيونية الحديث يتقدم من الدولة اليهودية فى ذهن هرتزل إلى الهجرات الأولى إلى وعد بلفور إلى الجماعات المسلحة الاستيطانية الأولى إلى تأسيس الكيان فى ١٩٤٨م إلى عدوان ١٩٥٦م إلى الاستيلاء على فلسطين كلها ١٩٦٧م إلى فرض الإرادة الصهيونية والمشروع الصهيونى على العرب منذ اتفاقيات السلام. وتاريخ العرب الحديث من قيام إلى نكوص، محمد على، ثورة ١٩١٩م، الثورة العربية الأخيرة التى جسدتها الناصرية، من ضياع نصف فلسطين إلى ضياع الكل إلى عصر تفتت العرب وتشرذمهم والعدوان فيما بينهم، وتحول الصديق إلى عدو والعدو إلى صديق.

والسؤال الآن: هل حل قيام الكيان الصهيونى المسألة اليهودية؟ هل ساعد نشأة الكيان الصهيونى على جعل اليهود أكثر قبولا لهم أو هم أكثر قبولا لجيرانهم؟ لم يحصل اليهود على الأمان المطلوب بإنشاء الكيان الصهيونى بل عاشوا فى جيتو كبير بدلا من الجيتو الصغير. لا يتعامل مع غيره من غير اليهود. لا يشعر بالأمان إلا إذا أحيط باليهود من كل جانب. يشعر بالذنب، طرد شعب من أرضه والاستيلاء على ثرواته. ولا تتقادم السرقات خاصة وأن جسم الجريمة شعب بأكمله فى الخيام وفى المنفى. بل ويرفض اليهود التعايش مع الآخرين متساوين فى الحقوق والواجبات فى دولة متعددة الأطراف والملل؛ لأن ذلك سيفقدهم مقومات وجودهم الخاص. يعيشون على معاداة السامية. وبقدر ما تقوى النزعة المعادية للسامية تقوى الصهيونية وتجد مبررا لوجودها. بل إنهم كثيرا ما يساعدون فى خلقها حتى يجدوا المبرر لعقدة الاضطهاد. وبقدر ما يتسع نشاطهم وتقوى سلطتهم الاقتصادية والسياسية بقدر ما يزداد العداء لهم فى السر أو العلن. بل كثيرا ما يكونون وراء سقوط العديد من الدول العظمى مثل نهاية الاتحاد السوفييتى. ويسيطرون على مراكز التفكير والقرارات فى الولايات المتحدة خارج البيت الأبيض وداخله. ويتوعدون من يخرج على الطوع أو من يرفض التبعية مثل الچنرال ديجول بعد عدوان ١٩٦٧م ومحمد محاضير رئيس وزراء ماليزيا وتحميلهم مسئولية الأزمة المالية فى آسيا. وما من منظمة دولية إلا وهم داخلها لتوجيهها لخدمة مصالحهم الخاصة.

وإذا تم للكيان الصهيوني تأمين نفسه ضد المخاطر الخارجية فإن المخاطر الداخلية أعظم. فقد نشأ الكيان على أكتاف اليهود الغربيين الأكثر تحضرا وعلما. ثم تمت هجرة اليهود الشرقيين بعد ١٩٤٨م من مصر والعراق والمغرب واليمن. ونشأ صراع مكتوم أو معلن بين «الأشكناز» و «السفارديم». بيد اليهود الغربيين كل مظاهر القوة والسلطة، واليهود الشرقيون لهم العمالة والخدمة. كما أن هناك صراعا بين العلمانيين وهم دعامة الحكم والمتدينين الذين يوغلون فى التطرف الدينى كدعامة للتطرف السياسى، حرب داخلية حول هوية الكيان، قوانينه وأساليب حياته. ولما كانت الصهيونية قد قامت على أساس عرقى ظهرت مشكلة اللون، اليهود البيض فى مقابل اليهود السود «الفلاشا» المهجرين من الحبشة. ويصل اللون إلى الدم، الدم الأبيض والدم الأسود. بل ويوجد صراع مكتوم بين اليهود المهاجرين، الرعيل الأول، واليهود المولودين فى فلسطين «الصابرا» الذين لا يعرفون لهم موطنًا آخر هاجروا منه كما فعل الآباء. وأخيرا هناك الأغنياء والفقراء، المسألة الاجتماعية التى تفرق أبناء الملة. فالصراع الاجتماعى هو الذى يجلب الصراع الطائفى. والطبقة أحيانًا تضم الملة وتحتوى الطائفة.

وبدلا من حل المسألة اليهودية نشأت المسألة الفلسطينية. إخراج شعب من أرضه ونهب ثرواته. إحضار يهود العالم من الدياسبورا إلى العاليا(*)، وإبعاد عرب فلسطين من العاليا إلى الدياسبورا. ونشأت المسألة العربية باحتلال جنوب لبنان والجولان والتهديد بالعدوان لدول الجوار بل لمنابع النفط ولإيران، لثروات العرب وثروة المسلمين. وازداد التطرف والعنف فى الوطن العربى، تطرفًا بتطرف، وعنفا بعنف. ويتم التخطيط لتجزئة الوطن العربى بين عرب وبربر فى المغرب العربى، عرب وأكراد وشيعة فى العراق، مسلمين وأقباط فى مصر، مسلمين ومسيحيين فى السودان بين الشمال والجنوب، زيدية وشافعية فى اليمن، سنة وشيعة فى الخليج، بدو وحضر فى شبه الجزيرة العربية، عرب وآسيويين فى عمان والإمارات، أصلاء وبدون، وطنيين ومهاجرين، علمانيين وسلفيين إلى آخر هذه الثنائيات التى تنحر بالتجزئة والتشرذم فى الجسم العربى.

(*) العاليا Alia أى عودة اليهود إلى فلسطين على عكس الدياسبورا أى الشتات.

لقد قام الميثاق الوطنى الفلسطينى منذ البداية على أن حل المسألة اليهودية والفلسطينية إنما يتم فى إطار دولة ديموقراطية متعددة الثقافات والملل، يتساوى فيها المواطنون فى الحقوق والواجبات. وهو ليس حلما طوباويا بعيد المنال أو تكتيكا سياسيا لتصفية الكيان الصهيونى بل هو النموذج الأندلسى القديم الذى عاش فيه المسلمون واليهود والنصارى كعرب فى طليطلة وغرناطة وأشبيلية وقرطبة. وكان هو العصر الذهبى للحضارة اليهودية حيث نشأت علومهم العقلية مثل الكلام والفلسفة والتصوف والأصول، وعلومهم النقلية مثل اللغة والنحو وعلومهم العقلية فى الرياضيات والطبيعيات بفضل وجودهم فى الحضارة العربية. يكتبون بالعربية أو بالعربية بحروف عبرية، ويعيشون بين المسلمين. بل إن اليهود كانوا يذهبون للقضاء الإسلامى؛ لأنه أكثر عدلاً من القضاء اليهودى لا يحابى ولا يظلم. وما حدث فى الأندلس حدث أيضا فى مصر وتونس والعراق واليمن. فقد جمع اليهود بين العروبة والثقافة الإسلامية أسوة بالمسلمين والنصارى وكان منهم الأطباء والحكماء والعلماء فى بلاط الخلفاء. كان ابن ميمون طبيب الكامل. ووصل حسداى بن شبروط إلى منصب وزير التجارة وله تجارته وربحه. وراسل حسداى ابن باجة. وظهر حيوى البلخى داعيا ومصلحا لليهودية قبل اسبينوزا معبرا عن روح الاعتزال. وتكونت فرقة القرائين على نموذج المتكلمين المسلمين فى مقابل الربانيين. كان القراءون يقولون بالتأويل العقلى للنصوص، وبالكتاب وحده مصدرا، وينفون التصور العنصرى الخاص للمعاد. بل إن من كبار فلاسفة التنوير اليهودى فى العصر الحديث من تلامذة المسلمين مثل اسبينوزا. وينقد الإسلام بعض الانحراف فى اليهودية من اليهودية إلى الصهيونية بعقيدة العهد أو الميثاق اللاأخلاقى المادى غير المشروط المناقض لقانون الاستحقاق. كما ينقد تحريف التوراة والوقوع فى الحرفية والصورية والمظهرية التى قد تخفى غير ما تبطن وتؤسس النفاق. وينقد العصيان اليهودى، والغدر بالناس، والكفر بالأنبياء وقتلهم أى قسوة القلب وغياب الرحمة، وهى المكونات الرئيسية للصهيونية الدينية والسياسية.

إن الذى يمنع اليهود الآن أن يصبحوا يهودًا من النزعة العامة وانضوائهم تحت

النزعة الخاصة هو رد فعل على التنوير الأوروبى، ونموذج القوميات والتغريب. أصبح اليهودى غربيًا عن تراثه. يتبنى القيم الغربية تاركا قيمه الموروثة. يستمد هويته من الأرض والعرق، ومتصورا أمنه فى الحدود الجغرافية الآمنة فى العلم والنشيد والعلاقات الدولية والقوة وليس فى أمنه الداخلى، مساواته لغيره من البشر، لا أكثر ولا أقل. تربطه بالناس قيم أخلاقية وبباقى الشعوب. مأساة اليهودية الآن مأساتان: الأولى التغريب وتبنيه قيمًا ليست نابعة منه، نموذج الدولة القومية الدينية الطائفية العرقية النازية. لذلك حدث الصدام بينها وبين النازية الألمانية. هذه هى الصهيونية وليست اليهودية. هوية اليهودى تأتى من إيمانه بالله وبالأنبياء، بالعقيدة والشريعة. وصدقه فى التزامه بالتوراة. والنازية الأرثوذكسية السياسية التى تقرأ التراث اليهودى أيضا كما تقرؤه الصهيونية العلمانية، وتعيد إبراز النزعة الخاصة فى التوراة والتلمود. لا فرق إذن بين الصهيونية العلمانية والصهيونية الدينية إلا فى المنبع وليس فى المصب، فى الوسيلة وليس فى الغاية. وكلتاهما صهيونية سياسية تريد العودة إلى جبل صهيون لتأسيس الكيان الصهيونى. أما التيارات اليهودية الأخرى فما زالت أقرب إلى اليهودية منها إلى الصهيونية، مثل اليهودية الإصلاحية التى تريد كيانًا يهوديًا سياسيًا دون صهيونية، دولة يتعايش فيها الجميع، أقرب إلى نموذج الميثاق الوطنى الفلسطينى، واليهودية الأرثوذكسية التى ترفض الكيان السياسى، ويريد المحافظة على التراث الروحى اليهودى. فالخلاص ليس بالدولة وليس الآن بل بظهور المخلص فى المستقبل، استمراراً للصهيونية الروحية، التيار الصوفى فى التنوير اليهودى. اليهودية الإيمان بإله موسى فى السماء وبالتوراة على الأرض. وهى اليهودية التى يعبر عنها القرآن فى نقده لعقيدة العهد أو الميثاق فى النزعة الخاصة، ودفاعه عن النزعة العامة التى يمثلها الإسلامى، ويستأنفها ويطورها فى ميثاق أخلاقى جديد من أجل وضع دستور لجماعة مؤمنة جديدة تحقق رسالة الأنبياء على الأرض، المساواة بين البشر بعد تحرر الضمير.

* * *

سابعًا: إيران وتركيا

١- مقابلة مع الرئيس محمد خاتمى.

٢- الحوار العربى الإيرانى الثانى.

٣- مصر وإيران.

٤- سوريا وتركيا.

٥- التعاون الإقليمى.

١ ـ مقابلة مع الرئيس محمد خاتمى

خلال الحوار العربى الإيرانى الثانى الذى عقد بطهران فى ٢٣ ـ ٢٧ يناير الماضى بعد اللقاء الأول الذى عقد بالدوحة فى قطر عام ١٩٩٥م، قابل الرئيس محمد خاتمى بعض أعضاء الوفد العربى فى قصر الرئاسة لمدة ساعتين. وبعد أن رحب الرئيس بأعضاء الوفد وسلَّم عليهم واحداً واحداً، بدأ الدكتور خير الدين حسيب الحوار بسؤال الرئيس عن الوضع السياسى الحالى بعد ١١ سبتمبر وحوادث نيويورك وواشنطن والهجمة الأمريكية على العالم العربى والإسلامى. كان سؤالًا سياسيًا مباشراً أمام أجهزة الإعلام. وإيران فى موقف حرج بين الوقوف ضد الإرهاب الذى يقال إنه نابع من جارتها أفغانستان ومن نظام إسلامى هو طالبان وضرورة التعاون الأمنى وليس العسكرى مع قوات التحالف الأمريكى البريطانى، وبين الحرص على استقلالها الوطنى وعدم جواز قتل المسلم للمسلم بمفرده أو بمعاونة الأجنبى، والدفاع عن مصالحها الوطنية ضد تهديد الولايات المتحدة الأمريكية للثورة الإسلامية الذى لم يتوقف منذ اندلاعها حتى الآن، خاصة بعد وجودها فى قلب آسيا، فى أفغانستان، وعلى حدود إيران الشمالية بقواعد عسكرية ثابتة، بالرغم مما كان بين الثورة والطالبان من عداء. فلو صرح الرئيس بشىء إما لصالح التحالف ضد الإرهاب أو لصالح الاستقلال الوطنى لتناقلته أجهزة الإعلام على الفور مع الشروح والتفسيرات عن موقف الثورة الإسلامية، مما يحدث فى أفغانستان تعاونًا مع التحالف ضد نظام الطالبان وتنظيم القاعدة، أو مناهضة الغزو الأمريكى لأفغانستان. والسياسة تقوم على التشابه وليس على الأحكام، على الغموض وليس على الوضوح ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

(*) جريدة الزمان: ١٩ فبراير ٢٠٠٢م.

لذلك تجاوز الرئيس خاتمى هذا السؤال السياسى المباشر وتحدث عن حوار الحضارات، فالسياسة ثقافة، والثقافة سياسة. الثقافة سياسة على الأمد الطويل، والسياسة ثقافة على الأمد القصير.

وبدأ الرئيس خاتمى بملاحظة أن الحضارة الإسلامية قد توقفت فى نفس الوقت الذى تقدمت فيه الحضارة الغربية. وهو حكم شائع منذ أن سأل شكيب أرسلان من قبل: «لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟». والحضارة الإسلامية فى الحقيقة لم تتوقف فى القرون السبعة الأخيرة، فترة ما بعد ابن خلدون فى العصر المملوكى العثمانى، بل دوَّنت من الذاكرة فى المرحلة الثانية ما أبدعته بالعقل فى القرون السبعة الأولى. كما ازدهرت العلوم الرياضية فى هذه الفترة خاصة علوم الفلك، بل لقد ازدهرت العلوم الإسلامية فى إيران عند الطوسى حتى صدر الدين الشيرازى. ومنذ مائتى عام ونحن نحاول النهوض من جديد، ونغلق هذه الفترة الثانية لبداية فترة ثالثة ابتداءً من الإصلاح الدينى عند الأفغانى أو فجر النهضة العربية عند الطهطاوى، أو بداية بالتفكير العلمى العلمانى عند شبلى شميل فى بدايات ثلاث: الدين والدولة والطبيعة. وما زلنا نطور الإصلاح الدينى بالرغم من كبوته وانتهائه إلى تيار سلفى. والثورة الإسلامية فى إيران ضمن هذه المحاولات الجديدة لتطوير الفكر الإصلاحى وتحويله إلى فكر ثورى. أما الغرب فقد تقدم فى بداية العصور الحديثة بالعودة إلى الآداب القديمة فى القرن الرابع عشر، والإصلاح الدينى فى الخامس عشر، والنهضة فى السادس عشر، والعقلانية فى السابع عشر، والتنوير فى الثامن عشر، والعلم والثورة الصناعية الأولى فى التاسع عشر، والتكنولوچيا الحديثة فى القرن العشرين. ثم وقعت الأزمة، حربان عالميتان طاحنتان، وقلب القيم (شيلر)، وأزمة العلوم (هوسرل)، وأزمة الوعى (بول آزار)، وأفول الغرب (اشبنجلر)، وموت الإله (نيتشه)، ومحاكمة الغرب (توينبى)، والآلة التى تصنع الآلهة (برجسون).

ثم تحدث الرئيس عن انعدام الهوية والأحرى تداخل الهويات بين الإسلامية والقومية والغربية نظراً لوقوع المسلمين اليوم فى حصار الزمن بين هوية الماضى

الإسلامية كما يريد الإسلاميون، وهوية المستقبل الغربية كما يريد العلمانيون، وهوية الحاضر القومية كما يريد القوميون. وهى أشبه بالدوائر الثلاث التى تحدث عنها عبد الناصر فى فلسفة الثورة كدوائر حول مصر: الدائرة العربية، والدائرة الأفريقية الآسيوية، والدائرة الإسلامية. وقد تتحول الهوية الإسلامية إلى سلفية كرد فعل على تحول التحديث إلى تغريب، والحداثة إلى علمانية على النمط الغربى. فالخطر ليس من السلفية بل من العلمانية، رد فعل على فعل. ويحاول الطريق الثالث التوفيق بينهما من أجل تجاوز الاستقطاب بين اتجاهين متعارضين، فالإصلاح قادر على هذا التجاوز. وقد يكون الحل الرابع هو القادر على التجاوز الجذرى، إعادة بناء القديم طبقًا لحاجات العصر من الداخل وليس من الخارج، من الجذور وليس من الثمار. وإذا كان الغرب يمر حاليًا بمرحلة ما بعد الحداثة فإننا مازلنا نمر بمرحلة الحداثة. وإذا كان الغرب قد أعلن نهاية التاريخ فإننا نمر ببداية ثانية لتاريخنا الحديث منذ الإصلاح الدينى وإنهاء عصر الشروح والملخصات، وحركات التحرر الوطنى، وبناء الدول الحديثة، والثورة الإسلامية فى إيران، والصحوة الإسلامية، والحفاظ فى أوروبا الشرقية، والجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى. وإذا كان الغرب قد أعلن صدام الحضارات فإننا نعلن حوار الثقافات. لقد أعلن الغرب عما مارسه فى الخفاء منذ محاولاته القضاء على ثقافات الشعوب المستعمرة فى نصف الكرة الغربى، ثقافة الهنود الحمر. وأصبحت تتكلم الفرنسية فى الشمال، والإنجليزية فى الوسط، والإسپانية والبرتغالية فى الجنوب. وتحولت أفريقيا إلى فرانكفونية وأنجلوفونية. وفى آسيا فى الهند أصبحت اللغة الإنجليزية فيها لغة وحدة شبه القارة. وتتكلم الفيليبين الإسپانية. ويرى الرئيس أن حوار الحضارات الآن ليس على مستوى الأيديولوچيا بل حول العلم والعدالة، وهى أيضًا أيديولوچيًا ضمنية. فالعلم حكر على الغرب، رأسماليته الجديدة، والعدالة شروطها غربية، العولمة والسوق والربح، ومنظمة التجارة العالمية، ورفع الحواجز الجمركية، والتنازل عن السيادة الوطنية، وابتلاع المركز للأطراف.

ويبدأ الحوار مع النفس قبل أن يبدأ مع الآخر، حوار المسلمين فيما بينهم قبل حوار المسلمين مع الغربيين، حوار المسلمين مع القديم قبل حوارهم مع الجديد

حتى يتخفف المسلمون من نقل القديم أو نقل الجديد ويتجهوا إلى الإبداع. ونظراً لهيمنة الغرب، فإن الحوار معه لا يعنى الاستسلام لشتى جوانب الاستبداد، من الاستعمار التقليدى إلى العولمة الجديدة. الحوار فى هذه الحالة مواجهة ومقاومة، تحتاج إلى ثقافة المقاومة. ونموذجها عند الرئيس خاتمى العرفان أى الإشراق أى التصوف إعجابًا بصدر الدين الشيرازى والإمام الخمينى. وهو التيار الذى جعلته الثورة الإسلامية مصدرها وركيزتها. وشتان ما بين العرفان والثورة، والتصوف والمقاومة، والجهاد الأصغر جهاد النفس والجهاد الأكبر جهاد العدو. والتصوف فى النهاية إنقاذ النفس بعد أن استعصى إنقاذ العالم، ومقاومة سلبية بعد أن استمالت المقاومة الإيجابية. وقد تغير الوضع الآن بعد انتصار جنوب لبنان على الاحتلال الصهيونى، والمقاومة الفلسطينية على وشك الانتصار على جنود الاحتلال فى الضفة والقطاع. ويتم الحوار حول حقوق الإنسان وهى لا تبعد عن مقاصد الشريعة، الضروريات الخمس التى من أجلها وضعت الشريعة ابتداء، الحفاظ على النفس أى الحياة، والعقل أى العلم، والدين أى الحقيقة الثابتة بعيداً عن النسبية والشك، والعرض أى الكرامة الوطنية، والمال أى ثروات الشعوب. وقد أعلنا نحن بعد حركات التحرر الوطنى «الإعلان العالمى لحقوق الشعوب» فى الجزائر عام ١٩٧١م، حق كل شعب فى تقرير المصير حتى لا تبقى حقوق الإنسان فردية فحسب. كما يدور الحوار حول الحرية والعدل والمجتمع المدنى العالمى وليس المجتمع المدنى المحلى فحسب. وإذا كان هناك تحالف فهو تحالف من أجل السلام لا الحرب، وللدفاع عن صوت الشعوب مثل حقوق شعوب فلسطين وكشمير والشيشان فى تقرير المصير. تلك كانت أهم مواضيع الحوار مع الرئيس محمد خاتمى. كان أقرب إلى المونولوج منه إلى الديالوج. وهى موضوعات يتناولها المثقفون عندنا، والرئيس على علم بأطروحاتنا. فقد وحدت الثقافة ما فرقته السياسة. فى الثقافة يتعلم بعضنا من بعض، وفى السياسة يعلو بعضنا على بعض، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

* * *

٢ - الحوار العربى الإيرانى الثانى

عقدت فى شهر يناير الماضى فى طهران الندوة الثانية للحوار العربى الإيرانى بين مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت ومعهد الدراسات السياسية والدولية بطهران بعد الحوار الأول الذى عقد بجامعة قطر بالدوحة فى ١٩٩٥م. وضمت نفس المحاور الأولى الستة: الإطار العالمى والإقليمى للعلاقات العربية الإيرانية وما يتعلق بالسياسات الخارجية، الأمن القومى، الحدود والأقليات، الصراع العربى الإسرائيلى، التنمية والنفط، التصورات القطرية والليبرالية والقومية والإسلامية، وقد قدمت فى كل محور ورقتان: الأولى من المنظور العربى، والثانية من المنظور الإيرانى. وقدم على كل ورقة عدة تعقيبات مكتوبة تلتها مناقشات عامة مفتوحة. وشارك فى الندوة حوالى تسعين باحثًا من الجانبين بالإضافة إلى عدد آخر من المستمعين وأمام أجهزة الإعلام. وقد تم تأجيل الندوة عدة مرات على مدى الستة أشهر الأخيرة. كتبت معظم الأوراق حوادث سبتمبر الأخيرة فى نيويورك وواشنطن. لذلك خلت من انعكاساتها على الحوار العربى الإيرانى. وجاء معظمها تكراراً للندوة السابقة، مما يدل على نمطية الفكر العربى وعدم قدرته على التغير نوعيّا طبقًا لطبيعة الأحداث المتلاحقة. كانت رصداً للماضى أو وصفًا للحاضر أكثر منها استشرافًا لسيناريوهات المستقبل. غاب عنها الإحساس بالخطر الأعظم بعد الغزو الأمريكى لأفغانستان، وإقامتها قاعدة عسكرية فى قازقستان، وتهديد الصين وروسيا والجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا وباكستان والثورة الإسلامية فى إيران والعراق، وحصار إندونيسيا وماليزيا، بل والاستيلاء على الأسواق الآسيوية لليابان وهونج كونج وتايوان وكوريا الجنوبية. وكررت نفس الخلافات

(*) جريدة الزمان: ٣ مارس ٢٠٠٢م.

الشكلية القديمة حول اسم الخليج الفارسى أو العربى مع أنه أصبح أمريكيًا وحول الجزر الثلاث والسيادة عليها.

وغاب الحوار نظراً لكثرة الأوراق والتعقيبات المكتوبة. تجاورت الآراء ولم تتقاطع. وقد كان بالإمكان تقسيم المحاور إلى ورشات عمل صغرى تعقد فى نفس الوقت لتعميقها وتفصيلها، مع حضور بعض السياسيين والسفراء العرب ومراكز إعداد القرارات حتى تحدث عملية تغير فعلى فى العلاقات العربية الإيرانية.

والحقيقة أن العلاقات العربية الإيرانية قديمة حتى قبل ظهور الإسلام. فقد تداخلت اللغتان. واستعمل القرآن بعض الألفاظ الفارسية المعربة. وامتزج الشعبان عبر التجارة فى الخليج. وكانت هناك فى شمال شرق شبه الجزيرة العربية ممالك عربية فارسية. ومدح الرسول ﷺ علم فارس «**لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من أهل فارس**»، وكان معظم العلماء والفلاسفة من فارس. وكان الأزهر جامعة شيعية قبل أن تتحول إلى سنية. وكان التشيع مذهب مصر الرسمى قبل صلاح الدين. وظل حب آل البيت فى قلوب المصريين.

وفى التاريخ الحديث نشأت حركات الاستقلال متعاصرة فى مصر وإيران والدفاع عن الدستور، والمطالبة بالحياة النيابية، والصراع ضد القصر. وكانت المصاهرة قد ربطت بين القصرين فى مصر وإيران، بين الملكية والشاهنشاهية. وتحدث عبد الناصر فى فلسفة الثورة عن الدوائر الثلاث لمصر. وتدخل إيران ضمن الدائرة الإسلامية. وكان تأميم مصدق لنفط إيران فى ١٩٥٤م إلهامًا لعبد الناصر فى تأميم القناة فى ١٩٥٦م، جمعتهما معاداة الشاه وأمريكا. وكانت الثورة المصرية فى عنفوان صراعها مع الغرب تؤيد قوى الثورة فى إيران المعادية للشاه.

وإن مأساة العلاقة بين العرب وإيران أنه فى الوقت الذى كانت فيه الثورة العربية فى ذروتها فى الخمسينيات والستينيات كان الشاه والغرب يتحكمان فى إيران. وفى الوقت الذى اندلعت فيه الثورة الإسلامية فى إيران فى فبراير ١٩٧٩م كانت الثورة العربية قد انقلبت على نفسها فى السبعينيات وأصبحت معادية للثورة الإسلامية فى إيران لدرجة طعنها فى الظهر فى حرب الخليج الأولى، ثم طعن القومية العربية

نفسها فى حرب الخليج الثانية. فالثورة العربية والثورة الإسلامية لم تكونا متعاصرتين.

إن المخاطر الآن على العرب وإيران بعد قفز الولايات المتحدة إلى قلب آسيا وفوق أوروبا باسم مقاومة الإرهاب، وتصنيف العرب وإيران والمسلمين مع الإرهاب، والتهديد بضرب العراق وإيران من محور الشر. توحد بينهما أكثر مما تفرق. فإيران ومن ورائها آسيا هى العمق الإستراتيچى الشرقى للوطن العربى، كما أن أفريقيا هى أمنه الجنوبى. وتركيا أمنه الشمالى، وأوروپا محيطه الغربى. إن إيران هى بوابة العرب إلى آسيا الوسطى، والطريق إلى إندونيسيا وماليزيا. لذلك قامت مصر وإيران وتركيا ونيجيريا وماليزيا وإندونيسيا وغيرها من الدول الأفريقية الآسيوية بتكوين مجموعة الدول الأربع والعشرين، والتى أصبحت ثمانيًا وعشرين فى مواجهة مجموعة الدول السبعة أو الثمانية الصناعية فى تجمع إقليمى قادر على مواجهة العولمة. وطموح إيران من أجل فلسطين، تحرير مجمل أراضى فلسطين منذ ١٩٤٨م يفوق الطموح العربى. إزالة آثار العدوان فى ١٩٦٧م بعد المفاوضة والصلح والاعتراف بالكيان الصهيونى على ما يزيد على ثلاثة أرباع فلسطين.

وذلك يستدعى آليات جديدة للمواجهة. فإيران دولة أيديولوچية، وليست فقط ذات مصالح تتعاون مع دول أيديولوچية أيضًا. ومن ثم لزم توسيع مفهوم القومية العربية وإدخال دور الجوار فيها، تركيا وإيران. فالإسلام ثقافة العرب، والعرب قاعدة الإسلام. وإذا كان محمد كل العرب فكل العرب محمد، بدلاً من الاعتماد على أوروپا وأمريكا فى نصرة قضايا العرب والمسلمين. كما يتطلب ذلك تسامح إيران مع العراق فى حرب الخليج الأولى، ومع مصر فى مبادرتها للسلام وفى اعتمادها على الولايات المتحدة. ويستدعى فتح الحدود الثقافية والتجارية بين إيران والوطن العربى كدول للجوار. فلسنا أقل من الاتحاد الأوروپى فى صلاتنا التاريخية والثقافية. ولنبدأ بحوار الحضارات مع النفس قبل أن نبدأ به سويًا مع الآخر.

ولا توجد عقبات فعلية لا يمكن تجاوزها، فأمن الخليج مشترك بين إيران والعرب. والجزر الثلاث فى مدخل الخليج محافظات للتكامل بين الشعبين كما

كانت قبل غزو الشاه لها لبث الفرقة بين الشعبين. ومفهوم الحدود غربى خالص، والهوية الإسلامية لا تتحدد بالجغرافيا، البحر والمحيط، والساحل والجبل، بل بالفكر والعقيدة وبرابطة الأخوة الإسلامية كما وضح الأفغانى من قبل. والخليج هو الخليج، عربى أو إسلامى أو عربى إسلامى. ولا ضير أن يبقى اسمه التاريخى خليج فارس مثل بحر العرب. واسم شارع لا يساوى شيئًا بقى أم تغير أمام المخاطر المحدقة بالشعبين.

إنما العقبة هى الأوهام العربية تجاه إيران مثل تصدير الثورة. فقد كان ذلك فى أول الثورة، فى الجمهورية الأولى، كما كان فى أول الثورة العربية فى مصر، والتى أصبحت نموذجًا لثورات عربية أخرى فى العراق وليبيا واليمن على طريقة الضباط الأحرار. وفى الجمهورية الثانية فى إيران كانت المصالح القومية لها الأولوية على الأيديولوچيا الثورية الإسلامية. وفى الجمهورية الثالثة برز حوار الحضارات، والانفتاح الثقافى. والمساواة بين الشعوب والحرية للجميع جوهر الرؤية الإيرانية، كما يأتى وهم تأييد إيران للجماعات الإسلامية فى الوطن العربى - وإيران تعانى منها فى الداخل - وفى باكستان وأفغانستان مثل حكم طالبان. أما الأوهام الإيرانية تجاه العرب مثل وهم التبعية العربية لأمريكا والاعتراف بإسرائيل، فإنها سياسات الحكومات والأنظمة السياسية المتغيرة التى ولدت حركات شعبية مناهضة للتطبيع فى كافة أرجاء الوطن العربى وعداء شعبيًا للولايات المتحدة مثل الذى كان سائدًا فى الستينيات إبان حرب ڤيتنام. وكذلك وهم منافسة مصر لإيران على الزعامة فى المنطقة فإن الثورة العربية والثورة الإسلامية صنوان. أما وهم عداء الأنظمة العربية للحركات الإسلامية فإن نضال العرب من أجل التعددية السياسية وشرعية كل القوى والتيارات السياسية بما فى ذلك الحركة الإسلامية كفيل بتبديد مثل هذا الوهم.

* * *

٣ـ مصـــــــر وإيـــــران

حزن المفكر العربى على مدى ربع قرن أو أكثر على قطع العلاقات بين مصر وإيران منذ توقيع مصر على معاهدة كامب ديڤيد عام ١٩٧٨م بعد زيارة القدس فى نوڤمبر ١٩٧٧م واتفاقية السلام فى ١٩٧٩م. فمصر وإيران أكبر دولتين ـ مع تركيا ـ مؤثرتين فى المنطقة، مصر فى الوطن العربى وأفريقيا وآسيا، وإيران فى العالم الإسلامى خاصة فى أواسط آسيا. مصر قلب الوطن العربى وإيران قلب العالم الإسلامى. واستمرت القطيعة بالرغم من تغير الظروف والأحوال واستهدافهما معًا فى عصر الهيمنة الصهيونية من أجل خلق إسرائيل الكبرى والهيمنة الأمريكية من أجل خلق الإمبراطورية الأمريكية الجديدة. وبعد احتلال كل فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان يبدأ تهديد إيران ومصر وسوريا والسعودية وكل قطر عربى أو دولة إسلامية لم تدخل بيت الطاعة بعد وما زالت تمثل البديل فى عصر لا يقبل إلا انضواء الجميع تحت مظلة العولمة وقوانين السوق.

ويبدو أن تاريخ مصر وإيران الحديث قد أخذ مسارين متناقضين. ففى الوقت الذى كانت فيه مصر ناصرية فى الخمسينيات والستينيات تعادى الاستعمار والصهيونية وتقود حركات التحرر فى الوطن العربى والعالم الإسلامى والعالم الثالث كانت إيران تحت حكم الشاه المتحالف مع الغرب الاستعمارى والمناهض لحركات تحرر الشعوب، ويمثل أعتى نظام قهرى من خلال أجهزة الأمن. يطارد المثقفين والثوار، ويقيم الأحلاف السياسية والتحالفات العسكرية، محور الرياض ـ طهران ـ كراتشى فى مواجهة مصر وسوريا اللذين كانا يقودان المعركة ضد حلف بغداد، والحلف الإسلامى.

(*) جريدة الاتحاد: ٣١ يناير ٢٠٠٤م.

ثم انقلبت الآية! إذ انقلبت مصر من الثورة إلى الثورة المضادة فى السبعينيات والثمانينيات، واعترفت بعدو الأمس، إسرائيل، وتحالفت مع عدو آخر، الولايات المتحدة الأمريكية. وتخلت عن المشروع الناصرى الاشتراكى القومى إلى مشروع نقيض رأسمالى قطرى. فى حين اندلعت الثورة فى إيران فى فبراير ١٩٧٩م، وانقلبت إلى أكبر عدو للاستعمار الأمريكى، «الشيطان الأكبر»، دفاعًا عن حركات التحرر. وقدمت مشروعًا لتحرير فلسطين لكل فلسطين منذ ١٩٤٨م يتجاوز الحلم العربى الذى اقتصر على إزالة آثار العدوان فى يونيو - حزيران ١٩٦٧م، والذى مازال متعثراً حتى الآن فى فلسطين وسوريا ولبنان، واسترداد مصر لسيناء منزوعة السلاح، وفى صلح منفرد يفصل بين مصير سيناء ومصير الضفة الغربية وغزة والقدس والجولان وجنوب لبنان.

ثم تغيرت الظروف مرة أخرى وانتهى عصر الاستقطاب، وأصبح الوطن العربى والعالم الإسلامى مستهدفين. ولم تنجح محاولات التقريب بين مصر وإيران بالرغم من العديد من المساعى الحميدة من المفكرين الوطنيين والأئمة الثوريين من كلا البلدين. كل طرف يتمسك ببعض الأمور الشكلية أو التى تحتاج إلى حوار مشترك. فالسياسة الدولية لا تعرف الخصام على مدى عقود من الزمان، ولا تغلق الأبواب إلى الأبد. فقد طرقت الولايات المتحدة فى عصر نيكسون باب الصين. وأصبحت معظم الدول الأوروبية التى طالما نشأت بينها الحروب وكلفت عشرات الملايين من القتلى، أصبحت أعضاء فى منظمة إقليمية واحدة، الاتحاد الأوروبى، وتكوّن مجموعة اقتصادية واحدة، مجموعة الثمانى التى تمثل قلب العالم الصناعى والذى يسيطر على أكثر من ٨٠٪ من إنتاج العالم.

كان اسم الخليج هو الذريعة، عربى أم فارسى. وفى التاريخ خليج فارس. وبحر العرب وخليج عمان أجزاء من المحيط الهندى الآن، ولم ينشأ نزاع بين العرب والهند حول التسمية. ولماذا لا يسمى الخليج العربى - الفارسى أو الخليج الإسلامى؟ وهل المشكلة فى التسمية أم فى الواقع؟ فقد أصبح الخليج الأمريكى بعد وجود الأسطول الأمريكى فيه للعدوان على العراق وإيران وربما احتلال آبار النفط

كما فكر فى ذلك بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م أثناء الحظر. وهل المشكلة اسم شارع فى طهران؟ وهل يضحى بالمصالح العليا للبلاد من أجل أسماء الشوارع؟

صحيح أن هناك قضايا أصعب، ولكن ليست صعبة الحل. فملكية الجزر الخالية من السكان والثروات الطبيعية على مدخل الخليج المتنازع عليها بين إيران والإمارات، ومصر بالتزامها القومى والشرعية الدولية تؤيد الإمارات، يمكن أن تُرد إلى الإمارات طبقًا للشرعية الدولية بالمفهوم التقليدى بعد احتلال الشاه لها. ويمكن بالمفهوم العربى القومى والإسلامى التقدمى أن تصبح مناطق تكامل بين العرب وإيران ومكانًا للعيش والعمل المشترك كما كان الحال قبل احتلال الشاه لها ويمكن أن تكون قاعدة للأمن القومى العربى والإسلامى. فالأمن مشترك مع دول الجوار. ولا منافسة فى الزعامة على المنطقة. فكلتا الزعامتين يهددهما خطر مشترك واحد، الهيمنة الصهيونية الأمريكية. والأصلح لكلتيهما التعاون الأمنى على ضفتى الخليج وفى مدخله بل وفى شماله وجنوبه، وشرقه وغربه. ففيه وحوله يقبع أكبر مخزون نفطى فى العالم.

لقد خشيت الأنظمة العربية من مبدأ تصدير الثورة بعد أن ألهبت الثورة الإسلامية فى إيران خيال العرب والمسلمين فى كل مكان، قيادة إسلامية حازمة، وأيديولوچية إسلامية لصالح المستضعفين ضد الاستكبار العالمى، وملايين فى شوارع طهران تحاصر دبابات الشاه. أصبحت الثورة الإسلامية فى إيران نموذجًا للثورات مثل نموذج الثورة الفرنسية والثورة البلشفية والثورة الأمريكية والثورة العربية. لم يكن هناك مبدأ تصدير الثورة الذى يصطدم مع الدول الوطنية ونظم الحكم القطرية، ولكن الثورة كانت تسرى كالنار فى الهشيم بعد انقلاب الثورة العربية إلى ثورة مضادة، وكمون الثقافة الإسلامية داخل القومية العربية. طعناها فى الظهر على مدى ثمانى سنوات فى حرب الخليج الأولى بإيحاء من الولايات المتحدة الأمريكية ولكسر الجبهة الشرقية: سوريا والعراق وإيران، وارتعاش إسرائيل منها. بل أيد البعض منا العدوان العراقى على إيران بدعوى المحافظة على البوابة الشرقية للوطن العربى. وأيد البعض الآخر إيران بعد خيانة جناح حزب

البعث فى العراق. وأيد فريق ثالث الاثنين معًا ومدهما بالمال والسلاح اتقاء لشر العراق وإيران وأطماعهما فى ثروات الخليج. ولم يأت الخطر على الخليج من إيران بل من العراق فى حرب الخليج الثانية. ولم يتم تصدير الثورة الإسلامية فى الوطن العربى بعد أن ضعفت الجماعات الإسلامية وغيرت كثيراً من منطلقاتها الأيديولوجية فيما يتعلق بتكفير المجتمع، واستعمال العنف. وأصبح الذى يُصدر الآن هو العولمة والنموذج الأمريكى.

وتغيرت سياسات العرب كلهم تجاه إسرائيل بعد مبادرة السلام العربية، الأرض مقابل السلام، الانسحاب الكامل فى مقابل السلام الكامل. بل إن إسرائيل ترفض السلام مع الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين إلا بشروطها، وهى الاستحواذ على الأرض والسلام معًا فى مقابل أمن إسرائيل. وترفض خارطة الطريق، وتقيم جدار الفصل العنصرى العازل. وبدأت سياسات إيران تتغير بالنسبة لمشاريع السلام، وتقبل بما يقبل به الفلسطينيون والعرب. فلن تكون ملكية أكثر من الملك. ولا تعارض بين الدرع والرمح، بين مشاريع التسوية التى تقوم على الانسحاب من الأراضى المحتلة فى يونيو - حزيران ١٩٦٧م وبين الاستمرار فى النضال لتحرير كل فلسطين منذ ١٩٤٨م. فالسياسة هى استمرار الحرب بطريقة أخرى.

إن الأمن القومى العربى يتجاوز حدود الوطن العربى إلى دول الجوار. فالقومية العربية ليست محددة بالجغرافيا أو باللسان بل بالثقافة والأمن. فالثقافة الإسلامية تجمع بين العرب ودول الجوار فى أفريقيا «السوداء» وآسيا «السمراء». وفى الوقت الذى ينحسر فيه المد القومى العربى يتسع نطاق الصحوة الإسلامية فى أوروپا، الشرقية والغربية، وفى آسيا، إيران وأفغانستان وپاكستان وماليزيا وإندونيسيا وأواسط آسيا وجنوب الفيليبين بل وسنغافورة، وفى تركيا وتحولها الأخير بفضل سياسات حزب العدالة والتنمية بعيداً عن الهيمنة الأمريكية والتعاون التركى الإسرائيلى، والاقتراب من العرب وتفهم قضاياهم باسم المصلحة العليا لتركيا.

إن إعادة العلاقات بين مصر وإيران لهى بداية لانحسار المد الأمريكى الصهيونى على الوطن العربى والعالم الإسلامى، والتحرك من أجل سياسات بديلة لما هو

قائم الآن من رضوخ للإرادة الأمريكية واستجداء للإرادة الصهيونية، وحماية للأوطان من الاحتلال والحصار والتهديد، والانصياع كراهية طبقًا للنموذج العراقى أو طوعًا طبقًا للنموذج الليبى، واختيار الباقى بين سياسة العصا أو سياسة الجزرة.

وأمام الخطر النووى الإسرائيلى وامتلاكها أسلحة الدمار الشامل، وعدم توقيعها على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، ورفضها التفتيش على مؤسساتها النووية من الهيئة الدولية للطاقة الذرية، واستمرارها فى احتلال فلسطين وسوريا ولبنان، وتهديد إيران ومصر، يمكن لمصر أن تجد فى إيران خير حليف لها إذا ما وسّعت إسرائيل قاعدة العدوان من أجل إقامة إسرائيل الكبرى. وتستطيع إيران أن توقف الهيمنة الأمريكية على أواسط آسيا وإقامتها أكبر قاعدة عسكرية أمريكية فى قازقستان وقربها من نفط بحر قزوين، وحصار الصين وروسيا من الجنوب، وقضاءها على الصحوة الإسلامية فى آسيا. وتجد فى مصر العروبة عونًا على ذلك بما لديها من رصيد علمى وثقافى لدى المسلمين فى آسيا.

تستطيع إيران أن تجد فى مصر خير مؤازر لها فى مواجهة التهديد الأمريكى، وخير حليف لاسترداد الحقوق المشروعة لشعب فلسطين، وانسحاب قوات الاحتلال الأمريكى البريطانى من العراق، والأمريكى من أفغانستان، والهندى من كشمير، والروسى من الشيشان، والإسپانى من سبته ومليلية. فلا تشعر إيران بأنها وحدها التى تقاوم الهيمنة الأمريكية الصهيونية.

تستطيع مصر وإيران أن تضعا معًا استراتيجية جديدة مشتركة لمواجهة الأخطار والتهديدات المشتركة، الهيمنة الأمريكية الصهيونية على المنطقة، الحصار والتهديد، التجزئة العرقية والطائفية، نهب ثروات النفط، تبعية الأنظمة السياسية ... الخ.

تستطيع مصر وإيران أن تكونا جناحى تعاون إقليمى فى مجموعة الثمانى والتى قد تمتد إلى أربع وعشرين من دول آسيا وأفريقيا حتى لا تحتكر العولمة مناطق العالم، وتواجه بتجمعات إقليمية قادرة على منافسة مجموعة الثمانى الأكثر تصنيعًا، واعتماداً متبادلاً مع الخارج من موقف المساواة والندية.

تستطيع مصر وإيران أن تساهما فى تعزيز إمكانيات تكوين قطب ثان فى مواجهة القطب الأول حتى تتعدد الأقطاب، لا قطبًا واحدًا، ولا قطبين حتى يُرد إلى العالم توازنه بعد أن استولى على مقدراته قطب واحد، باسم العالم قرية واحدة، ثورة الاتصالات، صدام الحضارات، العولمة، نهاية التاريخ إلى آخر هذه الأساطير التى لا تختلف عن أساطير الشعب المختار وأرض الميعاد التى كونّت ولا تزال الكيان الصهيونى.

إن جيلًا جديداً بدأ ينشأ فى مصر وإيران فى حالة الخصام السائدة منذ ربع قرن أو يزيد تحت وهم التعارض بين العروبة والإسلام أو بين القومية العربية والثورة الإسلامية. وهما متكاملان متآزران. فالعروبة حاملة الإسلام، والإسلام ثقافة العروبة. واللغة العربية فى آسيا لغة الأشراف، وعمر الخيام والفردوسى وحافظ والشيرازى أعلام للثقافة الإسلامية ومبدعوها، كما قال الرسول ﷺ **«لو كان العلم فى الثريا لناله رجال من أهل فارس»**.

وليس من المعقول أنه قبل الثورات العربية الأخيرة فى الخمسينيات وقبل الثورة الإسلامية فى السبعينيات كان النظامان الملكيان فى مصر وإيران صهرين متعاونين، وأن الثورتين العربية أولاً والإسلامية ثانيا قد أصبحتا خصيمين.

إن العلاقات المصرية الإيرانية ليست فى حاجة إلى خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف بل فى حاجة إلى خطوتين إلى الأمام. وفيمَ الإبطاء وعجلة الزمان فى تسارع مستمر؟

* * *

٤- ســــوريا وتركيـــا

كما أن مصر وإيران تشكلان الرحى فى الوطن العربى والعالم الإسلامى فى الجناح الشرقى فكذلك سوريا وتركيا يشكلان الرحى فى الوطن العربى والعالم الإسلامى فى الجناح الشمالى. وقد تزامن بداية تطبيع العلاقات بين مصر وإيران مع بداية إعادة جو التفاهم والحوار بين سوريا وتركيا توسيعًا لمفهوم الأمن القومى العربى إلى دول الجوار فى الشرق والشمال، خاصة وأنها كانت عبر التاريخ جزءًا من كيان سياسى واحد، ابتداء من دولة الخلافة حتى العصر الحديث فى مؤتمر باندونج، ومنظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا، ومجموعة الأربع والعشرين الجديدة فى آسيا وأفريقيا فى مواجهة مجموعة الثمانى الأكثر تصنيعًا فى قلب العولمة.

لقد كانت سوريا جزءًا من الدولة العثمانية. وكانت دمشق أول عاصمة للخلافة، واستانبول آخرها. بل كان أبو الهدى الصيادى وهو سورى الأصل من أنصار الدولة العثمانية واستمرارها بما فيها من عيوب، القهر والتخلف، فى مواجهة الإصلاحيين وحزب اللامركزية وجماعة تركيا الفتاة.

وحافظت تركيا فى العصر العثمانى على التراث العربى الإسلامى. وبها أكبر قدر من المخطوطات العربية فى مسجدى أحمد الثالث والسليمانية. وبها نشأت أكبر حركة تجميع للتراث، عصر الشروح والملخصات والموسوعات الكبرى، حفاظًا عليه من الضياع بعد الغارات المستمرة على العالم الإسلامى من الشرق مرتين، التتار والمغول، ومن الغرب مرتين، الفرنجة أى الصليبيين والاستعمار الغربى الحديث.

(*) جريدة الاتحاد: ٧ فبراير ٢٠٠٤م، جريدة الزمان: ٢٧ يناير ٢٠٠٤م.

ومسار التاريخ يتحول ويتغير ويتبدل ولكنه لا ينقطع. فالتاريخ حركة مستمرة. ولا شيء فيه يضيع أو يتبدد. ويظل الموروث الثقافي قابعًا في الوعي التاريخي للشعوب. فما بين سوريا وتركيا هناك موروث ثقافي مشترك، الموروث العربي الإسلامي الذي استأنف الموروث اليوناني الروماني، مهما تبنت تركيا التيار العلماني منذ الثورة الكمالية في أوائل العشرينيات، ومهما تبنت سوريا التيار القومي قبل ذلك بقليل، نحو عقد من الزمان.

بدأت عوامل التفكك في الدولة العثمانية. فلم تكن لتستطيع بمركزيتها الشديدة السيطرة على أرجاء العالم الإسلامي من البلقان غربًا حتى الهند شرقًا. وبدأ اضطهاد الأقليات الداعية للانفصال هروبًا من الظلم العثماني، الأرمن في شرق الإمبراطورية وشعوب البلقان في غربها، وحركة القوميين العرب في جنوبها. وروسيا تريد أجزاء منها في الشمال في حرب القرم وفي الشرق في أواسط آسيا. والقوى الغربية الاستعمارية الكبرى تريد تقطيع أوصالها لالتهام أجزائها فيما عُرف في القرن التاسع عشر باسم «الرجل المريض».

نشأت حركة القومية العربية عن حق ضد المركزية العثمانية وكرد فعل على القومية الطورانية وهربًا من اضطهاد العثمانيين للحركة باعتبارها حركة انفصالية مثل باقي الحركات القومية التي لم تستطع الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف والمفككة من الداخل صهرها في دولة متعددة القوميات ومتساوية فيما بينها أو في ثقافة إسلامية واحدة توحد بين القوميات إذ «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح». وعلقت المشانق لقادتها في دمشق في أوائل العقد الثاني من القرن الماضي. وبدأت كتابات القوميين العرب بالفرنسية أولاً عن «الأمة العربية» ثم تعددت الكتابات بالعربية ثانيًا ابتداء من كتابات ساطع الحصري حتى ميشيل عفلق وصلاح البيطار وغيرهم.

بل لقد غالى بعض المؤرخين الأجانب أولاً والإسلاميين ثانيًا في الحكم على الحركة القومية العربية بأنها نشأت بمساعدة الغرب، خاصة بريطانيا، باعتبارها حركة انفصالية طالما تدعو إلى انفصال العرب عن الأتراك مما يضعف وحدة الأمة

الإسلامية. لذلك دعا الأفغاني إلى وحدة العرب والأتراك، ووحدة العرب والعجم، حرصًا على وحدة دولة الخلافة مع الدفاع عن اللامركزية للتخفيف من سلطة استانبول وتحقيق مطالب القوميات كحل وسط بين الانصهار والانفصال. فقد عاونت القوى الغربية على نشأة سلطة عربية ممثلة في معاهدة سايكس بيكو. وتفاوض الشريف حسين مع ماكماهون على نقل بعض أفراد العائلة المالكة من شبه الجزيرة العربية إلى الشام والعراق وتنصيب ملوك على الدولتين. وحارب لورانس مع العرب ضد الأتراك، بل لقد ادعى البعض أن فكرة الجامعة العربية فكرة بريطانية. وكانت المحصلة أن استبدل العرب بالمستعمر التركي المستعمر البريطاني بعد أن تخلت بريطانيا عن وعودها بإنشاء دولة عربية مستقلة إذا ما انفصل العرب عن الأتراك. وأعطت وعودًا أخرى، وعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود عام ١٩١٧م.

واستمر التوتر قائمًا بين سوريا، قلب العروبة الجديد، وتركيا إلى أن حدثت شبه قطيعة بين السلطنة والولاية، عندما اقتطعت تركيا القومية لواء الإسكندرونة وعاصمتها أطنة وضمته إليها في صحوة استرداد الأراضي الوطنية وطرد المستعمر اليوناني الذي كان على أبواب أنقرة. لذلك قام الضابط مصطفى كمال بالانقلاب على السلطنة عام ١٩٢١م دفاعا عن الوطن الأم، وألغى الخلافة بعدها. وأصبح الفضل للجيش وللقومية الطورانية والعلمانية في استرداد تركيا لكرامتها واستقلالها ووطنها ضد الإنكشارية والخلافة باسم الدين. وتصور كما تصور الغرب، أن العلمانية ضد الدين وهي جوهر الدين.

عادت سوريا تركيا عن حق، دفاعًا عن وحدة الأراضي الوطنية. وما فعلته تركيا مع سوريا فعلته مع العراق بضم أراضي ديار بكر والامتداد شرقًا مثل الامتداد جنوبًا، تعويضًا عن الانحسار غربًا من البلقان، وشرقًا في أواسط آسيا، وجنوبًا في مصر. بينهما فاصل البحر وليس امتداد البر. وكرد فعل على اقتطاع تركيا لواء الإسكندرونة قامت سوريا بتأييد الحركات الانفصالية الكردية بزعامة عبد الله أوجلان، وإفساح الأراضي السورية كمراكز للتدريب والقيادة وربما الإمداد بالسلاح والمال.

وازداد الخلاف بين سوريا ومعها الوطن العربى، وتركيا عندما أخذت تركيا سياسة التقرب إلى الغرب، واعتبار نفسها دولة أوروبية ما زالت تسعى إلى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، ورفض أوروبا لها للتمايز الثقافى بين الاثنتين، ولملفات حقوق الإنسان، وقضايا الحريات العامة، وضعف الاقتصاد التركى، وانخفاض العملة. فى حين أخذت سوريا سياسة مناهضة الاستعمار الغربى. ففرنسا ما زالت تحتل سوريا حتى الأربعينيات. والغرب ما زال يتدخل فى سياسات سوريا حتى ثورة الجيش الأولى فى أواخر الأربعينيات، وتبنى دمشق للقومية العربية، والعمل على إنشاء وحدة عربية فى دولة عربية كبرى جنوب تركيا وشرقها.

ثم اتسعت شقة الخلاف أكثر بالتحالف التركى الإسرائيلى فى غياب التقارب العربى التركى. فهما أمام عدو مشترك: الإرهاب العربى القومى أو الأصولى الإسلامى، واقتصادهما فى حالة النمو والتكامل. وإسرائيل قد تكون القنطرة التى من خلالها يتم تقديم أوراق اعتماد تركيا إلى الغرب من جديد. وتركيا عضو بحلف شمال الأطلنطى، وعلى أرضها قواعد عسكرية أمريكية، وإسرائيل رأس جسر الغرب فى الشرق، وترسانة عسكرية أمريكية. ويستطيع الطيران الإسرائيلى ضرب سوريا بالالتفاف عليها من الشمال من الأجواء التركية.

والآن، ألا يمكن تجاوز منطق الأفعال وردود الأفعال التى حكمت العلاقات السورية التركية فى القرن العشرين إلى علاقات أخرى تحكمها المصلحة المشتركة بين دول الجوار فى مواجهة الأخطار المشتركة؟

إن الدعوات الانفصالية الكردية تهدد الدول الوطنية فى سوريا وتركيا والعراق وإيران. والتطلعات القومية المشروعة للأكراد لا تتحقق بالضرورة بمنطق الانفصال والتجزئة اللذين يهددان المنطقة كلها لتحويلها إلى فسيفساء عرقية وطائفية كى تصبح إسرائيل هى أكبر دولة عرقية طائفية فى المنطقة، وتأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية المحلية بعيداً عن الأساطير المؤسسة للدولة الإسرائيلية مثل

أرض المعاد وشعب الله المختار، وكما تصورها هرتزل فى أواخر القرن التاسع عشر. ودولة كردية مستقلة لن ترضى عنها الدول الوطنية التى يوجد الأكراد فيها. إنما الحل الواقعى هو الحكم الذاتى أو الإقليمية داخل الدول الوطنية للمحافظة على الهوية الكردية لغة وثقافة وتقاليد وعادات وأعرافًا وفنونًا شعبية. والفيدرالية الإقليمية التى تقوم على اللامركزية وليس على الطائفة أو العرق نظام حكم وتجربة سياسية فى كل الدول المترامية الأطراف مثل الاتحاد السوڤييتى والولايات المتحدة.

وهى تجربة إسلامية وموقف شرعى بالأصالة كما هو معروف فى ميثاق المدينة الذى وضع أول دستور فيدرالى للأمة الإسلامية المكونة من عدة طوائف وأعراق، لكلّ كيانها المستقل ولغتها بل وقضاؤها وخصوصياتها فى حلف بينها ينص على المساواة فى الحقوق والواجبات وعدم العدوان، والتعاون على الخير. وهو ما سمى فى الدولة العثمانية خطأ النظام «المللى». فالأقوام ليست مجتمعات مغلقة، بل هى قوميات مفتوحة لغويًا وثقافيًا للتعارف فيما بينها وللإثراء المتبادل والتعاون لصالح الأمة الواحدة.

والخطر الآخر الهيمنة الأمريكية على المنطقة حتى تدخل كلها فى منظومة العولمة الجديدة، وهى أحد أشكال الهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية بل والعسكرية الجديدة، وتجاوز الشرعية الدولية والاستقلال الوطنى للشعوب. وقد استطاعت تركيا بفضل سياسات حزب العدالة والتنمية الوقوف أمام الرغبة الأمريكية فى استعمال أراضيها وأجوائها لغزو العراق من الشمال. ورفضت كل الإغراءات الأمريكية بالمال والسلاح واقتسام الغنائم والانضمام إلى الاتحاد الأوروبى فى سبيل الحفاظ على دور الجوار. وهى فى سبيل إيجاد توازن أكبر بين العرب وإسرائيل بمزيد من الابتعاد عن إسرائيل بالرغم من إغراءات التصنيع المشترك، والتعاون الاقتصادى، وشراء المياه، ومقاومة الإرهاب.

إن وطنية مصطفى كمال دفاعًا عن الوطن الأم ضد الاحتلال التركى لا تبتعد كثيراً عن الثورات الوطنية فى الوطن العربى مثل ثورة ١٩١٩م فى مصر. وقد ظلت الأحزاب الوطنية المصرية مثل الحزب الوطنى فى علاقة مستمرة مع تركيا حتى بعد

الثورة الكمالية. وما زال المؤرخون العرب يعيدون النظر فى تاريخ الدولة العثمانية بعد أن شوهه المؤرخون الغربيون، ويبينون مآثرها فى الدفاع عن استقلال الولايات فى المغرب العربى وفى أواسط آسيا وفى مصر واليمن. بل إن بانى مصر الحديثة، محمد على كان ألبانيًا من ولاية تركية أتى للدفاع عن مصر ضد الاحتلال الأجنبى. وبناء تركيا الحديثة بناء على النموذج الغربى لا يختلف كثيراً عن بناء الأقطار العربية الحديثة فى مصر والشام.

إن العلمانية التى كثيراً ما تتهم تركيا بها هى فى الحقيقة مقاصد الشريعة والمصالح العامة. فالشريعة «وضعية» تأسست ابتداء على المقاصد الخمسة للتشريع: الدفاع عن النفس أى الحياة، والعقل أى المعرفة، والدين أى المعيار الثابت للحقيقة، والعرض أى الكرامة الفردية والوطنية، والمال أى الثروة الوطنية. فالمصلحة أساس التشريع. وأينما تكون المصلحة يكون الشرع. وما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن.

وهناك جيل ناشئ فى سوريا والوطن العربى، وفى تركيا والعالم الإسلامى، يتجاوز الاستقطاب الشديد بين السلفية والعلمانية، بين الأصولية والحداثة، وهو التيار الإصلاحى الوطنى. يتجاوز السلطان عبد الحميد ومصطفى كمال فى آن واحد ليشق طريقًا جديداً هو الإسلام الوطنى والثقافة الوطنية التى تحفظ استمرار الشخصية الوطنية فى التاريخ فى سوريا وتركيا على حد سواء. لا فرق بين الوطن والإسلام. والعروبة هى الحاملة للثقافة الإسلامية. فليست العروبة بأب أو أم، إنما العروبة هى اللسان. والأتراك مثل الإيرانيين مولعون بالعربية، ويحنون إلى لحظات الانتصار فى الماضى البعيد لعلها تكون أملاً للحظات الانتصار فى المستقبل القريب.

* * *

٥- التعاون الإقليمى

تمخض الفكر العربى عن اجتهاد مفهوم جديد يقابل العولمة حتى لا يظل العرب فكريًا فى دائرة الغرب ويستقلون بمصطلحاتهم. وصك البعض مصطلح «العولمة البديلة» ظانًا أنه قد تخلص من المفهوم الغربى، وأبدع مفهومًا عربيًا. مع أنه ما زال يدور فى إطار المفهوم الغربى الأول وزيادة لفظ آخر عليه هو «البديل» مثل «النقيض»، و«الآخر»، و«المعكوس»، و«المضاد». فمهما تجرأ الفكر العربى فإنه يظل يدور فى إطار الفكر الغربى بتنويع على مفاهيمه، وشرح لنصوصه، وقلب لمصطلحاته. فقد أصبحت الثقافة الغربية إطارًا مرجعيًا من الضرورى الإحالة إليه مهما حاول المثقف اللاغربى التحرر منه، وإيجاد إطار مرجعى بديل.

إنما التحدى هو إيجاد مفاهيم تعبر عن مسار العرب التاريخى فى لحظتهم الراهنة. ولا ضير أن يتعامل أيضًا مع الحضارات المجاورة دون تبنى مسارها وترديد مصطلحاتها حتى لا يعيش العربى فى عصر ليس فيه، أو أن يتكلم لغة ليست نابعة منه، أو أن يدخل فى معركة ليس طرفًا فيها، أو أن يتبنى منظورًا ليس له، أو يمارس منظومة من القيم لا تمثله.

مثال ذلك «التعاون الإقليمى». ويعنى التبادل التجارى مع دول الجوار. فالأقربون أولى بالشفعة. والناس فى دول الجوار يتكلمون نفس اللغة، ويمارسون نفس المعتقدات، ولهم نفس العادات والتقاليد. ولهم تاريخ مشترك، ونسق متقارب من القيم. فلم تعد الدول الصغيرة اليوم قادرة على البقاء بمفردها أو تنمية مواردها بذاتها. يقال إن العالم أصبح قرية واحدة نظرًا لثورة الاتصالات، وتشابك

(*) جريدة الاتحاد: ١ نوفمبر ٢٠٠٣م.

المصالح، وتقسيم العمل. وقد يتسع هذا التعاون الإقليمي ويشمل أكثر من دولة. وقد يقتصر على دولتين أو ثلاث من دول الجوار كخطوات تدريجية نحو الوحدة الشاملة التي ظلت هدفًا أيديولوچيًا كليًا لعدة أجيال دون أن يتحقق منها شيء كثير، استمر ودام.

وقد نجحت بعض تجارب التعاون الإقليمي شكلاً ومضمونًا. كما توقف بعض التجارب الأخرى على الشكل دون المضمون، وتجارب ثالثة على المضمون دون الشكل، وتجارب رابعة لا شكل لها ولا مضمون.

فمن التجارب الناجحة نسبيا للتعاون الإقليمي في الشكل والمضمون هي تجربة «دولة الإمارات العربية المتحدة» دون ثناء أو تملق حيث اتحدت سبع إمارات، إذ ما كان يمكن لكل إمارة أن تعيش بمفردها. واحتفظت كل إمارة باستقلالها الإداري والمحلي. هناك حاكم للاتحاد، وحاكم للإمارة. وهو أشبه بالنظام الفيدرالي في الولايات المتحدة الأمريكية وفي المملكة المتحدة وفي ألمانيا وإسپانيا وفي كثير من الدول التي تجمع بين الوحدة والتنوع، بين المركزية واللامركزية.

ومن التجارب الأقل نجاحًا تجربة الجامعة العربية. إذ لم تحقق كل الآمال المرجوة منها بالنسبة لوحدة العرب الاقتصادية والسياسية. فقد تضاربت المصالح القطرية فيما بينها على حساب المصالح القومية، وأصبحت تمثل الحد الأدنى من اتفاق العرب في «بيت العرب». انقسم أعضاؤها في مؤتمر القمة عام ١٩٩١م الذي شرع نصفه بفارق صوت أو صوتين للتدخل الأمريكي لغزو العراق. ولا يزال البعض يريد تحويلها لتفعيل نشاطها إلى جامعة للشعوب العربية، والبعض الآخر يحيد بوجهه عنها، ويتجه إلى الاتحاد الأفريقي الذي يجد فيه بغيته. وفريق آخر يدعو إلى إلغائها كلية، كما تم إلغاء «الرجل المريض»؛ إذ إنها مجموع الإرادات العربية العاجزة، بالنسبة إلى العدوان الإسرائيلي على الضفة والقطاع والعدوان الأمريكي على العراق والتحرش بسوريا. ومع ذلك تعمل منظماتها الفرعية مثل الأليكسو، والعلوم الإدارية والتعليم والأكاديمية البحرية، وتلقى احترامًا ملحوظًا لدى الدول الأعضاء أو غير الأعضاء.

ومثلها منظمة مؤتمر الدول الإسلامية فى جدة الذى يضم ما يفوق الخمسين دولة. يمثل الدولة فى الغالب رؤساء الدول أو رؤساء الوزارات أو وزراء الخارجية أو وزراء الأوقاف وعلماء الدين ومشايخه. يكررون فيه القواعد الإصلاحية العامة التى نكررها منذ أكثر من قرنين، وتعبر عما ينبغى أن يكون دون أن تواجه ما هو كائن. وعلى أكثر تقدير ترمم الآثار، وتنشر المخطوطات وتعلم اللغات. أما سياسيًا فهى عاجزة عن دفع العدوان عن فلسطين والعراق والشيشان وكشمير.

ومثلها منظمة دول عدم الانحياز التى لا تزال تعيش عصر حركات التحرر الوطنى. تعطى خطابة أكثر مما تعطى فعلاً. معظمها مثقل بالديون الخارجية. وكذلك منظمة تضامن شعوب أفريقيا وآسيا إلا من بقايا ذكريات للحلم القديم، عصر حركات التحرر الوطنى، والتى كان يدعمها الاتحاد السوفييتى قبل أن ينهار.

ومثلها مجموعة الأربع عشرة ـ التى فاقت الآن العشرين ـ المكونة من بعض الدول الأفريقية والآسيوية مثل: إندونيسيا، ماليزيا، إيران، تركيا، مصر، نيجيريا. . . إلخ لمواجهة مجموعة الثمانى الأكثر تصنيعًا، ومقاومة ضغوط البنك الدولى وصندوق النقد أو «النكد» كما يصفه أحد الرؤساء. وتعطى مجرد خطابة وإعلان نوايا. ولم تتحول إلى مشروعات صناعية مشتركة أو إلى زيادة فى التبادل التجارى إلا من خلال العلاقات الثنائية أو إلى سوق مشتركة فى مواجهة السوق الأوروبية والسوق الأمريكية.

ومن تجارب التعاون الإقليمى الذى اقتصر على الشكل دون المضمون تجربة الاتحاد المغاربى الذى يضم المغرب والجزائر وتونس وليبيا، ومصر كمراقب. فلا وجود له إلا فى الإعلانات والبيانات والتصريحات. تختلف دوله فى قضايا رئيسية مثل الخلاف بين الجزائر والمغرب على قضية الصحراء، ونزاع الحدود لدرجة غلقها بين الدولتين الجارتين لعشرات السنين. مع أنه فى حالة تفعيله يمكن أن يكون جسراً بين العرب وأوروبا، يربط بين شاطئيه فى الشمال والجنوب. ويمكن أيضًا أن يكون جسراً بين شمال أفريقيا ووسطها عبر الصحراء، بين أفريقيا العربية وأفريقيا الزنجية. وهو ما حاولت ليبيا القيام به بمفردها دون الاتحاد وجعل رسالتها أفريقية أكثر منها عربية.

أما التجارب التى حققت المضمون دون الشكل فهى لجان التنسيق بين مصر وجاراتها القريبة أو البعيدة مثل اللجنة العليا للتنسيق بين مصر وليبيا، مصر وتونس، مصر والجزائر، مصر والمغرب، مصر وسوريا، مصر والأردن. ويتلخص فى زيادة الميزان التجارى من حيث الاستيراد والتصدير، والشركات الاستثمارية المشتركة، وتبادل الخبرات والمعلومات. وظلت على مستوى رؤساء الوزارات أو رؤساء الدول ورجال الأعمال دون تخطيط شعبى شامل من الغرف التجارية والنقابات المهنية. ومصر هى الطرف الدائم، الدولة القاعدة فى غياب تجارب وحدوية أخرى أو أشكال أخرى من العمل القومى.

ومن التجارب التى لا شكل لها ولا مضمون مجلس التعاون العربى الذى كان بين مصر والعراق والأردن واليمن. حيّاه الرؤساء الأربعة. وتوقف المجلس عن العمل، ولم يظهر له أى نشاط؛ لأنه كان على مستوى الرؤساء وليس على مستوى الشعوب. والعراق كان يخطط لمشروعاته الخاصة مثل غزو الكويت بعد العدوان على إيران، وانتهى بمجرد قيامه نظرا لعدم التواصل الجغرافى بين دوله.

ومنها أيضًا تجربة السوق العربية المشتركة. فقد وُقّعت اتفاقية إنشائها فى أوائل الخمسينيات، وظلت حبيسة الأدراج. ولم تر النور فى أى من بنودها. وظلت السوق مجرد اجتهادات شخصية بين دولتين فى اتفاقيات ثنائية كما يتم بين الدول العربية. وبقيت حلمًا للعرب، ونداءات للرؤساء، وتمنيات للجميع. فما يزال حجم التجارة بين العرب يقارب ٧٪ فى حين أن حجم تعاملهم مع أوروپا وأمريكا يقارب ٧٠٪ من مجمل التجارة الخارجية.

الأفضل فى مثل هذه الحالات تجربة التعاون الإقليمى بين دول الجوار فى مجموعات أكبر. فبدلاً من مجموع اثنتين وعشرين دولة عربية تكون هناك أربع مجموعات فقط. الأولى فى الجنوب: مصر والسودان وجيبوتى. وتمثل اتصالاً جغرافيًا وعمقًا تاريخيًا، وتقوم على صلات رحم وتعاون مشترك. وكل منهما امتداد طبيعى للآخر. وقد تشترك مصر فى التجمع المغربى نظرًا لوجودها الجغرافى فى شمال أفريقيا.

والثانية فى الغرب: اتحاد المغرب العربى الذى يضم المغرب والجزائر وتونس وليبيا، وبينها أيضًا قرابة ونسب ومصاهرة. يجمعها تاريخ مشترك فى الاستعمار والتحرر، وامتداد جغرافى متصل، وعادات وتقاليد وأعراق واحدة. وتمثل كتلة واحدة فى مقابل أوروپا، وكلتاهما على شاطئى البحر الأبيض المتوسط.

والثالثة فى الشمال: اتحاد الشام. ويضم سوريا والأردن ولبنان وفلسطين والعراق، فى امتداد جغرافى واتصال تاريخى. وقد أراد الاستعمار قيامه لحسابه فى مشروع «الهلال الخصيب» القديم. كما كان أحد مشاريع الحزب القومى الاجتماعى السورى؛ لعمل تكتل عربى دفاعًا عن فلسطين بزعامة سوريا بعيداً عن مصر الأفريقية.

والرابعة فى الشرق حول شبه الجزيرة العربية فى الطرف الشرقى الذى يشمل دول الخليج، والجنوب الذى يشمل عمان واليمن. وقد كانت وحدة شبه الجزيرة العربية مطلبا منذ نشأة الإسلام كدولة قاعدة توحد العرب: شعبًا وثقافة. وقد يشترك العراق فى تجمع الشمال والشرق.

على الأقل يحتاج العرب إلى شىء يشبه «الاتحاد الأوروپى» فى شمال البحر الأبيض المتوسط، بقوانينه ونظمه وأسواقه وسهولة الاتصال بين دوله، بعد أن أصبح بؤرة لضم أوروپا الشرقية والشمالية وليس الغربية وحدها. والعرب أوروپا الجنوبية وأوروپا عرب الشمال. يحتاج العرب إلى «شنجن» عربى يسمح للمواطن أن ينتقل بين الأقطار العربية دون تأشيرات ورقابة على الحدود خاصة إذا كان فلسطينيًا. فهو أيضًا فى ظل أجهزة الأمن العربية إرهابى يخشى منه.

بدلًا من الانتظار والسير فى المكان يمكن تحقيق تكامل بين الأقطار العربية فى الزمن الضائع. ولا يتأجل التعاون الإقليمى حتى يتم تحرير فلسطين والعراق. فقد بنت روسيا نفسها فى الداخل، وقامت بثورتها الاشتراكية فى الداخل، ودافعت عن استقلالها الوطنى ضد العدوان النازى عليها من الخارج. يكفى أن تصدر أفعال فى مؤتمرات القمة العربية الدورية من أجل خلق شبكة مواصلات عربية، واقتصاد

عربى متكامل بالطبيعة بين الثروة فى الشرق، والعمالة والأرض فى الجنوب، والعروبة والقومية فى الشمال، والإسلام والعروبة والوطن فى الغرب.

حاول العرب تجمعا اقتصاديا فى الهيئة العربية للتصنيع ثم انفضت بعد غزو العراق للكويت. كما حاولوا تجمعًا سياسيًا فى «الجمهورية العربية المتحدة» أول تجربة وحدوية فى تاريخ العرب الحديث ثم انفضت بعد الانفصال. وحارب اليمن من أجل الحفاظ على وحدة الشمال والجنوب، كما حارب إبراهام لنكولن. والتعاون الإقليمى بديل عن الوحدة الشاملة والقطرية التجزيئية. ويتم ذلك بفعل صامت لأجيال قادمة دون ما حاجة إلى صوت عال للاستهلاك المحلى فى لحظات العجز.

* * *

ثامنًا: العرب وأوروپا

١- حوار الحضارات بين منظمة المؤتمر الإسلامى والاتحاد الأوروپى.

٢- الانسداد فى الخارج والانفتاح على الداخل.

٣- العرب وأوروپا: من يساعد من؟

٤- هل تستطيع النظم السياسية أن تحكم بمفردها دون شعوبها؟

٥- فتنة الحجاب.

٦- المسلمون فى هولندا.

حوار الحضارات

بين منظمة المؤتمر الإسلامى والاتحاد الأوروبى

لأول مرة فى تاريخ المنظمتين: منظمة المؤتمر الإسلامى والاتحاد الأوروبى، تعقد ندوة مشتركة بينهما حول الحضارات بعنوان «وئام الحضارات، البعد السياسى»، وفى استانبول عاصمة الخلافة، تركيا وريثة الإمبراطورية العثمانية وحلقة الاتصال بين الشرق والغرب على ضفاف البوسفور فى آخر قصر سكنه السلطان عبد الحميد، قصر شيرجان، حضره ما يزيد على إحدى وسبعين دولة ممثلة بوزراء خارجيتها فى ١٢-١٣ فبراير الشهر الماضى، مع ممثلين للمنظمات الدولية مثل منظمة الأمم المتحدة، والوحدة الأفريقية، وجنوب شرق آسيا، والحلف الأطلنطى، والجامعة العربية، وأمام مئات من الشخصيات العامة والإعلاميين وقنوات الفضاء الدولية.

ودارت الجلسات على مدى يوم ونصف. فى نصف اليوم الأول تحدث وزراء الخارجية باسم دولهم عن أهمية حوار الحضارات. وركز وزراء الخارجية العرب والمسلمين على أهمية القضية الفلسطينية ومحوريتها فى حوار الحضارات، وضرورة حل الصراع العربى الإسرائيلى، والقضاء على جذور الإرهاب. وكانت الكلمات مكررة ورسمية ومعادة، ولا تحتوى رؤية ولا اختراقًا جديداً، ومعدة سلفًا، دبلوماسية محسوبة طبقًا لسياسة الدولة الرسمية. وكانت كلمات وزراء الخارجية الأوروبيين عامة لا تحتوى على شىء محدد، ولا تسير فى اتجاه خاص. فالعام غير ملزم. والخاص يقتربون منه عن بعد طبقًا لميزان القوى.

(*) جريدة الاتحاد: ٨ يونيو ٢٠٠٢م، جريدة الزمان: ٣٠ مايو ٢٠٠٢م.

ثم عقدت ثلاث جلسات لثلاث ورش عمل حول المضمون. شارك فى كلّ منها بالإضافة إلى وزيرين للخارجية مفكران، حسن حنفى من مصر، وإدوارد سعيد من فلسطين، والذى اعتذر فى اللحظة الأخيرة لظروفه الصحية، ومحمد فانتار من تونس وأستاذ كرسى حوار الحضارات بالجامعة التونسية، وبرنار لويس المستشرق المعروف بكتاباته عن العنصرية من جامعة برنستون، وتييرى دى مونبريال أستاذ التاريخ فى فرنسا.

وكان لقاء بين رجال السياسة ورجال الفكر، بين رجال الدولة ورجال القلم. وكان الحديث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والتركية مع ترجمة فورية.

كانت ورشة العمل الأولى حول مواجهة التحديات الرئيسية فى الوضع الراهن شارك فيها كمال خرازى وزير خارجية إيران، وأحمد ماهر وزير خارجية جمهورية مصر العربية، وبرنار لويس أستاذ التاريخ بجامعة برنستون، وحسن حنفى أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة. وبدأ العلماء بوضع الإشكال قبل الديپلوماسيين. وقد بين حسن حنفى أهمية الفكر الملتزم بقضايا العصر، وأهمية تحليل التجارب الشعورية بعيداً عن النظريات المجردة والجداول الإحصائية، وعرض سبعة تحديات معاصرة. الأول صراع الحضارات. فقد عبر هنتنجتون عما مارسه الغرب طوال تاريخه دون الاعتراف به، فقد قضى على شعوب نصف الكرة الغربى وثقافاتها ولغاتها وجعلها تتكلم الفرنسية والإنجليزية فى الشمال، والإنجليزية فى الوسط، والإسپانية والبرتغالية فى الجنوب. كما أصبحت أفريقيا فرانكوفونية وأنجلوفونية. والهند تتكلم الإنجليزية، لغة توحيد القارة. والفيليپين اسمًا لغة إسپانية. وأرادت فرنسا أن تجعل الجزائر فرنسية. كان القضاء على الثقافات المحلية هو الضامن لاستقرار الاستعمار. فالتحديث يعنى التغريب منذ الاستعمار التقليدى حتى شكله الحديث فى العولمة.

والتحدى الثانى هو العولمة بعد عصر الاستقطاب، وبروز العالم ذى القطب الواحد الذى يستفرد بالعالم، ويجهض أية إمكانية لقيام قطب ثان فى آسيا بالعدوان على أفغانستان، ومحاصرة الصين وروسيا، وإقامة قواعد عسكرية فى جمهوريات آسيا الوسطى، وتهديد الثورة الإسلامية فى إيران، والنووى فى پاكستان،

وحصارها بين تهديد الهند من الشرق وإسرائيل من الغرب، وإجهاض النهضة الصناعية فى ماليزيا وإندونيسيا، والاستيلاء على أسواق اليابان وكوريا الجنوبية وهونج كونج وسنغافورة، واستكمال حصار العراق من الشرق، وتهديد الوطن العربى كله. تتجمع الدول الصناعية الثمانى وتتوحد الشركات المتعددة الجنسيات فى المركز فى حين تتجزأ الأطراف وتتشرذم الدول من دول وطنية إلى دول طائفية حتى تصبح إسرائيل أقوى دولة طائفية فى المنطقة. ويعلن عن نهاية التاريخ وكأن الزمن قد توقف، وأن الرأسمالية هى النظام الأبدى للعالم حتى آخر الزمان. وعلى الدول أن تتنحى عن سيادتها الوطنية لصالح المنافسة غير المتكافئة الأطراف. والعالم قرية واحدة. وتكنولوچيا الاتصال قد وحدت العالم، فأصبحت العولمة غطاء شرعيًا للنظام الرأسمالى العالمى الجديد. فكان من الطبيعى أن تندلع مظاهرات سياتل ولندن وپاريس وبراج وجنوة ضد العولمة. وكان من الطبيعى أن تقع حوادث سبتمبر فى نيويورك وواشنطن ضد رموز الهيمنة الاقتصادية والعسكرية.

والتحدى الثالث هو القوة دون العدل؛ إذ تتصدى الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها لتحديات العصر. فهى القاضى والجلاد، الخصم والحكم، فوق القوانين والمنظمات الدولية. وتقسم العالم إلى فريقين من معها ومن ضدها، من مع الإرهاب أو ضده. وتمارس المعيار المزدوج. فالمقاومة الفلسطينية والكشميرية إرهاب، وإرهاب الكيان الصهيونى ورفض الهند تطبيق قرارات الأمم المتحدة حول حق تقرير المصير للشعب الكشميرى ليس إرهابًا.

والتحدى الرابع هو وصف كل حركة مقاومة بأنها إرهاب مثل ما حدث فى واشنطن ونيويورك فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م دون ذكر ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠م وقت اندلاع الانتفاضة الفلسطينية وقمع الاحتلال الإسرائيلى لها، سبتمبر الثانية رد فعل على سبتمبر الأولى خاصة بعد أن رفضت أمريكا وإسرائيل فى مؤتمر ديربان العام الماضى الاعتذار عن أخذ ملايين من الأفارقة أسرى ثم عبيدًا إلى أمريكا، ورفض مساواة الصهيونية بالعنصرية بعد كل ما فعلته ضد الشعب الفلسطينى. وتم ربط العنف بالإسلام مع أن القتال بين الپروتستانت والكاثوليك فى أيرلندا الشمالية بين مسيحيين، والقتال بين الهنود والتاميل فى سيريلانكا بين هندوس، وعنف جماعة

يونيتا ليس أمنيًا بل سياسيًا لاستقلال الباسك، ووصف الجهاد بأنه إرهاب مع أنه دفاع عن النفس فى حالة عدوان الغير.

والتحدى الخامس هو الاستعمار الاستيطانى واحتلال الأراضى فى فلسطين واحتلال سبته ومليلية فى شمال المغرب من إسپانيا، واحتلال كشمير من الهند من بقايا الاستعمار القديم، فبعد تحرر جنوب أفريقيا من الاستعمار العنصرى بقى أن يتحرر ما تبقى من الاستعمار الأوروبى الحديث حتى تعيش جميع الشعوب حرة مستقلة على مستوى الندية حتى تستطيع أن تبدأ حوار الحضارات بين أكفاء.

والتحدى السادس هو الفقر ليس فقط داخل الدولة الواحدة بل أيضًا فى العلاقات الدولية، بين الدول الغنية والدول الفقيرة؛ إذ إن ٥٪ من سكان العالم يستهلكون ٧٥٪ من ثروات العالم. وأغنى أغنياء العالم من المسلمين وأفقر فقرائهم أيضًا من المسلمين.

والتحدى السابع والأخير هو إضافة الإعلان العالمى لحقوق الشعوب إلى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، حق تقرير المصير لكل شعب مثل حق الإنسان فى الكرامة، وإضافة الإعلان العالمى لواجبات الإنسان. فكل حق يقابله واجب، وكل واجب يقابله حق.

وكانت ورشة العمل الثانية «السياسة والإعلام» برئاسة عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية الذى نبه على عدم جواز قصر حوار الحضارات على الإسلام والغرب، وضرورة حضور الحضارات الصينية والهندية حتى لا يبدو الغرب متحيزًا ضد الإسلام باعتباره عدوًا فى حاجة إلى استئناسه أو مقاومته. ومن الضرورى أيضًا التخلى عن الصور النمطية التى رسمها الغرب للإسلام وربطه بالإرهاب والعنف، وهو الذى ارتبط سابقًا بالعلم والعقل والحضارة والمدنية والعمران قبل العصور الحديثة فى الغرب.

وكانت ورشة العمل الثالثة «الآخر»، هل يوجد الآخر بالفعل؟ فالحوار بين طرفين، الأنا والآخر، فالآخر موجود بالفعل: الجار والصديق والحليف. والعدو من خلق الذات، عندما يعتبر الأبيض الأسود عدوًا، والغنى الفقير عدوًا. فخلق

العدو نوع من الدفاع عن الذات. والآخر فى الحقيقة هو الوجه الآخر للذات، حوار النفس مع ذاتها طبقًا للقاعدة الذهبية «عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به» ضد المعيار المزدوج، تبرئة النفس وتجريم الآخر.

وكانت المناقشات فى الغالب تدور بين دول آسيا وأفريقيا، بين الشعوب العربية والإسلامية فى غياب شبه كامل للأوروبيين مع أن أوروبا هى موطن الحوار، وهى التى تزهو بالديموقراطية التى تقوم على الرأى والرأى الآخر. يبدو أن القوى لا يُحَاوَر، وأن الضعيف هو الذى بحاجة إلى الحوار. ومن بيده المال والسيادة لا يُحَاوَر، ومن يحتاج إلى العون الاقتصادى والسياسى هو الذى يعلى صوته بالحوار.

وكالعادة عندما يجتمع العرب والمسلمون مع الآخر يكتشفون، أن ترتيب البيت من الداخل يسبق ترتيب البيت من الخارج، إذ يعانى العرب والمسلمون من غياب الحوار بينهم وبين أنفسهم. يسودهم الرأى، رأى الحزب الحاكم، وتضعف لديهم المعارضة، تهميشًا أو تجريمًا أو إقصاء. ولا يزالون يصارعون من أجل حق الاختلاف، والرأى والرأى الآخر. فى حين أن الغرب الذى يبنى حضارته على الحوار فى الداخل وشرعية الاختلاف، والأغلبية والأقلية يتوحد ضد الخارج، وله رأى واحد يعبر عن مصلحته إزاء الخارج طبقًا لازدواجية المعايير.

والسؤال هو: ما هى النتائج العملية لمثل هذا الحوار الرسمى بين المنظمتين الكبريين؟ هل المقصود رد الاعتبار للثقافة العربية الإسلامية بعد أن تم ربطها بالإرهاب والعنف والتعصب؟ هل هى محاولة إيجاد فسحة من العمل أمام احتكار الولايات المتحدة للعمل السياسى والفكرى فى قضايا العرب والمسلمين؟ هل تأكيد الجوار والمصالح المشتركة حول البحر الأبيض المتوسط، شماله وجنوبه وشرقه وغربه لتكوين قطب ثان فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية؟ هل هى رغبة من تركيا أن يكون لها دور على الصعيد الدولى كحلقة وصل بين الشرق والغرب لعل أوروبا ترضى عنها وتقبلها عضواً فى الاتحاد الأوروبى، ولعل العرب والمسلمين يقبلونها كجزء من تاريخهم بالرغم من الثورة الكمالية واختيارها العلمانى التقليدى للغرب، استبدال نقل بنقل، وتقليد بتقليد؟

٢- الانسداد فى الخارج والانفتاح على الداخل

فى حياة الدول والأفراد وكل الكائنات الحية يتحقق التوازن فى جدل الداخل والخارج والتفاعل بينهما. وأى خلل فى هذا التوازن بين الكائن الحى والبيئة المحيطة يصيبه بالضعف والهزال.

وهناك احتمالات أربعة فى جدل الداخل والخارج:

الأول: انفتاح فى الداخل وانسداد فى الخارج، وهما النظم السياسية التى تقوم على المعايير المزدوجة: الحرية والديموقراطية فى الداخل، والقهر والتسلط فى معاملتها مع الخارج، والدفاع عن الأوطان فى الداخل والاعتداء على الشعوب فى الخارج، زيادة الثروات فى الداخل واستنفاد ثروات الشعوب فى الخارج. ومثال ذلك النظام الأمريكى الذى يدعى تمثيل «العالم الديموقراطى الحر» فى الداخل ويفرض نموذجه ونمط حياته وإرادته ومصالحه على الخارج بقوة الإعلام والسلاح وبالأحلاف العسكرية واستغلال المنظمات الدولية والتعاون مع النظم التابعة أو العميلة له فى الخارج.

والثانى: النموذج النقيض، انسداد فى الداخل وانفتاح فى الخارج، وهما طبيعة النظام التسلطى الذى يبنى الدولة فى الداخل بالاستعارة من الخارج، دولة المستبد العادل أو المستبد المستنير، دولة بسمارك فى ألمانيا ومحمد على فى مصر. وكان حلمًا يراود الأفغانى أحيانًا إنقاذًا للدولة العثمانية ونظام الخلافة. فإذا استعصى القضاء على الاستبداد فعلى الأقل يتحقق العدل. وقد يضيف البعض الجمهورية

(*) جريدة الاتحاد: ١ مارس٢٠٠٣م.

الأولى فى مصر إبان العهد الناصرى، نظام الحزب الواحد فى الداخل مع تقييد للحريات، والانفتاح فى الخارج بالتعاون مع الشرق والغرب، والدخول فى لعبة التوازن الدولى فى عصر الاستقطاب، وتكوين كتلة ثالثة جديدة منذ باندونج حتى بلجراد، دول عدم الانحياز، لا شرقية ولا غربية، والتى تضم كل الدول المتحررة حديثًا فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

والثالث: انفتاح فى الداخل وانفتاح على الخارج. انفتاح فى الداخل بالحريات العامة والنظم الديموقراطية. كان هذا عصر بركليس والإسكندر الأكبر، عصر الديموقراطية الأثينية والفتوحات. وهو العصر الإسلامى أيضا، حريات فى المدينة فى الداخل وفتوحات فى الخارج، عصر الخلافة الراشدة، وعصر المأمون فى بغداد. وقد يضيف البعض لبنان حاليا، حريات فى الداخل وتفاعل إيجابى مع الخارج. وقد ينتسب الليبرالى إلى هذا النموذج عندما يحن إلى العصر الليبرالى بعد ثورة ١٩١٩م، حريات فى الداخل بالرغم من القصر، وتفاعل فى الخارج بالرغم من الاحتلال.

والرابع: النموذج النقيض، انسداد فى الداخل وانسداد فى الخارج، وهما لحظات الانهيار المطلق والنهاية الحتمية للأفراد والدول. فعندما يعجز الفرد عن التحرك فى العالم وتعجز وظائف البدن عن العمل فى الداخل يقترب الموت. وإذا ما عجزت الدول عن التحرك فى الخارج والتحالف فى الداخل تنهار النظم، ويكون فى ذلك نذير بنهاية الدولة والدورة الحضارية وإيذان بميلاد دورة حضارية جديدة لدى نفس الشعب بالثورة أو لدى شعوب أخرى ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. وتلك حالة نظام فرعون عندما يتأله فى الداخل ويتكبر فى الخارج. يعبده شعبه، ولا يستمع إلى رسالة الأنبياء.

وهذا النموذج الرابع هو السائد الآن فى النظم العربية العاجزة، الانسداد فى الخارج، والاستسلام للإرادة الأمريكية للعدوان على العراق، وتأييد الكيان الصهيونى. فالحرب قادمة لا مفر منها. فمن الأفضل للعرب الدخول فى التحالف

الأمريكى البريطانى. بل إن الهجوم على العراق سينطلق من الجنوب، حيث القواعد الأمريكية ومراكز القيادة حفاظًا على النظم السياسية والإبقاء عليها، وربما من الشمال أيضًا بعد دفع الثمن. فأمريكا هى القطب الأوحد الذى يملك السلاح والمال والعلم والإعلام، وهى مركز العالم الجديد بعد نهاية عصر الاستقطاب، وهى التى تفرض قوانين السوق باسم العولمة ومنظمة التجارة العالمية، واتفاقية الجات، ورفع الحواجز الجمركية فى البلاد المستوردة حتى يمكن تصدير المنتجات الصناعية لمجموعة الثمانى الأكثر تصنيعًا. وماذا يستطيع العرب أن يفعلوا أمام هذا الانسداد فى الخارج إلا أن يسرعوا لركوب القطار، والانضواء تحت لوائه، والرضا بقدره، والتعايش معه من أجل البقاء.

وانسداد فى الداخل ممثلاً فى قهر الشعوب، وقهر المعارضة، والتحالف مع الخارج ضد الداخل، وقمع المظاهرات ضد العدوان الأمريكى على العراق والدفاع عن فلسطين، وتزوير الانتخابات وفساد الحزب الحاكم، وتهريب الأموال، وتبرير الإعلام السياسى والدينى للوضع القائم، وتعويم العملة الوطنية، وضرب التعليم الوطنى لصالح التعليم الخاص، وتوريث الحكم، والتخلى عن الواجبات القومية، وعموم الفقر، وبطر الغنى، وازدياد البون الشاسع بين الأغنياء والفقراء، والأحكام العرفية، وقوانين الطوارئ. وآلاف المعتقلين السياسيين من كل الاتجاهات، وانتهاك حقوق الإنسان، وانتشار الرشوة وكل مظاهر الفساد الأخلاقى.

فإذا كان الانسداد فى الخارج يصعب التخلص منه وفك حصاره بالرغم من إمكانية التعاون الإقليمى والاعتماد المتبادل بين دول الجوار، والصمود فى وجه الضغوط الخارجية، والحفاظ على الاستقلال الوطنى فلماذا يكون الانسداد فى الداخل أيضًا؟ لماذا كلما اشتد الحصار فى الخارج لا يتم الانفتاح على الداخل احتماء بقوة الشعوب، وتحصنًا وراء حركة الجماهير؟ لماذا الوقوف أو اللعب فى الوقت الضائع حتى تنحل الدول وتأسن المياه؟

إذا استمر الانسداد فى الخارج وكان واقعًا لا وهمًا فإنه يمكن الانفتاح على الداخل بالتحول إلى الشعوب، والسماح بحريات الأفراد، وتأسيس

الديموقراطية، وإقامة التعددية الحزبية. وتكوين جبهة وطنية واحدة تصوغ برنامجًا للإنقاذ الوطنى. وبدلاً من أن تكون نظم الحكم محاصرة بين المطرقة والسندان، بين مطرقة القوى الأجنبية وسندان حركة الجماهير فإنها تنضم إلى حليفها الطبيعى فى الداخل فى مواجهة عدوها الطبيعى فى الخارج ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩]، تستطيع النظم السياسية إعادة بناء الدول لإقالة الدولة الوطنية من عثرتها، بعد أن نجح الجيل السابق فى الحصول على استقلالها. يمكن إرساء قواعد نهضة ثانية تجمع بين ليبرالية النصف الأول من القرن العشرين وقومية واشتراكية النصف الثانى منه، جمعًا بين الحرية والعدالة. ويمكن إعادة النظر فى النظم التعليمية والإعلامية، من أجل تجاوز الحفظ والمنقول والطاعة لأولى الأمر إلى التفكير والإبداع، والنصح لولاة الأمور، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والنصيحة فى الدين والدنيا. والحسبة رقابة على الأسواق وجهاز الدولة، وليست تفتيشًا فى ضمائر الناس والحكم بالكفر والردة على المسلمين.

ولماذا لا تبدأ أنظمة الحكم بالتحول الديموقراطى من الدخول وبضغوط أحزاب المعارضة وتلبية لمطالب المنظمات الأهلية والاتحادات المهنية والطلابية بدلاً من أن تأتى على أسنة الرماح وفوهات المدافع تحقيقًا لمطلب خارجى؟ ولماذا يبدو الغرب هو الحامى لقيم الحرية والديموقراطية، وهو صاحب المعيار المزدوج بين الداخل والخارج، وهما أخص ما يميز ثقافتنا المعاصرة التى جاهدنا فى صنعها ولا نزال نجاهد، وتراثنا القديم الذى صنعناه ثم نسيناه لصالح الاتجاهات المحافظة، وتأويلات فقهاء السلطان؟ وعلى هذا النحو نعطى الغرب أكثر مما يستحق ونأخذ نحن أقل مما نستحق ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢].

الانسداد فى الداخل والانسداد فى الخارج نذيران بنهاية الدول وانهيار الحضارات. والعرب لم ينتهوا بعد، والحضارة العربية الإسلامية لا تزال قائمة. والانفتاح فى الداخل والانفتاح فى الخارج حلمان لا يزالان بعيدى المنال، ومرحلة قادمة نعد لها. والانسداد فى الداخل والانفتاح على الخارج تكرار لتجربة محمد على وعبد الناصر وربما تجربة الصين المعاصرة. لم يبق لنا إلا نموذج الانفتاح فى

الداخل إذا كان الانسداد فى الخارج وارداً وهو ما نحن فيه هذه الأيام، يكفى نظام عربى واحد ينفتح على الداخل ويحمى نفسه من الخارج، يعطى الأولوية للتعامل مع الذات قبل التعامل مع الآخر، والحوار مع النفس قبل الحوار مع الآخر كى يصبح نموذجًا ناجحًا وفعالاً لباقى الأنظمة، خاصة ولو تبنته الدول التاريخية فى المنطقة ذات الكثافة السكانية العالية والإمكانيات البشرية الهائلة والموقع الجغرافى المتميز والخبرة التاريخية التى لا ينكرها أحد.

* * *

٣- العرب وأوروبا: من يساعد من؟

إن من أصعب الأشياء على المفكر أن يرى الموازين مقلوبة، والعلاقات معكوسة، والأطراف مختلطة، والأمور غائمة، والرؤية عاميَة؛ إذ يشاهد هذه الأيام ويسمع تصريحات قادة العرب خاصة قادة مصر أن علَى العرب مساعدة أوروبا فى موقفها الشجاع، وأن يؤيدوها فى سياساتها المؤيدة للموقف العربى لإعطاء فرصة أخيرة للسلام، وتجديد فترة التفتيش الدولى على العراق، وجعل الحرب الملاذ الأخير عن طريق قرار جديد للأمم المتحدة كغطاء شرعى للعدوان. فمن واجب العرب القومى تأييد فرنسا وألمانيا وبلجيكا فى سياساتها المناصرة للقضية العربية حماية لشعب العراق من التدمير، وعليهم أيضًا مساندة اللجنة الرباعية فى تدعيمها لخطة الطريق دفاعًا عن شعب فلسطين.

والسؤال هو: من يساعد من؟ العرب تساعد أوروبا فى موقفها المساند لقضاياهم القومية، أم أن أوروبا هى التى تساعد العرب فى موقفهم من قضاياهم المصيرية؟ من الأنا ومن الآخر؟ إن الأنا أى العرب تساعد نفسها أولاً ثم يأتى الآخر أى الغرب لمساعدتها. فالقضية قضية الأنا وليست قضية الآخر. ولا يساعد أحد من لا يساعد نفسه أولاً ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧]. الثبات من الأنا أولاً والمساعدة من الآخر ثانيًا. وفى المثل الشعبى «اسعى يا عبد وأنا أعينك». فالسعى أولاً من الأنا، والعون ثانيًا من الآخر.

لقد فرح قادة العرب بموقف شيراك رئيس جمهورية فرنسا، وشرودر مستشار ألمانيا، ولوى ميشيل وزير خارجية بلچيكا لموقفهم البطولى المستقل فى مناهضة سياسة أمريكا العدوانية على شعب العراق وكأن النجدة قد أتتهم، ووجدوا من

(*) جريدة الاتحاد: ٨ مارس ٢٠٠٣م.

يعبر باسمهم عن مصالحهم، والقيام بزمام المبادرة نيابة عنهم، ومد يد العون لهم، وإنقاذهم من الوقوع فى هوة النسيان وقبو التاريخ. الآخر يساعد الأنا أولاً ثم تساعد الأنا الآخر على مساعدتها. وهو قلب للموازين وتبديل فى أطراف المعادلة بين الأنا والآخر، أولوية الأنا على الآخر، وسبق الهوية الاختلاف.

تعلق الأنا نشاطها على الآخر مثل الكسيح الذى لا يستطيع السير إلا على عكاز، ومثل القعيد الذى لا يستطيع القيام إلا إذا أخذ أحد بيده. إذ يدعو القادة العرب للتنسيق مع أوروبا حتى لا تنفرد أوروبا بالعمل من أجل القضايا العربية دون مساعدة العرب لها، وحتى يقوى العرب على مساعدة أنفسهم بالتنسيق مع أوروبا. فقد وجد العربُ الحليفَ، طوق النجاة لانتشالهم من غرق الصمت والعجز والسكون.

والأعجب من ذلك أن تتوسط الأنا لدى الآخر حتى يخف من مواجهته للولايات المتحدة رعاية لمصالحها فى المنطقة العربية حتى لا تخسر الأنا الآخر كلية. فمن الأفضل تحييد العدو دون مواجهته ومعاداته. ومن له بالوقوف فى مواجهة أمريكا؟ ومن له القدرة على منع الحرب؟ ومن يستطيع رفض طلبات عبور الأجواء، واحتلال الأراضى، واستعمال القواعد، والمرور فى القنوات المائية؟ فليخفف الآخر قليلاً من لهجته المناهضة للعدوان الأمريكى المبيت على العراق دفاعًا عن المصالح العربية، ومنعًا لإحراج القادة العرب أمام شعوبهم، وكشفًا لخطابهم المزدوج، الرفض العلنى للعدوان والقبول الفعلى له، بل والمقايضة عليه والفصال فى الثمن، وتعلية السعر للسماح بسفك دماء العراق، والوعد بقسط من الغنيمة بعد العدوان، والاستيلاء على النفط، ووضع الحراسة على منبع الثروة فى العراق وحين يأتى وقت توزيع الغنيمة على المحاربين الغزاة.

فلماذا ضعف الأنا وقوة الآخر؟ لماذا عجز العرب وقدرة أوروبا؟ قد يكون السبب الجوهرى هو أن أوروبا تعمل مع شعوبها، وتعبر عن الرأى العام فيها، ولها سندها فى القواعد التى تمثلها. فالرأى العام الفرنسى هو الذى يعبر عنه رئيس جمهورية فرنسا ووزير خارجيته دى فيلبان، والرأى العام الألمانى هو الذى يعبر عنه

شرودر مستشار ألمانيا ووزير خارجيته فيشر. والرأى العام البلچيكى هو الذى عبر عنه وزير خارجيتها لوى ميشيل. بل إن هذه الدول الأوروبية الثلاث هى التى تعبر عن الرأى العام الأوروبى في الاتحاد الأوروبى، فى حين يعبر رأى قادة إسپانيا والبرتغال وإيطاليا والدول المساندة للعدوان المبيت على العراق عن المصالح الشخصية وقسمة الغنائم، وهى رؤية القادة التى تعبر عن رأى الأقلية المرتبطة بالمصالح الأمريكية.

أما القادة العرب فإنهم لا يعبرون عن رأى شعوبهم الرافضة للعدوان المبيت على العراق، ويساندون المصالح الأمريكية ووجود القواعد الأمريكية على أراضيهم، بل والقيادة المركزية لقوات العدوان نصفها من الجنوب والنصف الآخر من الشمال لقضم العراق بين فكين، وسحقه بين المطرقة والسندان. يعبرون عن موقف الحليف الأمريكى والصديق التقليدى ويخشون على كراسى الحكم من أن تدور الدائرة عليهم. ويأتى عليهم الدور بعد العراق إن تم تصنيفهم ضمن الدول المارقة. فالأنظمة العربية محاصرة أيضًا بين المطرقة والسندان، بين المطرقة الأمريكية وسندان الشعوب.

ولا تعبر الأنظمة السياسية العربية عن مواقف شعوبها فقط، بل إنها تقمع كل تحرك جماهيرى للتعبير المستقل. فتتصدى للمظاهرات السلمية بقوات أمن تفوق عدد المتظاهرين، بحيث يكون لكل متظاهر ثلاثة من قوات الأمن المركزى بالدروع الواقية من الحجارة والعصى لتحطيم الرءوس. وبالرغم من المظاهرات الشعبية والتحركات الجماهيرية للاتحادات والنقابات والجمعيات الأهلية والجامعات والأحزاب، إنما تصب فى نفس الموقف العلنى للدولة وخطابها السياسى، إلا أن الدولة هى التى تحتكر العمل السياسى ولا تسمح بأن يأخذ الشعب زمام المبادرة حتى لا يفلت الزمام، مرة مظاهرة ضد العدوان الخارجى، ومرة تحرك ضد العدو الداخلى. ومن يتحرك مرة يتحرك مرات أخرى؛ فقد تعود على الحركة وحصل على نتائجها الأولى.

تكشف التحركات الشعبية عن الخطاب المزدوج للدولة، معارضة للعدوان الأمريكى المبيت على العراق فى العلن، والموافقة عليه فى السر، الأول للاستهلاك

المحلى والثانى للواقع الفعلى، حفاظًا لماء الوجه وإبقاء على ورقة التوت. فلم تستعد النظم السياسية العربية للمواجهة لا مع إسرائيل ولا مع أمريكا. فالسلام خيار استراتيچى، وحرب أكتوبر آخر الحروب. والمظاهرات تكشف النظم السياسية عن عوراتها. وتنزع عنها برقع الحياء.

لقد تربت أجهزة الأمن على الدفاع عن النظام ملكيًا أم جمهوريًا أم ملكيًا جمهوريًا كما هو شائع هذه الأيام، وعلى أن الشعب هو العدو، وأن المظاهرات خروج على النظام، وتعكير لصفو الأمن، وتعدّ على المال العام. وإشغال الطريق بما يتسبب فى الزحام، وتعطيل المواصلات مما يسمح للمدنسين والعملاء بإخراج المظاهرات عن طريقها السليم. أجهزة الأمن هى الثابتة والنظم السياسية هى المتحولة، كما قال أحد الشعراء المعاصرين **«أبانا الذين فى المباحث»**، وكما قال أحد الروائيين المعاصرين على لسان أحد أبطاله تنويعًا على حديث الرسول **«لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»**(*) بقوله **«لا تسبوا الدولة فإن الله هو الدولة»**. حدث ذلك فى مصر فى العهد الملكى وبعد الثورة فى الجمهوريات الأولى والثانية والثالثة ولا يزال يحدث.

والسؤال الأخير: كيف تتغير أطراف المعادلة؟ كيف يأخذ العرب زمام المبادرة وتساعدهم أوروبا؟ كيف تصبح الأنا هى الأصل، والآخر هو الفرع؟ كيف يعود العرب أصحاب القضية وتصبح أوروبا النصير والحليف؟

تلك مهمة الشقيقة الكبرى، والأخ الأكبر، مصر، مركز التحديث فى المنطقة ونموذج نهضتها. إذا نهضت نهض العرب وإذا سقطت سقط العرب. وللعرب معها صلات رحم وقرابة، **«جندها خير أجناد الأرض، وشعبها مرابط إلى يوم القيامة»**. وهى مهمة سوريا الشقيقة، موطن القومية العربية وبذرتها الأولى، والحليف فى الحرب والسلام. لذلك كان من هتافات السبت الماضى فى جامعة القاهرة «قولوا لحكّام مصر وسوريا، أمريكا خايفة من كوريا». وتلك أيضًا رسالة الشهامة العربية والإباء العربى والنخوة العربية والأخوة العربية فى شبه الجزيرة العربية، كما حدث فى حظر النفط فى ١٩٧٣م تدعيمًا لمصر وسوريا فى حرب أكتوبر. وتلك يقظة الأخوة فى الخليج كى يدركوا طمع العدوان فى نفطهم

(*) مسند الإمام أحمد - جـ ١٦ - (٢٢٤٥١).

وثروتهم وموقعهم الجغرافى لوراثتهم وتهديد اليابان وأوروپا بالتحكم فى أسواق النفط. وهذه رسالة الأخوة فى الجزائر والسودان لتضميد الجراح وإيقاف سفك الدماء، وأولى بها أن تسيل من الشهداء فى العراق وفلسطين ضد العدوان الأمريكى الصهيونى القادم على كل الوطن العربى، العدو والحليف والصديق على حد سواء. وهى رسالة للعرب جميعًا للتعاون مع دول الجوار، إيران وتركيا حماية للثورة الإسلامية فى إيران، والعدوان مبيت عليها للقضاء عليها، والاستيلاء على نفطها، وبقاء القوة العسكرية الأمريكية فى الخليج إلى الأبد، وتحييداً لتركيا ومد يد العرب لنظامها الجديد لشده بعيداً عن الأحلاف الأمريكية الإسرائيلية. ورسالة إلى المقاومة اللبنانية، حزب الله، والمقاومة الفلسطينية، فتح وحماس والجهاد للصمود والثبوت ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾[آل عمران: ١٤٠]. إن أكثر من خمسين دولة أفريقية فى شراكة مع فرنسا مع العرب وقضاياهم فى اجتماعهم الأخير فى پاريس، وإن أكثر من مائة دولة من حركة عدم الانحياز تدافع عن العرب فى مآسيهم فى اجتماعهم الأخير فى كوالالمبور. أفمن الأجدر أن يكون العرب مع أنفسهم أولاً قبل أن يكون الآخرون معهم ثانيا؟ فمن يساعد من؟

إن مهمة الأمة وضع استراتيچية جديدة تضع العرب والمسلمين فى مسار التاريخ وفى موازين القوى الدولية كى يصبحوا للثقل فيه. فقد أخرج الإسلام العرب من شبه الجزيرة العربية وسط إمبراطوريتى الفرس والروم، قوة جديدة فى النظام الدولى القديم. والآن يعود العرب قوة جديدة فى النظام الجديد منذ عصر الاستقطاب، عندما كانت حركة التحرر العربى فى طليعة حركات التحرر فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فى الخمسينيات والستينيات، ثم ضعفها فى السبعينيات والثمانينيات. وفى العالم ذى القطب الواحد منذ بداية التسعينيات يستطيع العرب مع أوروپا وآسيا أن يكونّوا نواة قطب ثان فى مواجهة القطب الأول، الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كانت الفتوحات سبيل العرب الأوائل لدخول نظام العالم القديم، فإن المقاومة هى سبيل العرب المحدثين لدخول نظام العالم الجديد.

٤- هل تستطيع النظم السياسية أن تحكم بمفردها دون شعوبها؟

برزت ظاهرة سياسية فى الآونة الأخيرة يتساءل الناس عن أسبابها، وهى قوة الموقف الفرنسى الألمانى البلچيكى خاصة والأوروبى عامة فى مواجهة العدوان الأمريكى على العراق دون تفويض صريح من الأمم المتحدة، وقبل انتهاء المفتشين الدوليين من أعمالهم فى التحقق من صدق الاتهام الأمريكى بامتلاك العراق أسلحة دمار شامل تملكها إسرائيل وكوريا وعديد من الدول الأخرى، بما فى ذلك الولايات المتحدة الأمريكية نفسها. وفى نفس الوقت، ضعف الموقف العربى فى الدفاع عن العراق الشقيق بالرغم من اتفاقية الدفاع العربى المشترك والعضوية فى جامعة الدول العربية والخطاب السياسى الشائع فى الجوار الجغرافى، والتاريخ المشترك، والمصالح العربية الواحدة، وبالرغم من تحريم مظاهرة العدوان الأجنبى على الأخ العربى وضرورة الوقوف بجانبه، وبالرغم من المثل العامى «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب»! ، ويتساءل الناس فى الداخل والخارج لماذا حضر الغرب، نظمًا وشعوبًا فى مواجهة العدوان الأمريكى المبيت على العراق وغاب العرب، نظمًا وشعوبًا عن الدفاع عن قضاياهم ووجودهم ومصيرهم؟ لماذا يتولد قطب ثان فى الغرب فى مواجهة القطب الأوحد بمناسبة قضايانا فى حين أجهض العرب تاريخهم وغيّبوا أنفسهم فلم يعد لهم وزنٌ، كبيرهم وصغيرهم. وترفض الولايات المتحدة استقبال الوفد العربى الممثل لمؤتمر القمة العربى الأخير؟ وفى نفس الوقت تتحدى كوريا الولايات المتحدة، وتعلن عن تشغيل مفاعلها النووى، وترفض الحوار مع أمريكا إلا فى الأمم المتحدة وأمام العالم كله، وتواجه

(*) جريدة الاتحاد: ١٥ مارس ٢٠٠٣م.

التحدى بتحدٍّ آخر، وهى فى أزمة اقتصادية وغذائية إذ «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها»، بل وتقترب منها كوريا الجنوبية التى على أرضها يربض عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين بحجة الدفاع عنها ضد خطر الشمال ومن جديد، «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب».

وبالرغم من صعوبة الإجابة على الأسئلة حول الظواهر الإنسانية لتعقّدها وتشابكها وتداخل عواملها التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلا أن الإجابة على سؤال حول قوة الأنظمة السياسية الغربية وضعف النظام السياسى العربى سهل للغاية وواضح للعيان، دون ما حاجة إلى نظريات تفسيرية أو نماذج إرشادية أو جداول إحصائية أو استبيانات للتعرف على الرأى العام. وهو أن النظم السياسية الغربية تعبر عن آراء شعوبها. فهى نظم منتخبة انتخابًا شرعيًا. وحكوماتها مسئولة أمام برلماناتها. وممثلوها محاسبون أمام قواعدهم الانتخابية. تعبر النظم الغربية عن عموم الرأى العام فيها. وتفاوض باسم الشعوب. وتصوّت فى الأمم المتحدة والهيئات الدولية باسم الأمم. فقوة شيراك على الساحة الدولية وفى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية القطب الأوحد فى العالم، إنما ترجع لتعبيره عن الرأى العام الفرنسى الذى يسانده ويدعمه. وقوة الرأى العام الفرنسى إنما ترجع إلى استقلال الشعب الفرنسى ورفضه التبعية الأمريكية وتعبيره عن قيم الثورة الفرنسية ومبادئها. وقوة دومنيك دى فلبان فى قدرته على التعبير عن الرأى العام الفرنسى والنظام السياسى الذى يمثله برؤية واضحة وحجج منطقية وبلاغة فى أساليب التعبير تجعله يجسد التراث الديكارتى العقلانى العريق الذى يعبر عن جوهر الثقافة الفرنسية. وقوة شرودر مستشار ألمانيا فى تعبيره عن الرأى العام الألمانى، وقد عانى الشعب الألمانى من ويلات الحروب ودمرت قدراته وبنيته وهياكله مرتين فى أقل من ثلاثين عامًا. وقوة وزير خارجيتها فيشر فى تعبيره عن رأى حزب الخضر وحماية الطبيعة من التدمير والخراب. وقوة وزير خارجية بلچيكا لوى ميشيل فى تعبيره عن قوة القانون ودفاعه عن حقوق الشعوب، وسن بلچيكا قانونًا يسمح بمحاكمة مجرمى الحرب ومرتكبى الجرائم ضد الإنسانية مثل شارون أولاً وربما بوش وتشينى ورامسفيلد وفرانكس ثانيًا.

ويرجع ضعف النظام السياسى العربى إلى أنه لا يعبر عن آراء ومواقف ومصالح

الشعب العربى الذى يرفض فى مجموعه العدوان الأمريكى على العراق، والإسرائيلى على فلسطين. بل إن ضعف حركة الشارع العربى أو غيابه مطلقاً لا يعبر عما يكن فى صدور الناس من غضب على النظام الدولى الجديد، وتفرد أمريكا بالعالم، تقضى وتعاقب. هى الخصم والحكم، القاضى والجلاد. فهى إما نظم ملكية وراثية تستمد سلطتها من العائلة المالكة عبر التاريخ القديم أو الحديث، أو نظم عسكرية تستمد شرعيتها بالقوة المسلحة نتيجة انقلاب عسكرى، حتى ولو كان فى كلا النظامين واجهات ديموقراطية، وانتخابات تشريعية، وتعددية حزبية، أقواها الحزب الحاكم الأوحد، ومعارضة مستأنسة، وصحافة لها حق القول النسبى دون حق الفعل والتحرك الجماهيرى، بعضها بالانتخاب والبعض الآخر بالتعيين. بعضها صحيح والبعض الآخر بالتزييف بالرغم من أحكام القضاء بإبطال انتخابات بعض الدوائر أو ببطلان مجلس الشعب كله وضرورة حله.

فالرأى العام العربى لا يزال يحن إلى حلمه الأول الذى تم إجهاضه بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧م، والانفتاح الاقتصادى منذ ١٩٧٥م، والاعتراف بالكيان الصهيونى فى كامب ديفيد ١٩٧٨م، واتفاقية السلام فى ١٩٧٩م، وبعد مؤتمر القاهرة فى ١٩٩٠م الذى شرع للعدوان الأمريكى الأول على العراق فى ١٩٩١م، والثانى ١٩٩٨م، وربما الثالث فى ٢٠٠٣م، لا يزال مناهضاً للاستعمار بكل أشكاله القديمة والجديدة، العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية مهما تغيرت الأسماء، صراع الحضارات، العولمة، القطب الواحد، العالم قرية واحدة، ثورة الاتصالات، منظمة التجارة العالمية، البنك الدولى، صندوق النقد. لا يزال يحن إلى مقاومة الصهيونية وهو يشاهد ذبح الفلسطينيين كل يوم، وتصفية المقاومة، وهدم المنازل، وتجريف الأراضى، وتهويد القدس، ومحو الطابع الأثرى القديم للمدن الفلسطينية استعداداً للمستوطنات من أجل ابتلاع فلسطين كلها، بعد أن يحين وقت التهجير. ويحن إلى الدولة التى ترعى مصالح الناس، وتدعم الفقراء، وتحميهم بالقطاع العام، وتقدم لهم الصناعات الوطنية وتشرف على قطاع المال بعيداً عن تهريب رءوس الأموال للخارج، والتلاعب بالعملة الوطنية فى الداخل، وتحرص على كرامة الوطن وصورته فى الخارج، وتفرض احترامها على الأعداء قبل الأصدقاء. لا تزال الناصرية فى وجدان الشعب بعد ما يقرب من ثلث قرن.

ولم يحدث إجماع عربى الآن على مقاومة العدوان الأمريكى على شعب العراق، والعدوان الإسرائيلى على شعب فلسطين كما يحدث الآن حتى أصبح بوش وشارون واجهتين لعملة واحدة، وروحين فى جسد واحد.

ومع ذلك ما أسهل أن يعبر النظام العربى، ملكيًا كان أم جمهوريًا أم جمهوريًا ملكيا، سلطنة أو إمارة أو دولة عن الرأى العام العربى، ليس فقط عن طريق بيانات مؤتمرات القمة العربية أو الإسلامية أو دول عدم الانحياز، بل عن طريق تحرك الشارع العربى المساند له حتى تقوى مصدقياته وهو يفاوض فى الخارج، ويعبر عن موقف شعوبه. وهو أقوى له فى الداخل بدلاً من أجهزة الأمن والشرطة وحصار المظاهرات بأعداد من الجنود تفوق أعداد المتظاهرين. وهو أقوى له فى الخارج وهو يفرض قراره، ويصدر حكمه، ويتخذ موقفه حتى يصبح مؤثرًا يأخذه الآخرون مأخذ الجد، ويعرفون قدر مصدقياته، وصدق تعبيره عن الرأى العام داخل الأوطان. ولماذا يحاصر النظام العربى نفسه بين المطرقة والسندان: مطرقة العدوان الخارجى عليه وسندان مقاومة الشعب له؟ وأيهما أقرب إلى التحالف معه، الحليف الخارجى أم انسند الداخلى؟ هذا هو المأزق التاريخى للنظام العربى الحالى الذى يؤذن بالزوال بعد أن عجز عن التعبير عن مصالح الشعوب فى الداخل، والدفاع عن الأوطان فى الخارج. لقد مضى نصف قرن على الثورات العربية الأخيرة، والتى اكتملت دورتها بين النهوض فى الخمسينيات والستينيات والانهيار فى السبعينيات والثمانينيات والاحتضار فى التسعينيات. ولا فرق فى ذلك بين النظام القُطرى أو النظام العربى. إن مسار التاريخ اليوم يتغير نوعيًا وتتسارع خطواته نحو الانكسار بقفزة كيفية جديدة. فقد أصبح الوطن العربى مخصبًا، بل وفى حالة مخاض ينتظر المولود الجديد.

إن حرية التعبير وديموقراطية الحكم ليست مثلبة أو عيبًا أو نقصًا أو إهانة لأحد. بل هى تقوية للنظام السياسى؛ فى الداخل والخارج. وإن قوة المعارضة الشعبية لسياسات النظم السياسية التى لا تعبر عن الرأى العام فيها إنما هى ورقة إيجابية فى يد النظام السياسى كى يضغط بها فى السياسة الخارجية، عندما يطلب من الدول

الدخول في تحالفات عسكرية ضد مصالحها بدعوى شدة المعارضة داخل الأوطان، والتي قد تهدد النظام السياسي؛ الحليف مع القوى الأجنبية أو التابع لها أو الخائف منها. إن الإحساس بالعجز الحالي إنما هو نتيجة طبيعية لوقوف النظام السياسي بمفرده، معلقًا في الهواء. لا يستطيع أن يلتحم بالشعب في الداخل، لأنه لم يأت ببيعة عامة منه، ولا يستطيع أن يقف أمام العدوان في الخارج؛ لأنه لا يقوى عليه. لذلك صرخ أحد الشعراء «حاصروا حصاركم». وقد انتقل هذا العجز إلى الشارع العربي؛ لأنه أزيح عن العمل السياسي على مدى نصف قرن باستثناء هبات شعبية هنا وهناك من أجل الخبز أو الحرية أو الكرامة الوطنية. إن الطاقات كلها مختزنة في الشعب الحبيس في قفص النظام السياسي قد يفجرها الحريق الذي قد يلتهم القفص بمن فيه.

وفي النهاية هل يمكن التضحية بالدول والشعوب من أجل نظامها السياسي الذي يعاني من أزمة الحرية والديموقراطية وانعكاساتها في الداخل والخارج؟ هل يتم التضحية بالمضمون من أجل الشكل، وبالشعب من أجل الكرسي، وبالدولة من أجل النظام، وبالمصلحة العامة من أجل المصلحة الخاصة؟ وأيهما أقل تكلفة قيام النظام السياسي على أساسه الطبيعي، حرية الفرد وديموقراطية الحكم أو التضحية بهما فيصبح في مهبّ الريح في الداخل بالثورة المشروعة عليه أو في الخارج بالعدوان اللامشروع عليه تحت ذريعة التخلص من نظم الحكم التسلطية والفردية؟ إن الدول التاريخية في مصر والشام والعراق والمغرب باقية عبر التاريخ مهما عصف بها الزمان. وشعوبها وحضاراتها باقية في مصر القديمة وبابل وآشور وكنعان وبلاد العرب. وهذه ليست أول مرة تكون فيها معرضة للغزو. فقد تم ذلك من قبل من التتار والمغول في الشرق والصليبيين والاستعمار الحديث في الغرب. وظلت بغداد ودمشق والقاهرة وعواصم المغرب العربي باقية. فمن يتعلم من التاريخ؟

* * *

٥- فتنة الحجـاب

الفتوى الشرعية ليست فتنة بين الناس. ينقسم الفقهاء والعلماء والمفكرون حولها إلى فريقين، كل فريق يستبعد الآخر ويخطئه. مع أنه لا تخطئة فى الفروع. والصواب متعدد، ولكل مجتهد نصيب، و«من أخطأ فله أجر ومن أصاب فله أجران».

وقد وقع استقطاب شديد بين العلماء، غذّته القنوات الفضائية والصحافة الصفراء التى يهمها النصر الإعلامى أكثر من توخى الحقيقة والحفاظ على مصالح الأمة. وتحول الأمر إلى مزايدة فى الإيمان بالدفاع عن الحجاب وتخطئة فرنسا وشيخ الأزهر بمنطق إحراجى. فأى رئيس دولة أجنبية قادر على منع الحجاب الشرعى؟ وأى شيخ أزهر قادر على تبرير ذلك بحضور أو غياب وزير داخلية فرنسا المسئول عن الشئون الدينية؟

تحول الفقه والاجتهاد الشرعى إلى مباراة بين فريقين. كل فريق يريد تسجيل أهداف ضد الفريق الآخر فى مجتمعات لا تزال تغلب عليها الخصومة فى كل موضوع، ويغيب عنها الحوار. وضاعت الحقيقة وسط التحزب، وتوارى الموضوع نفسه أمام تعدد الاجتهادات حتى أصبحت بديلاً عنه، وغابت المصالح العامة للمسلمين فى الغرب بسبب اختلافات الفقهاء فى الشرق.

وفى الوقت الذى تقف فيه فرنسا فى صالح القضايا العربية فى فلسطين والعراق وضد الاحتلال الإسرائيلى لمجمل أراضى فلسطين، وضد العدوان الأمريكى البريطانى على العراق، وضد الهيمنة الأمريكية، وتجاوز الشرعية الدولية، وتكوّن مع ألمانيا وبلچيكا وبعض الدول الأوروبية الأخرى محوراً فى مواجهة الولايات

(*) جريدة الاتحاد: ٨ يونيو ٢٠٠٢م، جريدة الزمان: ٣٠ مايو ٢٠٠٢م.

المتحدة دفاعًا عن استقلال أوروپا ، وتدعيمًا للاتحاد الأوروبي، وتنشيطا للجنة الرباعية تأتي فتنة الحجاب لتخلق توترًا بين المسلمين وفرنسا مما يضر بالمصالح القومية للبلاد. خاصة وأن اليهود لم يثيروا نفس الزوبعة دفاعًا عن القبعة اليهودية وهم أهل سطوة وحظوة. ولا المسيحيين الفرنسيين ثاروا دفاعًا عن الصليب الظاهر المعلق فوق الأعناق والمتدلى على الصدور وهم أصحاب البلاد.

وهو نفس التوقيت الخاطئ الذى ظهرت فيه فتوى تكفير سلمان رشدى عن روايته «الآيات الشيطانية»، والحكم عليه بالقتل، ومكافأة القاتل بالملايين وانتفاضة الحجارة الأولى فى ذروتها، والكل منبهر بأطفال الحجارة ويتساءل عن الظلم الذى حاق بالشعب الفلسطينى منذ عام ١٩٤٨م، وبروز القضية الفلسطينية على الساحة الدولية والتعاطف الذى حظيت به فى الرأى العام الدولى. وكذلك تكفير نصر حامد أبو زيد وتطليقه من زوجته لأعماله العلمية. فالمجتمع بما فى ذلك الجامعة لا يزال مجتمع سطوة وقهر. وبعد فتوى التكفير والقتل انقلب الرأى العام، وبدأت حملة الهجوم على الإسلام والمسلمين الذين لا يتحملون رواية يكفرون صاحبها ويحكمون عليه بالإعدام ولا بحثًا علميًا لأستاذ جامعى. فضاع ما كسبناه فى الرأى العام الدولى. خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف. وتكرر نفس الشىء بعد الهجوم على رواية «وليمة لأعشاب البحر» وإدانتها، والحث على المظاهرات ضدها فى الأزهر، وكانت النتيجة خسارة جريدة المعارضة الرئيسية فى البلاد وفض حزب المعارضة وحله بدعوى إثارة الشغب. وخسرت البدائل الثقافية والسياسية فى مصر أهم عنصر فيها.

أصبح الموضوع مناسبة لإظهار القوة والنزاع على السلطة فى المجتمع بين المحافظين الذين يدافعون عن الحجاب من حيث المبدأ والإصلاحيين الحريصين على مصالح الأمة عامة، ومصالح المسلمين فى الغرب خاصة. كل فريق يريد ملء الفراغ الفكرى والسياسى فى البلاد حتى يكون البديل عن النظام القائم الذى أصبح عرضة للنقد. تكفى التبعية للخارج، والقهر والفساد فى الداخل.

والحكمان كلاهما صحيح. الحجاب شرعى من حيث المبدأ داخل الأمة

وخارجها فى المجتمعات التى بها المسلمون أغلبية أو أقلية، تعبيراً عن الهوية. وقد كان كذلك أثناء الثورة الإسلامية فى إيران ضد تغريب الشاه للبلاد، وكرد فعل على السفور الغربى فى الخارج، فالحجاب رمز للهوية وعلامة على الأصالة.

ويحدث نفس الشىء عندما تعيش الأقلية وسط الأغلبية فتتمسك الأقلية بمظاهر هويتها خوفًا من الذوبان والاندماج فى الآخر. فتشتد مظاهر الخصوصية، وتقوى رموزها. ظهر ذلك أثناء الأسر البابلى عند اليهود وبداية التمسك بهذه العلامات التى لا تزال تحرص عليه التيارات الأرثوذكسية.

كما تظهر فى أوقات الهزيمة وحالات العجز والإحباط لرفع الروح المعنوية. فإذا خسرت أمة معركة الحاضر إلا أنها لا تزال منتصرة فى التاريخ. إن مات حاضرها فماضيها لا يزال حيًا فى القلوب، ويتجلى فى الجوارح فى الحجاب والذقون والجلباب الأبيض وعطور مكة وروائح المدينة والشرائط الدينية لمشاهير الخطباء ونجوم الوعاظ.

وتشتد فى زمن الضياع والتوقف عن السير، والانهيار التام، والإحساس المستمر بالفشل، وندب سوء الحظ. فلم تحفظ الأمة الأيديولوچيات العلمانية للتحديث، الليبرالية والقومية والماركسية. ولم يبق إلا المخزون النفسى والموروث الثقافى المستمر عبر التاريخ والذى تكلس وتحجر وتم تحنيطه فى عقيدة كلامية واحدة، الأشعرية، ومذهب فقهى واحد، الشافعية، وفرقة ناجية واحدة هى فرقة السلطان، وتكفير كل فرق المعارضة باعتبارها فرقًا هالكة.

وطاعة الأقلية المسلمة فى مجتمعات الأغلبية والدول الوطنية التى يعيشون فيها لقوانين البلاد باعتبارهم مواطنين أخذوا جنسيات الدول المضيفة ويتمتعون بحق العمل والعيش والتأمين الصحى والضمان الاجتماعى والمشاركة السياسية أيضا موقف شرعى طالما أنهم لا يعيشون فى دولة إسلامية تطبق الشريعة الإسلامية. ورفض هذا التعامل هو ما دعا بعض الجماعات الإسلامية لتكفير المجتمع والانفصال عنه بل والخروج عليه أو النزول تحت الأرض لتكوين جماعات سرية بعيداً عن دار الكفر، فى دار الإسلام بعيداً عن دار الحرب.

ومن ناحية أخرى تقوم الشريعة عند الفقهاء، والعقلانيين مثل المعتزلة، على رعاية المصالح العامة و المنافع العمومية وهى المصالح العامة فى الشريعة الإسلامية. كما تقوم على المساواة فى الحقوق والواجبات بين المواطنين دون تفرقة فى دين أو لون أو لغة تطبيقًا لحديث «**لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح**». فالقوانين الغربية تقوم على العدل. والعدل شريعة الله. وتمثل الإرادة العامة، إرادة الأمة ومصالح الناس. وهى شريعة وضعية كما أن الشريعة الإسلامية شريعة وضعية، وهو مصطلح الشاطبى فى «الموافقات» فى وصفه لأحكام الوضع الخمسة: السبب، والشرط، والمانع، والعزيمة والرخصة، والصحة والبطلان والتى تكون ميدان الفعل الإنسانى، والذى فيه تتحقق أحكام التكليف الخمسة: الواجب، والمحظور، والمندوب والمكروه: والمباح.

القضية إذن ليست فى صحة هذا الحكم الشرعى أو ذاك. فكلاهما صحيح. إنما القضية هى كيفية الجمع بينهما بطرق الجمع المعروفة عند الأصوليين، عند تعارض الأدلة مثل الترجيح أو التخيير. فقد شرع الحجاب بناء على طلب عمر بن الخطاب عندما تعرّف على إحدى زوجات الرسول ﷺ سائرة فى الطريق وطلب من الرسول أن يحتجبن. فالحجاب كان مطلبًا فى الواقع، لزوجات الرسول. صحيح أن خصوص السبب يقتضى عموم الحكم، ولكن القضية فى الحكم الشرعى وشروطه هى التعرف على أسباب النزول مثل العلم باللغة العربية.

صحيح أن الحجاب رمز وعلامة، ولكن الله لا ينظر إلى الصور والأشكال بل إلى الضمائر والأعمال. وفى الحرب يجوز سقوط الحجاب.

والحجاب ليس هو حجاب الرأس بل حجاب العقل والروح والوعى. يا ليت المسلم يكون سباقًا إلى الهبوط على سطح القمر، ويرسل مركبة إلى المريخ لمعرفة أسرار الحياة، ويطلب العلم ولو فى الصين. يا ليت الأمة تكون معتمدة على نفسها فى الغذاء والكساء والسلاح والعلم بدلاً من الاعتماد على غيرها. يا ليت كل هذه الضجة حول الحجاب قامت على احتلال القدس وفلسطين والعدوان على العراق وأفغانستان وكشمير والشيشان. ليت الإسلام يدخل إلى قلوب المسلمين من أوسع

الأبواب لمقاومة الاحتلال والدفاع عن حريات المسلمين ضد نظم القهر والتسلط وتحقيق العدالة الاجتماعية. فأفقر فقراء العالم منا، وأغنى أغنياء العالم فينا، وتوحيد الأمة بدلاً من مخططات التجزئة إلى دويلات عرقية وطائفية، وحشد طاقات الأمة حتى تخرج عن عجزها، وتنهى صمتها، وتحاصر حصارها.

الموضوع إذن فى حاجة إلى مزيد من التدقيق. فالحجاب ليس ممنوعًا فى الحياة العامة والخاصة. فهو جزء من الحريات الشخصية لجميع المواطنين الذين هم سواء أمام القانون. ليس لأسباب دينية كما يريدها المسلمون أو علمانية كما يريدها الرئيس الفرنسى، بل باسم المواطنة وحرية الاعتقاد واللباس. لا فرق بين كاس وعار. إنما القضية فى المدارس، طلابًا ومدرسين، حماية للتعليم وحرية البحث والنظر. فالطالبة المحجبة تعرف الحقيقة مسبقًا من تعاليم المنزل والتربية الدينية. والتعليم فى حاجة إلى النظر الحر، والبحث عن الحقيقة، والتخلى عن الأفكار المسبقة والتقاليد الشائعة مؤقتًا كما طالب ديكارت حتى يمكن التحقق من صحتها واحدة واحدة بالعقل السليم بعد ذلك. وقد طالب الغزالى أيضًا بالشك فى الموروث. فمن لم يشك، لم ينظر، ومن لم ينظر لم يتعرّف على الحق. وكذلك الأمر بالنسبة للمدرِّسة المحجبة التى تعرف الحقيقة من قبل، مما يقلل من قدرتها على ممارسة حرية النظر والبحث عن الحقيقة مع الطلبة والطالبات. وقد تسأل الطالبة عارية الرأس مدرستها: لماذا تضعين غطاء الرأس يا أستاذة؟ وبعض المدرسات يتخذن السؤال ذريعة للدعوة إلى الإسلام، وإن كان يهوديًا بالقبعة بالدعوة إلى اليهودية، وإن كان مسيحيا بالصليب بالدعوة إلى المسيحية مما يتعارض مع منهج التعليم فى البحث والنظر وليس فى الوعظ والإرشاد. وأول الواجبات على المسلم هو النظر، وعند الجبائى الشك واجب قبل النظر. وقد عبّر لسنج عن روح التنوير بعبارته الشهيرة: «والله لو وضعوا الحقيقة فى يمينى والبحث عن الحقيقة فى يسارى لاخترت يسارى».

ويمكن الدفاع عن حق المواطن فى الدفاع عن الحريات عن طريق التعددية الثقافية التى يكفلها الدستور وتنص عليها المواثيق الدولية. فكما أن هناك حقًا

للعرى وللشذوذ الجنسى والإجهاض فهناك حقًا للقضاء باسم الحريات الشخصية والتنوع الثقافى. وهو ما نمنعه نحن أيضًا فى بلادنا احترامًا لتقاليدنا وعاداتنا وهويتنا الثقافية على كل القاطنين فى البلاد، مواطنين وأجانب.

معيار الترجيح إذن هو مصالح الأمة. فقد خرج المسلمون من أوطانهم سعيًا للرزق أو هربًا من القهر. والخبز والحرية دافعان إسلاميان للحركة والنشاط. وهما فعلان إلهيان بنص الآية ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤]. فالله هو مطعم الجائع ومؤمّن الخائف. فإذا حقق المسلمون هذين المطلبين فى البلاد الأوروبية التى يقيمون فيها فهم فى بلاد إسلامية. وكما قال محمد عبده من قبل بعد زيارة فرنسا: «رأيت إسلامًا بلا مسلمين» فى مقابل ما رآه فى بلاد المسلمين «رأيت مسلمين بلا إسلام».

إن أمنية إسرائيل هى إبعاد فرنسا عن الحق العربى وتقريب أوروپا من إسرائيل، بعد أن ثبت أن إسرائيل فى الرأى العام الأوروپى هى التى تهدد الأمن والسلام فى العالم.

والخوف كل الخوف من تصاعد اليمين الأوروپى فى فرنسا وألمانيا كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتصاعد المحافظين الجدد، وأن تنشأ نازية جديدة ضد المهاجرين الأجانب وأولهم المسلمون الذين يعيشون فى بؤر استيطانية فى الغرب، ولا يشاركون فى الحياة العامة السياسية والاجتماعية والثقافية ويكونون هم الضحية القادمة، خاصة وأن المسلمين فى أوروپا حوالى خمسة عشر مليونًا، وأن الإسلام هو الدين الثانى فى أوروپا.

فأين المصلحة العامة؟ وأين القواعد الفقهية التى وضعها الأصوليون القدماء الخاصة بسد الذرائع مثل «الضرورات تبيح المحظورات»؟ إن من شرط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ألا يقع منكر أكبر ومعروف أقل. كما أن من أحكام الوضع فى علم الأصول العزيمة والرخصة. فإذا كان الإصرار على الحجاب عزيمة فإن رفع الحجاب داخل المدارس رخصة. وقد كان رفع هدى شعراوى الحجاب فى مصر علامة على ثورة ١٩١٩م والفلاحة التى ترفعه عند مختار رمزٌ لنهضة مصر.

٦- المسلمون فى هولندا

عقدت جمعية «إحسان» فى هولندا وهى إحدى الجمعيات الخيرية التى ترعى شئون المسلمين فى هولندا، أول مؤتمر هولندى إسلامى اجتماعى فى الشهر الماضى، والجمعية تضم معهد التنشيط الاجتماعى، وتدير مشروع الفكر والعمل الإسلامى الاجتماعى الذى يهدف إلى معرفة أهم تصورات القيم الاجتماعية الإسلامية، وأهم نظريات العمل الاجتماعى من أجل خدمة الجالية الإسلامية فى هولندا.

وفى هولندا أكبر جالية إسلامية بالنسبة لعدد سكانها. فهى تضم ثلاثة أرباع المليون من مجموع ستة عشر مليونًا. وأغلب المسلمين من أصول تركية ومغربية. وبالإضافة إلى صعوبة تأقلم المهاجرين الموجودة فى كل بلد غربى يتهدد المهاجرين خطران: الأول التذويب فى المجتمع الهولندى، إعجابًا بالثقافة الغربية، وانبهاراً بها أو حلاً لمشاكل الإقامة وصعوبة الهجرة عن طريق بيان أن المهاجر المسلم أكثر هولندية من الهولنديين أو بحجة أنه مضطهد سياسيّا أو فكريّا فى بلاده، وأنه يطالب بحق اللجوء السياسى أو عن طريق الزواج من هولندية حتى يسهِّل له الزواج حق الإقامة وحق العمل.

والهولنديون منشغلون بهذه الجالية الجديدة التى برزت على الساحة الهولندية، وفرضت نفسها على الحياة العامة بلباسها وعاداتها وتقاليدها. وبدأت بمطالب فى المدارس الخاصة الإسلامية، وبناء المساجد والمستشفيات الخاصة بهم، واحترام أعيادهم بما فى ذلك الأضحية فى العيد، والذبح أمام المنازل، والاستيقاظ فى

(*) جريدة الزمان: ٨ مارس ٢٠٠٢م.

منتصف الليل فى رمضان، والأذان مما يقلق السكان، وزيارة المقابر والإطالة فيها، والصدقة على أرواح الموتى مما يتعارض مع جلال الموت.

ونظراً لما تتمتع به هولندا من نظام ديموقراطى فقد وصل المسلمون الهولنديون من أصل هولندى أو تركى أو عربى إلى البرلمان والمجالس البلدية وحكام المقاطعات. وأصبح لهم جزء من الميزانية العامة لرعاية الأقليات، فى تشييد المدارس الخاصة، وإقامة المساجد، وتأسيس الجامعات مثل جامعة روتردام الإسلامية، وجامعة أوروبا الإسلامية فى سخيدام. فقد أصبح الإسلام بحقّ الدين الثانى فى هولندا قبل اليهودية، بل وفى مجموع أوروبا والولايات المتحدة وأستراليا وأمريكا اللاتينية، والدين الأول فى أفريقيا وآسيا، مما يضع على المسلمين أعباء جساماً. كيف يعيشون فى المهجر الجديد وما علاقاتهم بأوطانهم الأولى؟

وتبرز فى ذهن الهولنديين غير المسلمين عدة أسئلة بالنسبة لهذه الأقلية المتنامية؟ الأول: إلى أى حد يمثل وجود المسلمين بلباسهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغاتهم ولون بشرتهم وأسلوب حياتهم خطراً يهدد الهوية الهولندية التقليدية، البروتستانتية الأوروبية البيضاء، والتى استطاعت المحافظة عليها وسط الهويتين الفرنسية والألمانية، والتى لا يزال يعانى نصف البلچيكيين منها الموزعين بين الهويتين الفرنسية والفلمنكية؟ والجواب سهل طالما أن الهولنديين يسمحون لليهود بخصوصيتهم فى اللباس والعادات والتقاليد، فلماذا تمييز اليهود على غيرهم من الأقليات المهاجرة من أفريقيا وإندونيسيا والمغرب وتركيا بعد أن أصبحوا يشكلون جيلاً ثانيًا، خليطًا من الوافد والأصيل؟ ولا يزال التحدى قائمًا بالنسبة للمسلمين كى يصبحوا جزءاً من نسيج المجتمع الهولندى دون أن يذوبوا فيه، والصراع من أجل الإبقاء على التعددية الثقافية التى يتميز بها الغرب والدفاع عن حقوق الأقليات، وأن يتعرفوا على الثقافة الغربية فى هولندا، وأن يصبحوا مزودجى الثقافة الغربية والإسلامية. يعرفون ديكارت واسبينوزا وجروسيوس قدر معرفتهم بالشافعى وأبى حنيفة والغزالى وابن تيمية وسيد قطب وعلال الفاسى وسعيد النورسى.

والسؤال الثانى برز بعد حوادث سبتمبر الأخيرة فى واشنطن ونيويورك، هل يتحول المسلمون فى هولندا إلى قاعدة للقاعدة والتنظيمات الإسلامية الجهادية؟ وهو تخوف فى غير محله؛ لأنه لا يوجد عداء ولا إحباط عند المسلمين بالنسبة لهولندا قدر وجوده تجاه الولايات المتحدة وتأييدها المطلق لإسرائيل. والنفوذ اليهودى فى هولندا نتيجة لضعف نفوذ المسلمين وهم الأكثر عدداً بما يتجاوز المائة مرة. والمسلمون فى هولندا مسالمون، وهم جزء من نسيج المجتمع الهولندى، يعيشون فى سلام، ومشاكلهم فى التأقلم مع المجتمع الجديد خاصة قوانين الأحوال الشخصية والوئام بينها وبين القوانين المدنية فى هولندا.

ويبرز فى ذهن المهاجرين سؤالان آخران. الأول: إلى أى حد يقبلهم المجتمع الهولندى، ولا ينظر إليهم باعتبارهم وافدين من الخارج سواء بهجرة شرعية أو غير شرعية؟ وهل ستظهر بقايا العنصرية البيضاء والتعصب الطائفى عند الهولنديين فى تعاملهم مع الجالية الإسلامية الجديدة؟ والجواب أن ذلك يتوقف على سلوك المسلمين واتجاههم فى المجتمع الهولندى، هل هم مجتمع مغلق وافد يرفض التكيف والتعامل مع الكفار والنصارى، وديارهم ديار حرب أم أنهم يصبحون جزءاً من نسيج المجتمع الهولندى، ويتكلمون لغته، ويتعلمون ثقافته، ويحترمون عاداته وتقاليده؟ لقد انتشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية أولاً غرباً بالمصاهرة مع المصريين والبربر، وشرقاً مع أهل فارس والهند وماليزيا وإندونيسيا، وشمالاً مع سكان آسيا الوسطى، وجنوباً مع الأفارقة. فاختلاط الدم مقدمة لاختلاط الإنسان وانصهار الثقافات.

والثانى: هل تهدد المدنية الغربية الثقافة الإسلامية فيتحول المسلمون المهاجرون من ثقافة إلى ثقافة من الموروث القديم إلى الوافد الجديد؟ والحقيقة أن الثقافة الغربية هى أحوج الثقافات إلى التجدد والبداية الثانية. فقد كانت العلوم الإسلامية المترجمة من العربية إلى اللاتينية أو عبر العبرية فى طليطلة وراء نهضة أوروبا الحديثة منذ عصر الإحياء فى القرن الرابع عشر، والإصلاح الدينى فى الخامس عشر، والنهضة فى السادس عشر. وكان الطب الإسلامى يدرس فى جامعة بادو حتى القرن السابع

عشر. كما تأثر كبار الفلاسفة فى القرن السابع عشر مثل ديكارت اسبينوزا بالثقافة الإسلامية، ومناهج الشك عند الغزالى ونقد الكتب عند الأصوليين. ولولا العداء للدولة العثمانية نظراً لانتشارها فى قلب أوروبا من الشرق حتى أبواب ڤيينا لظل الأثر الإسلامى ممتداً حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بل إن رينان فى حياة يسوع يقر بأنه تعلم نقد الكتب المقدسة وتمحيص الرواية من علماء الحديث عند المسلمين. والثقافة الغربية الآن وهى فى نهاية عصورها الحديثة وشعورها بالانهيار والأزمة والانحسار والإفلاس والضياع والعدمية والنسبية واللا إرادية وسيادة التفكيك وما بعد الحداثة فى حاجة إلى روح جديدة، تحيى فيها مثل التنوير الأولى. والإسلام الإصلاحى قادر على إعطاء هذه الروح كما أعطى الغرب أول مرة فى بداية عصوره الحديثة.

لقد اهتم مؤتمر جماعة «إحسان» بمفهوم المجتمع المدنى، وإلى أى حد يستطيع الإسلام قبوله حتى يعيش المسلمون والهولنديون فى مجتمع واحد، لا هو الأمة الإسلامية، ولا هو الدولة الوطنية العرقية الغربية. وبالرغم من أن المفهوم فى أصله غربى النشأة، ظهر عند لوك كرد فعل على الرغبة داخل الملكية والمؤمن داخل الكنيسة، واستمر عند هيجل كخطوة نحو بناء الدولة إلا أن الغرب يورده للمسلمين الآن مثل المرأة والأقليات وحقوق الإنسان كبديل عن الدولة الوطنية التى يجب أن تتنازل عن سيادتها وحدودها وحواجزها الجمركية فى عصر العولمة واقتصاد السوق.

والحقيقة أن الإسلام يتضمن من داخله مقومات المجتمع المدنى. فأهل الكتاب هم الذين يشتركون مع المسلمين فى قراءة الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والقرآن. وأهل الذمة فى أعناق المسلمين فى الحماية ضد العدوان والاضطهاد. وفى الفقه الجديد يتساوون فى الحقوق والواجبات مع المسلمين باسم المواطنة وليس الملة أو الطائفة.

وتطبيق الشريعة الإسلامية لا يعنى تطبيق قانون العقوبات على المسلمين وغير المسلمين لتنفير الناس، بل إعطاء الناس حقوقهم قبل مطالبتهم بواجباتهم،

حقوقهم فى بيت المال من الغذاء والكساء والسكن والتعليم والعمل والرزق وإشباع الحاجات الأساسية، وإقامة مجتمع اشتراكى تذوب فيه الفوارق بين الطبقات، وتأسيسس مجتمع ديموقراطى: الإمامة فيه عقد وبيعة واختيار. تبدو العقوبات قاسية للردع وليس للتطبيق ولدرء الحدود بالشبهات وحتى يتعرف القاضى على علل الأفعال فيغيرها. والنساء شقائق الرجال. أعطاهن حق الحياة والملكية والميراث والشهادة والشخصية المعنوية والتجارة والتعليم والعمل والجهاد تدريجيًا حتى يتغير وضعها فى المجتمع البدوى. وإذا كان هناك اعتراض من النساء المسلمات حول بعض الحدود التى لا تزال موجودة فى طريق المساواة مثل الطلاق والشهادة والميراث والقوامة، فإن على الفقيه الحديث أخذها بعين الاعتبار كما أخذ الوحى سابقًا واستجاب لهن الوحى، ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. إن مقاصد الشريعة الضرورية التى من أجلها وضعت الشريعة ابتداء خمس. الدفاع عن الحياة (النفس)، والعقل، والحقيقة (الدين)، والكرامة (العرض)، والثروة العامة (المال). وهى أسس المجتمع المدنى فى حقوق الإنسان وحقوق الشعوب.

ووضع الإسلام مؤسسات المجتمع المدنى لتكون رقيبًا عليه مثل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقانون الحسبة، وهى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية والنصيحة، والمسجد، ودور العلماء، والأوقاف وديوان المظالم والقضاء. إنما التحدى هو هل يقلد المسلمون المجتمع المدنى الغربى بما فيه من حق الإجهاض والشذوذ الجنسى والعرى والتجارة بالجسد، أم يؤصلونه فى تراثهم القديم وتجديده بحيث يغير الغرب من تصوره للمجتمع المدنى وحتى يقوى المجتمع المدنى والمنظمات الأهلية عند المسلمين للحد من طغيان الدولة؟

* * *

تاسعا: العرب وأمريكا

١ - جواب عربى لسؤال أمريكى: لماذا يكرهوننا؟

٢ - جواب أمريكى لسؤال عربى: لماذا تكرهوننا؟

٣ - التحالف مع الخارج أم التحالف مع الداخل؟

٤ - الإسلام وأمريكا ... من يخيف من؟

٥ - التجمع الإقليمى فى مواجهة العولمة.

١ - جواب عربي لسؤال أمريكي: لماذا يكرهوننا؟

أثار الإعلام الأمريكي بعد حوادث سبتمبر منذ عامين سؤالاً قد يعرف الأمريكيون إجابته. والغرض منه التعاطف مع الأمريكيين ضحايا الاعتداء الأخير في واشنطن ونيويورك، عاصمتي السياسة والمال، ورمز القوتين السياسية والاقتصادية. فالشعوب لايكره بعضها البعض بلا سبب مباشر أو غير مباشر. ولا توجد كراهية دائمة وثابتة بين شعبين على مدى التاريخ. فطالما كرهت فرنسا وألمانيا بعضهما البعض عبر قرون لنزاعهما السياسي والاقتصادي والجغرافي في أوروپا. وكذلك كان الحال بين فرنسا وبريطانيا، بين فرنسا وكل أوروپا أثناء حروب ناپوليون، وبين النمسا وأوروپا عندما كانت النمسا تمثل إمبراطورية داخل القارة، وبين روسيا وكل أوروپا مع ألمانيا أثناء العدوان النازي، وبين اليهود والغرب مما ولّد حركات التطهير العرقي لليهود في روسيا وألمانيا. والآن توحدت أوروپا المتنازعة تاريخيًا بين شعوبها. وأصبح الاتحاد الأوروپي نواة تستقطب شعوبها بل وشعوب قارات مجاورة حول البحر الأبيض المتوسط.

سؤال الإعلام الأمريكي إذن: «لماذا يكرهوننا؟» يوحي بأن هناك موقفًا ثابتًا معاديًا من شعوب العالم كله تجاه الأمريكيين ينم ربما عن عنصرية أو حقد أو حسد منها وهي الفقيرة المتخلفة تجاه أمريكا، نموذج الثروة والتقدم. وهو غير صحيح. فالشعوب تكره أمريكا ليس لجوهر ثابت لدى الشعب الكاره تجاه الشعب المكروه، بل لأسباب سياسية واقتصادية وثقافية وتاريخية محددة. ويمكن معرفة هذه الأسباب الحالية التي تؤدي إلى موجة المعاداة لأمريكا كسياسة وليس كشعب،

(*) جريدة الاتحاد: ٩ أغسطس ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: يوليو ٢٠٠٣م.

كإدارة وليس كبشر. ويمكن إجمالها فى خمسة أسباب تكوّن صورة أمريكا فى أذهان الناس ولدى الشعوب.

١ ـ تمثل أمريكا رمز القوة بلا عدل، نموذج «راعى البقر» الذى يعتمد على مهارته فى استعمال السلاح وقدرته على الخداع والمناورة. لا يخضع لقانون «الشريف» بل يضع قانونه الخاص فى القتل والسطو والانتقام. لقد تم «فتح» أمريكا بقوة الغزو بدعوى «الكشوف الجغرافية»، وكأن نصف القارة الغربى لم يكن موجودًا قبل وصول كولومبس. وتم استئصال السكان الأصليين «الهنود الحمر». وما تبقى منهم وضع فى محميات للسياحة ولأفلام هوليود. وقُتل الملايين منهم. وأسر ملايين آخرين من أفريقيا لتعمير القارة الجديدة، أرقاء سود يعملون عند الأسياد البيض. ولا يزالون يعانون من التفرقة العنصرية بالرغم من الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب فى القرن التاسع عشر، وقيل بعض الحقوق المدنية التى استشهد فى سبيلها مارتن لوثر كنج. ولا تزال ممارسات القوة قائمة منذ العدوان الأمريكى على ڤيتنام فى الخمسينيات فى القرن الماضى حتى العدوان على أفغانستان والعراق، والبقية تأتى فى أوائل هذا القرن. لذلك تستأسد أمريكا كلما طعنت قوتها، كما حدث فى بيرل هاربر عندما دمر سلاح الطيران اليابانى الأسطول الأمريكى الرابض فى المحيط الهادى. وتنمرت أكثر عندما تم العدوان عليها داخل أراضيها فى سبتمبر ٢٠٠١م، وضرب رموز القوة فيها، برجا منظمة التجارة العالمية، ووزارة الدفاع، وصعب النيل من البيت الأبيض. فاعتدت على أفغانستان والعراق وربما تستعد للعدوان على إيران وسوريا ولبنان واليمن والسودان والسعودية بدعوى مقاومة الإرهاب من جذوره فى الأنظمة التى تفرضه حتى تبقى صورة أمريكا التقليدية، الرجل القوى الذى يأمر فيطاع.

٢ ـ ويتولد عن القوة الغرور اعتمادًا على الآلة العسكرية القادرة على الغزو والعدوان وما يتبعه من نجاح مؤقت تبدأ بعده المقاومة كما حدث فى ڤيتنام، ويحدث حاليًا فى أفغانستان والعراق. ثم يمنع الغرور من الرؤية لطبيعة المجتمعات وثقافات الشعوب، كما يمنع من استيعاب دروس التاريخ. فقد خسرت أمريكا

الحرب فى ڤيتنام بعد أن دمرت كل شيء حي يتحرك فيه إلا إرادة الشعوب دفاعًا عن الحرية والاستقلال. ولم تتعلم من التاريخ، واعتدت على أفغانستان ثم العراق وتخطط دائمًا للعدوان. القوة تنتصر وتنهزم ولكن غرور القوة ينهزم دائمًا. فقد انهزمت الإمبراطوريات الكبرى التى قامت على الغزو والعدوان، الفارسية والرومانية والصليبية والاستعمار الحديث والنازية والفاشية. وهو قدر غروز القوة الأمريكى حاليًا، بالرغبة فى السيطرة على العالم كله طالما أنها هى القوة الوحيدة فى العالم بلا منازع بعد نهاية عصر الاستقطاب، وبداية العالم ذى القطب الواحد. العالم قسمان، معها أو ضدها. ومن يعارضها يكون طرفًا فى محور الشر!

ومن مظاهر غرور القوة السيطرة الاقتصادية على العالم بعد الاحتلال العسكرى باسم العولمة، واقتصاد السوق، والعالم قرية واحدة، وثورة الاتصالات. وهذا يتطلب إلغاء مفاهيم الدولة الوطنية، وإلغاء الحواجز الجمركية، وإنهاء سيطرة الدولة على النشاط الاقتصادى، وترك المجال للقطاع الخاص والاقتصاد الحر. وكل ذلك لصالح الشركات المتعددة الجنسيات التى قد تعادل ميزانية إحداها ميزانية الوطن العربى كله، ويمثل إنتاج إحداها إنتاج الوطن العربى كله. ويتم نزيف ثروات العالم الثالث، ثروات وأسواق وعمالة. ويتراكم رأس المال من جديد فى أمريكا كما تراكم إبان المد الاستعمارى فى الغرب فى القرن التاسع عشر. وتتجاوز أمريكا أزماتها الاقتصادية بنقل الدم من الأطراف إلى المركز. وهو غرور الإنتاج والوفرة الذى لا يستطيع السيطرة على مصالح الشعوب التى تمثلها المظاهرات الحاشدة ضد العولمة ومنظمة التجارة العالمية ومنتدى دافوس فى سياتل وبراج وجنوة ولندن وباريس وفلورنسا.

٣ـ تؤيد أمريكا كل نظم القهر فى العالم الثالث طالما أنها تدافع عن المصالح الأمريكية وتتحالف معها ضد شعوبها. وفى نفس الوقت تتغنى بمبادئ الديموقراطية، والتى قام عليها النظام الأمريكى. وهو أحد أشكال ازدواجية المعايير الشهيرة، معيار فى الداخل: الإعلان عن الديموقراطية فى أمريكا، ومعيار نقيض فى الخارج، وتدعيم القهر خارج أمريكا. فإذا ما تعارضت المصالح بين أمريكا

وحلفاء الأمس ونظمهم رفعت أمريكا راية الحرية والديموقراطية، وهددت باستخراج ملف حقوق الإنسان وانتهاكاتها التى طالما سكتت عنها فى عصر الوفاق والتفاهم والمصالح المشتركة. بل إنها قد تنقلب على حلفاء الأمس، وتعمل على تغييرهم بالقوة إما بخطف الرؤساء كما حدث مع نورويجا الذى كان شريك أمريكا فى تجارة المخدرات وقمع الشعب أو عن طريق العدوان المباشر، كما حدث فى أفغانستان والعراق. وهى التى خلقت نظام طالبان بمساعدة باكستان وشجعت أسامة بن لادن طالما يحارب النظام الشيوعى. كما أوحت لصدام بإمكانية العدوان على إيران ثم العدوان على الكويت دون تدخل منها. ووقع الزعيم فى الفخ مرتين عن قصد أو غير قصد.

ولا تزال تؤيد الكيان الصهيونى بالرغم مما يقترفه من مجازر ضد الشعب الفلسطينى. وتطالب بإقصاء عرفات بالرغم من أنه منتخب شعبيّا وديموقراطيّا. وحق كل شعب فى تقرير المصير مقرر فى المواثيق الدولية وفى وثيقة «إعلان الاستقلال» فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى دستورها الإنسان حر بالطبيعة والفطرة، لا فرق بين إنسان وآخر، بين فلسطينى وإسرائيلى، بين أسود وأبيض، بين فقير وغنى. وتخضع لجماعات الضغط الصهيونى داخل أمريكا حتى ولو كان مناهضًا للمصالح الأمريكية، استجداء للأصوات فى معركة الانتخابات الرئاسية، وحرصا على رءوس الأموال التى تسيطر عليها مراكز المال اليهودية.

٤ ـ وتناهض حركات التحرر فى العالم منذ الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى حتى الآن بالرغم من أن أمريكا لم تكن المستهدفة بل قوى الاستعمار التقليدى مثل فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا. كان همها وراثة الاستعمار التقليدى القديم وترسيخ أسس الاستعمار الأمريكى الحديث عن طريق إقامة القواعد العسكرية فى دول أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية أو تأسيس أحلاف عسكرية مثل حلف شمال الأطلنطى من أجل حصار النظم المعارضة وإدخال كل من يخرج من بيت الطاعة.

وتقف ضد تحقيق الأمانى الوطنية للشعوب فى الاشتراكية والوحدة.

فالاشتراكية شيوعية، وسيطرة الدولة على أدوات الإنتاج، مما يعارض الرأسمالية والاقتصاد الحر. بل إن كل محاولات تحقيق العدالة الاجتماعية مثل مجانية التعليم، ودعم المواد الغذائية، وتشغيل الخريجين، وتحديد الأسعار، والتعاونيات كلها من آثار الشيوعية. وكل المحاولات لإقامة نظم اشتراكية خاصة كالاشتراكية العربية أو الأفريقية أو التسيير الذاتى كلها شيوعية مقنعة مناهضة للرأسمالية، النظام الأوحد والطبيعى للبشر.

وتعارض كل محاولات الوحدة بما فى ذلك الوحدة الأوروبية التى قد تمثل خطراً على التفرد الأمريكى بالعالم. عارضت الوحدة العربية، واعتبرت زعماءها مثل عبد الناصر عدواً لها. بل إنها تعمل لتفتيت الكيانات المركبة من عدة قوميات مثل الاتحاد السوفييتى وأفغانستان وإيران والعراق والوطن العربى. فالوحدة قوة، وأمريكا هى القوة الوحيدة. والتجزئة ضعف لا تستطيع مواجهة القوة. ومن الأفضل أن يظل العالم مشتتا متجزئًا متشظيًا حتى يسهل ابتلاعه والسيطرة عليه وضمه إلى الفلك الأعظم؛ كى يدور فى مداره.

وتكره تقدم الشعوب بما فى ذلك الشعوب الأوروبية حتى يظل لها السبق فى الصناعة والتقنيات الحديثة. وتقبل منافسة كوريا واليابان والصين وهونج كونج وتايوان على مضض حتى لا ينقلب الميزان التجارى ضدها، كما هو الحال الآن مع اليابان. ومن الآن تحاصر الصين خوفًا من المستقبل. وتقود الآن أكبر حركة محافظة فى التاريخ ممثلة فى المسيحية الصهيونية والأصولية المسيحية واليهودية وقوى الرجعية السياسية باسم اختيار الرب والدفاع عن القيم الدينية.

٥ ـ تنشر الثقافة الأمريكية، والقيم الأمريكية، وتروّج للحلم الأمريكى، وأسلوب الحياة الأمريكى من خلال القنوات الفضائية والأفلام والإذاعات والكتب وهيئات المعونة وبرامج تحديث التعليم. فإذا ما تم ذلك تمت أمركة العقل والسلوك والنظرة للعالم حتى تصبح الثقافة الأمريكية ثقافة الاستهلاك والسوق، ومتع الحياة الحسية المباشرة هى ثقافة العالم. لذلك تقف ضد مشاريع الخصوصيات الثقافية بما فى ذلك الثقافة الأوروبية وحتى لا تتحول إلى خصوصيات سياسية وثقافات بديلة تحمل مشاريع سياسية مغايرة.

وأكثر من ذلك تقوم بتشويه ثقافات الشعوب المغايرة خاصة الثقافة العربية الإسلامية. وتساوى الإسلام بالعنف والإرهاب والتخلف والقهر وانتهاك حقوق الإنسان ومعاداة المرأة والأقليات. وتحول العرض التاريخى إلى جوهر ثابت. وتقرأ قراءة جزئية للتاريخ الإسلامى، وتنسى ازدهار العلوم والفنون والعمران فى الحضارة الإسلامية وتجلياتها فى الكوفة والبصرة وبغداد ودمشق والقاهرة، وفى ربوع الأندلس ومدنه: غرناطة وطليطلة وأشبيلية وقرطبة، حتى أقصى المشرق فى طشقند وبخارى وسمرقند وباكو وأصفهان وتبريز. وبعد الغزو الأمريكى للعراق نهب تاريخه ومتاحفه وجامعاته ومراكز أبحاثه. فسرقة الماضى لا تقل أهمية عن الاستيلاء على الحاضر.

هذه هى الأسباب الخمسة التى تدفع العالم كله إلى كراهية السياسات الأمريكية ممثلة فى إداراتها المتعاقبة وليس الشعب الأمريكى. وهى التى تساعد على نشأة التيارات المعادية لأمريكا باسم السلام ومعاداة الحرب من أجل الدفاع عن حريات الشعوب واستقلالها وضد العولمة من أجل توزيع عادل لثروات العالم بين الشعوب.

* * *

٢ـ جواب أمريكى لسؤال عربى: لماذا تكرهوننا؟(*)

وكما سأل الإعلام الأمريكى «لماذا يكرهوننا؟» موجِّهًا السؤال للعالم كله معبراً عنه بضمير الغائب فإننا أيضًا نحن العرب والمسلمين نسأل الأمريكيين: «لماذا تكرهوننا؟» بضمير المخاطب مباشرة. والإجابة عربية أيضًا عن طريق تحليل الذهن الأمريكى وتصوره للعالم، وإدراك الأمريكى لنفسه وللآخرين، والتعبير عن ذلك نيابة عنهم وإخراج ما فى اللاشعور إلى الشعور.

وإذا كانت الإجابة على السؤال الأمريكى للعالم «لماذا يكرهوننا؟» ليست دائمة ولا ثابتة لأن كراهية العالم للأمريكيين مسببة، لو تغيرت الأسباب: قوة الغرور، العدوان والهيمنة، تأييد النظم الديكتاتورية العربية والكيان الصهيونى، مناهضة حركات التحرر والتقدم ومحاولة تجزئة الوطن العربى وتفتيته، ونشر القيم والثقافة الأمريكية والحلم الأمريكى مع تشويه ثقافات الشعوب الأخرى فإن الإجابة العربية التى تعبر عن الذهن الأمريكى على السؤال العربى «لماذا تكرهوننا؟» إجابة ثابتة. فطالما ظل الواقع العربى والإسلامى على هذا النحو ستظل الكراهية الأمريكية للعرب والمسلمين. فالتاريخ لا يتغير، وقوانين التاريخ ثابتة. إنما الذى يتغير هو موازين القوى فى العالم بين الواقع والإمكان. وإذا كانت هذه الموازين لصالح أمريكا اليوم فمن يدرى فى صالح من تكون فى الغد ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ويمكن أيضًا إجمال الأسباب التى تدفع الأمريكيين إلى كراهية العرب والمسلمين فى خمسة:

(*) جريدة الاتحاد: ١٦ أغسطس ٢٠٠٣م، جريدة الزمان: ٥، ٦ أغسطس ٢٠٠٣م.

١ - يقدم العرب والمسلمون مشروعًا مناهضًا للمشروع الأمريكى الصهيونى، مشروعًا للتحرر والتنمية والتقدم الطبيعى فى مقابل مشروع الهيمنة والتسلط والعدوان. ويمثل المشروع العربى الإسلامى أكبر تحدّ للمشروع الأمريكى الصهيونى منذ الفتوحات الإسلامية الأولى حتى حركات التحرر الوطنى فى الستينيات وظهور المقاومة الإسلامية فى لبنان وفلسطين والعراق وكشمير وأفغانستان والشيشان.

أمريكا اللاتينية أرض لاهوت التحرير وجيفارا ونظريات التنمية المستقلة والحركات الشعبية أصبحت مهدًا للجريمة والمخدرات والقلاقل السياسية. «جيفارا مات» وإن كانت روحه لا تزال تبعث على الشجن، وتثير الخيال. وربما تعود الآن على مستوى العالم كله فى المظاهرات والتحركات الشعبية ضد العولمة ومنظمة التجارة العالمية ومنتدى دافوس والبنك الدولى وصندوق النقد وليس فى العواصم الأوروبية وحدها. ربما تعود روح الستينيات من جديد بعد أن انتكست فى العقود الثلاثة الأخيرة. فالتاريخ موجات من التحرر والمحافظة. وربما ينقلب التيار المحافظ المسيحى الصهيونى المسيطر فى الإدارة الأمريكية الآن إلى ضده، عودًا إلى الليبرالية الأمريكية للآباء المؤسسين التى قامت أمريكا عليها قبل أن تخونها وتصبح قوة استعمارية جديدة تخلف الاستعمار الأوروبى القديم.

وأفريقيا مطحونة بالديون الخارجية والحروب الأهلية والقحط والجفاف والصراعات على الحدود والأمراض المستعصية. لا تزال روح نكروما وسكوتورى وسنجور وكنياتا وكاوندا وموجابى ومانديلا سارية فيها، ولكن الإمكانيات محدودة، والخلافات كبيرة بالرغم من «الاتحاد الأفريقى». تنقصها الإرادة الواحدة والعمل الفعال المشترك؛ ليكتمل الخطاب الأفريقى وإعلان النوايا وصياغة الشعارات.

وشرق آسيا فى اليابان والصين وكوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج أو فى جنوبها فى سنغافورة وتايلاند مشغولة بالتفوق الاقتصادى والنمو السريع والسيطرة على الأسواق، وتؤجل ظهور «العملاق» السياسى للشرق، وتفضل تركه كامنًا

حتى تطمئن إلى التفوق الاقتصادى بالرغم من التآمر عليه بضرب العملة والتلاعب فى الأوراق المالية فى «البورصات» العالمية، من أجل القضاء على أسطورة «النمور الآسيوية» لتظل أسطورة «رامبو» الأمريكية هى الوحيدة المسيطرة على أذهان الناس. فأخطر شىء فى تحولات العالم هو الصور البديلة التى تدعو إلى إعادة النظر والاختيار.

لم تبق إلا المنطقة العربية الإسلامية التى لا تزال حية تتساءل عن ماضيها وحاضرها ومستقبلها، هويتها وخصوصيتها، تاريخها وحضارتها وثقافتها، دورها فى العالم. وتحاول أن تستكمل حركات تحررها الوطنى من الاستعمار القديم والجديد فى فلسطين والعراق. وتذكر بين الحين والآخر سبته ومليلية، وتقاوم فى أفغانستان وكشمير والشيشان. ولم تستسلم بعد. لا يزال عقلها يقظا بالرغم من محاولات الحصار والتهميش والتفتيت والعدوان المستمر عليها. منها يأتى التحدى للقطب الأوحد، أمريكا. لذلك تتقارب مع أوروبا التى تحاول أيضًا الخروج من منطقة النفوذ الأمريكى، وتقوم بدورها التقليدى فى التوازن فى العالم، حول البحر الأبيض المتوسط بشاطئيه: شماله الغربى، وجنوبه الغربى. وتريد أمريكا إجهاض هذا البديل من الآن حتى تطمئن إلى سيطرة القوة الوحيدة فى العالم بلا منازع.

٢ ـ وإذا كانت الصهيونية قد تغلغلت فى العقل الأمريكى لأسباب تاريخية واجتماعية وثقافية فإن العرب والمسلمين لا يزالون يقاومون الصهيونية، ليس فقط ككيان، فقد اعترفت بعض الأنظمة العربية به، ولكن كرؤية للعالم تقوم على العنصرية والعدوان وإنكار وجود الآخر.

فقد هرب اليهود من الاضطهاد الأوروبى، غربًا وشرقًا إلى العالم الجديد بحثًا عن المال والسلطان. وأسست المحافل الماسونية لذلك. فبعد سقوط غرناطة أبى اليهود التحول إلى المسيحية وغادروا إلى المغرب خاصة يحتمون بالعرب المسلمين بعد أن عاشوا معهم عصرهم الذهبى. وهرب آخرون إلى العالم الجديد. فالفرق سنتان بين سقوط غرناطة ووصول كولومبس إلى نصف الكرة الغربى. واستمرت الهجرات اليهودية إلى أرض المعاد، أمريكا، يستوطنون فيها حتى الدولة العثمانية

وقبول الهجرات اليهودية الأولى فى فلسطين فى بدايات القرن العشرين، ضيوفًا مزارعين، قبل أن يتحولوا إلى عصابات إرهابية كبداية لتأسيس الدولة اليهودية التى تصورها هرتزل. وبلغت الذروة أثناء الحرب العالمية الثانية هربًا من النازية. وساهم العلماء اليهود فى بناء الصرح العلمى الصناعى الألمانى، وأخذوا أموالهم وذهبهم وتعويضاتهم لاستثمارها فى الأرض الموعودة. وتحولوا إلى جماعة ضغط مرة باسم المال، ومرة أخرى باسم الإنسانية حماية للجماعات المضطهدة.

وما فعلوه فى أمريكا فعلوه فى أوروبا بالسيطرة على جانب كبير من إعلامها ومثقفيها. فاليهودية والمسيحية دينان متكاملان. والمسيح يهودى «إسينى»، روحى أخلاقى يمثل حركة إصلاح داخل اليهودية الشرعية الشكلية التجارية المتعاونة مع الرومان فى فلسطين، وبرأت اليهود من دم المسيح. وتحالفت مع القوى الاستعمارية الكبرى، إنجلترا أولاً قبل أمريكا ثانيًا. وفى نفس الوقت كانت صورة العرب والمسلمين صورة التركى العثمانى القاهر لشعوب شرق أوروبا، العصبى المتعصب، صاحب المزاج المتقلب كما وصفتها الأدبيات الغربية فى «رأسى التركى».

لا يزال العرب والمسلمون بكل تياراتهم الإسلامية والقومية والماركسية والليبرالية، يناهضون الصهيونية ويدافعون عن أراضى المسلمين والقدس، وفلسطين العربية، وحرية شعب فلسطين وحقوق الطبقات العاملة. لم يستسلم العرب والمسلمون بعدُ للصهيونية طريقًا للتحديث، وتنمية الموارد المادية والبشرية. ومن ثم تكرههم أمريكا؛ لأنهم يقاومون من استسلمت أمريكا لهم. ولا يزالون يفضحون الصهيونية كاستعمار استيطانى وكيان عدوانى توسعى. وهى نفس صفات الاستعمار الأمريكى أمام عدو واحد مشترك: العرب والمسلمين.

٣ ـ لا يزال العرب يمثلون إمكانية هائلة، مادية وبشرية، فى المستقبل نظراً لوضعهم الجغرافى فى وسط العالم. ويمثل المسلمون خمس سكان العالم أو يزيد. ينتشرون فى أكبر قارتين، آسيا وأفريقيا. لديهم أكبر احتياطى نفطى فى العالم. وعائدات النفط قادرة على تنمية قارات بأكملها. والأسواق فسيحة قادرة على

استيعاب المنتجات الصناعية الأمريكية. ثقافتها لا تزال حية. لم تقطع بعد مع ماضيها. دينها لا تزال به عناصر مقاومة العدوان ورفض جميع أشكال السيطرة والهيمنة﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]. وسيأتى يوم يصبح العرب والمسلمون فيه قوة عالمية قادرة على أن تحقق التوازن على صعيد العلاقات الدولية.

لا يكفى تحييد العرب، وحصار إيران، وتهديد تركيا، والتآمر على إندونيسيا وماليزيا، واستمالة باكستان، وربط الجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا بأسواق التجارة العالمية مباشرة أو عبر إسرائيل، بل من الضرورى احتلال أراضيهم، وقد تم احتلال أفغانستان والعراق، والاستيلاء على منابع ثروتهم: النفط، والقوات الأمريكية فى الكويت والبحرين على مقربة منه. ومن ثم يجب إجهاض هذه الإمكانيات منذ البداية حتى لا تتحول إلى واقع بفعل الزمن وقانون التاريخ.

لذلك من الضرورى احتلال آبارهم أو التواجد بالقرب منها ووضع اليد على عائدات نفطهم، وهجرة عقولهم، وتأييد نظمهم السياسية التسلطية، وتفتيت أوطانهم، وإلهاب ظهورهم بسوط الصهيونية. والأهم من ذلك القضاء على ثقافتهم وإحلال ثقافة الاستهلاك محلها بدلاً من ثقافة المقاومة، وجعلهم تابعين للغرب الأمريكى، ساعين وراء الحلم الأمريكى، وتطبيق النموذج الأمريكى حتى يذوب المتحدى فى القطب الأوحد، وتمحى مخاطره لعقود قادمة.

٤ ـ وينتشر الإسلام فى أمريكا. ويمثل المسلمون يومًا بعد يوم قوة ضغط قد تزيد يوما عن قوة الضغط الصهيونى. عشر الأفارقة الأمريكيين من المسلمين. وبأمريكا الآن من العرب والمسلمين المهاجرين ما يعادل عدد اليهود أو يزيد. لهم مراكز علمية مرموقة، ويحظون باحترام المجتمع الأمريكى بالرغم من مظاهر الاضطهاد الأخيرة لهم وما يعانى منه الملونون من اضطهاد بسبب لون البشرة أكثر منه بسبب الدين أو الثقافة. وقامت مؤسسات عربية وإسلامية ومراكز أبحاث بل وجامعات مؤثرة فى المجتمع الأمريكى. بل ويتحول كثير من الأمريكيين البيض، «الواسب ـ Wasp»، زبدة المجتمع الأمريكى، إلى الإسلام. والإسلام هو الدين

الثانى فى أمريكا وأوروبا بعد المسيحية. تاريخه وآثاره وحضارته وعمرانه شاهدة عليه. فالإسلام لم يعد عربيًا أو أفريقيًا أو آسيويًا بل أيضًا أوروبيًا أمريكيًا يعبّر عن الثقافات المحلية قدر تعبيره عن الثقافة التوحيدية.

فإذا كان الأمريكيون يعتمدون على قوة السلاح لغزو العالم العربى والإسلامى، فإن الإسلام يعتمد على نسق قيمه وحضارته على الانتشار داخل أمريكا دون سلاح. ولا يصدق أحد ما تروّج له أجهزة الإعلام الأمريكى من ربط الإسلام بالعنف والإرهاب والتخلف والتصلب والتعصب وخرق حقوق الإنسان والمرأة والأقليات بفضل بعض المثقفين والعلماء الأمريكيين الذين يكتشفون زيف الإعلام الأمريكى، وكما كشف عن ذلك مركوز فى «الإنسان ذو البعد الواحد».

لقد قاوم الإسلام فى أمريكا العنصرية والجريمة المنظمة والاستغلال، وظهر من بين المسلمين الأمريكيين من أصل أفريقى مثل مالكولم إكس من يبعث القيم الإسلامية من وسط المستنقع الأمريكى، ويعطى الأقلية السوداء أملاً فى الحرية والتقدم والمساواة وتأسيس مجتمع خال من التمايز الطبقى. ويقاومون من الداخل المشروع الأمريكى الصهيونى للتوسع والهيمنة على مقدرات العالم.

٥ - وإذا كانت عقدة النقص الأمريكى أن الأمريكيين شعب بلا تاريخ بل مجموعة من الهجرات الأوروبيّة فى الأربعة قرون الأخيرة بعد استئصال السكان الأصليين، فإن هذه العقدة تتجلى فى تعاملهم مع الشعوب التاريخية والثقافات العريقة مثل الثقافة العربية الإسلامية. تضعها فى متاحفها، وتتمنى أن يكون لها تاريخ مثلها. يكره الأمريكيون الشعوب التاريخية لما تتميز به من عمق حضارى يغارون منه، ويتمنون مثله. والصين والعرب والمسلمون شعوب تاريخية. لذلك تحاول حصار الصين، وتحجيم هذا العملاق. كما تحاول احتلال أوطان العرب والمسلمين وتجزئتها وتشويه ثقافتها. إن المعابد فى العراق ومصر والصين لا يمكن استيرادها وشراؤها إلا بآلاف السنين وهو ما لا تملكه أمريكا حتى ولو امتلكت آلاف المليارات.

لذلك تميز الأمريكيون بنقص الوعى التاريخى، وقصر النظر السياسى، وعدم

التعلّم من التاريخ الذى لا يعرفونه ولا يتمثلون قوانينه . يكفيهم غرور القوة وعزة الحاضر . الحاضر هو الذى يصنع الماضى عندما يصبح تاريخًا . والمستقبل لا وجود له ما دام الحاضر قادراً على الاستمرار والنصر . لم تنشأ فلسفات تاريخ فى الفكر الأمريكى بل نشأت فلسفات الفرد والعمل والإنجاز وعلى أقصى تقدير الفرد والعالم، وليس الفرد والمجتمع للأولوية المطلقة للفرد على الجماعة .

هذه هى الأسباب الخمسة التى تكمن فى الوعى الأمريكى ، والتى تجعل الناس يكرهون الأمريكيين . لهذا تحتاج أمريكا إلى إعادة بناء من جديد بناءً على إعلان الاستقلال والدستور وفلسفة التنوير التى قامت عليها أمريكا فى بدايتها ، عندما استقلت عن بريطانيا ، وعلى أرضها قامت عصبة الأمم ثم الأمم المتحدة إعلانًا عن ميلاد حضارة إنسانية جديدة تخلت أمريكا المعاصرة عنها ، وعادت إلى شريعة الغاب ومسدس راعى البقر .

* * *

٣ـ التحالف مع الخارج أم التحالف مع الداخل؟

إن المتأمل فى حال النظم العربية حاليًا مقارنة بحركات الشارع العربى يجد أنها تعطى الأولوية للتحالف مع الخارج على التحالف مع الداخل، فبدا القرار العربى أمريكى التوجه يدافع عن الرؤية الأمريكية والمصالح الأمريكية والهيمنة الأمريكية فى حين يتحرك الشارع العربى فى الاتجاه المضاد المعادى لأمريكا والهيمنة الأمريكية والعدوان الأمريكى والغزو الأمريكى. ومن ثم يبرز سؤال: أيهما أفضل لإبقاء النظام السياسى وللدفاع عن مصالح الشعوب فى آن واحد، التحالف مع الخارج أم التحالف مع الداخل؟

ويتوجه السؤال أولاً للحكّام، أيهما أقرب لهم، وأشد لأزرهم وأبقى لحكمهم، التحالف مع الخارج أم التحالف مع الداخل؟ إن الأجنبى لا يتحالف مع الحاكم إلا إذا كان عميلاً أو تابعًا يحقق مصالحه ويمتثل لأمره ويقبل جنوده وقواعده، ويدخل فى أحلافه، ومن أراضيه ينطلق العدوان على دول الجوار التاريخى. ويضطر الحاكم لذلك؛ لأنه فاقد للشرعية فى الداخل. لم يقم حكمه على بيعة حرة من الناس، واختيار إرادى منها بل يستمد شرعيته من ملكية وراثية أو من انقلاب عسكرى. وكلاهما نظام غير شرعى. فالملكية الوراثية تستمد شرعيتها من الأسرة المالكة، والانقلاب العسكرى يستمد شرعيته من القوة العسكرية، حتى ولو كان لكل نظام واجهته الدستورية والبرلمانية المزيفة بالتعيين أو بالتزوير لممثلى الشعب ومجالس الأمة والبرلمانات التى يسيطر عليها الحزب الحاكم، والتى تقتصر مهمتها على التصديق على قرارات الحكومة وتبرير اختياراتها السياسية المملاة من أعلى سلطة فى الحكم وهو الملك أو الأمير أو الرئيس أو السلطان.

(*) جريدة الزمان: ١٠ مارس ٢٠٠٣م.

وقد تلتف حول الملك أو الرئيس العسكرى طبقة رجال الأعمال والمتنفعين والمهربين والمتاجرين فى السوق السوداء والممثلين لرأس المال العالمى. فيتحول من حكم الفرد إلى حكم الطبقة، ومن حكم القوة إلى حكم رأس المال. فتتأسس القوة السياسية على القوة الاقتصادية. ويكون الدفاع ليس فقط عن النظام السياسى بل عن الوضع الاقتصادى. ويصبح الحزب الحاكم أكثر شراسة؛ لأنه لا يدافع فقط عن الوضع السياسى القائم، بل عن مصلحته الشخصية وثروته المتراكمة وأمواله المهربة ومستقبله المهدد.

فإذا كان الملك أو الرئيس أو الأمير أو السلطان أو حاكم البلاد من طائفة أو عرق، قرّب طائفته واعتمد على عرقه، وأصبح الحكم طائفيًا مذهبيًا دون سائر الطوائف أو عرقيًا دون سائر الأعراق. وضاعت المواطنة وغابت المساواة فى الحقوق والواجبات بين المواطنين. واشتدت النزاعات الطائفية والعرقية، وتهددت المصالح الوطنية. وغابت الدولة التى تمثل الجميع وضعف الولاء لها، وفقدت شرعيتها فيسهل عصيانها والثورة عليها والخروج على النظام باسم الطوائف المهمّشة المحرومة حتى ولو كانت الأغلبية، طائفة فى مقابل طائفة أو باسم الدولة الوطنية اللاطائفية التى يعيش فى كنفها الجميع.

ويستقر النظام العميل أو التابع طالما أنه قادر على تقديم الخدمات للأجنبى لقاء الدعم الخارجى، وطالما أن الوطنى فى الداخل راضٍ بالهم ومتنازل عن الكرامة والاستقلال. وكلما تمادى النظام فى الولاء للأجنبىً على حساب الوطنى، قطع جسوره مع الوطنى حتى يصل امتهان الكرامة إلى حد لا يمكن تحمله، فتنتفض الجماهير وتندلع الهبات الشعبية الممثلة فى الطلاب والعمال وربما فى الفلاحين عندما يشتد القهر ويعم الفقر وينتشر الضنك والضيق والحنق.

ويستعمل النظام كل ما لديه من وسائل للسيطرة على الداخل وهو مطمئن إلى رضا الخارج ومساعدته. فتقوى الشرطة على حساب الجيش، والداخلية على حساب الدفاع، والأمن الداخلى على حساب الأمن الخارجى. وتتنوع قوى الشرطة من أمن مركزى وحرس جمهورى وأحيانًا يسمى الوطنى أو الخاص،

وأمناء شرطة، وأجهزة الأمن الداخلي مثل مباحث أمن الدولة والبوليس السرى، وحراس النظام ضد العدو الأول وهو الشعب، ومظاهرات الطلاب، وأحزاب المعارضة، وطليعة المجتمع، ورموز النضال الوطني.

فإذا ما تخلى الأجنبي عن النظام العميل أو التابع لأنه أصبح عبئًا عليه، لا يقوى على تقديم الخدمات له، وبدأ النظام في الاهتزاز تحت وطأة المعارضة والهبات الشعبية تخلى عنه كما تتخلى أمريكا عن حلفائها بعد استخدامهم، مثل ديم في ڤيتنام الجنوبية لحظة انهيار النظام في سايجون، وشاه إيران الذى لم يجد قطعة من الأرض تأويه حيًا يعيش عليها أو ميتًا يدفن فيها. والأجنبي لا يهتم بالحاكم بشخصه بل بوظيفته وأدائه وقدرته على تنفيذ ما يطلب منه. والتاريخ شاهد على ذلك، تخلى الإنجليز عن الملك فاروق بعد الثورة فى ١٩٥٢م فى مصر، وتخلى الفرنسيين عن الجلاوى العميل فى المغرب بعد رجوع محمد الخامس من المنفى، وتخلى الأمريكيين عن سلطان برقة وطرابلس بعد الثورة الليبية فى ١٩٦٩م.

التحالف مع الخارج على حساب التحالف مع الداخل خطأ فى قانون الهوية، إن الأنا هو الأنا قبل أن يكون غير الآخر. الهوية مع الذات تسبق الاختلاف مع الآخر. فالعرب هم العرب أولاً قبل أن يكونوا مع أمريكا أو ضدها. فالهوية تسبق الاختلاف، هو قلب للموازين ولطبائع الأشياء نبهت عليه الديانات السماوية والشرائع الإنسانية والقيم الخلقية والبداهات العقلية مثل «اعرف نفسك بنفسك» عند سقراط، ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٤٤] فى القرآن الكريم، وكما قال السيد المسيح «اقتلع القشة من عينك قبل أن تطلب قلعها من عين أخيك». الأنا قبل الآخر، والهوية قبل الاختلاف. وكما قال الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

متى إذن يتم التحالف مع الداخل قبل التحالف مع الخارج؟ متى تعود الأمور إلى طبيعتها، ويعود إلى العرب التوازن بين أحلاف الداخل وأحلاف الخارج؟ يحدث ذلك عندما يأتى نظام الحكم بيعة من الناس واختياراً حرا منهم. عندما يشعر الناس

أن هذا النظام منهم، ويعمل لصالحهم ويدافع عن أوطانهم ويساوى بين الناس أمام القانون. هو النظام الديموقراطى الشعبى الجماهيرى الدستورى والذى لا تزال الحركات الوطنية تطالب به باسم المجتمع المدنى مرة، وباسم حقوق الإنسان مرة أخرى، دفاعًا عن حرية الفرد وديموقراطية الحكم والتعددية السياسية وتداول السلطة. هو النظام الذى يحرص على حريات الأفراد، من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعًا، ويدافع عن حقوق الشعوب فى الاستقلال وحق تقرير المصير، كما قررت الشرائع السماوية والمواثيق الدولية.

إن التحالف مع الداخل قبل التحالف مع الخارج يتطلب الثقة بالنفس ومعرفة إمكانياتها والعمل على حشد طاقاتها دون إعطاء النفس أقل مما تستحق وإعطاء الآخر أكثر مما يستحق. لا يتطلب نظرة دونية للنفس ولا تصوراً تعظيميّا للآخر. فالأنا لا يزال صامداً فى التاريخ منذ الغزوات الصليبية والاستعمارية الحديثة من الغرب والهجمات المغولية التتارية من الشرق. لا يزال حيّا مملوءاً بالقلق تجاه الحاضر والخوف من المستقبل، يثير التساؤلات حول الماضى والمصير.

وهو ليس الأنا الفردى المنعزل الوحيد كالقنفذ المختفى عن أعين الآخرين. بل هو الأنا الجغرافى التاريخى الحضارى. هو الأنا الممتد بلا حدود جغرافية مصطنعة من صنع الاستعمار الغربى بعد سقوط دولة الخلافة وتقطيعها إلى أشلاء وتوزيعها على القوى الغربية المنتصرة. وتحررت الأجزاء فى أشكال دول وطنية. استقلت عن المستعمر الأجنبى، ولكنها حتى الآن لم تعد إلى وحدتها الأولى التى خرجت منها.

ومن هنا أتت أهمية التعاون الإقليمى، والاعتماد المتبادل بين دول الجوار. والأقربون أولى بالشفعة. فالأنا بلا حدود. حدودها مفتوحة جغرافيّا فى المكان وممتدة تاريخيّا فى الزمان. لا فرق بين الأنا القطرى والأنا العربى والأنا الإسلامى، دوائر متداخلة تشترك فى نفس المركز: الوجدان المشترك، التاريخ المشترك، الثقافة المشتركة، والمصالح المشتركة. يمثل الأنا موقعًا جغرافيّا وتاريخيّا وبشريّا فى منطقة واحدة عرفت الانتقال والحركة عبر المصاهرة بعد الفتوحات الأولى. وفى الثقافة

توحد بين البشر فى الأهداف وإن اختلفت الأقوام فى اللغات والمناهج والشرائع وأساليب الحياة والعادات والتقاليد والأعراق.

وليس من الصعوبة بمكان، وليس من المستبعد أيضًا أن يحدث التوازن بين التحالف مع الخارج والتحالف مع الداخل بعد أن تعطى الأولوية أولاً للتحالف مع الداخل قبل التحالف مع الخارج، حتى يعود التوازن طبقًا لقانون الفعل ورد الفعل، وطبقا لقانون الجدل بين الموضوع ونقيض الموضوع ومركب الموضوع.

وقد حدث ذلك من قبل فى تاريخنا الحديث عندما أمَّم عبد الناصر قناة السويس فى ١٩٥٦م فتحول من عسكرى ديكتاتور صغير، وزير للداخلية فى أزمة مارس ١٩٥٤م، وأمر بإطلاق النار على مظاهرات الطلاب التى كانت تنادى بالديموقراطية وبعودة الجيش إلى الثكنات، إلى زعيم وطنى رائد لحركات التحرر فى العالم الثالث كله، بعد أن رأى تحكم الأجنبى وفرضه الدخول فى حلف بغداد ورفضه تمويل السد العالى.

قد ينشأ جيل جديد من الضباط الأحرار قادر على حماية الوطن والدفاع عن كرامته واستقلاله، يعيد الحلم المجهض ويسترد الأمل الضائع فى الخمسينيات والستينيات. فالعرب فى حاجة إلى حركة تحرر وطنى ثانية فى هذا العقد من الزمان تكمل حركة التحرر الوطنى الأولى. فلا تزال الجيوش هى التى حاربت فى فلسطين خمس مرات على الأقل، والتى تكوّنت منها خلايا مقاومة الاحتلال والاستعمار الأجنبى. وقد تندلع هبّات شعبية مستديمة وليست وقتية مثل الانتفاضة الشعبية فى يناير ١٩٧٧م، وتحرك الأمن المركزى فى يناير ١٩٨٦م. فقد بلغ السيل الزبى، والكل يرى مذابح الفلسطينيين كل يوم وتدمير المنازل وتجريف الأراضى وتصفية النشطاء، والعدوان المبيت على العراق وبؤس شعبه ويُتم أطفاله بعد حصار اثنى عشر عامًا من قوى العدوان دون سند شرعى من قانون دولى، وقد استطاعت الثورات الشعبية القضاء على حكم ماركوس فى الفيليبين ، وسوهارتو فى إندونيسيا.

وقد يستيقظ زعيم عربى كما استيقظ المهلهل بن أبى ربيعة بعد مقتل أخيه كليب «اليوم خمر وغداً أمر»، وتحول من حال الرضا بالدنيا إلى الشوق إلى الآخرة.

ما بين غمضة عين وانتباهتها   يغير الله من حال إلى حال

ونحن نعيش فى ثقافة لا يزال يرسخ فيها الزعيم والمنقذ والبطل والمخلص وابن البلد والفتوة والمهدى المنتظر، وكلما اشتد الضنك قوى الحلم بالخلاص. والكل يتساءل أين خلفاء أحمس وصلاح الدين ومحمد على وعبد الناصر؟ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

* * *

٤ ـ الإسلام وأمريكا ... من يخيف من؟

كانت الجلسة السادسة عشرة فى ندوة «الإسلام وحوار الحضارات» التى عقدت من ١٧ ـ ٢٠ مارس الماضى بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض مخصصة لمحاضرة وحيدة لريتشارد مورفى سفير أمريكا السابق فى عديد من البلدان العربية بعنوان «العلاقة بين الشرق والغرب». وبصوت هادئ وناعم وملائكى عبر عن وجهة النظر الأمريكية تجاه الإسلام، فأمريكا قائدة العالم وقطبه الأوحد. هى التى تحدد المعيار وتصدر الحكم. وهى التى تتهم وتدين وتنفذ الأحكام. أمريكا هى القيّمة على العالم. ولما كان الخطر بعد حوادث ١١ سبتمبر فى نيويورك وواشنطن فى رأى الولايات المتحدة الأمريكية هو الإسلام، والحركات الإسلامية، جعلته عدوها الأول بعد سقوط النظم الاشتراكية وحاجة أمريكا إلى عدو جديد سرعان ما وجدته فى الإسلام. تساعد الجيش الفيليبينى على القضاء على الجبهة الوطنية الإسلامية «مورو» فى جنوب الفيليبين التى تنادى بالاستقلال. وتصمت عن الغزو السوفيتى للشيشان كما صمت الاتحاد السوفيتى عن الغزو الأمريكى لأفغانستان، وإقامة القواعد فى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى، وتهديد پاكستان، وتدعيم الهند فى عدوانها على كشمير، وتسميتها حركة التحرر الوطنى الكشميرى بالإرهاب، وإدخالها حزب الله فى جنوب لبنان وحماس والجهاد فى فلسطين وسوريا وإيران واليمن فى قائمة الإرهاب. مع أن الحركات الإسلامية المعاصرة منذ الأفغانى هى منبع حركات التحرر الوطنى، وتعود الآن بعد تعثر الاستقلال لاستئناف مشروع التحرر الوطنى فى فلسطين سواء من خرج منها من السجون

(*) جريدة الزمان: ١٠ أبريل ٢٠٠٢م.

وأصبح له وجود شرعى مثل الأردن والكويت واليمن أو التى لا تزال فى السجون لا شرعية كما هو الحال فى مصر وتونس وليبيا وسوريا والعراق.

وكان السؤال هو: لماذا يكرهوننا؟ وهو سؤال مغلوط؛ لأنه يجعل الجانى هو الضحية. والسؤال الصحيح لماذا نحن مكروهون؟ والجواب واضح. لقد تفردت أمريكا بالعالم فى العقد الأخير بعد عصر الاستقطاب، وأصبحت تتفرد بالقوة والحكم.

وليس هذا بغريب. فقد مرت أمريكا بنفس الفترة أثناء حرب ڤيتنام. ونشأت الحركات المناهضة للحرب وأنصار السلام لإيقاف العدوان الأمريكى على الشعب الڤيتنامى. والآن تكرر أمريكا نفس الموقف بالعدوان على أفغانستان، وتأييد العدوان الصهيونى على الشعب الفلسطينى، وتهديد سوريا والسودان وجنوب لبنان وإيران. ومن ليس معها فهو ضدها. ودولتان اثنتان من محور الشر عربيتان: العراق، وإيران. والعرب الأفغان الذين جاهدوا ضد الغزو السوڤييتى لأفغانستان وبتدعيم من الولايات المتحدة أسرى مكبلو اليدين والرجلين فى جوانتانامو لمجرمين. وبعد مؤتمر ديربان عن مناهضة العنصرية رفضت أمريكا حتى الاعتذار للأفارقة لأسرها وخطفها ثلاثة عشر مليونًا إلى نصف الكرة الغربى عبيداً لتعمير الأرض الجديدة. كما رفضت مساواة الصهيونية بالعنصرية بعد كل الجرائم التى اقترفتها إسرائيل ضد الشعب الفلسطينى، وإذا كانت أمريكا قد بدأت تخاف من الإسلام منذ أن كان الأتراك على أبواب ڤيينا عام ١٥١٧م، فكذلك يخاف العرب والمسلمون من أمريكا منذ تدعيمها المطلق لإسرائيل، وتهديدها باقى الدول العربية والإسلامية، وغزوها الأخير لأفغانستان. وقد استأصلت السكان الأصليين فى نصف الكرة الغربى، واعتدت على كوريا بعد ڤيتنام وحاولت غزو كوبا وپنما وسان دومنجو، وأنزلت جنودها فى لبنان، وأقامت القواعد فى الظهران وتركيا والخليج، ووقفت للقومية العربية بالمرصاد منذ فوستر دالاس فى ١٩٥٤م، وإقامة حلف بغداد ثم الحلف الإسلامى ضد حركة التحرر الوطنى العربى، وإيقاعها بين العراق وإيران، والعراق والكويت؛ لإضعاف العرب والمسلمين لصالح إسرائيل.

وتعيب أمريكا على العرب والمسلمين اتهامها مع الغرب بالمادية والانحلال، وأنها حضارة مارلين مونرو ومادونا. وهو حكم عام وشائع ليس فقط من المفكرين المسلمين المعاصرين مثل محمد إقبال والأفغانى، بل أيضًا من الفلاسفة الغربيين أنفسهم مثل هوسرل وبرجسون وماكس شيلر وغيرهم.

كما تعيب عليهم عدم أخذهم بالعلمانية كنموذج للحياة ونمط للتحديث وتخليهم عن الدين والتراث والتمسك بالقديم. والعلمانية تجربة غربية خالصة بدأت فى الغرب، وهو فى بدايات العصور الحديثة عندما استحال الجمع بين الماضى والحاضر، بين القديم والجديد، بين الكنيسة والدولة. فكان لا بد من الفصل بين السلطتين، والبداية بالجديد بعد نقد القديم، العقل مع الطبيعة لإنشاء العلم الطبيعى، والعقل فى المجتمع لإنشاء العلم الاجتماعى. وقد اختار الشرق نموذجًا ثانيًا، التجاور بين القديم والجديد، وتقسيم العمل فى تآلف وتناغم. القديم للحياة الخاصة والجديد للحياة العامة. التراث للفن والدين والأعياد بما فيها من مظاهر الخرافة. والتحديث للعلم والصناعة مثل الغربيين. فلا يدخل، بوذا وروح الإمبراطور وكونفوشيوس فى المصنع، ولا يدخل المصنع فى المعبد ودور العبادة. أما الإسلام فإنه اختار نموذجًا ثالثًا، الجمع بين القديم والجديد، فالجديد يخرج من القديم فى تواصل وانقطاع. المسيحية قراءة روحية لليهودية، والإسلام قراءة أخلاقية للمسيحية واليهودية وحرية الاختيار بين الشريعة والمحبة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]. فلماذا تكون العلمانية الغربية هى النمط الوحيد للتحديث؟ تكون كذلك كأحد أشكال الهيمنة الغربية على ثقافات الشعوب، وفرض المركز نموذجه على الأطراف.

إن الإشكال الأمريكى هو إقامة القوة على المصلحة وليس على العدل. وهو ما يضاد الروح الأمريكى التى حملها الآباء المؤسسون الأوائل، والتى عبرت عنها الدساتير والمواثيق الأمريكية، مثل وثيقة إعلان الاستقلال الموضوعة بجوار ناقوس الحرية فى فيلادلفيا وأمريكا تحتفل عام ١٩٧٦م بمرور مائتى عام على الاستقلال. فالثورة الأمريكية فى النهاية بنت الثورة الفرنسية.

إن ما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١م فى واشنطن ونيويورك هو فى الحقيقة رد فعل على ما حدث فى ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٠م عندما بدأت الانتفاضة الفلسطينية الثانية، وتركت بمفردها تقاوم أعتى جيوش الاحتلال، فصرخ العرب والمسلمون، وانفجر الغضب ضد رموز القوة والسيطرة الاقتصادية فى مركز التجارة العالمى، والعسكرية فى البنتاجون، والسياسية فى البيت الأبيض، وكما حدث فى تدمير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما من الداخل كرد فعل على تدمير جماعة «ويكو» الدينية. وهو غضب يشبه المظاهرات الغاضبة ضد العولمة فى سياتيل وبراج ودافوس وپاريس ولندن وجنوة. وهى كلها مظاهر إيجابية تنبئ بعالم أفضل قادم. فشتان ما بين الإرهاب والمقاومة، بين الإرهاب الدولى ومقاومة الأفراد، بين إرهاب النظم ومقاومة الجماهير.

* * *

٥ـ التجمع الإقليمى فى مواجهة العولمة

دعا نجم الدين أربكان فى محاضرة عامة فى ندوة «الإسلام وحوار الحضارات» التى عقدت بمكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض فى ١٧ ـ ٢٠ مارس الماضى إلى إقامة تجمع إقليمى يضم ماليزيا وإندونيسيا وپاكستان وإيران وتركيا ومصر ونيجيريا فى مواجهة مجموعة الثمانى الغربية الأكثر تصنيعًا: ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وكندا وروسيا بالإضافة إلى اليابان والولايات المتحدة والتى تكوّن قلب العولمة. وهو إحياء لروح باندونج فى ١٩٥٥م، وعود إلى منظمة تضامن الشعوب الإسلامية الآسيوية والأفريقية ودول العالم الثالث فى مواجهة الغرب الاستعمارى التقليدى فى عصر الاستقطاب. ويبدأ هذا التجمع الجديد ابتداءً من حوار الحضارات حتى تقوى أواصر الشعوب أولاً قبل الدخول فى التجمع الاقتصادى التجارى الصناعى. ويكون مركزه المملكة العربية السعودية مهد الإسلام، بالرغم من وجود المركز العالمى لحوار الحضارات فى طهران، ودعوة الرئيس خاتمى لذلك، واعتبار الأمم المتحدة عام ٢٠٠٠ عام الحضارات، وكأن المشكلة هى خلق مراكز جديدة فى دول غنية برئاسة زعماء الأحزاب الإسلامية التى تحاول أن تلعب دوراً على الساحة الدولية بعد أن اشتد الحصار عليها داخل البلدان الإسلامية، وحتى لو تم القيام بهذا الدور بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية من أجل صياغة إسلام دولى تجارى عولمى جديد، يتأقلم مع النظام الدولى الجديد ذى القطب الواحد، وبعيداً عن الإرهاب والعداء للغرب والحركات الاستشهادية والجهاد فى سبيل استقلال الأوطان.

كان عنوان محاضرة أربكان «علاقة الإسلام بالغرب»، نظرة مستقبلية. وأطال

فيها حتى أمل. ونظراً لأنه محروم من ممارسة العمل السياسى لمدة خمس سنوات فإنه لم يشأ أن يتعرض للعلاقة السياسية بين الإسلام والغرب، فالجيش لا يزال له بالمرصاد، فقد تخفى وراء تاريخ العلم العربى الإسلامى، وكيف أن العرب والمسلمين سبقوا الغرب الحديث فى كثير من الاكتشافات العلمية فى العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وتأسيس المراصد واختراع التقنيات الحديثة. وهى مادة معروفة باسم «تاريخ العلوم عند العرب»، تدرس فى الجامعات العربية والإسلامية، وفيها عشرات المراجع، وتخلو من أى بعد سياسى.

وبين الحين والآخر تطلق أحكام مطلقة على الغرب وعلى الإسلام لإحياء هذه المادة العلمية الميتة، مثل أن الغرب لا يعرف الحق مع أن تجربة الغرب الحديث كلها فى البحث عن الحق منهجيًا وموضوعيًا ضد المعارف المسبقة والحقائق المعطاة سلفًا من أرسطو أو بطليموس أو آباء الكنيسة، وكما قال لسنج من قبل: «والله لو وضعوا الحقيقة فى يمينى والبحث عن الحقيقة فى يسارى لاخترت يسارى».

ثم يوضع تقابل بين الغرب والإسلام بحيث يبدوان على النقيض. فالغرب آلة جهنمية لإشعال الحرب، والإسلام يطفئها لصالح السلام. وتقوم الحضارة الغربية على الصراع فى حين تقوم الحضارة الإسلامية على الحوار. ونشأت المدنية الغربية على الاستغلال. ويقوم السلوك الغربى على المعيار المزدوج وازدواجية المعايير: معيار للغرب، وآخر لغير الغرب، معيار للكيان الصهيونى، وآخر لشعب فلسطين. ويستمر هذا التقابل بين الآخر والأنا كالتقابل بين الغرور والتواضع، بين القهر والتحرر، بين الشيطان والملاك، بين تبرئة للنفس وإدانة للآخر، كما هو الحال فى الوعظ الدينى والسياسى.

أما المستقبل فإنه يتطلب من المسلمين البحث والتخطيط، وإقامة النظام العادل، وتأسيس هيئة للحوار، وإقامة مؤسسة أشبه بالڤاتيكان. وهى كلها تحليلات تصف ما هو كائن فى الغرب، وما ينبغى أن يكون عند المسلمين. وهو خطاب دال على الأوضاع فى تركيا، ومخاطبة الجماهير الإسلامية التى تشعر بالإحباط تجاه نهضتها الحديثة، وتبتعد عن التجربة العلمانية التى قادها مصطفى كمال أتاتورك وأنصار

جماعة الاتحاد والترقى، والقومية الطورانية، وتركيا الفتاة والتى انتهت إلى التقليد الأعمى للغرب. والآن تئن تركيا من التضخم والانهيار الاقتصادى وضياع الهوية. ولا يزال الغرب يرفضها كجزء منه بحجة ملف حقوق الإنسان. والحقيقة أن الغرب لا يزال يعتبرها الآخر وليس الأنا، المغاير وليس الشبيه. لم ينس تاريخها الحديث عندما انتشرت فوق بلاد البلقان، ووصلت حتى أبواب ڤيينا. ولن يسمح الغرب بوجود دولة إسلامية فى أوروپا الشرقية كجزء منه حتى يظل عنصريًا شوفينيًا. تكفيه معاناته من الأتراك داخل ألمانيا، ومن الوجود الإسلامى داخل القارة الأوروپية حتى أصبح الإسلام هو الدين الثانى فى الغرب.

ورفض أربكان أن يدخل فى حوار سياسى. فالحظر مفروض عليه. وآثر أن يتم النقاش فى دوائر مغلقة وجلسات خاصة وليس على الملأ. فأعضاء السلك الدپلوماسى التركى فى القاعة، وعيون الجيش عليه. رفض حتى أن يجيب عن علاقة تركيا بإسرائيل والحلف الدفاعى والتعاون العسكرى بينهما منذ أن كان رئيسًا للوزراء. لقد فعلها الجيش وليس الحكومة. جعل معركته فى تركيا الحجاب والتقاليد والمدارس والتعليم الدينى دون أن ينهض بتركيا اقتصاديًا وسياسيًا حتى يلتف حوله الناس. جعل التقابل بين العلمانية والإسلام كنقيضين على التبادل، مع أن مقاصد الشريعة الخمسة: الدفاع عن الحياة والعقل والحقيقة والعرض والمال، يمكن أن تكون نقطة التقاء بين الإسلام والعلمانية. فالإسلام دين علمانى فى جوهره، يرفض سلطة رجال الدين، وخال من الكهنوت، ويقوم على العقل والحرية والعلم وحقوق الإنسان. إنما الخلاف فى الألفاظ أو فى الصراع على السلطة بين قوتين سياسيتين: الأولى تتذرع بالعلمانية، والثانية تحتج بالإسلام.

* * *

لنفس المؤلف

أولاً: تحقيق وتقديم وتعليق:

١ ـ أبو الحسين البصرى: المعتمد فى أصول الفقه، جزءان: المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥م.

٢ ـ الحكومة الإسلامية للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩م.

٣ ـ جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠م.

ثانيا: إعداد وإشراف ونشر:

١ ـ اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١م.

ثالثا: ترجمة وتقديم وتعليق:

١ ـ نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين، الإيمان باحثًا عن العقل لانسليم، الوجود والماهية لتوما الأكوينى)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٦٨م، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨م، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١م.

٢ ـ اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣م، الطبعة الثانية الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٣م، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١م.

٣ ـ لسنج : تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت١٩٨١م.

٤ ـ جان بول سارتر : تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢م.

رابعًا: مؤلفات بالعربية:

١ ـ قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١م، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٧م.

٢ ـ قضايا معاصرة، الجزء الثانى، فى الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢م، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٨م.

٣ ـ التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١م، الطبعة الثالثة، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧م، مجد، بيروت ٢٠٠٠، ٢٠٠٢م.

٤ ـ دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١م، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت١٩٨٢م.

٥ ـ من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات)، الطبعة الأولى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٨م.

٦ ـ دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨م.

٧ ـ الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢ ـ ١٩٨١م)، (ثمانية أجزاء)، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩م.

٨ ـ حوار المشرق والمغرب، توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٠م (بالاشتراك مع

محمد عابد الجابرى)، مدبولى، القاهرة ١٩٩١م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت١٩٩٥م.

٩ ـ مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١م، مجد، بيروت ١٩٩٤، ٢٠٠٠م.

١٠ ـ هموم الفكر والوطن (جزءان)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨م، جـ١ التراث والعصر والحداثة، جـ٢ الفكر العربى المعاصر.

١١ ـ الدين والثقافة والسياسة فى الوطن العربى، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨م.

١٢ ـ جمال الدين الأفغانى، المائوية الأولى (١٨٩٧ ـ ١٩٩٧م)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٣ ـ حوار الأجيال١٩٩٨م.

١٤ ـ من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء) ٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٢م.

١٥ ـ فشته، فيلسوف المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣م، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة ٢٠٠٣م.

١٦ ـ من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، جـ١ تكوين النص، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤م، جـ٢، بقية النص القاهرة ٢٠٠٤م.

١٧ ـ حصار الزمن، الحاضر: إشكالات، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤م.

١٨ ـ حصار الزمن، الحاضر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤م.

خامساً: مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

1- Les Méthodes d'Exégèse, essai sur La science des Fondements de la Compréhension, 'ilm usul al - Fiqh, le Caire, 1965.

2- L'Exégèse de la phénoménologie, l'état actuel de la méthode phé-

noménologique, et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980.

3- La phenomenologie de L,Exégèse, essai d,une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966). Le Caire, 1988.

4- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianty and Islam. Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.

5- Islam in the Modern World, 2 vols, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1995, 2000.

من مانهاتن إلى بغداد

الموضوع **الصفحة**

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٦٠٧٥

الترقيم الدولى: I.S.B.N 977-09-1122-4

دار الاتحاد
للطباعة ت: ٣٢٠٠٦٥١



هذا الكتاب يدحض ذريعة اتخاذ حادثة الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ للعدوان على أفغانستان ثم العراق، وتهديد سوريا وإيران والسودان واليمن وتهميش مصر. وتحت ذريعة القضاء على أسلحة الدمار الشامل فى العراق تم تدميره من أجل خلق إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل وتحقيق الحلم الصهيونى، ووصول النفوذ الأمريكى حتى أواسط آسيا لحصار الصين والاتحاد السوفيتى، والقضاء على تجربة النمور الآسيوية فى جنوب شرق آسيا.

ويساهم الكتاب فى إعادة بناء الوطن العربى فى مرحلة ما بعد العدوان على فلسطين والعراق. ويبين أسباب العجز العربى، وحصار النظم العربية بين المطرقة والسندان، مطرقة الخارج بالتبعية له، وسندان الداخل فى قهر الشعوب. ويمهد لإرساء حركة تحرر عربى ثانية ابتداء من المقاومة الوطنية فى العراق وفلسطين.

كما يمد الكتاب جسور القومية العربية إلى دول الجوار، إيران وتركيا، وتدعيم ظهيرى الوطن العربى من أجل نزع فتيل الصراع بين الثورة العربية والثورة الإسلامية فى إيران، وإبعاد تركيا عن الحلف مع الكيان الصهيونى من أجل تكوين قطب ثان عربى إسلامى فى مواجهة عالم أحادى القطب.

ويقيم الكتاب الجسور بين العرب وأوروبا من خلال حوار الحضارات و... الثقافية بين ضفتى البحر الأبيض المتوسط من أجل إبعاد أوروبا عن أمريكا ورب... العربى، فالبحر الأبيض المتوسط ملتقى قارات ثلاث. ويبعد العرب عن أمريكا و... تصدير الخوف، ويقدم مفاهيم التعاون الإقليمى والاعتماد المتبادل كبديل عن ا...

تصميم الغلاف هبة إمام

6 223002 801077